وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغـــداد
كليــة الآداب

تاريخ الرومان

الدكتور سامي سعيد الاحمد
استاذ قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة بغداد

الفصـل الأول

عصور ماقبل التاريخ بايطاليـــا

أ ـ جغرافية ايطاليا القديمة ومصادر التاريخ الروماني :

لقد تحكمت روما في سياسات العالم القديم قروناً عديـدة وجعلت من المنـاطق المطلة على البحر المتوسط عالماً واحداً بحضارة متماثلة الى حد بعيـد وان كانت بين كل جزء وآخر اختلافات ليست بالضئيلة . وكان تقدم مدينـة رومـا بـالـذات خلال الألف سنـة الأولى تقريباً من تاريخها من قرية بسيطة صغيرة الى عاصمة للعالم المتمدن المعروف آنـذاك مثيراً للاعجـاب . وفوق كل هـذا تراثهـا العتيـد الـذي لايكاد يخلـو من آثـاره وجـه من أوجـه الحضارة البشريـة خـاصـة الغربية الآن . وكانت رومـا بمثـابـة الجسر الـذي عبرت منـه الحضارات القـديمـة الى العـالم الحـديث . فورثت رومـا الهيلنستيـة وحملت رايتهـا عـاليـاً وأضافت اليها الشيء الكثير وأصبحت المـدافعـة عنهـا والنـاطقـة بـأسمهـا . وتـأثير اللغـة اللاتينية الآن كبير في كل مجال الى جانب تأثير الأدب والتربية اللاتينية . كما أن تأثيرات روما في تكوين أوربا السياسي كبير . ومايزال العالم ينظر الى القانون الروماني والهندسة الرومانية والفن الرومـاني ومـا الى ذلـك نظرة تنقـدير . فضلاً عن كون تنظيمـات رومـا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ولغتها اللاتينية وكنيستها العالمية الموحـدة قـد صـارت أساساً لحضارة العصور الوسطى .

ان منطقـة البحر المتوسـط هي تكوين جيولوجي حـديث ظهر في عصر الترشيـاري والكـوارترنـاري في وقت كان فيـه الانسـان قـد ظهر على وجـه الأرض . وكانت شبـه جزيرة ايطاليا متصلة بافريقية عبر جزيرة صقلية الحـاليـة وذات منـاخ يختلف عما هو عليه الآن .

كان البحر المتوسـط بـالنسبـة للرومـان (أسموه ببحر نـوستروم، وبحر انترنـوم ودعـاه سـولينـوس من نهـايـة القرن الثـالث المتـوسـط) الرابـط المهم بين أجـزاء امبراطـوريتهم الواسعة ـ وقسمت ايطـاليـا الى عدة أقسام جغرافية فهنـاك منطقـة بروتيوم (سميت أيضـاً بروثيوس وبروتيوروم أكَر) عند الجنوب الغربي من ايطاليا (كلابريا الحـاليـة) . والى الشمال الشرقي منها مقاطعـة أبوليـا بين بحري الادريـاتيـك والايوني ومن مـدنـه الحـاليـة برنديزي ، ترينتوم وباري ، وكانت ذات أثر كبير في ايصال معـالم الحضـارات اليونـانيـة والشرقية الى ايطاليا . والى شمال كلابريا تقع مقاطعة لوكانيا وعـاصمتهـا الحـاليـة بوتينزا


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

والتي اشتهرت بمراعيها الخصبة وأبقارها السمينة . والى الشرق من لوكانيا تقع منطقة سامنيوم في وسط ايطاليا التي تغطي الجبال أكثر أراضيها ومنها سلسلة ماتيس التي تتفرع من جبال الابنين الوسطى . ثم مقاطعة لاتيوم وسط ايطاليا ومركزها روما حيث عاش اللاتينيون . ويفصل لاتيوم عن اترووريا نهر التيبر ، وقد بنيت روما على الضفة اليسرى من التيبر ، وعلى مسافة تقرب من ثلاثة عشر ميلاً عن البحر . وان لطبوغرافية الأرض التي شيدت عليها روما أثر كبير على تاريخها . واذا تطلعنا شرقاً من أي مرتفع بروما فنجد سلسلة من الجبال تمتد الى مسافة حوالي العشرين ميلاً ، وعند تتبعها جنوباً نلاحظ التلال السابينية . والى الجنوب منها تقع مدينة برينسته (باليسترينا الحالية) المنيعة وقربها جبل ألبينوس البركاني المقدس لدى الاله جوبيتر والذي يقال ان مدينة ألبالونكا السابقة لروما تقع عند سفحه . وتلال روما ليست بكثيرة الارتفاع وهي كويرينال ، فيمينال ارتفاعها حوالي ١٥٨ قدماً) ، اسكويلاين (١٩١ قدم) ، وكيليان ، وأفينتاين ، وكابيتولاين وبالاتاين (١٤١ قدماً) . ثم مقاطعة كامبانيا حوالي خليج نابولي وارضها بركانية امتازت بجمال طبيعتها وخصوبة مزارعها وشيد الكثير من نبلاء روما فيها قصورهم الصيفية . أما منطقة اتروريا (توسكانيا الحالية) ففي غرب ايطاليا بين نهر أرنو والتيبر . ومقاطعة ليكوريا حول ساحل خليج جنوى (البحر الليكوري) وعاصمتها جنوى . ثم منطقة اومبريا بين تلال توسكانيا وجبال الابينين وتطل على الادرياتيك في شمال ايطاليا الشرقي . وكان الاومبريون سادة شمال ايطاليا حتى تعاظم روما . ثم بيكينوم على ساحل بحر الادرياتيك . وتقع مقاطعة غاليا غاسبادانا شمال شمال اومبريا ومن أهم مدنها رافينا وبونونيا وبارما .

واذا تتبعنا مصادر تاريخ الرومان فأن الآثار الأولى فيه قليلة جداً قد يكون الوحيد منها هو العمود المقطع الذي عثر عليه تحت تبليط بناية مجلس الشعب (الكوميتيوم) الذي كان يعتقد أنه يمثل الحجر الأسود الذي يشير الى قبر رومولوس مؤسس روما الأسطوري . وان تكسر العمود وصعوبة أعطاء تاريخ ثابت له فضلاً عن كون الحجر السامي المصنوع منه منتشر في ثاي أثار نقطة احتمال كونه من مخلفات الاحتلال الاتروسكاني لروما وكون الملك الذي نقرأ اسمه عليه من التاركوينيين (نسبة الى تاركويني أقدم مدن الاتروسكان ورأس اتحاد المدن الاثنى عشر[1] . وهناك بعض الشرائع المحلية التي تعود الى تاريخ غابر وهي ذات شخصية دينية نسبت الى بعض الملوك وقد سميت (ايوس بابيريانوم) وأحياناً تسمى (ايتوريس بروديبتيا) . وقد نضع هنا الألواح الاثنى عشر من أواسط القرن الخامس ق . م . ثم نصوص المعاهدات بين روما وقرطاجنه ، وبين روما والجامعة اللاتينية ربما من بداية القرن الخامس ق . م . ونضع

هنا القائمتين اللتين أمر الامبراطور أوغوسطوس بكتابتهما على جدارن الريجيا (دائرة الكاهن الأعلى للدولة) التي تضم أولاهما جميع أسماء القناصل وأعضاء مجلس العشرة المسؤولين عن قوانين روما والدكتاتوريين ومسؤولي خيولهم وموظفي الاحصاء مع عدد طقوس اللوستروم (الخلاص من الذنوب والتي كانت تجري أول شهر مايس بعد مباشرة موظف الاحصاء الجديد وظيفته) التي قاموا بها حتى سنة ١٢ ق . م . وتضم القائمة الثانية أسماء المنتصرين ابتداءً من رومولوس بن مارس الذي احتفل بانتصاره حتى سنة ١٩ ق . م . ويصعب الاعتماد على صحة محتويات هذه القوائم .

ترك لنا بعض المؤرخين الرومان من عصور متأخرة الكثير من الكتابات عن تاريخ روما الأول أمثال ليفي (٥٩ ق . م . ـ ١٧ م) في تواريخه التي بدأها منذ وصول اينياس حتى سنة ٩ ق . م . ويظهر أن بعض الاجزاء من موسوعته هذه البالغة ١٤٢ كتاباً (فصلاً) قد فقدت ولم تصل الينا كاملة حيث هناك بعض المواضيع التي نقرأ عنها في الفهرست ولانجدها في تاريخه .

وهناك كتابات المؤرخ ديو دورروس الصقلي التي لم تصل الينا كاملة والتي أسماها المكتبة التاريخية ، وقد ناقش في الكتب الثلاثة والعشرين منها تاريخ العالم حتى غزو قيصر الى بلاد الغال وبريطانيا . وكتب تاريخه هذا وروما في عنفوان مجدها مستعملاً التقويم الروماني وقوائم القناصل (فاستي) مضيفاً اليها في الغالب أسماء الارخونات الأثينية المعاصرة ، وقد اعتمد في الكثير من الأخبار التي أوردها على أناس لايمكن الثقة بهم .

ثم المؤرخ دايونيسيوس الهاليكارناسي المتوفي سنة ٧ ق . م . وقد أتى الى روما سنة ٢٩ ق . م . وعاش فيها مدة تزيد على العشرين سنة أتقن خلالها اللغة اللاتينية وجمع مواداً لتاريخه الذي أطلق عليه اسم العاديات الرومانية ، وبدأ من نشأة روما حتى بداية الحرب البونيقية الأولى (٢٦٥ ق . م .) ويتألف كتابه من عشرين فصلاً لم تصل الينا منه سوى العشرة الأولى . ويظهر أن دراسته قد اعتمدت على مصادر لايمكن الثقة بها .

ولو أن عشرة الكتب الأخرى من مجلد دايونيسيوس وصلت الينا في قطع مبعثرة ، فقد اعتمد عليها بلو تارخ خاصة في معلوماته عن كاميلوس وركن اليها المؤرخ الاسكندراني ابيان في الكثير من معلوماته . وعاش الأخير في روما وحصل على المواطنة الرومانية وتقلد مناصب مرموقة وضمن كتابه عن تاريخ الامبراطورية الرومانية من العهود الأولى حتى عهد تراجان معلومات شائقة أراد بها تعريف أبناء جلدته من الأغريق على حضارة الرومان ، ووصلت الأحد عشر كتاباً الأولى من مجلد ابيان كاملة ،

أما الثلاثة عشر كتاباً الباقية فجاءت ناقصة أو فقدت . وتظهر كتاباته مدى تعلقه بحب الرومان واعجابه بمدنيتهم . وقد وصف حروب الرومان مرتباً اياها على أساس جغرافي الى حد ما .

ومن مؤرخي القرن الأول ق . م . الرومان بومبيوس تروغوس حيث قيل أنه أخرج تاريخاً عاماً لروما بأربعة وأربعين كتاباً أسماه تاريخ فيليب على اسم فيليب المقدوني والد الأسكندر الكبير الذي اعتقد أنه أسس أول امبراطورية مقدونية ضمت شعوباً مختلفة ، ولم يصل الينا من كتابه سوى قائمة بمحتوياته . ومن مؤرخي العصر الامبراطوري البارزين دايو كاشيوس المولود في نيقية بآسيا الصغرى في أواسط القرن الثاني الذي تقلد عدة مناصب منها عضوية السنات (مجلس الشيوخ) وادارة ولاية سميرنا ومنصب القنصل ونائب القنصل . ويقع كتابه تاريخ روما في ثمانين كتاباً تؤرخ فترة تقرب من الألف سنة تمتد من وصول اينياس وتأسيس روما حتى سنة ٢٢٩ . وقد عالج الفترات التي سبقت اعتلاء يوليوس قيصر بصورة مقتضبة للغاية اذا ماقورنت بتاريخ عصره .

وقد وصلت الينا أجزاء من كتبه الستة والثلاثين الأولى من مجلده . فالكتاب الخامس والثلاثون ينقصه الشيء القليل ويبحث عن حرب لوكولوس ومثراداتيس . وضم السادس والثلاثون الحرب مع القراصنة وحملة بومبي ضد ملك البنطس . وأما الكتب من السابع والثلاثين حتى الرابع والخمسين فكاملة تقريباً وينقص الكتاب الخامس والخمسين بعض الفصول . أما الكتب الخمسة التالية فكاملة وأما البقية حتى الأخير فناقصة . وبالرغم من وجود بعض الأخطاء في مايتعلق بتاريخ روما القديم فأنها لا يمكن الاستغناء عنها .

ان المعلومات التي تركها سكستوس بومبيوس فيستوس والتي لخص بها جهود فيريوس فلاكوس والموسومة (عن أهمية الكلمات) مهمة لما حوته من معلومات مفيدة عن العاديات الرومانية وتاريخ اللاتين القديم . وترك لنا المؤرخ اللاتيني اينوس فلوروس (المتوفي زمن هدريان) خلاصة تاريخ روما كتبه زمن تراجان وأطلق عليه (خلاصة المغامرات الرومانية) في كتابين . ويبدأ بالكلام عن أصل روما حتى عصر أوغوسطوس . واعتمد فلورس على مصادر كثيرة وصل الينا منها مجلد ليفي . وتمتاز كتاباته بالغموض في بعض المواضيع وقوة الأسلوب والوقوع في بعض الأخطاء الجغرافية وتعيين التواريخ .

ومن العصر البيزنطي جاء المؤرخ يوتروبيوس الذي كتب ملخصاً لتاريخ الامبراطورية الرومانية في عشرة كتب . ويمتاز مجلده بالاقتضاب والتعرض الى حوادث لم تذكرها مصادر سابقة . ويبدأ حوادثه من تأسيس روما حتى وفاة جوفيان سنة ٣٦٤ .

أما كتاب جوستين من القرن الثالث فهو خلاصة باللاتينية لكتاب بومبيوس تروغوس .. وهو كتاب مهم حصل على شهرة في العصور الوسطى .. وفي القرن الخامس ذاع صيت كتاب التاريخ المعارض للوثنية لبولوس أوروسيوس في سبعة مجلدات . وهو تاريخ شامل للعالم من آدم حتى سنة ٤١٧ واحتوى على الكثير من المعلومات عن روما استقاها كما يبدو من جوستين وليفي وتاسيتوس وسويتونيوس ويوتروبيوس وقد اعتمد هذا المؤرخ على كتابات ليفي المفقودة .

ترك كثيرون كتابات حولية كتب السابقون منها مدوناتهم باليونانية وربما يكون فابيوس بكتور المولود سنة ٢٥٤ ق . م . أولهم ، ولم يمتلك بكتور ، كما يظهر ، الكفاية المطلوبة للعمل الذي تبناه واشترك في الحرب البونيقية الثانية . وبدأ حولياته من وصول اينياس حتى زمانه ، واعتمد على الأساطير حول أصل روما وذكر كل ما سمع من الأخبار المتناقلة في عصره وان كانت متناقضة . وانتقد كتاباته المؤرخ دايونيسوس الهاليكارناسي معطياً عدة أمثلة على عدم ثباته واهماله الحقائق وبطلان التواريخ التي يقدمها للأحداث . ويخبرنا بلوتارخ في فصله عن رومولوس بأن فابيوس بكتور اعتمد في القصص التي أوردها عن تأسيس روما ، مارس ، وفيستال ، والذئب ، ورومولوس وريموس ، على كتابات اليوناني ديوكليس . ومن الطريف أن المؤرخ بوليبيوس قد اعتذر لاستشهاده بكتابات فابيوس بكتور في معرض كلامه عن الحرب البونيقية الثانية . ومن معاصري فابيوس بكتور كان سينكيوس ألمنتوس ، وكاتو ، وكلوديوس وكوادر يغاريوس ، وفاليرياس وأنتيوس وليكينوس ماسير وغيرهم . وكان ألمنتوس قاضياً (بريتور) في صقلية سنة ٢٠٩ ق . م . وضمنت حولياته حوادث الحرب الفينيقية (البونيقية) الثانية التي اشترك فيها . وكتب كاتو فضلاً عن كتابه عن الزراعة (في ١٦٠ فصلاً) عن التدريب العسكري أخذ الكثير من أجزائه فيجيتوس ولكن كتابه الأصول الذي باشر العمل به في كبره وأتمه قبل موته بقليل لم يصل الينا ويقال أنه دون فيه كل ماجمع من معلومات عن تاريخ وآثار ولغة الرومان .

وأخبرنا كورنيليوس نيبوس بأن الكتاب الأول من مجلده هذا حول أعمال ملوك روما . ويعد كاتو أول من قدم (في كتابه الأصول) تاريخاً بتأسيس روما (الاولمبياد السابع) التي ربما استقاها منه دايونيسيوس الهاليكارناسي . وعالج في كتابيه الثاني والثالث أصل جميع الدول في ايطاليا . وتكلم في الكتابين الرابع والخامس عن الحروب البونيقية الأولى والثانية . وبحث في الكتب التالية الحروب الأخرى حتى زمن سرفيوس غالباً ، ويعتبر كتاب لكاتو أول كتاب لاتيني في الطب . وعاش كلوديوس كوادر

حلاف اسكندر موليسوس الذي ساعد التيرينتين ضد الرومان في ايطاليا . ويبحث كاليماس السرقوسي والذي عاش في بلاط الملك اغاثوكليس (٣١٦ ـ ٢٨٩ ق . م .) في كتابه المتضمن ٢٢ فصلاً عصر هذا الملك وأصل الشعب الروماني ، وتعلم دوريس من ساموس وطائفة المدينة عن الانتصار في معركة سينتينوم قبل دخول الرومان ايطاليا . ثم كتاب تيميوس (٣٤٠ ـ ٢٥٠ ق . م .) عن تاريخ ايطاليا من بدايته حتى الحرب البونيقية الأولى [٢] . وكان في متناول المؤرخين الرومان الأوائل الكتابات التاريخية اليونانية عن ايطاليا فضلاً عن الكتابات الاتروسكانية والتي لم تصل الينا ونعرفها من استعمالات المؤرخين المتأخرين لها مثل دايونيسيوس وديودوروس . أما المصادر الرومانية فهي على أنواع ، منها ذات الطبيعة الدينية مثل ابتهالات كارمينا كهنة مجموعة الأرفالي الاثني عشر ومجموعة سالي ، بالاتيني وكوليني من كهنة مارس ، فضلاً عن الكتب الطقوسية والتفاسير المختلفة . والتقويم الذي نظمته نقابة الأخبار المتضمن الأيام النحسة والطيبة ثم أضيفت لها أسماء القناصل وملاحظات عن أهم حوادث السنين مما جعل للتقويم فائدة جلى للمؤرخين . وظل التقويم من بداية الدولة حتى فترة كهنوتية موشيوس سكيفولا (حوالي ١٢٢ ق . م .) تماشي بكتاباتها الاحداث العامة . وبذلك حفظت في دائرة كاهن الدولة الأعلى حوادث كل سنة بلوح منفصل أطلق عليها الحوليات العظمى .

ثم الكتابات ذات الطابع السياسي العام كأوامر مجلس السنات (الشيوخ) ، والقوانين ، والمعاهدات وقوائم المسؤولين . فمن المعاهدات اتفاق التحالف بين روما والمدن اللاتينية والتي ظلت حتى وقت متأخر محفوظة في معبد افنتين ديانا . ومعاهدة احد الملوك التركونيين مع الغابيين المدونة على درع جلدي ومحفوظة في مزار سيموسانكوس ومعاهدة قرطاجنة ـ روما الأولى ثم معاهدة سبوريوس كاشيوس سنة ٤٩٣ مع اللاتينيين التي ظلت مدونة على عمود برونزي في بناية الحاكم ومجلس الشعب حتى وقت متأخر من العصر الجمهوري . والمعاهدة بين روما وأرديا (في لاتيوم بايطاليا تبعد حوالي ٢٤ ميلاً جنوب روما) . ومن القوانين هناك القانون الخاص بمسار الكابيتول في معبد الثالوث الكابيتولي (الآلهة جوبيتر ، جونو ومنرفا) الذي يعني بتوزيع حصص تل الافنتاين (والمعروف باسم قانون اكيليا) وقوانين الألواح الاثنى عشر وغيرها . وحفظت وثائق كثيرة أخرى منها ألواح الاحصاءات والملفات الكتانية التي يذكرها ليفي ويقول بأن ماسير قد وجد فيها قوائم المسؤولين التي كانت تحفظ في معبد جونو مونتها ، كما استعمل الملفات الكتانية المؤرخ ايليوس توبيرو .

عند الكلام عن بداية شيوع الالقاب اللاتينية يلزم الاشارة الى أن الاتروسكان وجدوا

بفاريوس بين ١٢٠ ـ ٧٨ ق . م . وتقع حولياته في ثلاثة وعشرين كتاباً بدأها من تخريب الغول لروما وربما تقف عند وفاة سولا ، وقد استخدمها ليفي . ووصل الى الزمن نفسه الذي انتهى اليه كلوديوس بكتاباته المؤرخ الحولي انتياس الذي عاصر سولا وبدأ تاريخه من عصور روما الأولى . وكتاب انتياس هنا مليء بالمبالغات ويقع في ٧٥ كتاباً واعتمد على عمله المؤرخ ليفي . أما ماسير الذي مات منتحراً سنة ٦٦ ق . م . فكان مؤرخاً وخطيباً . وربما يكون المؤرخ الحولي كاشيوس همينا من أواسط القرن الثاني ق . م . أول من كتب باللاتينية . كما دون بهذه اللغة فابيوس ماكسيموس سرفيليانوس القنصل في سنة ١٤٢ ق . م . وكالبورنيوس بيسو القنصل في سنة ١٣٣ ق . م . وسمبرونيوس توديتانوس القنصل سنة ١٢٩ ق . م . حوليات قصيرة لها فائدتها . ومن المؤرخين الآخرين فيليوس من زمن الفراكيين ويقع كتابه عن التاريخ الروماني في حوالي مائة كتاب ثم ايليوس توبيرو من أواسط القرن الأول ق . م .

كانت المصادر الرومانية التي اعتمد عليها المؤرخون الحوليون على صنفين أما اضافية كالأدب أو عملية . ونقصد بالأولى الأدب والكتابات اليونانية التي سبقت الكتابات التاريخية الرومانية التي تركزت على ايطاليا مثل الالياذه ، والاوذيسة ، وكتابات هسيود وستيسيكوروس الذي تعرض في قصيدة له الى رحلة اينياس حتى وصوله ميسينا ، وربما يكون هكتيوس أول من وصف ايطاليا . وذكر هيرودوتس ميناء ارغيلا الاتروسكاني ومدينة كورتونا . ويعد المؤرخ اليوناني هيبس من القرن الخامس ق . م . من أوائل المولعين بجمع الأساطير والكتابة عن العادات والملاحم لايطاليا وصقلية . ومن القرن نفسه تعرض انتيوخوس من سرقوسة الى روما . وترك المؤرخ اليوناني فيليستوس (ولد حوالي ٤٣٥ ق . م .) مجلداً عن تاريخ صقلية في ثلاثة عشر فصلاً خصص الأولى منها لتاريخ المنطقة حتى احتلال قرطاجنه الى أغريجنتوم وخصص الباقية لحكم دايونيسيوس الأكبر والأصغر ، وقد أكمل تاريخه بعده أثاناس . وبحث فيليستوس في كتابه شعوب ايطاليا القديمة كالليغوريين والسامنيين والاومبريين والاتروسكان ويوناني ايطاليا .

عالج ايفوروس المؤرخ اليوناني المعاصر للأسكندر الكبير في كتابه التاريخ العام (بثلاثين فصلاً) والمؤرخ ثيوبومبوس من كيوس من القرن الأول ق . م . احتلال الغول لروما . وذكر هيلانيكوس (المولود حوالي ٤٩٠ ق . م . في ليسبوس) وداماستيس من سيغيوم والمعاصر لهيرودوتس والذي فقدت كتاباته وارسطو علاقة طرواده مع ايطاليا . وألف ليكوس من ريغيوم (حوالي ٣٠٠ ق . م .) كتاباً عن تاريخ جزيرة صقلية ضمنه

الرومان يستعملون الفباء خاصة لدى دخولهم روما وبذلك فلا علاقة للالفباء الاتروسكانية بالكتابة اللاتينية . والمعروف ان الالفباء اللاتينية مشتقة من الالفباء الكالكيدية التي وصلت الى روما عن طريق مدينة كوماي (مدينة في كامبانيا وهي أقدم المستعمرات اليونانية في ايطاليا) . ولانعرف متى استعمل الرومان هذه الالفباء ولكن الاتروسكان وجدوا الرومان يستعملونها في أواخر القرن السابع ق . م . وربما تكون الكلمات الأربعة المدونة على أبزيم برنستة من بداية القرن السادس ق . م . أقدم ماوصل الينا حتى الآن من الكتابات اللاتينية . وظلت الكتابة محدودة طوال هذا القرن قليلة الاستعمال الا لأمور خاصة لاتعدو كتابة المعاهدات والقوانين وتدوين أسماء المسؤولين والتكريس الى الآلهة . وقد تكون الألواح الاثنى عشر حالياً أقدم الوثائق المكتشفة على شيء من التفصيل . وهكذا كانت الوثائق المدنية قبل أواسط القرن الخامس ق . م . قليلة جداً ، وربما يكون لحرق الغول لروما سنة ٣٩٠ ق . م . أثر في اختفاء الكثير منها ويؤكد هذه بلوتارخ الذي يضيف أن السجلات المعروفة الآن هي استنساخات (غير أمينة)[٣] ، مما يدل على أن هناك من قام ، بعد انسحاب الغول ، بتدوين ماتلف من الوثائق لاسيما المهمة منها بنظرهم .

يستند التقويم الرسمي الروماني على مايسمى بالمسامير أو نصوص المسامير حيث نص تقليد قانوني قديم على وجوب وضع مسمار كل سنة من قبل المسؤول الرئيسي في الدولة خلال شهر ايلول على أحد جدران غرفة الاله جوبيتر في الكابيتول لمعرفة السنين وحفظ أثر بذلك . وقوائم الفاستي المهمة كانت في باديء أمرها قوائم يقول ليفي[٤] بأنها دونت أول مرة أيام فلافيوس حيث قسمت بها الأيام الى أيام عمل وأخرى للراحة ، ولكنها سرعان ماضمت أسماء المسؤولين الأوائل الذين باشروا مسؤولياتهم عند طرد الملوك ووثائق المنتصرين وقوائم الكهنة . ولو أن هناك من يثقون بهذه القوائم يلزم أن نعرف بأن المراحل الأولى من هذه القوائم (خاصة في القرن الخامس ق . م .) لم تكن هناك وثائق لمسؤولين أو لمنتصرين في روما ، ولكن القوائم التي وصلت الى هذه المراحل مستندة على مالدى العوائل الرومانية من الوثائق ، والتي أضاف اليها أفراد الأسر أنفسهم على مر الزمن الشيء الكثير لم تعد بعدها نصوصاً يمكن الركون الى صحتها . ونظراً لعرض قوائم المنتصرين على الشعب فقد يطرأ عليها تحريف أوَ تبديل متعمد .

فبالوقت الذي يصعب معه معرفة شيء عن تاريخ روما وشعبها في عصوره الأولى ، هناك تاريخ حافل يبدأ من حرب طراودة حتى عصور متأخرة . واذا كان يصعب أخذ ماجاء بتاريخ هذه الأيام الأولى مأخذ الحقيقة لمعرفتنا بأنه انتاج أقلام كتاب العصر

الجمهوري في غالبيته العظمى ، فأن مؤرخي العصر الامبراطوري لم يخامرهم شك به . وقد ساهم الكتاب اليونان في صب تاريخ روما الأول باطاره الاسطوري الحالي . والحقيقة بأن حتى الأساطير التي تربط روما بالذئبة وتجعل تمثال هذا الحيوان رمزاً للمدينة ، وتلك التي تنسب للذئبة رضاعة التوأمين رومولوس وريموس ، والتي كانت لها شعبية عند الرومان هي من نسيج خيال الكتاب اليونان . فعندما وضع الرومان سنة ٥٠٩ ق . م . تمثالاً يصور الذئبة (رمز شعبهم) لم يجعلوا قربها التوأمين اللذين صرنا نراهما منذ سنة ٢٩٦ ق . م . عندما صنع اخوان أغولنيي تمثالاً لها معها . وردد الرومان النغمة نفسها التي بدأها بعض الكتاب اليونان أمثال داماستيس من سيغيوم وهيلانيكوس من ليسبوس عن كون الطرواديين هم أجداد الرومان ،. وأخذوا اسطورة أخيل (اكيليس) الروماني الذي حارب مئة وعشرين معركة . وفي سنة ٢٣٩ ق . م . أعلن مجلس السنات الروماني حمايته للاكارنينيين عندما ضايقهم الايتوليين على أساس موقف الأولين الحيادي وعدم خروجهم مع سائر أبناء الشعب الروماني لحرب أهل طروادة [٥] . وجعل الشاعر الروماني أنيوس (المولود حوالي ٢٣٩ ق . م .) رومولوس حفيداً لبطل حرب طروادة .

كانت الوثائق العامة نادرة في عصر الجمهورية بوقت كانت فيه معدومة خلال عصر الملوك . ولكن سرعان ماوجد مجموعة من هذه الوثائق تعود لهذين العصرين . فقد بدأ القانوني سكستوس بومبونيوس من زمن هادريان والأباطرة بعده ، كتابه في القانون يذكر مجموعة من القوانين عزاها لعصر الملوك أطلق عليها اسم قوانين بابيريانوم من اعداد بابيروس الذي تختلف الآراء حوله وعن العصر الذي عاش فيه .

واذا كانت كتابات المؤرخين الحوليين مختصرة للغاية لعدم توفر المعلومات عن الأحداث التي كتبوا عنها يفصل مؤرخو العصور اللاحقة في بحث هذه الأحداث . فخصص فاليوس مثلاً الكتاب الثاني من حولياته لبحث اغتصاب النساء والتي هي من الأحداث الأولى التي تقدم بتاريخ روما وعالج الكتاب الثالث من مجلده المعاهدة بين رومولوس وتايتوس فقط . وهكذا فقد وصف ماضي روما الغابر بسبعة وتسعين فصلاً ووصفه مؤرخ روماني آخر هو فاليريوس أنتياس بخمسة وسبعين فصلاً .

وجه المؤرخون الرومان خاصة في العصر الجمهوري اهتمامهم بتاريخ روما فقط واذ كانوا قد عالجوا تاريخ مناطق أو دول أخرى حتى في ايطاليا فكانت معالجتهم له على قدر ارتباط تلك المنطقة أو تلك الدول مع روما . كما أخذوا الكثير مما عند الشعوب الأخرى من الأساطير والتقاليد لاخراج تاريخ روما بالمظهر الفخم اللائق بمدينة صار

يظهر أن موجة بشرية جديدة دخلت ايطاليا خلال العصر الحجري الأوسط وانتشرت في مناطق كثيرة والدليل الأدوات الصوانية الصغيرة الحجم والمتناسقة الشكل التي عمت الى جانب انتشار عظام الحيوانات في السلاح وتوصلهم الى معرفة القوس والسهم واستعمالها في الصيد والدفاع .

توصل الانسان في العصر الحجري الحديث بايطاليا الى استنباطات جديدة حسنت معيشته واقترنت هذه الفترة مع تغيرات جوهرية في جغرافية ومناخ ايطاليا . فالتبدلات الجيولوجية فصلت ايطاليا عن افريقية وصار المناخ مقارباً الى ماهو عليه الآن تقريباً . وقد زادت المواقع الأثرية التي وجدت بها آثار انسان هذا العصر أمثال الكهوف في ليغوريا وجبال الألب وحوض نهر البو (بالزي روزي ، وبلاسينتيا وبوليرا ، ومانتوا) ومواقع في صقلية وكلابريا . وانتج الفخار الغامق المزين بالحزوز أو الطبقات . وأن الفخار ذا الطبعات السائد في الجنوب الشرقي يماثل الفخار على جانب بحر الادرياتيك المقابل مما يدل على تأثير متبادل . في وقت يماثل الفخار ذا الطبعات ذاك الذي في جنوب فرنسا وشمال شرق أسبانيا ، وقد سكن انسان العصر الحجري الحديث في جنوب شرق ايطاليا في كهوف ومواقع مكشوفة ولكن في الوجه الثاني منه (العصر الحجري الحديث الأوسط) برزت جماعة مارست الزراعة والتدجين . وتختلف المستقرات بالحجم من كوخ الى قرى كبيرة أحياناً محاطة بحفر دائرية شيدت بها الأكواخ وصنعوا أنواع شتى من الفخار زين بعضه بشرائط حمراء أو نماذج من خطوط ضيقة ملونة أو مصبوغة بلونين أحمر وبرتقالي محددة بالبني أو الأسود .

وفي وادي فيبراتا كان الفخار الملون المعروف لحضارة ريبولي . كما ظهر الفخار الملون في مواقع بكامبانيا وكلابريا يمكن ربطها مع الفخار الملون في كابري ، وجزر ليباري وصقلية . وفي ليغوريا تلي جماعات العصر الحجري الحديث الأولى جماعة عرفت صنع التماثيل الطينية الانثوية ، والدمغات الطينية المزينة والفخار الغامق المصبوغ المزين بأشكال سلالم وأخرى هندسية . والكثير من فخارهم ذو فم مربع أو شبه منحرف ، وحضارة الفخار هذه وجدت أيضاً في قرى ومقابر مارست الدفن بالصورة المعقوفة في حفر أو قبور بوادي البو والمناطق المجاورة حيث تسمى الحضارة الكيوزية . ويظهر أن هذه الحضارة قد سبقت في هذه الجهات بحضارة عرفت باسم فيورانو خلال الوجه الأول من العصر الحجري الحديث (الأولي) امتازت بصنع الفخار المزين والأشكال الانثوية والطبعات .

عاصمة العالم . وحتى ليفي المتعصب لروما يدون في كتابه شكه في ماقرأ عن أخبار روما الأولى (٦) . وقد اضافت نتائج الحفريات التي أجريت منذ القرن الماضي في ايطاليا وروما على الأخص الكثير من معلوماتنا عن ايطاليا وروما في كافة عصورها التاريخية .

ب ـ عصور ماقبل التاريخ (الحجرية والبرونزية) :

دخلت ايطاليا منذ أقدم العصور أقوام كثيرة عن طريق البحر أو من الشمال خلال مضايق جبال الألب وغاباته وأهوار نهر البو ، أدت هذه الهجرات المتتابعة بشعوبها المتباينة الى اختلاط رسي واسع وتأثيرات شتى ، وان معلوماتنا عن ايطاليا في عصور ماقبل التاريخ مستقاة من الآثار المكتشفة ونتائج الدراسات الموجهة الى اللغات المختلفة وأحوال الشعوب التي قطنت البلاد . فقد وجدت آثار كثيرة تدل على سكن الانسان ايطاليا من العصر الأبيفيلي والاشيلي ثم الموستيري من العصر الحجري القديم الأسفل . ووجدت البقايا الموستيرية مع أدوات ذات علاقة بانسان من نوع النياندرتال وجدت بقاياه في كهوف ساكوباستور وجبل جركيو (٧) . وعثر على الكثير من المواقع الأثرية التي ترك بها انسان العصر الحجري القديم الأعلى (حوالي ٩٧٠٠ ق . م .) بقاياه أمثال كهوف غاريمالدي بمدافنهم الطقوسية للرجال والنساء ، وفي غروتا رومانيللي بالجنوب الشرقي مع صور لحيوانات ونماذج هندسية . ومن العصر ذاته عثر في شمال ايطاليا على تماثيل للربة الأم . ومن الكهوف التي وجدت بها آثار انسان الفترة بالزي روزي وديلافيت في منطقة ليغوريا وريفولي ، بريونيو وترافير ستولو في حوض نهر البو وجبل غارغانو وابروزي الخ في صقلية وليفانزو ، وكانت ايطاليا متصلة بالقارة الافريقية بعيدة عن الموجات الجليدية التي غطت أكثر مناطق أوربا ولو أن متحجرات ايطاليا تثبت تعرضها الى التغيرات المناخية نفسها من برد الى دفء . وقد استعمل الانسان حجر الصوان وعظام الحيوانات التي كان يصطادها وقرونها والخشب والجلد في صنع أسلحته البسيطة وأدوات حياته اليومية وللتدفئة . وترك انسان هذه الفترات صوراً خاصة للحيوانات التي كان يصطادها نراها في كهوف ديل راميتو ورومانيللي وبوليسيني . وأظهرت الهياكل البشرية من كهوف غريمالدي تشابهاً مع انسان الكرومانيون الحديث الذي كان منتشراً آنذاك في الأرجاء الجنوبية الغربية من أوربا . وقد دفن انسان هذا العصر موتاه ووضع معهم ماكان يعتقد أن الميت بحاجة اليه من الأدوات واصداف استعملها بالزينة ، وكان يعيش مما يجمعه من الأطعمة والحيوانات التي يصيدها .

يظهر ان الزراعة والتدجين قد ادخلتها الى صقلية جماعة جديدة جاؤوا بصناعة صوان مستحدثة وفخارهم معروف في شرق وغرب البحر المتوسط يمتاز بزينته التي تطبع قبل الفخر . وقد وصلوا الى صقلية بحراً ربما خلال الألف الخامس ق . م . وانتشروا في كافة انحاء الجزيرة وعرفوا باسم موقع ستينتينيللو قرب سرقوسة .

وعاش هؤلاء في قرى مكشوفة بالرغم من سكنـاهم الكهوف أيضـاً . ومن القرى ستينتينيللو التي أحيطت بسور صخري وخندق . ولم يكن الخندق في موقع مانزينسة كاملاً . وجاء فخار الموقع الأول ممتزجاً مع الفخار الملون الذي لم يظهر في بداية العصر الحجري الحديث في الجنوب . وكان بعضه بزينة معقدة منها نماذج نراها في الطبعات وأوجه انسان . ومن وجهي العصر الحجري الحديث الثاني والأخير يردنا الدليل من جزر ليباري ، الايولية ومالطة التي لم تسكن قبل العصر الحجري الحديث ومن قبل جماعة تشابه تلك لستينتينيللو في صقلية . وتطور فخارها الى النوع الفاتح اللون المزين بنماذج برتقالية بحافات سود أو نماذج خطية بخطوط نحيفة بصبغ أحمر . الى جانب فخار أسود . وصار الفخار ذا صبغة خضراء غطيت برسوم في صبغة غامقة ، وله عروات ، وبعض الفخار جاء محززاً ، أما في الوجه الأخير (الثالث) من العصر الحجري الحديث فساد الفخار الاحادي اللون (الأحمر) ، وهو يشير الى سلام وازدهار حيث عاش السكان في الليباري في سهل ديانا حيث سميت الحضارة باسمه . ويستدل على رخاء وثراء جزر الليباري من الحجر البركاني الأسود الذي تمت التجارة به منذ بداية العصر الحجري الحديث في جنوب ايطاليا وصقلية ووصلت الى عنفوانها في حضارة ديانا ، ولابد أن سكان جزر الليباري أتوا من جنوب ايطاليا وصقلية واستوردوا الطين من هناك لعدم توفره في الجزر .

ان حضارة نهاية العصر الحجري الحديث في شمال غرب ايطاليا وتمثل تطوراً من الحضارة الكورتيلودية المعروفة من مستقرات البحيرات في غرب سويسرة وشرق فرنسا . وتتميز بفخار شديد الصقل عديم الزينة عرفت في ايطاليا بحضارة لاغوزا . ولم تستخدم الأيدي بل كانت العرى ذات ثقوب الخيوط . واستعملوا صناعة الصوان الصغيرة المرتبطة بصيد الحيوانات الصغيرة والطيور ، وأدوات غزل وحياكة مثل أوزان نول وأمشاط حياكة وفلكة مغازل . وفي جنوب ايطاليا كان الفخار في هذا العصر الأحمر الأحادي اللون المماثل لفخار ديانا بصقلية وجزر ليباري والمسمى أحياناً فخار بيلا فيستا .

تمت التجارة خلال الوجهين الثاني والثالث من العصر الحجري الحديث بدليل الحجر البركاني الأسود في جميع ايطاليا والذي جيء به في الغالب من جزر ليباري ، وبانتشار

أنواع الفخار في كافة أرجاء ايطاليا مما يدل على تحركات تجارية (٨) .

وكان الدفن بصورة عامة يجرى بوضع الجسم بصورة معقوفة والذراعان أحدهما على الآخر على الصدر والأرجل مسحوبة . والدفن أما في أرض الكهف أو في حفر . وهناك عادة انتزاع اللحم عن عظام الميت أو بدفنه بعد تفسخ الجسم وصبغه بصبغة حمراء . الى جانب دفن الميت بملابسه وزينته . وحوت القبور أسلحة وجراراً مليئة بالطعام والشراب .

يظهر أن جماعات العصر الحجري الحديث كانوا على معرفة بالسفن البحرية ذات المجاذيف والأشرعة الأمر الذي يفسر الاتصالات بين ايطاليا ، وشمال افريقيا ، وصقلية ، وسردينيا وكورسيكا . وان الخناجر المستوردة والفخار المنيائي والحلي تدل على الاتصال مع العالم الايجي .

تظهر الآثار البشرية ان جماعة العصر الحجري الحديث من النوع القصير الأطراف ، الطويل الرأس (جنس البحر المتوسط) وأطلق عليهم اسم الليغوريين لأنهم ظلوا باقين في منطقة ليغوريا الى وقت متأخر . واستمر هذا العصر حتى الألف الثالث ق . م .

نتيجة الاتصالات مع الخارج عرفت ايطاليا النحاس الذي ربما جاءت معرفته من قبرص عن طريق البحر . وسار استعمال الحجر في صنع الأدوات جنباً الى جنب مع النحاس . واستخدم النحاس في صنع المثاقب والخناجر والفؤوس والمطارق ، علماً بأن ليس هناك دليل على هجرة واسعة النطاق الى ايطاليا من الخارج خلال العصر البرونزي حيث تشير الأدلة الى تطور حضاري تدريجي من العصر السابق . ونلحظ في جنوب ايطاليا وصقلية وسردينيا المدافن الصخرية الكبيرة ، بعضها على شكل دولمين أو غرف مشيدة على كل جانب والسقف من صخرة ضخمة . ثم الصخور القائمة المسماة منهير . والمدافن الضخمة جماعية منها القبور العملاقة في سردينيا ذات الغرف الطويلة من القطع الصخرية الضخمة . وسمي هذا العصر الذي سادت فيه صناعة واستعمال الأدوات الحجرية جنباً الى جنب مع النحاس بالعصر الحجري المعدني . واليه تعود الحضارة البالافيتية في شمال ايطاليا في البداية وراء الألب ثم تقدموا وانتشروا جنوباً وشرقاً في وادي البو . وكان قرويو البالافيت صيادين وزراعاً وصنعوا القوارب الصغيرة لاستعمالهم في البحيرات من الخشب واستغلوا شواطئها للزراعة والرعي ، حيث زرعوا الحنطة والذرة ودجنوا البقر ، والماشية ، والكلاب ، ثم الخيل . وكان فخارهم رمادي اللون مزيناً بالحزوز الأفقية من الدوائر والخطوط المنكسرة . كما عرفوا النسج حيث وجد عندهم فلكة المغزل وبقايا نسيج . كما استعملوا الأدوات والأسلحة المصنوعة من النحاس كما استخدموا

العربات ذات العجلات [٩] . وقد سكن البالافيتيون على حافات بحيرات شمال ايطاليا ومناطق أهوار فينيسيا حيث كشفت الآثار فوق بيوتهم التي شيدوها عن سطح الماء على أعمدة خشبية ثبتوها في الأهوار والبحيرات . ودفنوا رماد موتاهم على الأرض حيث وضعوها في أوعية فخارية كبيرة [١٠] .

نعرف عن حضارة بيانتي كونتي في جنوب ايطاليا ، انها ذات الفخار الرمادي التي انتشرت في ابوليا واربيانو اربينو . وان أصحاب القبور المنحوتة في الصخر عند فودو وميرابيللا ايكلانو في كامبانيا ذات فخار يشير الى علاقة مع الحضارة الايجية . وكان لأصحاب حضارة الرينالدون بين نهري التيبر وارنو في الشمال قبور ضخمة نحتت في الصخور . وقد سيطر هؤلاء على موارد توسكانيا المعدنية لذا ليس من المدهش أن نجد خناجر نحاسية ، وفؤوس ومثاقب بين أدواتهم [١١] ، وكان حوض البو في العصر البرونزي في اتصال مع أوربا والعالم الايجي لذا صارت أكثر مناطق ايطاليا في هذا العصر تقدماً خلال عصور ماقبل التاريخ ، وازدهرت فيها حضارة الروميديللو التي نعرف عنها الكثير خاصة من القبور . وهناك خنجر مقارب الى آخر من العصر الهينالي الأول في كريت وأكثر الأدوات المعدنية تقارب صناعات أواسط أوربا . وأكثر الفخار بعروة واحدة ورقبة قصيرة وزينة محدودة على الأخاديد الأفقية والعمودية والرصعات . وتعود هذه الحضارة الى نهاية الألف الثالث وبداية الثاني ق . م .

العصر البرونزي :

وكانت حضارات وادي البو في هذا العصر ذات القيادة . واستعملت المعادن في بقية ايطاليا بندرة واستمرت منطقة البو بعلاقة قوية مع أواسط أوربا . وفي المستقرات حول بحيرات الألب كانت حضارة بولادا ذات الفخار غير المصقول بالأشكال البسيطة ، واستعملوا العظام والخشب وحوت حضارتهم الكثير من عناصر حضارتي اللاغوزا والروميديللو .

وقد وصلت من أوربا هجرة الجماعات المعروفة باسم تيرة مارة في حوالي ١٦٠٠ ق . م . وسكنوا المناطق المرتفعة والأراضي المستوية وأحاطوا مستقراتهم بالخنادق العريضة التي ملأوها بالماء وشيدوا بيوتهم من الوتل والطين ، وعيدان الخشب . وكان مستقرهم يتوسطه مزارهم المركزي الذي شيدوه على مرتفع ومارسوا حرق الموتى . وصنعوا فخارهم بالدولاب الخزفي ومارسوا الزراعة وكانت لديهم آلة متميزة ذات حافة حادة قاطعة . وعثر في مستقراتهم على العنبر وهو أول دليل نعرفه عن التجارة بهذه المادة .

وانهم سكنوا في منطقة تمتد عبر وادي نهر البو الأسفل حتى حوالي بولونا . وان تماثل فخارهم وآلاتهم المعدنية مع مناطق ألبو سنه ، وهنغاريا وبوهيميا يدل على أنهم كانوا بالأصل من أراضي الدانوب . وقد ادخلوا الى ايطاليا العربة ذات العجلتين والحصان .

سكن ايطاليا خلال هذا الوقت شعب ذو طريقة حياة متماثلة ولما كانوا متمركزين في سلسلة جبال البناين والمنخفضات الى الشرق والغرب فقد أطلق على حضارتهم اسم الابينانية . وقد تركزت حياتهم على تربية الحيوانات . وتنعكس هجراتهم خلال فصل الصيف الى المراعي عند المرتفعات في وجود مواقع لهم عند مناطق ترتفع مايقارب ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر . وان حياتهم الرعوية واضحة من مخلفاتهم (فخار وأدوات صنع الحليب والزبدة) . والعنصر الايجي قوي في حضارتهم . وفي نهاية العصر البرونزي (حوالي ١١٠٠ ق . م .) دخلت ايطاليا جماعات الاورنفيلد من أواسط أوربا واستقروا في مختلف أرجاء ايطاليا وربما شغلوا بعض مواقع جماعة التيراماره حيث وجدت مدافنهم قريبة من الأخيرين . وقد شيدوا مستوطناتهم على أماكن مرتفعة وحصنوها بالأسوار و أحرقوا موتاهم ووضعوا الرماد في فخاريات كبيرة تمتمت بالأشكال والزينة من مقبرة لأخرى ماقد يدل على اختلاف المواطن التي هاجروا منها الى البلاد . وقد عثر على الكثير من الأدوات البرونزية في مستقراتهم وقبورهم كالدبابيس والأقواس (الافعوانية أو الورقية الشكل) والسكاكين والأكواب .

جاء التأثير الايجي على مخلفات العصر البرونزي الأولي في صقلية كبيراً . وقد سكن مستوطنو كابوغرازيانو مواقع محصنة أمثال قلعة ليباري وفيليكودي حيث بنوا الأكواخ الدائرية أو البيضوية على أسس صخرية . وعثر على منطقة دفن مشتركة في جزيرة فيليكودي حيث وضعت الجثث والأدوات الجنازية في حفر الصخور . وربما بدأت حضارة كابو غرازيانو حوالي ١٨٠٠ ق . م . وكان لهم اتصال مع منطقة ايجه بدليل الفخار الايجي الذي عثر عليه في مواقعهم مايدل على تردد التجار الايجيين الى هذه الجزيرة في مختلف عصورها . ثم جماعة الحضارة الكاستيللوشيو في شرق صقلية ونلحظ التأثير الايجي على فخارهم . وقد اختلطوا مع السكان بسرعة واستوطنوا مختلف اجزاء الجزيرة عدا الجزء الشمالي الغربي حيث كانت الحضارة المحلية المعروفة بالموردا سائدة . وربما كانت في الجزء الشمالي الشرقي حضارة محلية أخرى استمدت عناصر حضارتها من جماعتي الكاستيللوشيوالموردا نراها واضحة في مواقع عدة منها تينداري على الساحل الشمالي . وسكنت جماعة الكاستيللوشيو القرى المشيدة على المرتفعات ودفنوا موتاهم بصورة مشتركة في مقابر صغيرة نحتت في الصخور تصل أحياناً في المدفن الواحد

والاتيستينية في شرقه . وفي شمال ايطاليا هناك الحضارة الفيلانوفية جنوب نهر بو وشرق جبال الابناين قرب بولونا الحالية ، والحضارة التوسكانية بين نهري ارنو والتيبر ثم اللاتينية في وادي التيبر الأسفل ، السهل اللاتيني وساحل الادرياتيك المواجه . وفي الجنوب قامت الحضارات الكامبانية ، الابولينية ، البروتيانية والصقلية التي سميت بأسماء مناطقها .

ان الفيلانوفيين هنود أوربيون قدموا الى ايطاليا من منطقة الدانوب جالبين معهم استعمال الحديد . وعاشوا بايطاليا في مدن محضة على التلال أو الجبال وتمكنوا بأسلحتهم الجديدة أن يحلوا محل شعوب التيرة ماره والبيلافيتيين وانتشروا جنوباً حتى صقلية وانقسموا بعد ذلك الى ثلاث جماعات تتكلم كل منها لهجة خاصة من اللغة الفيلانوفية وهم الاومبريون ، واللاتين والسامنيون . وأهم مراكز العصر الحديدي في ايطاليا كانت فيلانوفا الواقعة على بعد خمسة أميال من بولونا والتي أعطت اسمها الى هذه الحضارة نظراً لسعتها وحصانتها وربما كان سكانها حوالي العشرين ألف نسمة . وربما يكون الفيلانوفيون ذوي علاقة بالحضارة المعروفة باسم هال شتات (نسبة الى مدينة سالزبورغ في الألب النمسوية حالياً) والواقع اذا استثنينا الادوار الحديدية لدى الفيلانوفيين فان حضارتهم تقدم تماثلاً مع تلك التي لشعب التيره ماره . وظل الفيلانوفيون يستعملون النحاس حتى ان الصناعات البرونزية خلال القرنين الثامن والسابع وصلت عنفوانها في فيلانوفا . ويعتقد البعض أن الفيلانوفيين هم أخلاف التيراماريين والليغوريين[١٤] وربما جلبوا الحديد من منطقة الدانوب ثم من جزيرة ألبا . وعاش الفيلانوفيون في أكواخ مدورة وأحرقوا موتاهم حيث عثر على فخاريات حوت رمادهم تماثل الأكواخ في قبور ضمت الكثير من الاثاث الجنازي كالفخار المزين بالتعرجات والصليب المعقوف الخ ثم الأوعية البرونزية والأسلحة والحلي . علماً بأن الحديد كان في بداية دخوله غالي الثمن يستخدم كحلي وعم استعماله للأغراض الأخرى تدريجياً[١٥] ومن أسلحتهم السيوف والرماح والفؤوس ومن حليهم الخواتم والأساور الذهبية والدبابيس المطعمة بالزجاج الملون وخرز العنبر والأقراص . ونسجوا الأثواب الصوفية التي ربطوها بدبابيس برونزية معقدة الزينة . وان تقدمهم في صناعة البرونز وعملهم للألواح البرونزية المطروقة وهي تقنيات ربما أدخلوها من آسيا الصغرى تعلموها هم من الاتروسكان اللذين دخلوا ايطاليا من هناك مما مكنهم من صنع الخوذ البرونزية ، والدروع والصناديق والمزهريات وغيرها[١٦]

الهوامش

'age 15

1. S. Cook, F.E. Adcock and M.P. Charlesworth. The Cambridge Ancient History, CAH (Cambridge, 1954), Vol, VII, p. 312.
2. Leon Homo, Primitive Italy and the Beginings of Roman Imperialism, (London, 1926), pp. 3–5.
3. Plutarch, Life of Numa.
4. Livy, 9.46.5.
5. Justin, XXVIII, 1,5.
6. Homo, op. cit, pp. 16 ff.
7. P. Leonardi, Temoignages de l'Homme de Neanderthal dans l'Italie du Nord, Hundret Jahre Neanderhaler, ed. G.H.R. Von Koenigswald (1958), 231–52.
8. Glyn Daniel and J.D. Evans, The Western Mediterranean, (Cambridge, 1967) pp. 4–7, 13–16.
9. Arthur E. Boak and William G. Sinnigen, A History of Rome to 565 A.D. (New York, 1965) pp. 12–13.
10. Max Cary, A History of Rome, (London, 1962), pp. 11–12.
11. Daniel and Evans, op. cit. pp. 7–8.
12. Bernabo L. Brea, Sicily before the Greeks, (London, 1957) p. 137.
13. Daniel and Evans, op. cit. pp. 21–25.
14. Cary, op. Cit. p. 13.
15. Albert A. Trever, History of Ancient Civilization, The Roman World (New York, 1939), pp. 15–16.
16. Boak and Sinnigen, op. cit. pp. 16–17.

الفصل الثاني

ايطاليا الأولى

أ ـ الشعوب الايطالية :

الايطاليون من متكلمي لغة هندية ـ أوربية ، دخلوا ايطاليا من الشمال حوالي سنة ١١٥٠ ق . م . وقد غطوا بالأصل كل ايطاليا ثم انحصر سكناهم على الوسط والجنوب . وينقسمون لغوياً الى فئتين ، اللاتين والامبرواوسكانيين (امبرو سبيلين) . ويشمل اللاتين سكنة لاتيوم وجيرانهم الفاليسكيين وربما الاكوي ، والهرنيكي والفولسكي .وقد تزعم الكل اللاتين بقيادة روما . ومن الجماعات الاوبرو ـ أوسكانية هناك السابينيون (أواسط التيبر) ، والسامنيون (سكان جبال ورعاة في وسط وجنوب جبال الابناين وسهول ابوليا) ، واللوكانيون والبروتيانيون . وأثرى السامنيون الذين سكنوا المدن من تجارتهم مع المدن اليونانية وتأثروا بتنظيمهم السياسي ، ومؤسساتهم الاجتماعية ، وفنونهم وعمارتهم كما أوضحت ذلك مدافنهم من القرن الرابع ق . م . [1] . فلم يكن لهم قبل اتصالهم بهذه المدن اليونانية أية كتابة ويمتهنون الزراعة وعاشوا في قرى مكشوفة حوت قلعة بنيت في مكان عال يلجأ أليها السكان وقت الخطر ، منقسمة الى وحدات ادارية (باغوس) تحت ادارة موظفين يتم اختيارهم من كبار الملاكين . وقد تتحد بضع وحدات ادارية للدفاع عن نفسها عند الخطر اطلق عليها الكتاب اليونان والرومان الأسماء سابيني ، والسبيليون ، وأومبري ولوكاني الخ .. وأول خطوة نحو وحدة سياسية كانت بوضع تشريع ذي طابع دولي تشرف عليه لجنة خاصة (فيتيهاليس) يهدها التجنيد للحرب واعلانها . فالجماعات الايطالية في بداية التاريخ الروماني كانت فئات متعادية غير مترابطة تتكلم بلهجات مختلفة يؤمنون بآلهة رعي وغابات في وقت مارسوا فيه الزراعة . وكثيراً ماكانت هذه الشعوب تتناحر بعضها مع بعض للاستحواذ على الأراضي والتوسع . [2]

ب ـ الاتروسكان :

ان معلوماتنا عن الاتروسكيين حديثة العهد [3] وان مصادرنا المتوفرة عنهم قليلة . فقد كتب عنهم ارسطو والامبراطور كلوديوس (كتابه حول الترهينين) ولكن الآثار المكتشفة لهم ولاسيما في القبور كثيرة مكنتنا من معرفة الكثير من أوجه حضارتهم .

والزيتون وشيدوا الموانىء والقناطر والمواسير . وقلدوا الفخار الأحمر والأسود ذا الأشكال اليوناني وصنعوا المرايا البرونزية واستخدموا بادىء الأمر كتلاً برونزية غير منتظمة كوسيلة تبادل ولكن أخذت نقود ايونيا منذ القرن السادس ق . م . تنتشر في أتروريا . وسكت بعض المدن الاتروسكية النقود على الطراز الليدي ثم على النمط الخاص بالمدن اليونانية .

ان للعلاقات الاقتصادية بين الاتروسكيين والمدن اليونانية (مع كوماي أولاً ثم مع فوكيا) أثراً في تطور حضارة الأتروسكان . فقد أخذوا من كوماي الألفباء والتأثيرات في الدين ، والفن والأدب وتقترح الصور من فولكي حول أعمال الأخوين فيبينا وماستارنا وجود ملاحم وقصائد وآثار في بولونا تصور ملاحم بين الاتروسكيين والسلتيين والتي تؤكدها أدلة دايوينسيوس الهاليكارناسي عن وجود أغان وطنية الى فاليري وأغاني لفي عن أليسو .

ولابد أنه كانت هناك قصص وقصائد حول الأساطير المشتركة (اتروسكية ويونانية) .

ونعرف عن وجود كتابات اتروسكية في الطب ، كما هناك كلمات لاتينية مشتقة مباشرة من اللغة الاتروسكية مثل (هستريو ، ولانيستا ، وسكينا ، وبيرسونا) مما يدل على أن الرومان أخذوا بعض المبادىء عن المسرح من اتروريا [٥] .

عاش الاتروسكيون في مدن محصنة . وكانت بيوتهم العامة بسيطة وصغيرة تحوي غالباً غرفة واحدة في وقت كانت فيه بيوت النبلاء واسعة ذات غرف شيدت حول ساحة ، شيدت من الخشب والطابوق ، وقد مارسوا المسابقات الرياضية وأحيوا الأعياد الدينية وأحبوا الاستعراضات المرحة ، والولائم ، والموسيقى والرقص (عرفوا الناي والبوق) . وأظهرت مدافنهم حبهم للترف وتزينت نساؤهم بأنواع الحلي ولبسن الخوذة المخروطية . ولبس الرجال الثوب الطويل والحذاء المعقوف المقدمة واكتحلت النسوة بالكحل وصففن شعورهن بأشكال شتى .

برز الاتروسكيون في تعدين المعادن كالحديد الذي استخرجوه من جزيرة ألبا التي سيطروا عليها وجلبوه من كورسيكا الى جانب استغلالهم حديد ونحاس اتروريا . وازدهرت تجارتهم البحرية وكانوا ملاحين ماهرين مارسوا القرصنة واستوردوا مصنوعات شتى أنواع المعادن كالفضة والذهب والحديد والنحاس الى جانب الفخار الجميل من بلاد اليونان والتي تعج بها مدافنهم ، ولما احتل الاتروسكيون في القرن السابع روما ثم

ولاتزال الأبجدية الاتروسكية غير محلولة ، بالرغم من وجود كتابات ثنائية اللغة (اتروسكية ـ لاتينية) . وأطلق الرومان عليهم توسكي ، واتروسكي وراسنا وهم سكان ايطاليا الاقوياء قبل التوسع الروماني . وسماهم اليونانيون والايطاليون راسنا وترهينوي . بالرغم من اختلاف الباحثين حول أصل الاتروسكين حيث جعلهم البعض من شعوب شمال أوربا دخلوا ايطاليا من منافذ الألب واقتنع غيرهم ان مدنيتهم هي حصيلة تطور داخلي وهم ايطاليون أصليون ويدعم هذا الرأي من القدامى دايونيسيوس الهاليكارناسي ، فان الاتجاه السائد الآن هو الايمان باصلهم الشرقي وهجرتهم من آسيا الصغرى والجزر القريبة نتيجة الغزو اليوناني ـ وقد استقروا ايطاليا بعد تطواف بانحاء منطقة البحر المتوسط وذلك في بداية الألف الأول ق . م . وان الادلة اللغوية ، الفنية والدينية تشير الى أصلهم الشرقي .

وذكر هيردوتس نزوحهم من سواحل آسيا الصغرى الغربية . وهناك اختلاف حول تاريخ وصولهم . وقرنهم البعض مع جماعة التورشا من أهل البحر الذين غزوا مصر في نهاية القرن الثالث عشر ق . م . وان عددهم حين دخولهم كان قليلاً ولكن سمو حضارتهم وتعقد أسلحتهم مكناهم من التغلب على السكان المحليين والسيطرة على النقاط الاستراتيجية على الساحل . وشيدوا مدناً عدة أمثال فولسيني ، وفيلسينا ، وكورتونا ، واريتيوم ، في ، بروسيا وبولونيا ، وتاركويني ، وكيري ، وفولكي .. الخ . وشكل الاتروسكان في مدن اترورريا أقلية (٤) .

استوطن الاتروسكيون بين القرنين العاشر والسابع في مدن ذكرنا بعضها انشاؤها بمنطقة واسعة تقع بين البحر الترهيني ونهري الارنو والتيبر برز منها تلك القريبة من ساحل البحر . وصار الاتروسكيون يتغلغلون بالتدريج الى الداخل وسيطروا بالحرب على الاومبريين والفيلانوفيين . واستخدموا الاومبريين جنوداً في حروبهم التي سيطروا بها على كل حوض البو حتى الألب . وتوسعوا الى لاتيوم حوالي منتصف القرن السابع ق .م . ثم سهل كامبانيا وجعلوا كابوا العاصمة وسيطروا على المدن اليونانية . والأدلة على توسع الاتروسكين بايطاليا واضحة في اسماء البحر الترهيني (بحر الاتروسكان) ، وتوسكانيا ، وادرياتيك (من المستعمرة الاتروسيكية ادريا) . وشملت امبراطورية الاتروسكان في القرن السادس ق . م . المنطقة من الألب حتى جنوبي كمبانيا بما في ذلك روما .

مارس الاتروسكيون الزراعة ، وجففوا مستنقعات ماريم الساحلية ، وزرعوا العنب

مقاطعة كمبانيا في القرن التالي أسسوا مدينة كابوا (بيستروم الحالية) التي صارت ميناء نشيطاً ، واتسمت علاقة الاتروسكيين مع ماسليا (مرسيليا الحالية) ، اليونان وقرطاجة بالحروب تارة والصداقة أخرى ، كما اصطدموا بمدينة كوم في كمبانيا والجاليات اليونانية في الجزر الايولية (ليباري الحالية شمال صقلية) . وفي أواخر القرن السادس ق . م . احتل الاتروسكيون مدينة فلسينا المهمة التي مكنتهم من السيطرة على حوض البو . وفي معركة الاليا سنة ٥٣٨ ق . م . كان الاتروسكيون حلفاء قرطاجة ضد اليونانيين نتيجة توسع الأخيرين في كورسيكا .

عاش الاتروسكيون عموماً حياة بذخ وترف نراها واضحة في مكتشفات علية القوم منهم . وكان اسم الشخص يلحق باسم والده والكنية ، كما كانت هناك انساب عن طريق خط الأم . ويظهر أن الاتروسكيين شكلوا اتحادات لمدن مثل أحلاف الاثني عشرة مدينة في اترووريا وكمبانيا وسهل البو . وكان لكل اتحاد رئيس ومجلس يعقد اجتماعاته في الساحة المحيطة بالمعبد الرئيسي . ويظهر أن المدن الاتروسكية عاشت في سلام وشهدت أيامها المتأخرة منافسات بين النبلاء والسواد . وكانت الحروب بين الدويلات الاتروسكية أحد أسباب ضعفهم . وملك النبلاء الاثرياء في كل مدينة أغلب الأراضي التي يعمل عليها الفلاحون المرتبطون بالأرض وأحياناً العبيد . وكان نظام الحكم عند الاتروسكيين ملكياً وعرف الملك باسم لوكومون ، ولانعرف ان كان منصبه وراثياً أو انتخابياً لمدة محدودة أو مدى الحياة . وكان للملك مركز عظيم ينصب عادة خلال حفل كبير وله شارات خاصة ورداء ارجواني وشال موشى بالارجوان . وكل الطوابع الدينية الخاصة بالملك الروماني ذات منابت اتروسيكية (بوق ، وتاج ، واستعراض ... الخ) .

نجحت سلالة من ترانكويني بالأصل من كيري في بداية القرن السادس ق . م . في بسط سلطتها على التلال الرومانية . وان التقدم الذي أحرزه تاركوين الكبير (٦١٦ ـ ٥٧٨ ق . م .) دام بضعة عقود . وفي أواسط القرن غزت فولكي مدينة روما واستولت عليها . وتذكر التقاليد اليونانية ـ اللاتينية بأن خلال السنوات الأخيرة من الملكية الرومانية احتل روما كيليوس فيبينا وأخوه أولوس وقائده ماستارنا مسيطراً على جبل كيليوس .

ولكنه اختفى في ظروف غامضة وخلفه ماستارنا تحت اسم سيرفيوس تولليوس . وان الصور في قبر فرانسواز في فوسكي تقدم صورة واضحة لاحدى الملاحم الحاسمة لهذا التطاحن بين المدن الرئيسية لجنوب اتروريا للاستحواذ على الأراضي الرومانية. فنرى كيليوس فيبينا سجيناً بيد أعدائه في وقت يفاجيء جنود الفولكي غينوس تاركوينيوس

روماوس وحاربيه من الفولسيين والسالبيين ويذبحهم وهم نيام . وان معبد جوف الكابتولي قد زينه الفنان الاتروسكي فولكا من في والذي عاش في روما آنذاك . وعد الرومان سيرفيوس توليوس منظماً عظيماً والمؤسس الثاني لروما في وقت عدوا فيه طرد الاتروسكيين من روما انتصاراً للحرية على الطغيان . وبدأ ضعف الاتروسكيين باستقلال مدن لاتيوم في النصف الأخير من القرن السادس ق . م . أعقبه طرد الاتروسكيين من روما ثم سيطرة اليونانيين على كامبانيا . ودحر اليونانيون بحراً الاتروسكانيين مرتين (٤٧٤ ، ٤٥٣ ق . م .) ثم طردهم الغاليون من وادي البو .

وأبرز الدين الاتروسكي خليطاً من عناصر شرقية وغربية . فبين آلهتهم ماهو اتروسكي مثل الاله تينيا (الموازي لجوبيتر) ، الربه توران (المرادفة لفينوس) وهي وجه للالهة الأم ، ربة النساء والحب واللذة ، وهي تحرس المدافن الأولى في منطقة شيوسي . وأوني (جونو) ، منرفا وجاءت آلهتهم في عدد من الثواليث وان فيرتومنوس اله اتروسكي مهم . ثم الآلهة فوفلونز وعبد في بوبولونيا وطوبق مع دايونيسيوس ، وسيثلاندس وعبد في بيروجيا وطوبق مع هيفستوس اله النار ، ايتا وطويق مع هيديس ونهثونس (نبتون) وهناك آلهة يونانية مثل ارتوميس (ارتميس) ، وابلو (ابولو) ، وفيلكانز (ربما مشتق من فيلكانوس اله النار والخضرة) ، برسيناي (برسيفون) ثم هرقل الذي عظمة الاتروسكيون كثيراً ، وبرز الاتروسكيون في العرافة التي اعتقدوا أن بوساطتها يعرفون رغبات الآلهة . مارسوا عرافة البرق وطيران الطيور واتجاهاتها وبالعيافة بفحص احشاء وكبد الحيوان المضحى به . وهناك سلسلة من النصوص تذكر مواحي تاغيس وفيغويا ، هي لبري هاروسبيكيني (يتضمن فن وطرق فحص احشاء الحيوان المضحى به) ولبري فولغراليبس (عقيدة الرعد والبرق) ولبري رتواليس (مجموعة من مبادىء عدة لتنظيم حياة الدولة والناس ويحوي على اللبري أكيرونتيكي الذي يتضمن معلومات صورية لفائدة الانسان في الحياة الأخرى . وبالرغم من أن هذه تعود الى القرن الأول ق . م . الا أنها ترجع لقرون عدة قبل ذلك . واستعمل عرافو الاتروسكان العصا المعقوفة لكشف الطالع .

جهز الاتروسكيون مدافنهم بشتى أنواع الأثاث حيث اعتقدوا بحياة بعد الموت . ولحتوا صورة الميت وزوجته على المدفن أو تركوا تماثيل للموتى وأحاطوهم بأنواع الأثاث المنزلية والأسلحة والحلي مما يبعث جواً عائلياً .وظهرت منذ القرن الرابع ق . م . صور تمثل الميت في طريق رحلة طويلة بعالم الموتى وهي رحلة شاقة مخيفة حيث العفاريت حاملة المطارق لضرب الميت . ثم توكولكا وجارون (ناقل الموتى بسفينة الى عالم الموتى في

الغرب) وهو يخطف الميت من بين أهله وحوله الافاعي . ثم صورة تنين يحمل بين يديه آلة التعذيب . وكل هذه الأفكار بابلية تأثر بها اليونانيون . وان اله عالم الموتى عند الاتروسكيين جارون وزوجته فرسيناي يقابلان هاديس وبرسيفون عند اليونان وكلها توضح تأثر الاتروسكيين بالدين اليوناني . وتوضح رسوم الآلهة والعفاريت تصور الاتروسكيين لأرض الموتى كعالم كئيب . وعبدوا أرواح الموتى وقدموا في البداية لهم الأضاحي البشرية . وفي اترووريا كان الدين جزء من الدولة ، والملك هو الكاهن الأعلى . وصوروا الأرواح الشريرة من كلا الجنسين والفأس المزدوج كتميمة . وتطورت العقيدة الدينية الى نظام معقد (اتروسكا سبلينا) ذي قواعد في العرافة والعيافة وطقوس لكل مناسبة سواء للدولة أو الفرد . وقد ترجم هذا الى اللغة اللاتينية منذ القرن الأول ق . م . وكان الرومان يرسلون ابناءهم الى اترووريا لتعلمها. وآلهة الاتروسكيين المهمة كانت آلهة الحرق والآلهة حماة المدن المرتبطة أحياناً بمجموعة من الثواليث . وهناك طقوس خاصة يقومون بها عند تشييد مدينة وكانوا يحيطون المدينة بسور دائري روحي بحرث اخدود خارج خط التحصينات .

اعتقد الاتروسكيون بأن الميت يتمتع بالأضاحي التي تقدم والخمر الذي يشرب على قبره . وفي يوم معين يتم احياء جنازي من قبل العائلة يعتقدون أن الميت يحضره . ومنذ القرن الرابع ق . م . تغيرت العقائد حول الحياة الأخرى وصارت أكثر كآبة . وفي صورة نرى الميت يسير الى عالم الموتى حافياً . اعتقد البعض استناداً على الصور ان الاتروسكان اعتقدوا بحياة أخرى بعد الموت وأن الميت سوف يكافأ حسب أعماله على الأرض خلال حياته . وأدى الكهنة دوراً كبيراً . ومن أعيادهم الليكتيستيرنيوم وعيد الآلهة . وان القبر المعروف باسم السرير الجنازي في تراكوينيا يمثل هذه الرسوم . فالفراش الفارغ وعليه الشعر المستعار المخروطي الشكل خاصة بالآلهة وتوضح وجود الآلهة . وان الرقص والألعاب التي صورت في القبور كانت لطرد الأرواح الشريرة ولابقاء الحيوية الطبيعية للمتوفي (٦) .

يتكون المعبد الاتروسكي من ثلاث حجرات وأحياناً من حجرة واحدة . وقد عثر على أسس معابدهم وقواعد مذابحهم في أورفينو ، وفلورنسا ، وفيسول ، مارزابوتو .. الخ . ويقوم المعبد الاتروسكي على قاعدة حجرية عالية وتقوم البوابة فوق أعمدة وهي مزينة بالتماثيل . وقد شيدوا من الخشب المغطى باللبن المزين بالألوان . ومن تماثيل آلهتهم تمثال فينوس في مدينة في وهو واحد من مجموعة تماثيل بحجم الانسان الطبيعي .

ومن المدن المهمة ترانكويني حيث المنحوتات الجنازية والصور تزين الجدران الداخلية للمدافن في غرف المدن تحت الأرض . وقد نحتت المدافن في أكثر المناطق انعزالاً باترورريا . وان الاتروسكيين هم الذين ادخلوا دفن الموتى الى ايطاليا وظلوا هم يمارسون الحرق أحياناً . ودفنوا موتاهم بتوابيت حجرية مزينة بالمنحوتات الغائرة ، وترى تماثيل الموتى في المقابر متكئين على موائد الولائم ونحتوا التوابيت بمناظر ورسموا صوراً هزلية أمثال شخص ببطن مترهلة أو أعضاء مشوهة .

ان التأثيرين الشرقي واليوناني واضحان في الفن الاتروسكي وربما استخدم الاتروسكيون صناعاً يونانيين في اتروريا . واستخدموا البرونز والفخار وبرزت في عمائرهم منذ القرن الخامس ق . م . العقود والقناطر التي لابد أنهم أخذوها من الشرق ... وقبورهم على أنواع منها محفور في الصخر بحجرة وممر أو على شكل بناء بيت اعتيادي.وفي قبر عند سرفتري قطره ٤٨ متراً حفرت ستة ممرات استعمل لدفن أسرة فترة تزيد عن قرنين (من القرن السابع حتى الخامس ق . م .) ويقسم تاريخ الفن الاتروسكي الى فترتين بدائية (٨٠٠ ـ ٤٠٠ ق . م .) وناضجة متكاملة (٤٠٠ ـ ٧٠ ق .م .) . وكان التأثير الشرقي في الدور البدائي قوياً وبدأ التأثير اليوناني منذ القرن السادس ق . م . وحوالي ٤٠٠ ق . م . ولد الطراز الاتروسكي المتميز الذي أظهر تأثيراً يونانياً في القرن اللاحق .

ويمكن تعقب تطور الفن الاتروسكي منذ القرن الثامن ق . م . في الحلي والمصنوعات الفضية والنحاسية والذهبية والتماثيل الطينية والبرونزية والمنحوتات والمزهريات المزينة وصور الجدران في المدافن . وجاءت الحلي ثقيلة تعوزها رقة المصنوعات اليونانية . وامتازت التماثيل سواء المجسمة أو المنحوتات الغائرة بالواقعية والمهارة الفنية يعوزها التوازن الذي نلحظه في التماثيل اليونانية . ومن التماثيل الاتروسكية المعروفة الخطيب ، منرفا الفلورنسية ، والذئبة ، وذئب الكابيتول ومارس الفاتيكان . وتمتاز صور الجدران بالمهارة والواقعية . وان الفن الاتروسكي في كل عصوره قد تأثر بالفن اليوناني عملاً ومواضيع ، وان المناظر التي صوروا بها آلهة العالم السفلي والعقوبات التي تنزل بالموتى قد أثرت على الفن الروماني والايطالي الوسيط .

ان تأثير الاتروسكيين على الرومان كثير ، فهم الذين أدخلوا الى ايطاليا حياة المدينة وحضارتها . وحيثما ذهبوا انشأوا المدن وحولوا روما من مجموعة قرى زراعية الى مدينة قوية واسعة وسموها روما . والكثير من المؤسسات الرومانية (التقسيم الثلاثي القبلي ، والامبراطور كقوة عليا ، واستعمال العربة في المدينة ، والصولجان العاجي المتوج

بالنسر . وتعلم الرومان من الاتروسكان البناء الدائم بالصخر والقيام بالأعمال العامة كالتحصينات ، والقناطر والمعابد والأسوار الخ . ويظهر أن روما قد احيطت بالأسوار أول مرة زمن الاتروسكان والاخيرون هم الذين ادخلوا القوس الى العمارة بايطاليا (٧) . وأخبرنا ايليان من القرن الثالث ق . م . بأن الصيادين الاتروسكيين استعملوا القوى السحرية للموسيقى لصيد الحيوانات (٨) .

الاغريق في ايطاليا :

بدأ اليونانيون في استيطان غرب البحر المتوسط منذ بداية القرن الثامن ق . م . وسكنوا خلال القرنين التاليين سواحل صقلية الشرقية والجنوبية وانتشرت مستوطناتهم على طول الساحل من تارينتوم حتى خليج نابولي ومصب نهر الرون وجنوب فرنسا (مرسيليا) . ولكن زيارات البحارة اليونانيين الى هذه المناطق سبقت الألف الثاني ق . م . حيث وجد حجر السبج البركاني الايجي في جنوب ايطاليا وبقايا الفخار الايجي على طول ساحل بحر الادرياتيك مما يسند ماتذكره الأساطير اليونانية عن استيطان قديم لمهاجرين كريتيين لجنوب ايطاليا . وقد وجدت شقف الفخار اليوناني ذي الطرز الهندسية والزينة التخطيطية على سواحل ابوليا ، كامبانيا وتوسكانيا مما يدل على وصول البحارة الايجيين لهذه المناطق حوالي سنة (٩) ٨٠٠ ق . م . في وقت حمل التجار اليونانيون منذ القرن الثامن ق . م . بضائعهم وأوعيتهم البرونزية (شبه الكورنثية) والأوعية الأتيكية والكورنثية الى وسط وشمال ايطاليا . وقد منعتهم قرطاجة من التوسع غرب صقلية وأسبانيا واعترض الاتروسكيون طريقهم شمال التيبر . ووصلت المدن اليونانية في صقلية وايطاليا الى عنفوان قوتها وازدهارها خلال القرن الخامس ق . م . فتوسعوا في صقلية الى الداخل وأخضعوا السكان الأصليين ، ولما تحداهم القرطاجيون دحرهم غليون حاكم سرقوسة سنة ٤٨٠ ق . م . في معركة هميرا وتركهم أحراراً في الجزيرة للسبعين سنة التالية . وفي سنة ٤٧٦ ق . م . انتصر خليفة هيرون على الاتروسكيين في معركة بحرية قرب كوماي فتحرر اليونانيون من خطر الاتروسكيين . وصارت النهاية الجنوبية الغربية من ايطاليا (سماها اليونانيون ايطاليا) تحت سيطرتهم . وانحصرت منطقة استيطانهم بين بوسيدونيا غرباً وتارينتوم شرقاً . وأطلق الرومان على اليونانيين في هذه المناطق الاسم غريكي وليس هيلينيين . ويظهر أنهم ثبتوا مراكزهم في جنوب ايطاليا سياسياً وحضارياً بحيث أطلقوا عليها اسم اليونان الكبرى .

وسياسياً كانت كل مستوطنة يونانية تشكل دولة مدينة مستقلة يكون ولاؤها للمدينة الأم في اليونان . وكانت المدن اليونانية في ايطاليا وصقلية تتخذ موقفاً موحداً

وقت الخطر . وان أي توسيع سياسي لدويلة مدينة مثل توسع سرقوسة زمن طغاتها فأنه وقتي يزول بموت أولئك الطغاة ، وضعفت المدن اليونانية بتأثير المنازعات والمنافسات السياسية الداخلية وعدم توحد المدن خارجياً مما أدى أخيراً الى انتصارات الرومان عليهم . وبدأ ضعف المدن اليونانية في الغرب من نهاية القرن الخامس ق . م . حيث تعرضت مدنهم الى هجمات السامنيين المتكررة . ففي سنة ٤٢١ ق . م . احتلت جماعة سامنية مدينة كوماي ودخلت المدن اليونانية في صراع للبقاء مع اللوكانين والبروتيانيين المرتبطين عرقياً بالسامنيين . وعاد القرطاجيون سنة ٤٠٨ ق . م . الى مهاجمة اليونانيين في صقلية . ووحد ديونيسيوس الأول (٤٠٥ ـ ٣٦٧ ق . م .) طاغية سرقوسة المدن اليونانية في صقلية وايطاليا لمواجهة الأعداء ولكن جهوده انتهت بوفاته . وبعد حرب احتلت قرطاجة سنة ٣٣٩ ق . م . النصف الغربي لصقلية في وقت كانت المدن اليونانية بايطاليا مثل تارينتوم وريغيوم تحيا وسط الأخطار .

بدخول اليونانيين ايطاليا أخذت الأخيرة تتصل بمناطق شرق البحر المتوسط ودخلت حقل التاريخ حيث وصلت من المؤرخين والجغرافيين اليونانيين أقدم المعلومات عن الشعوب الايطالية وقدموا الأساطير عن تاريخ ايطاليا الأولي . وساعدت المدن اليونانية في ايطاليا على تقدم الايطاليين حضارياً بالاتصال المباشر أو غير المباشر عن طريق الاتروسكيين . وأدت مدينة كوماي دوراً كبيراً وانتشر الفن ، والأدب ، والمؤسسات العسكرية والسياسية والدين والعلم والفلسفة والنحت والبناء بالحجر اليونانية الى الشعوب الايطالية وأثر على تقدمها وظل التأثير اليوناني كبيراً على الحضارة الرومانية طوال تاريخها الطويل [١٠] . فاليونانيون هم الذين أدخلوا الى ايطاليا العنب والزيتون وتعلمت الشعوب الايطالية منهم الالفباء اليونانية . وماعندنا من المؤرخين اليونانيين والفلاسفة اليونانيين أمثال فيثاغورس ، والأليا تيكيون ، رامبيدوكليس ، وبقايا مسرح ، تقدم علم البيان في صقلية واطلال معابد في صقلية وجنوب ايطاليا خير دليل على ازدهار الحضارة اليونانية في الغرب .

وقد دخل طقس ابولو روما سنة ٤٣٣ ق . م . فضلاً عن تبني الرومان للمتنبئة اليونانية سبيل من كوماي [١١] .

د ـ لاتيوم وروما الأولى :

أن أكثر معلوماتنا عن مؤسسات لاتيوم الأولى لاتزال غير مؤكدة . واللاتينيين شعب خليط كان العنصر الغالب به جمع هاجر من الشمال ومارس حرق الموتى ذو حضارة تماثل

تلك التي للفيلانوفيين ، وتقدمت الى جنوب التيبر في نهاية العصر البرونزي طغت على جماعة من السابيين كانت تسكن المنطقة . وكان اللاتين زراعاً ورعاة عاشوا في قرى قرب مدافنهم التي أودعوا بها رماد موتاهم والأدلة عن صلاتهم بالعالم الخارجي قليلة، وكانت أكواخهم مدورة أو بيضوية من الوتل المظفور مسند بالأعمدة الخشبية بسقوف مائلة مثقوبة لتصريف الدخان والتهوية . ويعزى تقدم لاتيوم منذ نهاية القرن السابع ق . م . الى تأثيرات الاتروسكان وقرطاجة واليونان . فقد سيطر الاتروسكيون على لاتيوم حوالي سنة ٦٥٠ ق . م . واثبت الدليل الأثاري وجود الكثير من بماياهم في مواقع أمثال برينسته (مدافن مؤثثة تدل على وجود طبقة حاكمة أتروسكية) وفيدينا الى شمال روما بقليل . وانجازات الاتروسكيون واضحة في القنوات والخزانات منحوتة بالصخر في وادي التيبر وعلى سفوح جبال ألبان التي تشابه تلك التي من جنوب اتروريا . والى فترة الاتروسكيين تعزى الصناعات البرونزية والمعادن الثمينة في برنيسته وتبني الالفباء وبداية حياة المدينة في لاتيوم . وقد تقلصت المستوطنات حوالي ٥٠٠ ق . م . الى حوالي اثنى عشرة مستوطنة أكبرها برنيستة ، تيبور وتوسكولوم . وتحولت القرى الى مدن ذات أسوار وقلاع ومعابد وأظهرت بعض القبور في لاتيوم وجود طبقة ثرية .

وكان اللاتين منقسمين الى وحدات مستقلة تسمى جماعات وكل جماعة تحيا بمنطقة معينة (باغوس) وسطها مدينة محصنة (اوبيدم) . وان شعورهم بالوحدة يتوضح في عبادتهم المشتركة للآلهة أكثرها أهمية الجامعة الدينية التي كانت تحيي عيد جوبيتر السنوي على جبل ألبان ولانعرف كم دويلة لاتينية اشتركت به وكانت سبعاً وأربعين في نهاية القرن السادس ق . م . ويقال أن مدينة ألبا لونكا (على ساحل بحيرة ألبان الغربي) كانت أول زعيمة لهذا الاتحاد الديني . وكل دويلة كانت تقدم مقداراً محدداً من العطايا وتتسلم حصة معينة من الأضاحي . وكان للاتين جامعة عسكرية للدفاع المشترك تعاقبت على زعامتها عدة دول بالنسبة لقوتها وقت الزعامة . وكانت نصيرة الاتحاد الآلهة ديانا التي يقدسها كل أعضاء الاتحاد . وتعاقبت الزعامة من لافينيوم الى اريكيا في نهاية القرن السادس ق . م . التي قاومت الاتروسيكيين (١٢) .

تقع تلال روما السبع (كابيتولاين ، وافينتاين ، واسكويلاين ، وكويرينال ، وبالاتاين ، وكيليان ، وفيمينال) على النهايات السفلى لنهر التيبر على بعد ١٥ ميلاً من البحر عند حدود اتروريا ولاتيوم وهي ذات موقع دفاعي كان السبب المباشر لاختيارها فهي محاطة بالجبال الكثيرة مثل مونت ماريو ، الفاتيكان ، مونت فيردة الخ . وقد كشفت آثار للعصر الحجري الحديث على تل الافينتاين وفخار يعود الى العصر البرونزي

اينياس الذي عاش مع ولده في لافينيوم قد مات غرقاً في نهر نوميكوس أو قتل على يد ميزنتيوس الاتروسكي وعرج الى السماء . وقد تكون هناك علاقة بين مزار افروديت قرب لافينوم واستيطان اينياس فيها الذي ربما بدأ بوصوله وبذلك تكون لافينوم نقطة البدء بين موقع روما حيث نزل اينياس وموطن أخلافه المباشرين (البا لونكا) . وهناك ذكر لروما في اساطير يونانية أخرى . فنقرأ كيف أن ايفاندر ابن الاله هرمس من حورية اركادية قاد جماعة بلاسيغية قبل حرب طروادة بستين سنة وأسس مدينة بلانتيوم على نهر التيبر على تل البالاتاين وانه علم الاهالي الكتابة والموسيقى وعبادة آلهة كثيرة منهم بان . واسطورة أخرى تذكر ان كاكوس العملاق الذي كان ينفث ناراً عاش حيث بنيت فيا بعد روما . وعندما وصل هرقل الى موقع روما مع قطيع غيريون سرق كاكوس منه بعضها عندما كان هرقل مستغرقاً بالنوم أخفاها في كهف بتل افنتاين ولكن هرقل توصل الى القطيع من أصوات الأغنام . وهناك الأسطورة التي عرفت منذ القرن الرابع ق . م . بأن رومولوس بن الاله مارس نصير روما من ابنه ملك البا لونكا هو الذي شيد روما على البالاتاين . واشترك مع رومولوس بعد ذلك رهوموس اليوناني في القرن الرابع ق . م . واختفى اسم الأخير في القرن الثالث ق . م . ليحل محله اسم ريموس كأخ توأم لرومولوس (المشتق اسـ[illegible] اسم روما) . وتذكر الاسطورة اللاتينية ان ام رومولوس قد ولدته بصورة غير شرعية ور مته في التيبر ولكن الأمواج قذفته الى الشاطيء حيث أرضعته ذئبة ورباه بعد ذلك الراعي فوستولوس وفي كبره اسس المستوطنة على البالاتاين . وحاول ريموس يائساً استيطيان الافينتاين ولكنه زود المستوطنين بزوجات اغتصبهن من السابيين الذين كانوا يقطنون على الكويرينال . وتذكر الأسطورة ان رومولوس وريموس احتكما الى عراف فاختار لهما البالاتاين والافنتاين على التوالي . وان قصة ريموس ورومولوس تشابه قصة نيليوس وبيلياس اليونانية الولدين التوأمين الى تيرو ابنة سالمونيوس من الاله بوسايدون . حيث رمتهما أمهما بعد الولادة في نهر انيبيوس الذي قذف بهما فارضعت الأولى خيراً (حيوان خرافي برأس لبوة وجسم شاة وذنب حية) والثاني فرس . وان تشابه الاسطورتين اليونانية واللاتينية جعلت البعض يضعون أصولاً يونانية للقصة اللاتينية بارضاع ذئبة لرومولوس وريموس . وان القصة التي تجعل المؤسسين توأمين لم تكن موجودة قبل القرن الرابع ق . م . وقد يكون الاسمان يرمزان الى عنصرين في سكان روما الأوائل (ممارسي دفن الموتى وحرقهم) الى جانب قصة اغتصاب ريموس للنساء السبينيات [١٤] . وأن وجود تمثال من سنة ٢٩٦ ق . م . لذئبة ترضع طفلين توأمين على الفورم يثبت شعبية الأسطورة في روما وقتذاك .

دل على وجود مستوطن عند موقع روما حوالي ١٥٠٠ ق . م . لاتعرف هوية سكنته . وفي بداية العصر الحديدي استوطنت التلال المطلة على الأهوار (حيث شيد الفورم فيما بعد) جماعات لها علاقة مع جماعة العصر البرونزي . ومن هؤلاء جماعة قطنت تل البالاتاين سكنت أكواخاً مستطيلة وجدرانها من الوتل المظفور الملطخ بالطين وتقع مقبرتهم شمال شرق الفورم دفنت بها أزيار على شكل أكواخ حوت رماد موتاهم . وهناك مقابر أحدث عهداً على تلال كويرينال ، فيمينال واسكويلاين تدل على وجود مستوطنات عليها . ومارس سكنة التل الأخير الدفن أما قاطنو الكويرينال فمارسوا الحرق أولاً ثم الدفن بالوضع المعقوف مما يدل على سكنى جماعتين متباينتين حضارياً ويؤيد الرأي بأن الرومان بالأصل من أعراق عدة . وقد يكون ممارسو الدفن هم من السابيين الذين تغلغلوا بين الأكثرية اللاتينية . وتركت مقبرة البالاتاين حوالي ٦٥٠ ق . م . وشيد القسم الغالب من منطقة الفورم على طراز سكنة البالاتاين نفسه مما يدل على توسع الأخيرين . وشكل السابيون القادمون في القرن الثامن ق . م . وحدة مع سكنة البالاتاين ربما ظل ذكرها موجوداً في عيد السيبتمونتيوم (سمي نسبة لمكان ادخل بعدئذ ضمن روما) . وان كل تل من التلال السبعة كانت قرية وان الاسوار التي ظلت قائمة حتى العصور التاريخية قد تكون أسوار القرى عند تلي سوبورا وأوبيوس .

كانت الخطوة التالية هي تشييد سور ليحيط البالاتاين والمستقرات الأخرى التي صارت تعرف بمجموعها مدينة المناطق الأربعة . وهذه التسمية ربما تشمل مدينة القرن السابع ق . م . التي قسمت بالعصر الجمهوري الى أربعة مناطق ونقرأ عن سور سيرفيوس توللبوس الذي أحاط التلال . وان المزار على البالاتاين المعروف باسم روما كوادراتا حوى ادوات كثيرة ترجع لتأسيس روما وهو الاسم الذي سميت به روما الأولى نفسه وكان فارو أول كاتب نعرفه استعمله . وان توقف الدفن في المقابر ضمن حدود روما المكرسة طقوسياً (يوميريوم) حوالي سنة ٦٠٠ ق . م . يدل على أن الوحدة قد تمت آنذاك وهي فترة التأثير الاتروسكي في لاتيوم ويتفق مع التاريخ التقليدي لسلالة الاتروسكين في روما مما قد يدل بأن تنظيم روما ذات الأربع مناطق قد نفذه الاتروسكيون . وهذه النظرة تجد سنداً في اسم روما الذي هو كما يبدو ذو أصل أتروسكي (١٣) .

ابتدع اليونانيون منذ القرن السادس ق . م . اسطورة علاقة اينياس ابن الربة افروديت وولده . أو حفيده بروما لربط الأخيرة باسلافهم الأبطال . حيث يذكرون كيف أن اسكانيوس بن اينياس اسس ألبا لونكا بعد عودتها من حرب طروادة . وان

وفي القرن الثالث امتزج التقليدان المحلي (الخاص بروملوس وريموس) واليوناني (اينياس واخلافه) وجعلت الرواية المشتركة أينياس مؤسس لافينيوم وولده مؤسس البا لونكا في وقت أسس حفيدهم رومولوس بعد اجيال روما . وهذه ترينا أهمية ألبا لونكا . وهناك اختلاف كبير بين الكتاب الرومان خلال القرنين الثالث والثاني ق . م . حول تاريخ تأسيس روما ولكن في القرن الأول ق . م . تقبل الجميع التاريخ ٧٥٣ ق . م .

هـ ـ الحكم الملكي في ايطاليا : (٧٥٣ ـ ٥٠٨ ق . م .) :

لايزال شخص رملوس اسطورياً وتذكر التقاليد أن ستة ملوك قد خلفوه (أو سبعة باضافة تيتوس تاتيوس) ويعتقد البعض أنهم من ابتداع عوائل الاشراف (البطارقة) لاعطاء تميز لهم عن العامة . ويظهر أن اثبات الملوك قد دون في القرن الخامس ق . م . والاسماء فيه ليست مبتدعة أو مختارة لتعظيم عوائل معينة . وان الملوك الستة من نوما الى تاركوينيوس الأخير يظهر أنهم حكموا روما فعلاً حتى تأسيس الجمهورية . ويرفض الغالبية تيتوس تاتيوس بالرغم من أن تمثاله موجود في الكابيتول مع تماثيل الملوك الآخرين لان مركزه واسمه قد ظهرا في مرحلة متأخرة لاعطاء دور الى احدى القبائل كما تدخل المعترك السياسي زمن الجمهورية . وقد يكون نوما بومبيلوس (كخليفة لرومولوس) ملكاً لروما الأولى ونسبت اليه فعاليات عدة خاصة دينية تعج بها الأساطير كمحاورته مع الاله جوبيتر ضد الأضاحي البشرية . ونسب له تنظيم التقويم الديني (أضيف به شهران الى العشرة أشهر) وطبقات الكهنة وتصميم البناية التي يمارس بها الملك عمله (الريغيا) . وقيل أن نوما من أصل سابيني الموضح في اسمه بو مبليوس وعلاقته مع تل كوير ينال المرتبط بالاستيطان السابيني . ولاتزال شخصية نوما مضببة . وعزي الى الملك الثاني توللوس هوستيليوس غزو ألبان وتخريب ألبا . ثم الملك انكوس ماركيوس الذي ذكر عن حروبه مع مختلف المدن . أما الملوك الثلاثة الأخيرين فهم من فترة الاحتلال الاتروسكي لروما وهم (تاركوينيوس بريسكوس ، وسرفيوس توللِيوس ، وتاركوينيوس سوبيربوس) حيث وقعت روما تحت سيطرة الاتروسكيين . وان أخبار الملكين تاركوينيوس الأول والأخير قد امتزجت بعضها مع بعض ونسبت له فعاليات في الحرب والاصلاحات الدستورية . وعد سرفيوس (ماستارنا باللغة الاتروسكية) زوجاً لأبنة تاركوينيوس وربط مع بناء سور روما ومعبد ديانا على الافنتاين . وكان تاركوينيوس سوبيربوس طاغية وصل العرش بقوة جيشه ونسب

اليه عقد معاهدة بين روما وغابي . ونعرف آن ارستو ديموس طاغية كوماي قد صد هجوم الاتروسكيين على كامبانيا في نهاية القرن السابع ق . م . واستمرت قوة الاتروسكيين بالضعف حتى حطم هيرو ملك سرقوسة المواصلات بين اتروريا والجنوب سنة ٤٧٤ ق . م . واستمرت ملاحقة الاتروسكيين حتى تم طردهم من كل جنوب التيبر .

اذا كان العنصر الاسطوري لايزال يخيم على ملوك روما الأوائل فان المؤسسات السياسية ، الاجتماعية ، الدينية والاقتصادية لاشك فيها ، ولانعرف شيئاً عن أصل الملكية في روما وان عدم كونها وراثية يدل على أن السلطة كانت بيد الجمهور وربما كان يختار من عائلة نبيلة ثم يوافق عليه الجمهور . وقد نسب الى الملك الأول (نوما) تأسيس الجهاز المدني والتنظيم العسكري وللثاني المؤسسات الدينية . ولم يدع الملك ارتباطاً عرقياً أو اتصالاً شخصياً بالآلهة . وان سلطنة لاحدود لها ويعاقب من يخرج على أوامره . وكانوا يرتدون الحلل الارجوانية ويركبون العربة العاجية مع مرافقين يحملون الصولجانات والفؤوس رمزي سلطة الملكية . وهو رأس الدولة ويخول الاشراف على المراسيم الدينية أمثال طقوس جوبيتر ، ومارس وكويرينوس الى رجال يختارهم من طبقة البطارقة ويرعى نار فيستا الخالدة ستة من عذارى يتم اختيارهن لمدة ثلاثين عاماً من العوائل النبيلة يعشن خلالها في عزلة . وعهد تفسير قانون طقوس الدولة الى لجنة من خمسة موظفين كبار وتفسير الفؤول الى لجنة من ثلاثة عرافين يرشحهم الملك من طبقة البطارقة . وعدا القيام ببعض طقوس الأضاحي فان الملك لايقوم بأي واجب ديني خلا تحديد تقويم السنة . فقد كان للرومان والايطاليين سنة تتألف من اثني عشر شهراً عدد أيامها ٢٩ و٣٠ على التوالي ويتم تلافي النقص بادخال شهر كبيس قوامه ٢٣ يوماً بكل عدد من السنين .

والملك هو الذي يمثل الأمة في علاقاتها الخارجية ، يعقد المعاهدات ويفض مشاكل الحرب والسلم ويجهز الجيوش ويفرض الضرائب والرسوم . وكثيراً ماكان يعين محكماً للفصل في المنازعات بين العوائل . والملك هو المسؤول عن الأمن ونشر العدالة . وان سلطته الجزائية في الحكم بالموت أو النفي ، تنصب على خيانة الجماعة والقتل المتعمد . ويعهد البت في القضايا الى حكام . وهو القائد العام في الحرب والقاضي الأعلى والكاهن الرئيسي ولكن قوته محددة بالعرف والرأي العام . (١٦)

هناك مجلس الكبار (الشيوخ) وهو بالأصل خاص بالمسنين من رجال العوائل النبيلة وهو مجلس استشاري . وعند موت الملك يتسلم هذا المجلس السلطة لحين اختيار عاهل جديد ولانعرف تفاصيل تنظيمه . وكان الى جانبه مجلس الشعب (كوميتيا

كوريـاتـا) وهو مجلس الوحـدات الثلاثين الـذي كان ينقسم لهـا المجتمع الرومـاني . وكان يعـقد للموافقة على تعيين الملك الجديد ويدعو الملك لعقده عندما يريد الاستئناس برأيه حول أمور تخص الشعب أمثـال التبني ، وصـايـا الموتى ومنـح المـواطنـة وتستلـزم قرارات اعلان الحرب موافقته . وكان المجتمع الرومـاني ينقسم الى ثلاثين جمـاعـة (كوريـا) وهي تقسيمات اقليمية ربما كانت العضويـة فيهـا وراثيـة ولكل منهـا طقس ديني خـاص . وكل عشر وحـدات كانت تكـون قبيلــة ، والثـلاث قبــائـل كانت (رامنيس ، وتيتيهس ولوكريس) والتي صارت في العصور المتأخرة اسماء لفرق خيالة بـالجيش الرومـاني الـذي لابد أنه جند في البداية على أساس قبلي .. وتذكر الأخبـار عن توسع لرومـا زمن الملوك أمثال ضمها المنطقة حيث شهد فيها بعد بناء اوستيا ثم الحاق البالونكا المركز الديني المهم ، ولكن البـاحثين المحـدثين يعتقـدون أن هـذه من بنات أفكار مـؤرخي رومــا الـلاحقين للتدليل على عظمة روما منذ عصر مبكر . (١٧)

ان التقاليد الخاصة بالجيش في عصر الملوك غامضة ومتضاربة . فقد كان الجيش المجند (ليجيو) قوة تجنـد من الاشراف وتـابعيهم قـوامهـا ٣٣٠٠ من كل قبيلـة الف من المشـاة ومائة من الخيالة . ويمكن لأثرياء الفلاحين أن يزودوا أنفسهم بدروع . وكانت الأسلحـة الدفاعية الخوذة ، والصدرية والـدرع . أمـا الهجوميـة فـالحربـة ، والرمح الثقيل والسيف القصير ، وقادة الجيش هم رؤساء القبائل وتقسم الفرق حسب القبائل وعددهـا ثمـاني عشرة تحمل ست منها أسماء القبائل الثلاثة (كفرقة مستجدة ومتقدمة لكل قبيلة) . (١٨)

قـد تكون التقسيمـات الاجتماعيـة موجودة في عصر الملـوك ، وان الفرق الشـاسـع بين حالة الأثرياء والفقراء واضح في تباين محتويات قبورهما . وقـد انقسم المجتمع الرومـاني آنذاك الى :

١ ـ الاشراف (البطـارقـة) : وربمـا هم أخلاف السكان القـدمـاء المشتركين في طقس السيبتيمونتيوم . وكانوا يمتلكون الأراضي الواسعـة ويقـدمون الجنـد وانحصرت بهم عضويـة السنات ، وقيادة الجيش والاشراف على الدين وتفسير التزاماته .

٢ ـ العـامـة : وهم سكان المستوطنـات الجـدد على تلال رومـا . وهم مواطنون أحرار ويمثلون في مجلس الوحدات . وكانوا في الغالب فلاحين صغاراً وأصحـاب حرف ولهم حق التجارة ، والتملك ودفع التهم عن أنفسهم . وليس لهم الحق في عقـد الزواج دينيـاً والـذي ظل حكراً على الأشراف وليس لهم الحق بـالـزواج من الأخيرين . وان جهلهم بضـوابـط المراسم الدينية وأصولها حجب عنهم عضوية السنات ودخول السلـك الوظيفي بـالـدولـة سواء أكانت سياسيـة ، عـامـة أو دينيـة . وكثيراً مـاكان جهلهم بـالقوانين المرعيـة يوقعهم

ضحايا للأشراف .

٣ ـ الموالي (التابعون) : وهم في الغالب أخلاف الأجانب أو سكان المناطق التي الحقت بالغزو . ولم يكونوا أحراراً بل يتبعون أسيادهم من البطارقة . وعمل قسم منهم في المدن حرفيين بينما اشتغلت الغالبية في أراضي الأشراف وخدموا في الجيش لحماية الآخرين .

٤ ـ العبيد : كانوا محدودي العدد قبل التوسع الروماني . (١٩)

كانت منطقة روما في الأصل صغيرة لاتزيد مساحتها عن ستين ميلاً مربعاً يمتهن أغلبية سكانها الزراعة والرعي . وان وجود عيد العنب في التقويم يدل على أهمية هذا المحصول بالرغم من محدودية زراعته في أواسط ايطاليا . وكانت الغلة الأساسية الحنطة التي انتجوا منها نوعاً يصلح لعمل حساء منه الى صنع الخبز . وهناك من مارسوا الصناعات المختلفة أو امتهنوا التجارة . وكانت مدينة مشيدة في غالبها باللبن والخشب ، حيث بني معبد جوبيتر على الكابيتول (تنسبه التقاليد الى آخر الملوك) باللبن وسقف من الخشب وأسس صخرية تمتد الى مسافة ايكر مربع واحد . واستعمل في بناء لاحق له العقادة والأقواس لتغطية المجرى الرئيسي للمياه الآسنة في الفورم . كما تقدمت صناعة الفخار وصب البرونز وتنسب الأخبار الى الملك نوما تأسيسه لتسع نقابات لصناع الناي ، وصاغة الذهب ، والنجارين ، والقصارين ، والسراجين والدباغين والحدادين والفخارين الخ .. وان معلوماتنا عن التجارة في عصر الملوك قليلة جداً . واستعملوا الماشية كمقياس للثروة حيث الكلمة قطيع (بيكونيا) باللغة اللاتينية معناها أيضاً ثروة ، وكانت أساس معاملاتهم المقايضة واستعمال قطع نحاسية معروفة الوزن . وان كثرة الفخار الكورنثي والاتيكي في موقع روما من هذه الفترة يدل على تقدم التجارة . وربما بادلوا مااستوردوا من سلع أجنبية بالملح الذي حصلوا عليه من ممالح مصب التيبر والخشب والعبيد . وان تقدم التجارة يمكن ربطه مع بداية المستوطن الجديد على تل الافنتاين وبه سوق في مزار دايانا على ذلك التل حيث يتقابل التجار الأجانب واولئك من مختلف المدن . (٢٠) وان آسهام الاتروسكيين في تقدم التجارة والصناعة في روما خلال القرن السادس ق . م . كبيرة. كان أساس الدين في المجتمع الروماني الأولي زراعياً ، وعبد سكان كل بيت حماة دارهم وموارد معيشتهم التي أطلقوا عليها الاسم لاريس (حاميات البيت والأرض) وبيناتيس (حماة المحصول) وفيستا (الهة النار) وجوبيتر (مسير الشمس والمطر) ، ومارس (منبت الأشجار) . وهناك قوى صالحة (أرواح نومينا) تساعد الناس في كل مرحلة من مراحل حياتهم من صرخة الطفل الأولى حتى

الموت . وأخرى شريرة تؤذيهم . وكان تعبده ينصب على الدعاء البسيط لهذه الأرواح وصب الحليب وأحياناً الخمر لها وتقديم أضحيته حيوانية أو قطعة من الخبز على مذبح . كما عرفوا التمائم السحرية . فأساس هذه المرحلة في الدين الروماني يمكن تسميتها بالحيوية . وان دين الدولة (كما يظهر من تقويم الأعياد الرسمية) مماثل للطقوس الخاصة . فقد عبدت روما رسمياً فيستا ، واللاريس والبيناتيس وغيرها من حماة الحقول والقطعان وتحول بعض الآلهة الى الطقس الرسمي كحماة للجماعة ، فصار مارس يجلب النصر وجانوس يحمي المدينة وجوبيتر يجلب الخير لروما .

تأثر الدين الروماني في نهاية فترة الملوك بالدين الاتروسكي فقد أعطت الآلهة صفات البشر وصنعت لها التماثيل . وخططت معابد جوبيتر ، وجونو ومنرفا في الكابيتول على خطط اتروسكية . كما أخذوا من الاتروسكيين ممارسة العرافة والعيافة . وفي نهاية عصر الملوك أخذ الدين الروماني قالبه الرسمي الذي لم يتبدل عبر التاريخ . فقد دخلت العبادات الشخصية المتنوعة وتم تجنب الكثير من الأمور . ولم يصبح الدين الروماني نصيراً للفن والموسيقى والأدب وكانت الأضاحي البشرية نادرة جداً والزواج يتم بمرسوم ديني (كونفارياتيو) ويشترك الرجل وزوجته بطقوس المنزل الدينية . (٢١)

Page 30

1. Trever, pp. 16–17.
2. Cary, pp. 14–15.
3. Raymond Bloch, The Etruscans, (New York 1960), pp. 19–47.
4. Boak and Sinnigen, pp. 23–26.
5. Luigi Pareti, History of Mankind, Vol. 11, (N.Y., 1964), pp. 263-4.
6. Alain Hus, The Etruscans, (London, 1960), pp. 89–113, Bloch, pp. 139 –160.
7. Trever, pp. 17–23.
8. Aelian, History of Animals, XII, 46.
9. Cary, p. 17.
10. Boak and Sinnigen, pp. 32–34.
11. Trever, pp. 23–24.
12. Boak and Sinnigen, pp. 37–39.
13. ibid, pp. 39–43.
14. Hugh Last, CAH (Cambridge Ancient History), (Cambridge 1954), Vol. VII 348–368.
15. Hugh Last, ibid, pp. 370–406.
16. Cary, pp. 56–59.
17. Boak and Sinnigen, pp. 44–45.
18. Cary, p. 59.
19. Trever, pp. 28–29.
20. Cary, pp. 50–52.
21. ibid, pp. 52–55.

أهمية في الحلف الذي ضم ثمانية مدن ريجتمع في مزار دابانا على تل الافنتاين في روما مما أعطى لروما مركزاً وأهمية في الحلف . وقد فصلت المدن اللاتينية روما عن جماعات الاكوي والفولسكي في وقت دخلت به الميرنيكي الحلف . وأغرت روما السابيين على السكن بين نهري التيبر واينو والتي منحوها الى زعيمهم اتتوس كلوسوس وبذلك وقف الخطر السابيني فيما عدا احتلال قائدهم ايبيوس هيردوينوس لقلعة روما حوالي ٤٦٠ ق . م .

والذي قضي عليه فوراً . ثم خطر جماعتي الاكوي والفولسكي اللتين اصطدمتا بروما نتيجة محاولة اللاتين التوسع صوب الجنوب الشرقي باتجاه منطقة الفولسكي . وحولت الاكوي ميناء انتيوم الى مركز بحري مهم واحتلوا منطقة من سهل اللاتين . وفي بداية القرن الخامس ق . م . هاجم الفولسكي ضواحي روما . وقد خلدت الأخبار اسمي كوريولانوس في دحر روما للفولسكي وسينسيناتوس في هزيمتها للاكوي سنة ٤٣٠ ق . م . وبزوال خطرهما تمكن اللاتين من التوسع في لاتيوم حتى الساحل . واصطدمت روما بعدها بمدينة في الاتروسكية الثرية تجارياً وزراعياً والواسعة كروما وكانت واقعة عبر التيبر على بعد ١٢ ميلاً شمال روما . وأظهرت الحفريات ثراء قبورها وتجارة أهلها الخارجية الواسعة وأوضحت بقايا معبدهم التأثير الروماني . واندلعت الحرب بين روما وفي سنة ٤٠٦ ق . م . ربما بسبب تصادم مصالحها السياسية والتجارية في شمال لاتيوم . وتذكر الأخبار الصعبة التصديق احتلال روما لمدينة فديناي القريبة وحصارها في لمدة عشر سنوات (٤٠٥ ـ ٣٩٦ ق . م .) حتى سقطت بأيديهم ، وهنا أدخل الرومان سياسة دفع مرتبات للجند ، والتزمت مدينة كيري الحياد ولم تستجب مدن الاتحاد الاتروسكي الاثني عشر لنداء في بمساعدتها ولكن أعانتها كابينيا وفاليري وتاركويني ومتطوعون كثر من مدة عدة ، ولم تصمد أخيراً بتحصينات في حيث كانت واقعة على مرتفع صخري وعر محاطة بخندق مليء بالماء من ثلاثة جوانب حيث دخلتها الجيوش الرومانية بقيادة كامليوس واستعبد سكانها ، وذبح شبابها وصادر أراضيها فزادت مساحة روما الى الضعف .

غزا الغاليون حوالي سنة ٤٠٠ ق . م . شمال ايطاليا في قبائل بموجات متتابعة وضربوا الاتروسكيين وسيطروا على المنطقة بين مصب نهر البو وأنكونا (المنطقة التي سميت غالة القريبة « ماقبل الألب » أو غالة السيسألبانية) . وكانت قبائل غالة ثمانية على عداء بعضها مع بعض يمارسون الرعي والزراعة الأولية ،وصنع بعض الأدوات المعدنية وكانوا مولعين بالحرب حيث استعملوا السيوف الطويلة ذات الحافتين الحادتين والدروع الصغيرة . ولم يكونوا مدربين بل غايتهم النهب وهم غير قادرين على حصار المدن . وقد سكن البوي وراء نهر البو حيث سميت مدينة بونونيا (بولونا الحالية) باسمهم .

الفصل الثالث
الجمهورية الرومانية الأولى (٥٠٩ ـ ٢٦٥ ق . م .)

أ ـ توسع روما والتنظيم السياسي لايطاليا :

وبعد خروج الاتروسكيين من روما هجم الأمير الاتروسكي لارس پورسينا من كلوسيوم عليها وهدم تحصيناتها وخربها الأمر الذي أضعف روما . ولم يدم احتلاله لروما طويلاً حيث دحر قوات من روما والمدن اللاتينية جيشه الذي كان يقوده ولده أرنوس قرب بحيرة الباب . وصارت روما مقتصرة السلطة على المدينة وضواحيها ، محاطة بالأعداء ورفع حكم الاتروسكيين معه حماية الطبقة العامة من ظلم البطارقة مما ولد منافسة اجتماعية بين طبقات روما تعرض وحدتها للخطر . ونقرأ عن حكم روما بعد عصر الملوك من حاكمين(قنصلين) بحكمان سوية والذي استمر خلال العهد الجمهوري باستثناء حالة حكم العشرة لغرض سن القوانين أو حالة حصر القوى القنصلية بعسكري يحكم حكماً فردياً (دكتاتور).وربما كان تعيين أول دكتاتور حوالي سنة ٥٠٠ ق . م . وهناك اختلاف بين الباحثين المحدثين حول طبيعة حكام روما بعد زوال عصر الملوك مباشرة . ففريق يعتقد بأن زوال الملكية في روما كان تدريجياً حيث حكم أولاً الكاهن الملك الذي اتخذ لقب ملك ومعه حكام ينتخبون كل سنة الغرض منهم حماية المدينة والقيادة في الحرب . وبالوقت الذي يذكر ليفي بأن الحاكم (ماجيستريت) قد سمي في البداية پريتور (قاضياً) يقول زوناريس بأنهم سموا حكاماً . واقدم كتابة وصلت الينا تحمل اللقب حاكم هو في الشاهد التذكاري لكورنوليوس بارباتوس من سنة ٢٩٨ ق . م . ونقرأ عن أسماء ثلاثة من الفترة التي أعقبت حكم الملوك لهم علاقة مع انشاء المؤسسات الحرة هم جونيوس بروتوس ، وفاليرياس (الملقب پوبليكولا) وهوراتيوس پولفيلوس . ويؤرخ پوليبيوس أول معاهدة بين روما وقرطاجة سنة قنصلية بروتوس وهوراتيوس ويذهب آخرون الى وجود حاكم في كل مدينة باترووريا بلقب زيلاك ويليه المارونوك . وسمي الزيلاك في مدينة كيري دكتاتوراً في وقت سمي المسؤول الاتحادي بقائد اتروريا . بينما سمي الحاكم الرئيس في مدن اريكيا ، لانوفيوم ونومنيتوم بدكتاتور ربما تحت رئاسة دكتاتور اللاتين ، في وقت حكمت به مدن لورنتس ، ولافيناتس وبرينسته بقادة .(١)

اصطدم الرومان باللاتين في معركة قرب بحيرة ريغيلوس وأخيراً عقد اتفاق بين الاثنين سنة ٤٩٣ ق . م . شكل بعدها جيش موحد للدفاع تجهزه كل مدينة بعدد متساوي من المحاربين وترأسه الدولة التي تطلب معونته . وصارت روما المدينة الأكثر

وتقدم السينونيون باتجاه جنوب شرق الوادي ولم يلاقوا مقاومة شديدة من الاتروسكيين . وفي سنة ٣٩٠ ق . م . عبرت جماعة من غالة جبال الايبناين بقيادة برينوس وحاصرت كلوسيوم الاتروسكية التي استنجدت بروما التي ارسل مجلس الشيوخ فيها وفداً لانذار الغاليين الذين عدوه تحدياً ، وتقدموا نحو روما سنة ٣٨٩ ق . م . وكسروا جيشاً رومانياً قرب ألليا من فروع التيبر مما جعل الطريق أمامهم لروما مفتوحاً فساروا اليها واحتلوها بسهولة وهدموها . وأوضحت آثار تخريباتهم الآثار حيث وجدت طبقات الحرق في الفورم وتل البالاتاين . وحوصر الكابيتول لسبعة أشهر لم تصل خلالها أية مساعدات من في أو المدن اللاتينية حتى اضطرت الحامية الى الاستسلام الذي كان بشروط سهلة حيث سمع المحتلون بحصار الفينيقي لمستوطناتهم في الشمال وتسلموا مقابل انسحابهم عن روما ألف باوند من الذهب (١٣٠ ألف دينار) . وقد حسن الرومان تسليح جندهم بعد تعميرهم روما واعادتهم تعمير استحكاماتها ونظموا وحداتهم العسكرية ومنح اصلاحهم الدستوري لسنة ٣٦٧ ق . م . منصب الحاكم الى العامة دون تحفظ زود الجيش بالقادة الأكفاء . وقد غزا الغاليون لاتيوم سنة ٣٦٠ ق . م . ثم في سنة ٣٤٩ ق . م . حيث صدهم الرومان مما أعطاهم الزعامة على الشعوب الايطالية . ثم عقد السينونيون الغاليين معاهدة سلام مع روما سنة ٣٣١ ق . م . وأحبط الرومان محاولة من الغاليين والتركوينيي الاتروسكيين لتحرير منطقة حليفتهم السابقة في .

في سنة ٣٨٩ ق . م . دحر كاميلوس الاكوي عند بولا واحتل المدينة . وفي سنتي ٣٨٦ و٣٨٥ ق . م . هاجم الرومان الهرنيكي الذين حالفوا اللاتين والفولسكي ودحروهم . وفي سنة ٣٦٢ ق . م . دحروهم أيضاً واحتلوا مدينة فرنتينوم . وظل الرومان يحاربون الفولسكي ويدحرونهم منذ سنة ٣٨٩ ق . م . وفي سنة ٣٥٨ ق . م . سقطت مدينة انتيوم أهم مدن الفولسكي بأيديهم وانتهت مقاومتهم وحالفوا الرومان ولكنهم ظلوا شوكة تقض*مضجع الرومان يعينون كل ثائر ضدهم . وواجهت روما تحد لسلطتها في لاتيوم حيث انفصم الحلف القديم معها وكونت مدن تيبور وبرينستة حلفاً بينها وساعدت مدينة فلتراي حركة العصيان الجديدة ضد روما التي أيدتها الفولسكي والاكوي وغاليين في حين ظلت مدن أخرى أمثال توسكولوم وقسم من المدن اللاتينية الجنوبية مخلصة لروما مثل أرديا ، واريكيا ، ولانوفيوم ، وكورا ونوربا الخ . وقدمت العون لجيوشها . وفي سنة ٣٧٧ ق . م . انكسرت جيوش المدن اللاتينية الثائرة التي استخدمت الغاليين كمرتزقة . وفي سنة ٣٦٠ ق . م . دحر الدكتاتور أهالا الغاليين قرب بوابة كولين ولجأ الفارون منهم في تيبور التي هب سكانها لاعانتهم . وباندحارهم وافقت الدول اللاتينية

الثائرة على تجديد حلفها مع روما سنة ٣٥٨ ق . م . الذي أضافت له روما شروطاً أشد وطأة . وفي السنة التالية ضمت روما لها سهول پومپتين حاجبة عن برينسته اي منفذ الى البحر . وما ان حلت سنة ٣٥٤ ق . م . حتى كانت روما قد بسطت سيطرتها على كل لاتيوم .

واجهت روما منذ أواسط القرن الخامس ق . م . هجمات السبيلين على جنوب ايطاليا حيث احتلوا كاپوا سنة ٤٢٨ ق . م . وكوماي سنة ٤٢١ ق . م . والى الجنوب منهم استقر اللوكانيون (فرع من السبيلين) وفي أقصى الجنوب استوطن البروتيون (فرع آخر من السبيلين) . وحمل الايوليون والمدن اليونانية في ايطاليا السلاح لوقف توسع السبيلين على حسابهم . وباءت محاولات بعض المدن اللاتينية بالفشل كما ذكرنا وصارت الدول اللاتينية بموجب اتفاقها الجديد مع روما تقدم عدداً متساوياً من الجند ويتقاسمون بالتساوي غنائم الحرب وتبادلوا حقوق المواطنة ، فكل مواطن من أية مدينة يتمكن من العمل في المدينة الأخرى ويتزوج منها ويشتري الأملاك . ولكن في سنة ٣٣٨ ق . م . ثارت كل المدن اللاتينية ضد روما حيث ادركت أن حلفاً مع روما سيؤدي الى زعامة الأخيرة . فقد منعت روما دول الحلف سنة ٣٥٨ ق . م . من الحصول على أي من الممتلكات التي أخذت من الفولسكي وكون الحلف الذي عقدته روما مع السامنين قد أشعر دول اللاتين بالخطر المقبل من الاثنين . وفي سنة ٣٤٨ ق . م . أكدت معاهدة روما مع قرطاجة سيادة الأولى على لاتيوم . وقد طلبت كاپوا من روما سنة ٣٤٣ ق . م . مساعدتها ضد السامنين الأمر الذي أدى الى اصطدام روما بهم في مايسمى بالحرب السامنية الأولى (٣٤٣ ـ ٣٤١ ق . م .) فقد اتقن السامنيون حرب الجبال وبجماعات صغيرة حاملين سيوفاً قصيرة ورماحاً ثقيلة ودروعاً كبيرة بيضوية الشكل . وقد انتصرت روما في هذه الحرب بمساعدة كاپوا وحلفائها من اللاتين. ويتألف السامنيون من قبائل عدة مثل كوديني ، وپنتري ، وكراكيني وهرپيني وكانوا معروفين بحبهم للحرية . وقد تركت معاهدة ٣٤١ ق . م . بين روما والسامنين للأولى السيطرة على كاپوا وكامبانيا وفي مركز تسيطر فيه على لاتيوم . وقد طلب اللاتينيون مساواة في الحقوق السياسية مع الرومان ولكن روما رفضت ذلك . ولم تصمد المدن اللاتينية التي هرعت لمساعدتها قبيلة الفولسكي ومدن كاپوا وكوماي في حربها لروما وانحلت الجامعة اللاتينية وسيطرت روما على خمس مدن وادمجتها بها وصارت بقية المدن اللاتينية حلفاء لروما يزودونها بالجنود وخسروا حقوق التجارة والزواج بعضهم مع بعض واقتصرت على روما فقط . وارتبطت روما مع كل منها باتفاقية وحصل بعض المدن منها على المواطنة الرومانية دون حق التصويت واحتفظت مدن تيبور وبرينسته بحكمها الذاتي وصادرت

روما سفن اسطول الحلف اللاتيني وزرعت روما مستوطنات بحرية عند انتيوم وتراكينا وصارت روما عاصمة لاتيوم وحامية سكانه .

منذ سنة ٣٤١ ق . م . ظلت روما تتوسع على حساب السامنين حيث سيطروا على فريجيلا وعقدوا حلفاً مع نابولي حاجبة السامنين عن البحر . وكان السامنيون منشغلين في حرب مع ترينتوم والمولوسيون من أبيروس (البانيا الحالية) ولكن ما ان انتصروا على الاخيرين بقتل مليكهم (اسكندر سنة ٣٢٦ ق . م .) طالب السامنيون روما بمنفذ على البحر ولما رفضت الأخيرة بدأت الحرب الطويلة بين الطرفين ودامت أربعون سنة واشتركت بها كل جماعات شمال ووسط ايطاليا . وقد اضطر جيش روماني في سنة ٣٢١ ق . م . الى الاستسلام في مضيق كودين عندما كان في طريقه من كامبانيا الى ابوليا . وتنازلت روما في السلام الذي عقد عن مناطق للسامنين ووعدت بعدم تجديد الحرب وتقديم ٦٠٠ من فرسان روما رهائن عندهم . ويظهر أن السلام ظل حتى سنة ٣١٦ ق . م . حسنت روما تنظيم وتدريب جيوشها على حرب الجبال . ففي تلك السنة أحاطت روما مدينة سامنيوم من الشرق والغرب وأسست مستوطنة في لوكريا كقاعدة شرقية . فحاصر السامنيون تراكينا واثاروا تمرداً في كامبانيا واسترجعوا لوكريا ولكن المدن اللاتينية ظلت مخلصة لروما التي انتصرت على السامنين عند بوفيانوم وسيطروا على ابوليا وحجب السامنيون عن الادرياتيك بسلسلة من الحصون الرومانية . ونجح السامنيون في اثارة شعوب ايطاليا الأخرى ضد روما . ووجدت روما خير قائد في شخص ابيوس كلوديوس . واصلح نظام الاحصاء القديم في روما حيث وسعت القاعدة من تملك الأراضي الى جميع الثروات مما زاد مصادر الدولة بالجيش والمال . وادخل اصلاح جديد في الجيش شمل تنظيمه وتسليحه حيث قسم الى وحدات صغيرة وصار سلاح الخيالة أكثر فعالية وخير سند للمشاة واستحدثت قوة بحرية سنة ٣١٠ ق . م . وكان لروما في وحدتها وتفرق اعدائها خير قوة . واقنع السامنيون المدن الاتروسكية (ذات الاتفاقيات مع روما) بمهاجمة المناطق الرومانية في جنوب اترووريا مما اضطر الرومان الى تقسيم قواتهم الحربية بين الاتروسكين والسامنين . ونجحت روما في اجبار المدن الاتروسكية على قبول سلام معها سنة ٣٠٩ ق . م . ونجح السامنيون في فصل الهرنيكي ، الاكوي والبليكني من حلفها مع روما . وفي سنة ٣٠٤ ق . م . اخضعت روما كل هذه الجماعات ثانية وترك السامنيون ادعاءاتهم في كامبانيا وخسروا بعض المقاطعات الحدودية واسترجعت روما ابوليا . وضمنت محالفات روما لها مساعدات الفئات المحاربة مثل المرسي ، ماروكيني ، فرينتاني ، والبليكني وبعض دويلات الاومباريين . ولما ثار

الهرنيكي صادر الرومان منطقتهم وكذا صار مصير الاكوي والحق جزء من أراضي السابين ومنح سكانها المواطنة الرومانية وزرعت المستوطنات الرومانية بالأراضي المصادرة وقسمت الأراضي الأخرى بين المواطنين الرومان . وفي سنة ٢٩٦ ق . م . تقدم جيش روماني شمالاً على طول الساحل والتحق بالغاليين قرب سنتينوم . وهنا انتصر الرومان على السامنين وحلفائهم انتصاراً انهى المقاومة السامنية واقف الغاليين . وترك الاومباريون والغاليون النزاع واستسلم السامنيون سنة ٢٩٠ ق . م . وصاروا حلفاء لروما كجماعة غير مستقلة واسكنت مستوطنة رومانية لعشرين ألف شخص في فينوسيا على حدودهم الجنوبية . ثم هاجم الرومان جماعة السينونين من الغاليين ودحروهم وطردوهم من شبه الجزيرة والحقوا أراضيهم بممتلكاتهم وسموها الأرض الغالية (أغر غاليكوس) . ولكن الاتروسكانين مع البويون تقدموا من وادي البو ضد روما ودحروا قوة رومانية عند اريتيوم سنة ٢٨٤ ق . م . ولكن روما مزقتهم شر ممزق في السنة اللاحقة عند بحيرة فديمون وفي معاهدة السلام الحق الرومان أراضي البويون الغاليين بهم وانشأوا مستوطنة سينا غاليكا . وفي السنة التالية اخضع الرومان اللوكانين في الجنوب وفي سنة ٢٨٠ ق . م . كانت جميع المدن الاتروسكية قد دخلت الاتحاد الايطالي كحلفاء . (٢)

كانت المدن اليونانية في جنوب ايطاليا عرضة لهجمات اللوكانين ، والبروتين والميسابين وكانت ذات حضارة ثرية وقديمة بشعوب محبة للترف تنقصها الروح العسكرية والقيادة الفعالة والوحدة السياسية . وكانت ترينتوم اكبر هذه المدن تعتمد على الصناعة والتجارة ذات أسطول قوي تعد حامية المدن اليونانية بايطاليا وكثيراً ماتساعد اخوانهم في بلاد اليونان . وقد انضبت المنازعات الداخلية القوة البشرية في هذه المدن التي ذاقت الأمرين من مذابح الطغاة وهجمات القبائل الايطالية البدائية المتكررة عليها مما جعلها تبدأ بالضعف منذ النصف الثاني من القرن الرابع ق . م . في وقت كانت روما تتقدم المدن الايطالية وتبني لها مجداً وتقود وحدة . وكانت المدن اليونانية في البلد الأم (اليونان) تأتي أحياناً لنجدة اليونانيين في جنوب ايطاليا . فأرخيداموس ملك اسبارطة قتل سنة ٣٣٨ ق . م . اثناء حربه اللوكانين . ودحر اسكندر ملك ابيروس وعم الاسكندر الكبير اللوكانين والبروتين وعقد معاهدة مع روما سنة ٣٣٤ ق . م . ولكن الترنتيوم هجروه أخيراً فغلبه الايطاليون سنة ٣٣٠ ق . م . وقتلوه . وادخل اغاثوكليس ملك سرقوسة البروتين بدولته واحتل بعض المدن اليونانية في الجنوب الغربي . وبعد أن توفي سنة ٢٨٩ ق . م . هاجم اللوكانيون ثوري سنة ٢٨٢ ق . م . وطلبت ترينتوم مساعدة من روما فتباطأ مجلس الشيوخ في اجابتها ولكن العامة الذين حصلوا منذ فترة قليلة على حقوق تشريعية أصروا على التدخل . وفعلاً تدخلت روما ، ودحرت اللوكانين

ووضعت حامية في ثوري وانزلت بعض سفنها في خليج ترينتوم مما عدته ترينتوم خرقاً لمعاهدتها مع روما فأغرقت منها سبعة واحتلت ثوري ، وكانت ترينتوم غضبة من تأسيس روما لمستوطنة لاتينية في لوكريا سنة ٣١٥ ق . م . ولما احتجت روما على هذا التصرف أهان الترنتيون الوفد الروماني ورموه بالقذارة . وكان هجوم روما على ترينتوم سريعاً فوت الفرصة على حلفائها من سامنين ولوكانين وبروتانين بتقديم المساعدة .
فطلبت ترينتوم العون من برخوس ملك ايبروس وزوج ابنة بطليموس الأول ملك مصر وكان قائداً مغامراً بخبرة طويلة ومهارة في القتال وعنده جيش ضخم حوى فيلة .
واصطدم برخوس بالرومان قرب هرقلية سنة ٢٨٠ ق . م . وكان انتصار بيرخوس باهضاً تقدم بعدها حتى لاتيوم ولكنه انسحب ورفضت روما طلبه للصلح . وفي السنة التالية دحروا روما ثانية قرب اسكولوم في أبوليا ورحب برخوس حينئذ بالصلح الذي طلبته روما والتي أدركت قوته وقوة حلفائه من المدن اليونانية ، فضلاً عن تحشيد جيوش لها تحسباً من هجمات اتروسكية ، سامنية أو من جنوب ايطاليا ، وكان برخوس متألماً من تصرف حلفائه اليونانيين ورغبته في قبول دعوة الصقليين له لايقاف قرطاجة عند حدها ، وكان طلب برخوس من روما احترام استقلال المدن اليونانية في ايطاليا ولكن قرطاجة قدمت الآن سفناًومساعدات الى روما طالبة منها ايقاف مفاوضاتها مع برخوس مما جعل الأخير يستجب لدعوة الصقليين وتوقفت جهود السلام بينه وبين روما . وتقدم برخوس بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل لحرب القرطاجين وايقاف هجماتهم على صقلية والقضاء على تمردالمامريتين والكامبانين المرتزقة الذين استخدمهم الملك الصقلي السابق اغاثو كليس وسيطروا علىمسينا وصاروا يهددون المدن اليونانية .
ودخل برخوس العاصمة سرقوسة حيث أعلنه السكان ملكاً ونجح خلال سنتين في اخراجهم من انحاء الجزيرة كافة عدا القلعة الغربية عند ليليبيوم ولكن القرطاجين اغرقوا نصف سفنه وهو في طريقه ، كما قيل ، لغزو قرطاجة في تونس [٣] ، وأدى تخوف الصقلين من برخوس الى تركه الجزيرة وعودته الى ايطاليا حيث وجد استسلام ترينتوم سنة ٢٧٢ ق . م . مع حاميتها من جنوده الى روما . وحالفت هرقلية ، وكروتون ، لوكري ومدن يونانية أخرى روما ولم يعد السامنيون والبروتون واللوكانيون حلفاء له . وحصل على انتصارات وقتية حيث استرجع كروتون ولوكري وحصل على جنود من ترينتوم . ولكن هجومه على الرومان في ماليفونتوم كان مأساة لجيشه حيث أخذت روما الموقع وأسست فيه مستوطنة رومانية الى جانب أخرى عند بوسيدونا (بيستوم) وغيرت اسم ماليفونتوم الى بينيفينتوم (معناها مرحباً باللاتينية) سنة ٢٧٥ ق . م . وانسحب برخوس الى ترينتوم ومنها الى بلاده تاركاً جيشه في عهدة قائدة

ميلو . وفي سنة ٢٧٤ ق . م . بعث بطليموس فيلادلفوس وفداً الى روما مهنئاً بانتصاراتها وهو بمثابة اعتراف بالجمهورية الفتية كقوة عالمية .

وصارت كل الدول اليونانية حلفاء لروما وضمن الأخيرة لها الكثير من أراضي سامنيوم وسلم اللاكونيون الى روما مدينة بيستوم اليونانية التي غيروها كما ذكرنا الى بوسيدونيا وصار البريتون حلفاء لروما واعطوها نصف غاباتهم على جبل سيلا وضمت روما لها أراضي البيكنين والسابين وأعطتهم المواطنة الرومانية سنة ٢٦٨ ق . م . وبذلك صارت كل شبه جزيرة ايطاليا سنة ٢٦٥ ق . م . تحت سيطرة روما التي نظمتها على شكل اتحاد . (٤)

وهناك أسباب عدة لانتصارات روما مثل موقعها الوسطي وشخصيتها العملية المثابرة وتنظيمها العسكري وستراتيجيتها السياسية والعسكرية الى جانب تفرق أعدائها وهجوم بعضهم على بعض مثل حرب الغاليين للاتروسكان ثم حروب سرقوسة مع السامنين ، ثم وحدة روما وبعد نظرها في المحالفات والتنظيمات السياسية واصلاحاتها الدستورية المتكررة . واهتمامها بالطرق التي استملكت منها شبكة تربط المناطق كافة الى جانب متانة بناء هذه الطرق . ثم سيطرتها الناجحة على الأراضي التي تضمها لها بالاحتلال .

كان المواطنون الرومان يشكلون سكان الامبراطورية الأحرار وهم اما مواطنون كاملون أو مواطنون لاحق لهم بالتصويت أو التوظف في روما . ويعيش الأولون في روما ، والمدن المهمة وقرى منتظمين على أساس قبلي وسكنى في مقاطعات . وهناك مستوطنات يعيش بها المواطنون الرومان الذين يخدمون في حاميات الموانىء الايطالية المهمة لحمايتها ومراقبة سكانها أعفى سكانها من الخدمة العسكرية نظراً لطابعهم الدفاعي . وكان عدد هذه المستوطنات سبعة وعشرين ، ثانياً ـ الرومان المحرومون من حقوق المواطنة ويتحملون كافة الواجبات مثل سكان المدن في اترووريا ، لاتيوم وكامپانيا وسميت هذه المدن بلديات والتي قصد بها السكان الذين يتحملون أعباء المسؤوليات بلا حقوق مواطنة ، لايصوتون ولهم حكم ذاتي ضمن دساتيرهم السابقة . ثالثاً : الحلفاء اللاتين وهم مرتبطون بالرومان بروابط الدم والمصالح المشتركة وتشمل المدن اللاتينية القديمة مثل تيبور وبرينسته الخ والمستعمرات اللاتينية التسعة المشتركة في الجامعة اللاتينية القديمة ، رابعاً : المستعمرات اللاتينية التي أسستها روما في ايطاليا بعد سنة ٣٣٨ ق . م . وأكثر المستوطنين من فقراء الرومان والمواطنين اللاتين . ويمكن لمواطن المستوطنة اللاتينية اذا خلف ولداً في سن الخدمة العسكرية النزوح الى روما ليصبح

مواطناً ، وكل مستوطنة لها حقوق الحكم الذاتي بقوانينها وحكامها وحقها باصدار عملة واجراء احصاء لسكانها وحق التجارة مع كل المدن الايطالية بضمنها روما. والمستوطنات اللاتينية عسكرية بالدرجة الأولى وتركزت في النقاط الستراتيجية . ولسكان المدن اللاتينية الحق في التصويت بالمجلس القبلي اذا حدث انهم في زيارة لروما ولكنهم لا يصوتون ولايخدمون في الوحدات الرومانية بل يشكلون فرق خيالة ومشاة منفصلة . خامساً : الحلفاء الايطاليون ويتألفون من الايطاليين ، واليونانيين ، والايليريين والاتروسكان . ويتألفون من حوالي ١٥٠ جماعة ومدينة وقبيلة كل منها مرتبط مع روما باتفاقية (فويدوس) تنظم علاقتها معها (مساعدتها العسكرية لروما ، واشراف روما على سياستها الخارجية الخ) .. ولي الجيش لهم وحدات خاصة من الخيالة والمشاة بقيادة ضباط رومان ويتسلمون رواتبهم من روما ولهم حصة من الغنائم . (٥)

ب ـ التطور الدستوري والاجتماعي في روما :

جنى النبلاء ثمار الثورة ضد الملوك في روما ، فصار الحكم منحصراً بهم في العهد الجمهوري لم يتنازلوا عن بعض السلطات للعامة الا بعد نزاع مر . فكانت ارستقراطية ولم يزد عدد البطارقة في بداية القرن الخامس ق . م . عن عشر السكان الأحرار ولكن ثراءها وحريتها اعطاها ارجحية ومركزاً متميزاً . فبعد أن قبض البطارقة على ناصية الحكم وأخرجوا الملوك الاتروسكان عمدوا الى اقرار نظام دولة يضمن لافراد طبقتهم القبض على الامور بيد من حديد . ولم يكن الحكم الجمهوري هذا مستنداً على دستور مدون بل مقتبساً من الأعراف الرومانية التي رأى البطارقة فيها دعماً لمراكزهم . ولم يلغ الرومان منصب الملك بل جردوه من سلطاته الزمنية وتركوا له الناحية الدينية وصار موظفاً دينياً يشرف على الأمور الدينية . وفي أوائل القرن الخامس ق . م . قسموا منصبه الديني بين اثنين اطلقوا على الأول اسم ملك القرابين والأضاحي والثاني رئيساً أعلى يشرف على طقوس العبادة وهو پونتيفكس ماكزيموس (الحبر الأعظم) .

ووضعت سلطات الملك السابق بيد القنصل (الزميل) وقد أطلقوا على الواحد منهم في البداية القاضي (پريتور) . وقد عينوا قنصلين لحكم البلاد . وربما يعود سبب تعينهم اثنين الى خشيتهم من أن يستأثر قنصل واحد بنصيب كبير من السلطة التنفيذية قد يمكنه من ارجاع الملكية . فضلاً عن جعلهم منصب القنصلية سنوياً زيادة في الحيطة . فينتخب المجلس المئوي قنصلين بالسنة وكل منهم مساوٍ في الصلاحيات للآخر يشرفان على الدولة ويديرانها . وكل قنصل مسؤول أمام الشعب بعد انتهاء مدته عما قام به من أعمال خلال مدة حكمه ، ومنح كل قنصل حق نقض على أعمال زميله . وزيادة في

حرص الاشراف على مصالح طبقتهم فقط قصر أول الأمر حق انتخاب القنصلين على افراد طبقتهم فقط حتى ينفذوا رغباتهم . والقنصلان هما القادة في الحرب . ولما رأوا ان منصب القنصلين غير كفيل بمواجهة الأزمات الخطيرة أقاموا منصب دعوه الدكتاتور ومنحه من يختارونه له سلطات واسعة مطلقة داخل روما وخارجها وحددوا ممارسته لسلطته بمدة لاتزيد عن ستة أشهر غير قابلة للتمديد . وهناك مجلس الشيوخ (السنات) حصن طبقة البطارقة وكان يتألف من ٣٠٠ عضو من طبقة البطارقة يرشحهم القنصلان مدى الحياة . وكما كان في عهد الملوك فانه مجلس استشاري للحكام وموافقته ضرورية لتنفيذ الأحكام والقوانين . وهو الذي يحل المشاكل التي تبرز بين القنصلين ويعين خلفاً مؤقتاً للقنصل في حالة وفاته أو مرضه وبيده المسؤولية السياسية والعسكرية للبلاد . وان اختفاء الملكية زاد من قوة مجلس الشيوخ ولايمكن للقناصل أن يخالفو رغبته وله حق نقض قرارات مجلس الشعب الذي لايمكن ان تصبح ارادته نافذة دون موافقة مجلس الشيوخ .

وظل مجلس الوحدات خلال الفترة الأولى من العهد الجمهوري وقد مثلت به كل طبقات المواطنين بما فيهم العامة وهو مجلس قبلي قديم يسيطر عليه رؤساء البطون والتصويت فيه بأغلبية الوحدات .

وكان مجلساً مهماً يصوت على ترشيح الحكام والأمور المهمة كالحرب والسلم . وقد حل محله في بدء العصر الجمهوري مجلس المائة . فبعد أن تعد دائرة الاحصاء قائمة بأسماء الرجال الصالحين للخدمة العسكرية تتم دعوتهم للحضور في كامبوس مارتيوس بروما وهي ساحة تجمع للجيش الروماني وهناك يجري التصويت حسب الوحدات (كل وحدة مائة) ولذلك سمي مجلس المائة (كوميتيا سنتورياتا) . وصار منذ بدايته برلماناً سياسياً ينظم الأمور القضائية والانتخابات للأشراف . وهو الذي يعين موظفي الاحصاء (رقباء) (سنسور) ويرشح القناصل الذين يقودون البلد في الحرب كما يوافق مجلس السنات عليهم . وفي سنة ٤٢٧ ق . م . صار بيده حق اعلان الحرب . ومثل فيه المواطنون بطارقة وعامة على أساس ممتلكاتهم.وقسم مجلس المائة الى خمس طبقات بالنسبة الى الثروة لكل طبقة عدد من الوحدات لأغراض التصويت . والوحدات مقسمة بالتساوي بين الأعضاء الكبار (أكثر من ٤٦ سنة) والشباب (أقل من سن ٤٦) . والوحدات موزعة ٨٠ ، ٢٠ ، ٢٠ ، ٢٠ و٣٠ على التوالي بين الطبقات الخمس .

عاماً . وان القاضي أوربانوس هو الحاكم الاداري عند غياب القناصل وعند الضرورة يقود الجيش في الحرب . أما القاضي الثاني فيفصل في قضايا الأجانب المستوطنين في روما ولذلك سمي (بريتور بيريجرينوس) . ووظيفة القاضي الأساسية ادارة القضاء في روما شملت كل ايطاليا والمقاطعات . وفي بداية تقلده المنصب كان يصدر بياناً سنوياً يوضح تفسيره لقوانين معينة وحكمه بقضايا غير واضحة وقد صارت هذه البيانات أساساً للقانون المدني والجنائي الروماني . وكان الموظفون ينتخبون كل سنة ثم صار كل عشر سنوات سنة ٣٤٢ ق . م . وبعد سنة ٨١ ق . م . ظل القنصلان والبريتور في روما لمدة سنة (٦) .

جاءت انتصارات روما في العهد الجمهوري الذي تسلط فيه البطارقة ، وقد صاحبت هذه الانتصارات أزمات اقتصادية حلتها الدولة بشراء القمح من اترووريا ، أوكامبانيا أو صقلية ، كما أكملت بنايات المعابد التي بدأت تعميرها في نهاية عصر الملوك وشيدت معابد جديدة مثل معبد كريس على الأفنتاين . وانحطت التجارة البحرية الأمر الذي نراه واضحاً في بساطة عيش البطارقة واغراق الفلاحين بالديون نظراً لقلة المقرضين وارتفاع سعر الفائدة والذي كان يخسر نتيجته الفرد حريته عند عدم الدفع أو بيعه عبداً . ثم العقوبات القاسية التي كانت تطبق ضد المخالفين للأعراف.وأدت هذه المساوىء الى صراع بين البطارقة والعامة والذي دخله الأخيرون كجماعة منظمة . وقد ابتدأ هذا الصراع على يد جماعة صغيرة من التجار كانت تجتمع على تل الافنتاين بروما بينهم يونانيون شهدوا في بلادهم تلاشي ارستقراطيي الأرض وسن دساتير ديمقراطية . ولكن التجار كانوا قليلين وعديمي التأثير ، وكان للاشراف دور كبير في الحروب الكثيرة آنذاك الأمر الذي أدى الى قوتهم وتأثيرهم في الدولة . وساعد العامة في صراعهم ملاكون وقواد مشاة صاروا بعدئذ الناطقين بحال العامة . وأراد العامة تشريعاً يوضح واجباتهم وحقوقهم (٣) .

كانت روما زمن الملوك مقسمة الى ثلاثة قبائل أضيف لها أربعة أخرى أطلق عليها اسماء مناطق من روما . وفي النصف الأول من القرن الخامس ق . م . نظمت الحكومة الرومانية خمسة قبائل تحمل اسماء جغرافية . وفي سنة ٤٥٠ ق . م . ادخلوا منطقة قبلية جديدة باسم روميليا على ضفة التيبر اليمنى (الفاتيكان الحالية) . وبعد احتلال فيديناي سنة ٤٢٦ ق . م . نظمت تسعة قبائل عند ضفة التيبر اليسرى أطلق عليها اسماء بطون البطارقة مما يدل على نفوذ الأخيرين في الدولة وقتذاك . وحوالي ٤٠٠ ق . م . أضيفت قبيلتان بأسماء جغرافية والذي أخذه بعضهم دليلاً على ضعف بقوة البطارقة العسكرية وصار العامة يزودون سلاح الخيالة بنسبة كبيرة . وصار مجموع القبائل سنة ٢٤١ ق . م . ٣١ قبيلة .

تذكر الأخبار أن الجيش الروماني زمن الملوك كان يتـألف من مجنـدين قوامهم ثلاثـة آلاف مشاة وثلثمائة خيال تجند من بصورة متساوية من القبائل الثلاثة . أما عن بدايـة العصر الجمهوري فمعلوماتنا عن الجيش قليلة باستثناء أن عدد الوحدات (بكل منها مائة) للخيالة أحياناً قد زيد من ٣ الى ٦ تجند من البطارقـة بـالأصل لتملكهم المـال لشراء درع وخيل والتزود بها وتركت العربات وصار الاعتماد على الخيالة (مشاة وخيالـة) يحـاربون كمشاة ويلاحقون العدو عند هربـه بخيولهم في وقت يخـدم العـامـة في سلاح المشـاة . وفي نهاية القرن الخامس ق . م . زيد عدد المجندين من ٣٠ الى ٤٠ وحدة مما يشير الى زيـادة بـالسكان . ويتـألف سلاح المشـاة من خوذة جلـديـة ، واقيـان صـدر برونزيـة ، ودرع برونزي ودرع ساق ودرع جلـدي وسيف حـديـد ورمح . ومن يمتلـك هـذه يسمى صف والبقية تحت الصف ويدعى الأخيرون للخدمة بأسلحة أقل كفاءة وبالخطوط الخلفية وفي حرب روما مع فْي تم تجنيد الفين من الملاكين الصغار جداً وصار عـدد الجيش سنـة ٣٦٦ ق . م . ٨٤٠٠ رجل في فرقتين .

وفي سنـة ٤٥٢ ق . م . وبضغـط من العـامـة شكل البطـارقـة لجنــة من عشرة منهم لوضع قانون سمي بعـد ذلـك بقـانون الألواح الاثني عشر ظلت منـه نتف متنـاثرة . وهو جمع من الأعراف المدنية والجنائية وبعض التنظيمات الاجتماعيـة وقيود على طقوس الـدفن المعقـدة . وتضمنت مواد في الحيـاة العـامـة والخـاصـة ونظمت حقوق وواجبـات العـائلـة وأملاك الأفراد وأشكال دفاع الأفراد عن حقوقهم وعقوبات ضـد السحر وأعطيت حريـة أكثر الى الفرد الذي صار بامكانه استئناف الحكم الصادر بحقه من أيـة محكـة عنـد مجلس الشعب،وحرر الابن من بيعه كعبد وأعطت السجين مدة ليجمع خلالها مـالاً يفتـدي بـه نفسه قبل استعباده . كما حرمت التزاوج بين البطارقـة والعـامـة وركزت على الجرائم التي تتحدى النظام العام . وكانت عقوبات الاعـدام محـدودة (حرق ، أو سلخ ، أو شنق ، أو قطع رأس أو رمي من أعلى صخرة تـاربيـان) واعتبر الرشـوة والقـذف والسحر والسرقـة جرائم عظمى وعاقب على الربا اذا تجاوزت فائدته ١٠ ٪ وللدائن الحق بـاستعبـاد المـدين اذا لم يوف مابذمته أو حتى قتله وتقييده بقيود لايزيـد وزنهـا عن ١٥ بـاونـد . وأعطت للأب سلطة مطلقة على أولاده ولوريث المتوفي على أرملته الى جانب قانون العين بالعين والسن بالسن . وجاء القانون مخيباً لآمال العامة التي عـارضتـه . وفي سنـة ٤٤٥ ق . م . صدر قانون كانوليان سمح فيه للبطارقة والعامة بالتزاوج .

وجاء القانون مخيباً لامال الطبقة العامـة التي شكلت جمـاعـة معـارضـة لـه . وظلت بعض مواد الألواح الاثنى عشر مطبقة حتى نهاية العصر الروماني . ولكنها أهملت الناحيـة الاقتصادية .

وهناك ٢٣ وحدة ليست موزعة على الطبقات بل ١٨ وحدة منها للخيالة ، واثنان للعمال الماهرين ، اثنان للموسيقيين ووحدة للفلاحين الذين لا أرض لهم ، ويلتحق الخيالة بالطبقة الأولى والعمال الماهرون بالثانية والموسيقيون بالثالثة ، ومعني هذا ان الطبقة الأولى التي لها امتياز التصويت أولاً لها ٩٨ وحدة من وحدات المجلس البالغة ١٩٣ وحدة ، وبذلك يمكنهم السيطرة بسهولة على المجلس . وان عدد الوحدات التي أعطيت لكل طبقة توازي عدد الوحدات العسكرية التي تقدمها ، وكانت هناك ضريبة أملاك وعلى الجندي تزويد نفسه بالسلاح ، وتخدم الطبقة الخامسة في قوات المشاة الخفيفة في وقت أعفيت من الخدمة الطبقات العاملة والفلاحون الذين لا يمتلكون أرضاً الا في أوقات الأزمات . ومجلس المائة هذا ينتخب الحكام ويوافق على اقتراحات القنصلين أو يرفضها وله حق اعلان الحرب ولديه يستأنف المواطنون دعاوى الاعدام . ومنذ القرن الرابع ق . م . الغيت عادة ارسال مقرراته الى مجلس الشيوخ لاقرارها .

لمجابهة طلبات العامة لحقوق سياسيه وزيادة مسؤوليات الدولة العسكرية والادارية ونظراً لتوسعها فقد استحدثت وظائف جديدة . فحوالي منتصف القرن الخامس ق . م . صار موظفو المالية الكبار (الكويستور) وعددهم اثنان موظفين مستقلين ومنح الشعب الروماني حق انتخابها ثم زيد عددهم الى أربعة اثنان يقيمان في روما واثنان يلحقان بالقنصلين خلال الحرب وأعطي الحق الى العامة بتقلد هذا المنصب . ثم عين اثنان من العامة محتسبين (ايديل) على الطرق والمجاري والأعمال العامة ويفتشان الأسواق ويمارسان وظيفة الشرطة أيضاً وحصر رئيس المحتسبين بالبطارقة (سورول ايديل) سنة ٣٦٦ ق . م . قبل أن يتناوب فيه العامة والاشراف. وفي سنة ٤٣٥ ق . م . استحدث منصب الرقيب (موظف الاحصاء) حيث يبقى الموظف خمس سنين في منصبه انزلت بعد ذلك الى سنة ونصف . وصار بعد ذلك يشرف على سلوك المواطنين حتى في حياتهم الخاصة واحتفظ الاشراف لأنفسهم بهذا المنصب . وكان المواطنون يستدعون للاحصاء في موقع مارتيوس بالرغم من كونهم معفيين من الخدمة وفي نهاية العملية يضحي الرقيب خنزيراً ، وثوراً وكبشاً ، ويثبت مسماراً في حائط معبد معين . كما يشرف الرقيب على المالية العامة والصرف .

استحدثت سنة ٤٣٦ ق . م . لجنة من النقباء (تريبون) العسكريين عددهم ثلاثة أو أربعة ثم زيدوا الى ستة لهم سلطات قنصلية واسعة . وفي سنة ٣٦٢ ق . م . اشترط وجود عضو من العامة فيها . أما القاضي فقد كان في البداية زميلاً للقناصل له صلاحياتهم ويحكم بغيابهم ثم زيد عددهم سنة ٢٢٧ ق . م . الى أربعة وستة بعد ثلاثين

أول ما أراد العامة كان ضمان حماية من أنظمة البطارقة القسرية . وفي سنة ٤٧١ ق . م . حصلوا على حق انتخاب أربعة نقباء(زعماء قبائل) من العامة يحمون من يلجأ الى معونتهم ضد اجراءات الموظفين الكبار . واقسم العامة اليمين بطاعة التريبون وباعدام من يخالف أوامره . كما سمح للعامة بالاجتماع تحت زعامة نقبائهم بمجلس للعامة على أساس قبلي . ومن الصعب الجزم بأن البطارقة قد استثنوا من هذا المجلس وكانت قراراته تستلزم موافقة مجلس الشيوخ . وخلال القرن الرابع ق . م . كان القناصل يدعون لأغراض تشريعية مجلساً يسمى المجلس القبلي يمثل فيه كل المواطنين ويرأس اجتماعاته موظف بسلطة واسعة وقراراته خاضعة لنقض مجلس الشيوخ .

وفي سنة ٣٧٦ ق . م . قاد الحركة النضالية للعامة نقيب جديد اسمه ليكينيوس الذي حصل لهم على ارجاع المنصب القنصلي شريطة أن يكون قنصل واحد من العامة وانصاف المدينين بأن عد الفوائد التي سددها المدين لدائنيه جزء من أصل المبلغ الأصلي ثم تحديد الأراضي بحيث لايجوز أن يكون لكل مواطن روماني أكثر من خمسمائة دونم من الاراضي العامة . وقد اقرت كل هذه القوانين سنة ٣٦٧ ق . م . بالرغم من معارضة البطارقة الشديدة . وفي سنة ٤٢١ ق . م . فتحت وظيفة (حاكم جزاء) الكويستر الى العامة وصار عددهم أربعة قد يرافقون القنصل كرؤوساء حسابات في الحملات . وقبل ذلك بعشرين عاماً وافق الاشراف على استخدام نقيب عسكري بسلطات قنصلية يسمح بترشيح العامة له ولكن لم ينتخب أي من العامة لهذا المنصب حتى سنة ٤٠٠ ق . م . ولما كانت التقاليد تعين القناصل والقاضي أعضاء في مجلس الشيوخ بعد انتهاء مدتهم ودخول العامة الى هذين المنصبين فقد فتح الطريق امامهم لدخول مجلس الشيوخ ولكن الأعضاء البطارقة أطلق عليهم الاسم باتريس وعلى العامة كونسكريبي (المنتمين) وظل هذا في صيغة الافتتاح الرسمية (باتريس كونسكريبي) للسنات .

صار ابيوس كلوديوس سنة ٣١٢ ق . م . من البطارقة رقيباً مالياً وهو الذي شيد أول قناطر روما . وكان الرقيب آنذاك قد أعطى سلطة ادخال أعضاء الى مجلس السنات فادخل كلوديوس كثير من العامة والعبيد المتحررين اليه الذين صاروا مواطنين رومان . وقيل أن القنصلين أهملوا القائمة بأسماء الأعضاء الذين أدخلهم كلوديوس . وقيل أنه سمح لأي مقيم أن ينضم الى أية قبيلة يرغب بها وان يسجل أملاكه أينما يريد وهذا يعطي حق التصويت الى أهل المدن دون التقيد بالقبائل الأربعة ، وقد صار كلوديوس قنصلاً مرتين ثم قاضياً فدكتاتوراً . وفي الحقل الديني فان الكهنوت ظل حتى نهاية القرن الرابع ق . م . حكراً على البطارقة عدا عضوية لجنة الكتب الدينية العامة والتي تنظم

المراسيم الدينية للدولة . وفي سنة ٣٦٨ ق . م . زيد اعضاء اللجنة من ٢ الى عشرة نصفهم من العامة وأعطى قانون أوغولنيان سنة ٣٠٠ ق . م . للعامة حق تقلد مناصب كهنوتية عليا والذي زاد عدد الكهنة العليا الى أربعة والعرافين الى خمسة شريطة أن تملأ الكراسي الجديدة من العامة . وفي سنة ٣٠٠ ق . م . منع قانون ڤالير يان تطبيق عقوبة الاعدام أو الجلد على أي مواطن تقدم باستئناف دعواه عند أي من المجالس . وطبق سنة ٢٨٧ ق . م . قانون هورتنسيان لمعالجة مشكلة الديون التي غرق بها الفلاحون نتيجة كثرة السكان ، وتردي التربة في لاتيوم وتجنيد الفقراء من ملاكي الأراضي وعدم اعطائهم من الرواتب مايسد رمقهم وتركهم المستمر لأراضيهم . وكان مجلس السنات الذي يمثل المقرضين يرفض ما اقترحه النقباء من الحلول ووافق عليها المجلس القبلي . ووصلت الحالة من السوء بحيث تقدم جنود العامة الى تل الجنكيلوم عبر التيبر مهددين بالانفصال عن الدولة مما اضطر السنات الى الاذعان وعين كوينتوس هورتينسيوس من العامة كدكتاتور لحل الأزمة . ولانعرف الحل الذي قدمه هوريتينسيوس ولكن مهمته تكللت بالنجاح حيث اعتبرت الاقتراحات التي وافق عليها المجلس القبلي قانوناً زاد في قوة هذا المجلس . ويمكن للمجلس أن ينعقد بناء على اقتراح موظف كبير ذي سلطة مطلقة (امپريوم) أو نقيب . ولأجل انتخاب نقباء العامة والمحتسب (الايديل) والنقباء العسكريين الأربعة والعشرين للتجنيد السنوي فيلزم دعوته من موظف كبير . ويجتمع المجلس القبلي برعاية موظف كبير لانتخاب القناصل ، والقاضي والمحاسبين والرقباء . وان كلا المجلسين (القبلي والمئوي) يضمان كل المواطنين الرومان ولكنهما يختلفان بالتنظيم . فوحدات الاثرياء تزيد عن تلك للفقراء في المجلس المئوي بينما المجلس القبلي أكثر ديمقراطية لأن كل قبيلة بها مواطنون من كل طبقة لهم الصوت نفسه. وزادت قوة النقباء في قانون هورتنسيان حيث منحوا حق الجلوس بمجلس الشيوخ ومخاطبته ودعوته ومحاكمة أي موظف كبير أمام المجلس القبلي وأعطوا حق النقض في مجلس السنات ان لم يقتنعوا بالمناقشات الخاصة بتلك المسألة . فقد سمح لهم بدخول قاعة المجلس وصاروا نتيجة كل ذلك حماة الدولة ضد سوء تصرفات أي موظف كبير . فبعد سنة ٢٨٧ ق . م . زالت الفروق بين العامة والبطارقة (الاشراف) بالرغم من بقاء السمعة الاجتماعية للأخيرين .

ومن الناحية العسكرية كان كل مواطن ملزم بأداء الخدمة العسكرية . وقد اتبع الرومان في البداية كما ذكرنا نظام الصف الذي لانعرف مدى بقائه . وان الفرقة كانت أكبر وحدة في الجيش مقسمة الى كتائب بكل منها ١٢٠ (أو ٦٠) رجلاً . وهذا التنظيم تطلبته مرونة الحركة في المناطق المكشوفة واستخدام الرماح الذي أخذوه مع الدروع من

السامنين . وصارت الدولة في العصور اللاحقة هي التي تزود العساكر بالأسلحة كافة لمن لايأتي بها . وفي القرن الثالث فأن جميع الرجال القادرين على الخدمة ولهم ممتلكات تعادل قيمتها أربعة آلاف حمار قد دعوا لاداء الواجب والباقون يخدمون في البحرية خلا أيام الأزمات . والخدمة أمدها ستة عشر حملة للمشاة وعشرة للخيالة والجنود يؤخذون من الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين سبع عشرة وخمس وأربعين . أما من سن الست وأربعين فيخدمون في حاميات المدن . والمجندون كان يبلغ عددهم سنوياً أربع فرق (٤٥٠ جندي لكل فرقة) ويمكن للفرق أن تزداد . وفي الحروب كانت تأتي جموع المتطوعين . ويقود الجيش في الحروب القناصل الذين هم عادة من ذوي الخبرة في القتال والسياسة لأن المرشح للقنصلية يشترط فيه خوضه عشر حملات ناجحة . أما معاونوه والنقباء العسكريون فلهم خبرات قتالية أخرى وشهدوا معارك وخدموا ٥ ـ ١٠ سنوات في الجيش . وأهم مافي الجيش الروماني تنظيمه وتدريبه ولقواده من القناصل سلطة مطلقة على القطعات المسلحة ويمكنهم فرض الموت على المهملين والمخالفين . وكانت تفرض على الجنود المسيرات الطويلة التي يشيدون بعدها معسكراً محصناً بخطة معينة محاطاً بسور وخندق يحمي الجند من الهجمات المباغتة وتشكل ملجأ مكيناً عند أي تراجع (٨) .

انقسم الايطاليون بعد الغزو الروماني الى طبقتين الأولى من الذين اندمجوا في الدولة الرومانية والثانية الذين ارتبطوا معها بمعاهدة . وشملت الأولى سكان لاتيوم ، وكامبانيا ، وجنوب اتروريا وبلاد السابين أما الثانية فضمت جنوب اتروريا ومرتفعات الابناين وجنوب ايطاليا . وتقع ضمن هذين الصنفين جماعات متباينة الحقوق ، فاللاتينيون نظراً لقربهم من روما وتماثل لغتيهما فقد حصلوا على الحقوق كاملة . أما الكامبانيون ، الاتروسكان والسابيون فقد تمتعوا بحقوق المواطنة الرومانية الخاصة (الضمان الشخصي والتملكي والتوريثي) بظل القانون الروماني . ونظراً لبعدهم عن روما . عدم المامهم باللغة اللاتينية فلم يعدوا قادرين على ممارسة الحقوق العامةفمنعوا من حق التصويت في المجلس أو التوظف . وبين هؤلاء سكان أواسط وجنوب الابناين البدائيين حيث المدن والمراكز الحضرية قليلة للذين دخلوا بمعاهدات مع روما أمثال المارسي ، بيليكيني والهربيني الخ) وكان عدد المعاهدات التي عقدتها مع هؤلاء ١٢٠ أو ١٥٠ . وضمن هذه الفئات المعروفون بذوي الهوية اللاتينية المتألفة من بعض الجماعات اللاتينية الأصلية لاسيما برينستة وتيبور والمستعمرات اللاتينية ، وصار الاصطلاح لاتين مجموعة من الجماعات وأعطوا حق اقامة الدعاوى الخاصة في المحاكم الرومانية أسوة بالمواطنين الرومان وحق التزاوج . وفرضت الخدمة العسكرية على الجميع وعلى كل الايطاليين دفع

الضرائب . ولايحق لتلك التي ارتبطت بمعاهدات مع روما عقد علاقات تجارية وسياسية مع أية دولة وجميعهم لهم حكم ذاتي ولم تتدخل روما بشؤونهم الداخلية ، وأكثر الدول الايطالية حكمتها ارستقراطية مالكة للأرض لما مصالحها المشتركة مع حكام روما . واستمر استعمال اللهجات المحلية والطقوس الدينية الخاصة وزادت العملات الخاصة تحت الحكم الروماني حتى عاش بين ظهرانيها المنفيين من روما . وكثيراً ماكان يصلهم المفتشون من الرقباء والقاضي .

وحكم في كابوا موظفان يتم اختيارهما لمدة سنة واحدة . ونظراً لخدمة الكل في الجيش فقد تسلموا جزء من الغنائم وأعطت الزعامة الرومانية للجميع الامان والسلام سواء في الخارج أو الداخل .

شهدت بعد سنة ٣٥٠ ق . م . بضعة معابد جديدة من مبيعات غنائم الحرب الى جانب المشاريع العامة . فقد شيد طريقان عسكريان كبيران وقناطر . وكان طول مجرى اكوا ابيا ميلاً واحداً أما مجرى قنطرة اينوفيتوس التي شيدت سنة ٢٧٢ ق . م . فكان طولها ٤٠ ميلاً تأتي بالماء من التلال السابينية . وكان النحت الروماني في بداية عصر الجمهورية مقتصراً على تماثيل الطقوس في المعابد سواء أكانت من الطين أو الصخر بالنسبة للنحات سواء أكان أتروسكيا أو يونانياً . وزين الفورم بتماثيل اشخاص مهمين أمثال كاميلوس وقربه تمثال الذئبة والتوأمين الذي وضع سنة ٢٩٦ ق . م . واستعار الرومان من الاتروسكان عادة تمثيل اسلافهم بتماثيل من الشمع في بيوتهم . ثم الصور الجدرانية وهو انجاز يوناني تعلمه منهم الفنانون الكمبانيون . وقيل أن صور معبد سالوس (سنة ٣٠٢ ق . م .) كان من عمل النبيل الروماني فابيوس بيكتور . وهناك مجموعة الصور الجدرانية التي صورها الفنانون الرومان لتخليد انتصارات برخوس والحرب الفينيقية الأولى . وان النماذج الرديئة للنقود الرومانية الأولى لم تصل الى مستوى النماذج اليونانية أو القرطاجية .

ان بدايات الأدب الروماني المحلي يمكن أن نراها في أغاني الحب الخاصة بمآدب النبلاء الرومان وعلى شواهد قبور الرجال المهمين وحوليات الكاهن الأعلى . وتعد هذه بدء الأدب الملحمي والتاريخي الروماني . أما عن الدراما فليس هناك الا تلك الخاصة بأعياد الحصاد والانتصارات والاعراس . ولكن أساس الأدب الدرامي كانت بداياته عند جيران روما . ففي سنة ٣٦٤ ق . م . مثل الممثلون الاتروسكان في عيد روماني وقبل نهاية القرن الرابع ق . م . استورد الرومان من كامبانيا اشخاصاً أمثال ماكوس المهرج ودوسينوس المنكت الأحدب بصحبة اللاعبين المقنعين . وان تنامي المجالس الشعبية أدى

الى تقدم فن الخطابة وبرزت في ذلك خطب ابيوس كلوديوس [٩] .

كان الوالد يحرص على تدريب ابنه على بضعة ألعاب كالركض ، والسباحة والملاكمة والمصارعة واستعمال السلاح ، الى جانب المام بتقاليد خاصة بالدولة واساطير الأبطال الرومان . وفي سن الثامنة عشرة يدخل الشاب السلك العسكري لاداء الخدمة الالزامية وحضور المجالس العامة وقد ينتخب الى وظيفة . وطاعة الدولة والتضحية في سبيلها واجب يتعلمه الجميع ونظرت الأجيال الرومانية اللاحقة بعين التقدير الى اخبار رجال الدولة والقادة لهذا العصر أمثال بروتوس الكبير الذي أعدم أولاده لخيانتهم والديجي الذين ضحوا بأنفسهم لثلاثة أجيال متتابعة لانقاذ الجيش الروماني ومانليوس توركوتوس القنصل الذي أعدم ابنه لمخالفته الأوامر العسكرية ومانيوس كوريوس الذي فضل الفقر عن غنى جاء من خيانة بلده . ولانعلم مدى صحة هذه الأخبار تاريخياً فهي يشك بها كثيرون . وهناك الأمثال المتعددة .

اقتصادياً ، فقد كان طعام الرومان خلال هذه الفترة بسيطاً ، فالخبز جاء متأخراً حيث اهتموا بالمعجنات وأنواع الحساء والفاصوليا والخضروات الأخرى ولم يؤكل اللحم الا في الاحتفالات والأضاحي ، ثم الفواكه أمثال الكمثرى ، والتفاح ، والعنب ، والتين وصنعوا من الزيتون الزيت ومن العنب الخمر . ثم مستخرجات الحليب . وحتى النصف الثاني من القرن الثالث ق . م . كان الرومان باستثناء عامة المدينة رعاة وزراعاً . وحتى القرن الرابع ق . م . كانت روما لامنفذ لها الى مصب التيبر بوجود في شمال النهر ولافينيوم جنوبه لذلك جاءت اتصالاتهم مع قرطاجة والتجار اليونانيين بصورة غير مباشرة عن طريق المدن اللاتينية والاتروسيكية . وأهم تجارة لهم كانت بالملح . ولم تكن روما تهتم بالتجارة والموضح في المعاهدتين الموقعتين مع قرطاجة في نهاية القرن الرابع ق . م . حصلت قرطاجة فيها على اتصال بلاتيوم في وقت انحصرت علاقة روما مع بضعة

بمعدل ٨ ٪ وثلث ويغرم المعابي أربعة أضعاف المبلغ اذا تجاوز هذه النسبة وعلى السارق دفع ضعف قيمة ماسرق . وفي سنة ٣٤٢ ق . م . منع الربا . ويمكن الافتراض بأن غالبية العامة كانوا تجاراً وصناعاً وأصحاب مخازن في وقت كانت التجارة الخارجية بيد الأجانب . وقد ازداد عدد مالكي الأراضي نتيجة التوسع الروماني ولم يول اهتمام الى التجارة . ووضع قانون ليكينان ـ سكستيان حداً لمساحة الأرض العامة المعطاة (٣١٠ ـ أيكر) ولم تكن العبودية مهمة وأغلب العبيد كانوا أسرى وأغلبهم من الشعوب الايطالية الأخرى ولذلك لم يكن مدهشاً اعطاؤهم المواطنة الرومانية عند تحريرهم أحياناً . وان

كرس معبد جوبيتر على شمال الكابيتولاين سنة ٥٠٩ ق . م . كان هناك ثالوث جديد يتألف من جوبيتر ، وجونو ومنيرڤا . وجوبيتر هو بالأصل اله سماء وصار اله الدولة الحامي وقرينته جونو حارسة النساء ، ومارس اله زراعة وحرب وصار في العهد الجمهوري اله دولة . شملت قائمة أعياد الدولة في التقويم الأولي أسماء آلهة أجنبية تبنتها الأمة منها يونانية واتروسكية . ومن هذه كيريس (ديميتر اليونانية) ، وليبر (ديونيسيوس اليوناني) وكلاهما آلهة أرض مرتبطة بالزراعة . ثم دخلت ابولو ، ومنيرڤا (اثينا) ، وديانا (ارتميس) . وظهر التأثير اليوناني في الكتب السبيلية وهي مجموعة مواحي جلبت من كوماي الى روما في نهاية العصر الملكي ووضع تحت رعاية لجنة من الكهنة وتستشار في أوقات الأزمات . وبفضل الاتروسكان دخلت المعابد والتماثيل . وان ارتباط طقوس جونو ومنرڤا وجوبيتر وتأصلها في اترويا فمن الطبيعي أن يكون معبد هذه الآلهة قد بدأ به آخر ملوك الرومان ولكنه كرس في بداية العصر الجمهوري . واستدعى العمال اليونانيون لتزيين المعبد على الافنتاين الذي شيد سنة ٤٩٣ ق . م . بموجب طلب الموحى السبيلي لطقس كيريس ، ليبر وليبرا (ديميتر ، ديونيسيوس وكوري) وهذه تمثل بداية التأثير اليوناني في الدين . والفن والعمارة الرومانية . وشيد في القرن الخامس معابد لعبادة الآلهة اليونانية الأخرى السابقة الى المريخ (هرميس) سنة ٤٩٥ ق . م . الى كاستور سنة ٤٨٤ ق . م . والى أبولو سنة ٤٣١ ق . م . وبتبني الأشكال اليونانية للآلهة الرومانية أخذت الأساطير اليونانية في التغلغل فأثرت الأفكار الدينية الرومانية . وظلت الأفكار الاتروسكية واليونانية تدخل الى روما . فبعد احتلال في دخل طقس جونو الملكة من تلك المدينة الى روما سنة ٣٩٢ ق . م . وعهد بشعائر يونانية . وفي سنة ٢٩١ ق . م . شيد معبد الى اسكليبيوس في روما وهو اله الشفاء اليوناني ودخل من ابيدوروس في اليونان مباشرة بأمر الموحى السبيلي .

الفصل الرابع

توسع روما الخارجي (٢٦٥ - ١٣٣ ق . م .)

أ - الحروب الخارجية :
(الفينيقية ، والمقدونية ، والايليرية ومع انطيوخوس) :

بدأت روما خلال هذه الفترة أولى توسعاتها الخارجية بعد أن أصبحت قوة عظمى بعد توحيدها ايطاليا واهتمت بالأحداث الدولية . وكان في تونس الحالية دولة قرطاجة القوية ويحتل البطالمة في الشرق مصر والسلوقيين سورية والعراق . وفرضت قرطاجة سيطرتها على الكثير من اجزاء شمال افريقية والساحل الشرقي والجنوبي لاسبانيا وسردينيا فهي تمتلك اسطولاً قوياً وتحكمها حكومة جمهورية . والقرطاجيون جزريون (فينيقيو الأصل) هاجروا من صور حوالي القرن التاسع ق . م . وكان مجلس الشعب في قرطاجة ينتخب مسؤولين اثنين كل سنة كحكام مع حق للاعتراض . وكان اثراء ونبل العائلة من الصفات الضرورية لأي مرتبة عسكرية أو وظيفة مدنية فيها . وارتبطت روما مع قرطاجة بمعاهدات عدة تنازلت فيها عن حقوقها في الفعاليات البحرية بالبحر الترهيني وغرب البحر المتوسط . وكانت معاهدتها لسنة ٢٧٩ ق . م . ضد عدوهما المشترك برخوس ، ولما احتلت روما مدينة تارينتوم طرأ برود في علاقتها مع قرطاجة لأن روما بذلك سيطرة على الموانيء اليونانية في جنوب ايطاليا وصارت قرطاجة تنظر الى روما كقوة جديدة تهدد مصالحها في صقلية والبحر . ولم يكن لروما اسطول أو بحارة لهم خبرة بل كان لها جيش مدرب في وقت كان لقرطاجة اسطول قوي يديره بحارة مدربون وسلاح فروسية وقوات مزودة حتى بالفيلة مع قواد مهرة فضلاً عن حكومة مركزية . ولما سيطرت روما على المدن اليونانية في ايطاليا اخذت تعارض سيطرة قرطاجة وسياستها في اعتبار البحر المتوسط مغلقاً لها فقط خاصة في البحر الترهيني . وسيطرت قرطاجة على مساحات كبيرة في صقلية وهددت باحتلال مضيق مسينا .

الحرب الفينيقية الأولى ٢٦٤ - ٢٤١ ق . م . لاحت بوادر الحرب بين روما وقرطاجة عندما احتل مسينا (ميسانا) جماعة من المامرتيني كانوا مرتزقة لدى سرقوسة وصاروا يهددون الأخيرة التي كانت تحت حكم ملكها هيرو مما حمل السرقوسيين على محاصرة مسينا سنة ٢٦٥ ق . م . فاستنجد المامرتيني بروما وقرطاجة . وفعلاً أرسلت قرطاجة قوة بحرية لمساعدتهم وتخوف مجلس الشيوخ الروماني من احتمال سيطرة قرطاجة

قلة اهتمام الرومان بالتجارة هو السبب في تأخر صدور عملة رومانية . والكلمة للنقود عندهم بيكونيا مشتقة من زمن كانوا يحسبون القيم بالماشية . وفي القرن الخامس ق . م . استمر هذا النظام في وقت ظهر به البرونز كقياس عام للقيمة على شكل كتل أو قضبان يمكن قطعها الى قطع صغيرة . وكانت وحدة القياس هي الباوند الروماني المتألف من ١٢ أونساً . ولم يكن للرومان عملة حتى سنة ٢٩٠ ق . م . ولو أن مدينة نابولي اليونانية كانت لها عملتها البرونزية . وفي بداية القرن الثالث ق . م . أصدرت روما قضباناً برونزية وزنها ستة باوندات عليها صور من الجانبين . علماً بأن روما عينت سنة ٢٨٩ ق . م . مشرفين لدار الضرب وسميت هذه القضبان الصغيرة (ايس سيغناتوم) وظلت حتى صدور عملة حقيقية . والمتفق عليه الآن ان روما أصدرت عملة فضية ونحاسية سنة ٢٦٩ ق . م . (قطعة ٢ دراخماً فضية تساوي ١٠ باوندات برونز) . والقياس البرونزي للعملة هو الأس يزن باونداً واحداً . وهناك عملة أصغر من الأس .

ان الآلهة الرومانية الأولى قد تطورت من عالم الأرواح (النومينا) للعصر السابق . وعد كل اله ساكناً في منطقة معينة ولم يكن لهذه الآلهة الأولية صفات البشر واهتموا بأداء الطقوس بصورة صحيحة . ولما كانت قوة الآلهة تؤثر على الأمة جمعاء فيلزم على الدولة رعاية واجباتها تجاه الآلهة . وان معرفة هذه الواجبات وأداؤها بشكل قانون روما المقدس وهو جزء مهم من قانون الدولة العام ولحرسه الكهنة وتفسره . وان الآلهة بنظرهم تقدم الانذارات والاشارات الى البشر الذين عليهم تفسيرها لنا جاء العرافون العارفون بتفسيرها . وان الافكار الرومانية الدينية تظهر في طقس المنزل . وأهم آلهة المنزل هو جانوس اله الباب ، وفيستا ربة النار ، بيناتيس الأرواح الحافظة لغرفة الخزن ثم اللارفاميلياريس وهي الأرواح حارسة الأرض ومستقبل العائلة ثم جينوس والذي عني به القوة الخالقة والتي تمثل رب المنزل ثم أطلقت على القرين الروحي . وأعطى الى جونو صفات البشر وصار أحد آلهة ثالوث الكابيتول . وهناك أخرى تعنى بالزواج والميلاد والموت . ومارس الرومان الدفن والحرق . وبتأثير اليونان والاتروسكان اعتقدوا بأن أرواح الموتى تذهب الى العالم السفلي ويأتون لزيارة الأرض في أيام معينة في السنة . ونعرف عن طقس للدولة منذ حوالي سنة ٥٠٠ ق . م . وكان دين الدولة آنذاك خاصاً بأمة زراعية ويتألف من طقوس معينة منزلية وحقلية وآخر للناس ككل . وهناك طقوس الدولة الخاصة بفيستا ، بيناتيس وعيد أمبارفاليا السنوي لتطهير الحقول . ويشمل دين الدولة عبادة آلهة تختلف عن تلك التي للمنزل أو الحقل وبعضها كانت آلهة بطون معينة أخذتها الدولة . وأهم آلهة الدولة مارس ، وجوبيتر وكويرينوس ، وعندما

الهوامش

Page 46

1. Last, CAH, Last, CAH, pp. 436–440.
2. Trever, pp. 38–43.
3. ibid, pp. 43–47.
4. Boak and Sinnigen, pp. 48–63.
5. ibid, pp. 64–67.
6. Trever, pp. 59–64.
7. Cary, pp. 75–76.
8. Boak and Sinnigen, pp. 81–88.
9. Cary, pp. 126–133; 135–136.
10. Boak and Sinnigan, pp. 89–99.

على مضيق مسينا الذي سيهدد جنوب ايطاليا ودعا بعض اعضائه للتدخل في شؤون صقلية . وعندما تقدم هيرو طلبت مسينا العون من روما غير أن مجلس شيوخها رفض الطلب الذي وافق عليه المجلس المئوي (حباً للحصول على أراضي جديدة) فأرسلت روما فرقتين سنة ٢٦٤ ق . م . هاجمتا هيرو وقرطاجة بصورة منفصلة واحتلت مسينا . وصممت قرطاجة على تحرير مسينا فارسلت جيشاً الى صقلية انضم اليه هيرو ولكن جيشاً رومانياً دحر الاثنين . ففي الوجه الأول من الحرب الفينيقية الأولى (٢٦٣ ـ ٢٥٦ ق . م .) بعثت روما جيشاً الى صقلية لمضايقة هيرو وفعلاً نجحت هذه الحملة في مهمتها واستسلم هيرو الى روما (عقد معها حلفاً لمدة خمس عشرة سنة ودفع لها تعويضات حربية قدرها مئة طالين) واحتل الاثنان اغراكنتوم حيث ترابط حامية قرطاجية . وفي سنة ٢٦١ ق . م . قررت روما الاسراع ببناء اسطول بحري قادر على تحدي قرطاجة وبنت على النمط القرطاجي ١٢٠ سفينة انزلتها بقيادة القنصل غايوس دوليوس سنة ٢٦٠ ق . م . لمواجهة قرطاجة . وتمكن اسطول غايوس من احراز نصر ساحق على قرطاجة قرب ميلا . وقد مكنهم هذا النصر من ارسال اسطول بقيادة لوشيوس سكيبيو واحتلال كورسيكا وتخريب سردينيا في السنة التالية .

وفي سنة ٢٥٦ ق . م . احرز الرومان بقيادة القنصل ماركوس ريغولوس نصراً على الاسطول الروماني قرب ايكونوموس على ساحل صقلية الجنوبي مهد لهم انزالاً ناجحاً في شمال افريقية أجبر القرطاجيين على طلب السلام . ولكن قرطاجة رفضت شروط ريغولوس القاسية واستؤنفت الحرب . وفي بداية سنة ٢٥٩ ق . م . دحرت قرطاجة ، بعد تنظيم خانثيبوس الاسبارطي لقواتها ، وابادت جيشاً رومانياً وحملت ريغولوس أسيراً .

وفي الوجه الثاني من الحرب الفينيقية الأولى (٢٥٤ ـ ٢٤١ ق . م .) استأنفت روما حركاتها الحربية في صقلية ضد قرطاجة واحتلت بانورموس سنة ٢٥٤ ق . م . ولكنها لاقت سلسلة من الهزائم منها عند معركة دريبانا البحرية سنة ٢٥٠ ق . م . وتخريب عاصفة لأسطولها قرب فينتياس . وفي سنة ٢٤٧ ق . م . اخذ هاملكار بركة قيادة جيش قرطاجة وانهك بهجماته الرومان . وبنى الرومان اسطولاً جديداً حاصروا به ليلبيوم ودريبانا وحطم حملة قرطاجية قرب جزر ايجه مما حمل قرطاجة على طلب السلام . وسلمت الأخيرة بموجب اتفاقها مع روما جميع الأسرى الرومان وتنازلت لروما عن صقلية والجزر القريبة ودفعت لروما غرامة حربية تزيد عن مليون دينار واستحوذت روما على سردينيا (١) .

الحرب الايليرية (٢٢٩ - ٢١٩ ق . م .) :

كانت ايليريا (قسم من يوغوسلافيا والبانيا الحاليتين) حليفة لمقدونية كبرى الدويلات في اليونان كثيراً ماتضغط على التجار الايطاليين واليونانيين من جنوب ايطاليا في منطقة الادرياتيك وتفرض شروطها عليهم فاستنجدوا بروما . ولم ينفع انذار مجلس الشيوخ الروماني حيث رد طلبه الى ملكة القراصنة وقتل رسوله ايها مما حمل روما على ارسال جيش الى ايليريا فدحرتها وحصلت روما على موضع قدم في بلاد اليونان مع موانيء ممتازة على شاطيء الادرياتيك الشرقي الذي عدته بحراً رومانياً ونصبت في ايليريا حكاماً ترتضيهم . ولم تكن هذه لترضي مقدونية التي حرضت دمتريوس حاكم فاروس بايليريا على تحدي روما فأعلن عصيانه عليها وصار يهاجم الامارات الايليرية الموالية لروما فهاجمت روما ايليريا ثانية ودحرته سنة ٢١٩ ق . م . (٢) .

الهجمات الغالية : (٢٢٥ - ٢٢٢ ق . م .) : تحرك الغاليون في منطقة البو ضد روما وانضمت اليهم جماعات اخرى منهم عبرت الالب الى ايطاليا وأخذوا يهاجمون شبه الجزيرة الايطالية . وقيل ان ما أثارهم هو توزيع روما لأراضي جنوب مستوطناتهم سنة ٢٣٣ ق . م . على مستوطنين . وهاجم الغاليون اتروريا فصدم جيش روماني قادم من اريمنيوم وقطع جيش روماني آخر قادم من سردينيا خط تراجعهم فتمت ابادتهم في تيلامون . ثم هاجم الرومان ديار جماعات البوي والاينسوبر الغاليتين فاخضعتهما وهكذا صارت كل ايطاليا جنوب البو خاضعة لروما .

الحرب الفينيقية الثانية : (٢١٨ - ٢٠١ ق . م .) : انتهز هاملكار بركة فرصة انشغال الرومان مع الغاليين وايليريا فذهب الى اسبانيا لينشيء امبراطورية جديدة ووجد في مناجم الفضة فيها خير مصدر للثروة ليقوى بها الجيش والاسطول . وخلفه هاسدروبعل زوج ابنته الذي حكم اسبانيا وأسس مدينة قرطاجة الجديدة فيها . وفي سنة ٢٢٦ ق . م . بعثت روما وفداً الى هاسدروبعل ، ربما نتيجة احتمال قيام حلف بينه وبين الغاليين ، أسفر من توقيع معاهدة بين روما وقرطاجة أطلقت فيها يد الثانية في أسبانيا حتى نهرابرو الذي التزمت بعدم عبوره بقوة السلاح . وبعد مقتل هاسدروبعل سنة ٢٢١ ق . م . خلفه هانيبال نجل هاملكار بركة وكان له من العمر ٢٦ سنة وكان قائداً محنكاً شجاعاً بالرغم من فقدانه لأحدى عينيه ، وقد أخذ هذا فوراً بتعزيز قواته في شرق أسبانيا مما أثار مخاوف مدينة ساغونتوم اليونانية جنوب نهر ابرو التي استنجدت بروما . وطلبت روما من هانيبال احترام الاتفاقية بينهما وعدم مهاجمة ساغونتوم .

ولكن هانيبال حاصر الأخيرة فأعلنت روما الحرب عليه دون أن تعرف مدى استعدادات قرطاجة الحربية . وتقدم هانيبال بسرعة لحربها في ايطاليا ملاقياً مقاومة من القبائل الجبلية والثلج المبكر ودحر قواتها في معارك عدة على ضفاف تيكينوس داحراً سكيبيو الذي قدم بحراً من فرنسا ، وعند نهر تريبيا بعد انضمام جيش جاء من صقلية بقيادة لونغوس وكانت هزيمة شنيعة للرومان جعلتهم يسحبون جيوشهم من شمال افريقية . ثم أوقع هانيبال بالجيش الروماني المعزز بالغاليين هزيمة عند بحيرة تراسيمين في وسط اتروريا أودت بغالبية قواتهم . وجعل هذا النصر الطريق ممهداً أمام هانيبال للزحف على روما التي لم يدخلها . وأرسلت روما لصده جيشاً آخر بقيادة القنصلين بوللوس وفارو فاصطدم الاثنان قرب مدينة كاناي الواقعة على نهر أوفيدوس (أوفانتو الحالي) وكانت النتيجة كارثة عظمى للرومان خسروا بها حوالي مائة ألف مقاتل . وواجهت روما بعدها عصيان المناطق التابعة لها في جنوب ايطاليا وانضمت كابوا ، المدينة الصناعية المهمة ، لقرطاجة كما تمت السيطرة على تارينتوم . وحاصر جيش روماني بقيادة فلاكوس كابوا مما جعل هانيبال يفكر بالزحف على روما لاجبار مجلس شيوخها على دعوة فلاكوس لحمايتها . ثم استسلمت كابوا للرومان الذين عاقبوها بشدة. وفي سنة ٢٠٩ ق . م . استرجع الرومان تارينتوم . ولم يكن اسدروبعل أخ هانيبال موفقاً في اسبانيا فأمره الأخير باللحاق به في ايطاليا ، فعبر بجيوشه غالة وشمال ايطاليا حيث انضم اليه كثير من القبائل الغالية . وعندما كان يسير على طول ساحل الادرياتيك اصطدم به جيش روماني عند نهر ميتوروس بقيادة القنصلين نيرو وليفيوس ودحره وقتل هاسدروبعل . وفي سنة ٢١٢ ق . م . دخلت جيوش روما سرقوسة وبعد سقوط اكَريكَنتوم سنة ٢١١ ق . م . سيطرت روما على كل صقلية . ونزلت جيوش روما في أسبانيا واستمرت الحرب هناك ضد قرطاجة (٢١٨ ـ ٢٠٧ ق . م .) بقيادة غنايوس سكيبيو الذي خلفه ولده بوبليوس سكيبيو الذي احتل قرطاجة الجديدة ودحر هاسدرو بعل في معركة بيكولا في منطقة الاندلس بجنوب اسبانيا . وهنا تراجع هاسدروبعل الى ايطاليا كما ذكرنا وعهد بجيوش قرطاجة بأسبانيا الى هاسدروبعل بن غيسكَو الذي اصطدم الرومان به في معركة ايليبا (قرب اشبيلية) واندحر بها القرطاجيون ثم أخذ الرومان قادس . وفي سنة ٢٠٦ ق . م . تلاشت قوة قرطاجة من أسبانيا .

في سنة ٢٠٤ ق . م . نزل جيش روماني قرب عوتيقة بشمال افريقية بقيادة سكيبيو . وقام ماغو (أخ آخر لهانيبال) بهجوم بحري على شمال ايطاليا ونزل في جنوى وظل بها قرابة عامين (٢٠٥ ـ ٢٠٣ ق . م .) . ولاقى سكيبيو مقاومة شديدة في شمال افريقية من القرطاجيين الذين انضم اليهم الحاكم النوميدي سفاقس . ولجأ سكيبيو الى

الخديعة حيث طلب من قرطاجة وحليفها الصلح ولكنه انتهز الفرصة وعمل السيف بجنودهم واحرق خيامهم . ثم أوقع بهم اندحاراً آخر في وادي بغراداس اضطرت قرطاجة معه الى طلب السلم . وكانت شروط السلام (ترك قرطاجة لاسبانيا ، تخفيض سفن اسطولها الى عشرين ، دفع غرامة حربية مقدارها حوالي مليون ونصف دينار) . ولكن بعودة هانيبال الى قرطاجة علت الأصوات باستئناف الحرب مع روما . وفعلاً عادت الحرب مجدداً والتقى الجيشان في زاما (ساقية سيدي يوسف في أعالي وادي مجردة بتونس) وخسرت بها قرطاجة . وفرضت روما شروط سلام جديد ضوعفت بموجبه الغرامة الحربية وخفضت السفن القرطاجية الى عشرة ومنعت قرطاجة من بدء أي حرب دون موافقة روما . وكافأ الرومان حليفهم ماسينيسا بأن قدموا له جميع أراضي أفريقية التي كانت تحت حكمه أو حكم والده . وأطلق مجلس الشيوخ الروماني على سكيبيو لقب الافريقي لانتصاراته على قرطاجة .

كانت نهاية الحرب ايذاناً ببدء توسع روما الامبراطوري كما ترسخت قوة مجلس الشيوخ حيث القي اللوم على العامة في اندحار كاناي ، ولكن روما خسرت الكثير من رجالها حتى ان سكان مناطق برمتها قد اختفوا وظلت اراضي كثيرة خاصة في لاتيوم دونما زرع ورجع غالبية الفلاحين من الحرب ليجدوا أراضيهم خراباً أو أخذت من آخرين أو أغرقوا بالديون الأمر الذي حولهم الى فلاحين مستأجرين . وهاجر كثيرون الى المدن حيث صاروا هناك نواة لجماعات سيطر عليها زعماء غوغائيون . واستحوذت الدولة على مايقارب المليوني ايكر من الاراضي الزراعية والرعوية واجرتها بعقود الى الاثرياء مما نتج عنه نظام الأراضي الواسعة التي يمتلكها كبار الملاك (لاتيفونديا) الذين اخذوا يؤدون دوراً مهماً في توجيه سياسة الدولة .

ووجهت روما انظارها بعد ذلك الى اخضاع المناطق الشمالية كافة والتي تستوطنها القبائل الغالية ثم اعقبتها سنة ١٧٧ ـ ١٧٦ ق . م . بمنطقة ليغوريا (الريفيرا الايطالية) ثم الحاق اسبانيا (١٩٧ ـ ١٧٩ ق . م .) واخماد حركات العصيان والثورات فيها بين ١٥٤ ـ ١٣٣ ق . م . اعقبتها بغزو والحاق جنوب فرنسا .

الحروب المقدونية : لم ينجح فيليب ملك مقدونية في هجومه على كورسيرا وابولونيا وحاربه حلف موالٍ لروما مكون من اثينا ، واسبارطة وبرغاموم في ماتسمى بالحرب المقدونية الأولى (٢١٥ ـ ٢٠٥ ق . م .) مما اضطر معه الى عقد معاهدة مع روما سنة ٢٠٥ ق . م .

ولما هجم الملك انطيوخوس الثالث السلوقي على مصر سنة ٢٠٢ ق . م . وتقدم الى آسيا الصغرى انتهز فيليب المقدوني الفرصة وهاجم ثيساليا باليونان وساحل تراقيها وساموس وبرغاموم فاستنجدت مصر وايتوليا ورودس وبرغاموم بروما التي رأت هي أيضاً في هذه الحركات خطراً على مصالحها مما جعل مجلس الشيوخ الروماني يقرر التدخل في الشرق . وصارت روما تحرض دول الجامعة الأخية (اثينا واسبارطة وبرغاموم) ضد مقدونية كما حرضت عملاء الرومان من الدردانيين للهجوم على مقدونية . ولكن فيليب قد خسر التعاطف اليوناني معه فيما عدا ثيساليا . وبدأت الحرب سنة ٢٠٠ ق . م . حيث اضطره نزول جيوش روما في ايليريا الى تركه التقدم بآسيا الصغرى والعودة للدفاع عن بلاده ، وفي سنة ١٩٩ ق . م . هاجم جيش روماني بقيادة سكيبيو قوات فيليب ولم يحالفه النجاح ، وفي سنة ١٩٨ ق . م . احتل جيش روماني بقيادة فلامينيوس ثيساليا وباءت حملة أخرى لفيليب سنة ١٩٧ ق . م . لاسترجاع ثيساليا بالفشل نتيجة اندحاره بمعركة كينوسكيفالي التي سيطرت روما بعدها على كل بلاد اليونان . وطلب فيليب سنة ١٩٦ ق . م . السلام من مجلس الشيوخ الروماني الذي استجاب لطلبه وفرض عليه غرامه حربية قليلة . والزمه بتسليم جميع سفن اسطوله وسحب حامياته وعملائه من بلاد اليونان) . وأطلق على هذه الحرب المقدونية الثانية . وان انسحاب روما من اليونان سنة ١٨٨ ق . م . قدم الدليل على عدم وجود أطماع لها في شرق البحر المتوسط .

نزلت سنة ١٩٢ ق . م . قوات الملك السوفي انطيوخوس الثالث في بلاد اليونان بناء على دعوة ايتوليا وتقدمت للسيطرة على ثيساليا الأمر الذي أفزع روما التي خشيت استعماله لها كجسر لغزو ايطاليا . وارسلت روما جيشاً لصده بقيادة غلابريو سنة ١٩١ ق . م . الذي اصطدم بانطيوخوس عند ثيرموبلاي وكان النصر للرومان وتراجع انطيوخوس . وقد تعاون فيليب المقدوني خلال هذه الحرب مع الرومان فسمحت له بالاحتفاظ ببعض المدن التي حررها من انطيوخوس في ثيساليا .

خلف فيليب على عرش مقدونية ولده برسيوس الذي لم يكن محبباً لدى الرومان لحمله والده على قتل أخيه دمتريوس الذي يفضله الرومان . وان معرفة برسيوس لهذه الحقيقة جعلته يتخوف من روما ويخشاها . ولكن اهتمامه بالجيش وتحالفه مع رؤساء ايليريا وتراقيا وتدخلاته المستمرة في شؤون المدن اليونانية وتأييده الطبقات الفقيرة فيها اثارت شبهات روما بمحاولة تقليص المشروع الروماني للدول اليونانية الى جانب حسد جيرانه الذين كانوا يعملون على الايقاع بينه وبين روما أمثال يومينيس الثاني ملك برغاموم . وكانت روما ترسل على الدوام لجاناً تحقيقية . وأخيراً هاجمت روما مقدونية

بحجة أن برسيوس قد هاجم بعض الرؤساء البلقان المتحالفين مع روما . ولم يستجب لطلب برسيوس للنجدة الا القلة من الدول اليونانية أمثال ابيروس ، وبضع مدن في ايتوليا ورئيس من ايليريا . وانضمت الى روما كل من رودس ، وبرغاموم ودول الجامعة الأخية . وفي سنة ١٧١ ق . م . انتصر برسيوس في ثيساليا قرب لاريسا على جيش روماني بقيادة ليكينوس كراسوس وتشجع برسيوس بالنصر فطلب السلام من روما فرفض الطلب . وكانت انتصارات جيش روماني ثاني بقيادة فيليبيوس سنة ١٦٩ ق . م . محدودة بالرغم من وصوله جبل أوليمبوس . وفي سنة ١٦٨ ق . م . تقدم جيش روماني بقيادة بولوس ودحر جيش برسيوس عند بدنا وفشلت محاولة برسيوس بالهرب . ثم تقدم بولوس سنة ١٦٧ ق . م . ثانية واستباح الكثير من المدن في ابيروس وقتل الشباب وباع النساء والأطفال كعبيد . وكان جيش روماني آخر قد هاجم ايليريا قبل ذلك وعمل السيف بأهلها .

وفيما بعد ازدادت المعارضة للدولة المقدونية الجديدة الموالية لروما واتخذت شكل ثورة مسلحة سنة ١٤٩ ق . م . ترأسها شخص اسمه اندريسكوس ادعى بأنه نجل بيرسيوس واستطاع توحيد مقدونيا . فأرسلت روما ضده جيشاً بقيادة ميتيللوس قضى على حركته وولى هارباً الى تراقيا . ومنذ حملة روما ضد اندريسكوس اتبعت روما سياسة جديدة تجاه الدويلات اليونانية . فقد الحقت مقدونيا وضمت اليها ابيروس ثيساليا ، كما عقدت روما اتفاقات مع بضعة رؤساء في تراقيا وفتح طريق يربط ابولونيا بسالونيك (٥) .

سيطرت حوالي سنة ١٥٠ ق . م . الجماعة المناوئة في بلاد اليونان على الجامعة الأخية . وبدأ أول نزاع مع اسبارطة على الحدود فارسل مجلس الشيوخ الروماني سنة ١٤٧ ق . م . الى هناك لجنة أوصت بوجوب انسحاب بعض المدن من الجامعة الأخية . وعلت أصوات المعارضة ونجا المندوبون الرومان بأعجوبة من الموت . وهاجمت الجامعة الأخية اسبارطة فتدخلت روما حيث حطم اسطولها وجيشها الذي قاده لوشيوس موميوس جيوش الجامعة الأخية في موقعه ليوكوبيترا ثم تقدم وخرب طيبة ، وخالكيس وكورينث .

الحرب بين روما وانطيوخوس الثالث : اصطدمت روما ثانية في القرن الثاني ق . م . بالملك انطيوخوس الثالث السلوقي ، فقد كان هذا الملك طموحاً هاجم مصر سنة ٢٠٢ ق . م . وزوج ابنته بعد ذلك من ملكها الصغير بطليموس ، ثم وجه انظاره الى الغرب للاستحواذ على آسيا الصغرى فعبر البوسفور سنة ١٩٦ ق . م . الى أوربا

واضعاً يده على اجزاء من تراقيه مما آثار مجلس الشيوخ الروماني فأنذره بوجوب التراجع الذي رفضه انطيوخوس ، وكان في بلاط الأخير القائد القرطاجي هانيبال لاجئاً ، واعتقد انطيوخوس أن ضربة واحدة لروما ستعيد لقرطاجة سابق قوتها وتجعل فيليب المقدوني يسرع في الانضمام اليه وربما حتى أتالوس ملك برغاموم الذي خلف يومينيس . ولم تكن ايتوليا واسبارطة على وفاق مع روما . وفي سنة ١٩٢ ق . م . وصل انطيوخوس الى ثيساليا فلم يحظ بتأييد أية دولة يونانية ، فأعلنت روما عليه الحرب وتقدم جيش روماني بقيادة غلابريو لحربه والتقى الجيشان في ثرموبيلاي واندحر انطيوخوس الذي تمكن من الهرب الى افيسوس . وتعقبته الجيوش الرومانية الى آسيا الصغرى بقيادة سكيبيو افريكانوس.كما حطم اسطول روماني سفن انطيوخوس في بحر ايجة ، ثم التقى الجيشان في مغنيسيا وكان الى جانب روما يومينيس ملك برغاموم واندحر انطيوخوس ، وأجبر على قبول شروط روما في دفع غرامة حربية كبيرة ، جعل جبال طوروس حداً لمملكته ، وتسليم سفنه الحربية كافة ويسلم هانيبال . ولم يرض الأخير الهوان فانتحر . وقد كافأت روما ملك برغاموم لمساعدته أياها بمنحه أراضٍ واسعة في آسيا الصغرى وصارت مملكته تمتد من كليكيا وبيسيديا جنوباً الى البوسفور وبيثينا شمالاً (٦) .

١٠٦٠-الحرب الفينيقية الثالثة : (١٤٩ ـ ١٤٦ ق . م .) : كان على حدود قرطاجة الغربية الملك النوميدي الطموح ماسينيسا حليف روما الذي استعمل كل وسيلة للتوسع على حساب قرطاجة مستغلاً عدم قدرتها على حربه وتأييد روما له . وان سيطرة الطبقة الاوليكاركية الانانية على سياسة قرطاجة جعل من الصعب على المدينة دفع الغرامات لروما . وفي سنة ١٩٦ ق . م . ارسلت قرطاجة وفداً الى روما طلب منها تأجيل دفع الأقساط لخمس سنين ولكن طلبها رفض لاسيما أن هانيبال كان يحكم قرطاجة فترة قبل لجوئه لبلاط انطيوخوس مما جعل روما تؤيد ملك نوميديا ماسينيسا . وبنى الأخير جيشاً مدرباً ونظم بلاده وشجع الزراعة واحترمت قرطاجة التزامات معاهدة زاما حتى أنها ساعدت روما بجيش في حروبها الشرقية . وكانت روما ترسل مندوبين للنظر في شكاوى قرطاجة من تصرفات ملك نوميديا . وكانت احدى هذه اللجان برئاسة كاتو الذي اقترح تخريب قرطاجة .

واشتدت الأزمة بين نوميديا وقرطاجه بذبح الأخيرة لمندوبين من نوميديا مما أثار الحرب بين الدولتين . واعتذرت قرطاجة من روما على دخولها الحرب على الرغم من أنفها . وهنا أمرت روما قرطاجة ان ترسل ثلثمائة من نبلاءها كرهائن الى روما وما ان

المراجـــع

1. Boak and Sinnigen, pp. 100–108.
2. Trever, op. cit. pp. 85–86.
3. Cary, op. cit. pp. 152–153.
4. A. Cook and Others, B.L. Hallward, CAH, Vol, VIII (Cambridge, 1954), pp. 25–114.
5. Cary, op. cit. pp. 208–209.
6. Cyril E. Robinson, History of the Roman Republic, (New York, 1965), pp. 157–160.
7. Trever, pp. 114–116.

وصل هؤلاء حتى قرر مجلس الشيوخ الروماني أن تسلم قرطاجة جميع أسلحتها ويهجر سكانها المدينة الى منطقة أخرى . فلما رفضت قرطاجة هذه الطلبات حاصرتها الجيوش الرومانية بقيادة سكيبيو اميليانوس وهكذا سقطت قرطاجة سنة ١٤٦ ق . م . وخربت وقتل أكثر سكانها وبيع الباقون عبيداً .

ب ـ التطور السياسي في روما والتأثير الهلنستي :

وصل الدستور الروماني في بداية القرن الثالث ق . م . مرحلة ناضجة وظلت التغيرات فيه خلال المائة والخمسين سنة التالية قليلة . ففي سنة ٢٤٢ ق . م . أسس منصب قاض للحكم بين الأجانب والرومان وزيد عدد القضاة سنة ٢٢٧ ق . م . الى أربعة ثم ستة سنة ١٩٧ ق . م . وفي سنة ٢٤٢ ق . م . نسب مواطنون جدد الى القبائل الخمس والثلاثين وصارت العضوية فيها وراثية بغض النظر عن تبديل السكن . وفي سنة ٢٢٠ ق . م . وضع المجلس المئوي على أساس قبلي مانعاً الطبقات الغنية من التصويت وأضيفت من قبل قبيلتين للمجلس . وفي سنة ٢٨٧ ق . م . شرع قانون هورتنسيان الذي صار العامة بموجبه متسلطين على التشريع . وظهرت الآن طبقة جديدة من النبلاء البطارقة ـ العامة الأثرياء في مجلس الشيوخ وصارت تحتكر الوظائف وتستحوذ بالتدريج على السلطة العليا في الدولة . كما غدا مجلس الشيوخ أكثر قوة من كل المجالس الأخرى وسط المشاكل التي خلفتها حروب دامت حوالي القرن والربع . وكان مجلس الشيوخ يضم جميع الموظفين الكبار الآسبقين والموظفين مافوق مناصب أمناء الخزانة . وهذا المجلس هو مركز الخبرة في الحكومة بالشؤون الخارجية وسط المشاكل المعقدة المتنامية من الحرب والتوسع . وكان على الحكام العمل مدة سنة واحدة ثم العودة الى مجلس الشيوخ ولم يكونوا سوى منفذين لقرارات السنات . وفي سنة ١٨٠ ق . م . شرع قانون فيليان الذي حدد أعمار الحكام وصار رؤساء الوحدات كالحكام في السلطة والصلاحيات عندما منحوا حق عارضة اللوائح الجلوس في مجلس الشيوخ مما جعلهم ذوي نظرة ومصالح

أعضاء مجلس الشيوخ الارستقراطيين وكان من السهل على أعضاء مجلس الشيوخ لدى نقيب العامة وتقديم رشوة له لنقض تشريع او معارضة . وصار السنات محتكراً ومغلقاً يصعب على أي شخص دخوله دون أن يكون أحداً من عائلته ذا منصب كبير أو رجلاً ذا قابليات عالية وخدمات جلى للدولة مثل كاتو وماريوس (١) . فالطبقة الاوليغاركية الجديدة استندت على ثراء ومركز وتمكنت بالتدريج من احتكار وظائف الحكام التي مهدت لهم السبيل للوصول الى السنات ولكن منصب القنصل ظل صعب المنال عليهم . فمن بين ١٠٨ قنصل انتخبوا بين السنين ٢٠٠ ـ ١٤٦ ق . م . كان ثمانية فقط من العوائل الجديدة التي لم يتقلد فرد منها هذا المنصب المهم من قبل . وفي القرن الثاني ق . م . ظلت السياسة الرومانية محتكرة بأقل من عشرين عائلة في مجلس الشيوخ اقتصر عليها الى حد ما منصب القنصل . وكان السنات هو السلطة العليا الحقيقية في البلاد من٢٨٧ حتى ١٣٣ ق . م . فهو الذي يرسل ويلغي قرارات الحكام ورؤساء الوحدات والمجالس

ويعين للقناصل والقادة واجباتهم ، في وقت كان به السلاح الوحيد بيد رؤساء الوحدات هو حق النقض الذي شرع لوضع حد لسلطة مجلس الشيوخ المطلقة ، ومجلس الشيوخ مجلس دائم يدعوه القناصل للاجتماع من أجل مناقشة القضايا المهمة العامة واختيار القائد العام في الحروب والاتفاقيات والعقود التي يبرمها الرقيب (السنسور) والشؤون الخارجية وللمجلس المئوي حتى منع اعلان الحرب وعقد السلم وادارة الممتلكات الخارجيـة ، كما يعالج مجلس الشيوخ الأزمات المفاجئة التي تشكل خطراً على الدولة . ففي سنه ١٥١ ق . م . سن قانوناً منع فيه اعادة الانتخاب للمنصب نفسه وفي السنين ١٨١ و١٥٩ ق . م . شرعت قوانين قاسية لمعاقبة الذين يرشون الناخبين ، وفي سنة ١٣٩ ق . م . شرع قانون غابنيان للتصويت السري في الانتخابات [٢] .

وفي سنة ١٧٩ ق . م . حدث تغير في دستور المجلس المئوي حيث قلل عدد وحدات الطبقة الأولى من ٨٠ الى ٧٠ أي أن وحدتين (واحدة للكبار وأخرى للشباب) قد أعطيت لكل من القبائل الخمس والثلاثين . وقيل أن عدد وحدات الطبقات الأربع الأخرى صارت متساوية أي بلغ مجموع الوحدات ٣٥٠ . وذكر آخرون ان عدد الوحدات كان ١٩٣ وان العشر وحدات التي أخذت من الطبقة الأولى ادمجت بالطبقات الأربع الأخرى وخفضت شروط التملك للطبقة الخامسة الى حوالي الثلث . وقد زاد عدد المصوتين نتيجة التوسع الروماني كما نما سكان المراكز الحضرية ، وحصر مصوتوا المجلس القبلي في أربع قبائل حضرية . ولجأت الطبقات الحاكمة الى وسائل شتى لاغراء الناخبين على التصويت لهم وهذا ما حتم اصدار تشريعين بمعاقبة الفاعلين . وأدخلت وسائل تسلية الى روما لهذا الغرض ، فقبل سنة ٢٢٠ ق . م . كانت هناك العاب عامة واحدة في روما هو عيد اللودي روماني الذي أمده يوم واحد . وادخلت في تلك السنة عطلة أخرى هي اللودي بليبي ، وأدخل مجلس الشيوخ خلال الحرب الفينيقية الثانية ثلاثة أعياد هي اللودي ابوللينار يس سنة ٢١٢ ق . م . ميكالينسيس سنة ٢٠٤ ق . م . والسيريالیس سنة ٢٠٣ ق . م . وأدخل سنة ١٧٣ ق . م . عيد اللودي فولاريس . وكانت مدد هذه الأعياد ٥ ، ٧ حتى ١٤ يوماً وخصص مجلس الشيوخ الأموال لها سواء من الخزانة العامة أو من تبرعات الموظفين الكبار الذين كانوا يشرفون على هذه الأعياد (قادة ، ومشرفون من العامة الخ) .

وكان الناخبون يجتمعون يوم الانتخاب عند موضع كامبوس مارتيوس ويكون التصويت حسب القبائل حيث يقرر رأي الغالبية لكل قبيلة تصويتها . وكانت تكاليف الانتخابات في العهد الجمهوري باهظة لايمكن أن يتحملها الا الأثرياء .

خبرة قتالية . وشهد القرن الثاني ق . م . زيادة في تباطؤ المجندين الرومان بأداء التزاماتهم العسكرية . وكان الدافع للتطوع في الحملات الشرقية الغنائم الوافرة وصار الضباط الرومان يلاقون صعوبة في الحصول على المجندين . فقد بدأ النبلاء بالتملص من الخدمة وخفضت شروط التملك المفروضة على الانخراط بالعسكرية الى حوالي الثلث وأعفي الجنود الرومان من عقوبة الجلد وأعطوا حق تقديم دعاواهم الى مجلس العامة ضد احكام الاعدام ، كل هذه الأمور لم ترضي الجنود حتى فتحت حوانيت بيع السلع وسكنت الفواحش قرب المعسكرات . كل هذه الأمور قللت من كفاية الجيش الروماني في القرن الثاني ق . م . وكان التنافس على مناصب القنصل والرقباء قائماً بين الأفراد والعوائل خلال هذا القرن . وصار منافسوهم يفتش بعضهم عن زلات البعض ، فترأس كاتو فئة وقفت ضد سكيبيو أفريكانوس ووصلت المنافسة بين جماعتيهما الى حد رفع الدعاوى في المحاكم . ووجهت الى كاتو ٤٤ تهمة خلال فترة عمله وكان هو يتسقط الهفوات للايقاع بخصومه . ولكن الخطر الكبير أمام النبلاء كان من القادة العسكريين الذين حصلوا على امجاد وانتصارات وثروات خلال الحروب الخارجية فوضعوا أنفسهم فيما فوق السنات . ففي سنة ١٨٩ ق . م . غزا مانليوس فولسو غلاطيه بآسيا الصغرى دونما أوامر وقام قواد بحملات في ليغوريا وايليريا من تلقاء أنفسهم [٣] .

عندما الحقت روما سنة ٢٤١ ق . م . جزيرة صقلية بها ثم سردينا وكورسيكا سنة ٢٣٨ ق . م . لم تمنح رعاياها الامتيازات نفسها التي كان يتمتع بها الايطاليين وعوملوا معاملة تابعين وليس حلفاء وفرض عليهم دفع الجزية لروما . وشكلت من صقلية مقاطعة ومن سردينيا وكورسيكا مقاطعة ثانية وعلى كل منها حاكم الى جانب قادة لمدة سنة .

ونظمت روما سنة ١٩٧ ق . م . مقاطعة اسبانيا الدنيا والقصوى ثم مقاطعة مقدونية سنة ١٤٨ ق . م . وأفريقية سنة ١٤٦ ق . م . وآسيا سنة ١٢٩ ق . م . وارسل قائدان الى مقاطعتي اسبانيا بسبب أهميتها العسكرية . وكان لكل مقاطعة دستورها الخاص الذي تسنه لها لجنة مؤلفة من عشرة أعضاء من السنات يوافق عليه الأخير يوضح حقوق ومسؤليات المقاطعة . وكل مقاطعة كانت تتألف من جماعات ذات تنظيات حضرية أو قبلية دونما وحدة سياسية خلا ارتباطها بالحاكم الروماني . وهناك ثلاثة أصناف من المقاطعات الخارجية : الأولى وهي قليلة العدد من الحلفاء الأحرار محددة العلاقة مع روما بموجب معاهدة . والثانية المحميات وهي أيضاً محدودة العدد ولاتدفع الجزية الا برغبة مجلس الشيوخ. والثالثة هي الغالبية تفرض عليها الجزية . وعلى رأس

غدت الدولة الرومانية في هذا القرن على درجة من التعقيد يديرها موظفون كثيرون من المحاسبين والاداريين الذين جندوا من العبيد المعتوقين وعين لادارة المقاطعات الى جانب الحكام القادة ورؤساء المحاكم لادارة المقاطعات ومدراء لقوانين المقاطعة . وبعد الحرب الفينيقية الثانية ارجع قانون سابق يحتم مرور عشر سنوات لاعادة ترشيح قنصل سابق للمنصب نفسه . وفي سنة ١٥٠ ق . م . صار الحد الأدنى لعمر القنصل ٤٢ سنة ومنع اعادة انتخاب أي قنصل سابق . وفي حقل القضاء سمح سنة ١٩٩ ق . م . للرومان بايطاليا والمقاطعات بالاستئناف وفي ١٩٥ ق . م . أعفى المواطنون الرومان من عقوبة الجلد وفي سنة ١٥٠ ق . م . منع عنهم حكم الاعدام .

رفعت الحروب الخارجية واردات روما ومصروفاتها . ومنذ سنة ٢٦٤ ق . م . صارت ضحايا روما الخارجية الدول الثرية بالذهب والفضة كما استحصلوا الغرامات الحربية الفادحة والجزية من المقاطعات والرسوم من المناجم (اسبانيا) وايجارات الأراضي العامة التي زادت بمصادرات الحرب الفينيقية الثانية . كل هذا الثراء ازاد غنى روما وقوتها ومكنها من اصدار عملة فضية حلت محل البرونزية وصارت العملة الأساسية في كل غرب آسيا . وبعد سنة ١٦٧ ق . م . لم تر روما حاجة لفرض ضريبة أرض في ايطاليا ، وامتد تأثير روما الثقافي على كل ايطاليا ، فسألت مدينة كوماي مجلس الشيوخ السماح لها بتبني اللغة اللاتينية بدلاً من لغتها الأوسكانية ، وامتد تأثير الأدب اللاتيني الى كافة شعوب ايطاليا . وفي سنة ١٨٨ ق . م . حصلت ثلاث مدن هي ارينيوم ، وفورميا وفونندي الامتياز الروماني الكامل . وحصل المواطنون الرومان والحلفاء الايطاليون على حصص في الأراضي التي وزعت في غالة القريبة . وفي سنة ١٨٧ ق . م . صدر قانون حرم المهاجرين اللاتينيين الى روما دونما سبب من حق الحصول على المواطنة الرومانية في وقت ظلوا به يساقون الى الخدمة العسكرية وصدر أمر القائد الى ١٢ ألف لاتيني مسجلين في روما الكبرى بمغادرتها . كما زادت في القرن الثاني ق . م . نسبة المسافين الى الخدمة العسكرية من الحلفاء بحيث طغت على نسبة المواطنين . وفي سنة ١٧٧ ق . م . انقصت حصة جنود الحلفاء بالغنائم الى النصف . ومنذ سنة ١٨٣ ق . م . لم يدع اللاتين للمشاركة في تأسيس المستوطنات وكثر جمع التبرعات منهم لألعاب المشرفين في روما والتي منعها السنات سنة ١٧٩ ق . م .

وفي الحقل العسكري ما أن انتهت الحروب البونيقية والمقدونية حتى أخذت روما تقلل اهتمامها بسلاح البحرية ، ولم تتعظ بمعركتي كاناي وزاما فأهملت سلاح الفروسية وعادت الى اسناد القيادة في الحرب الى التناصل أو القادة الذين كانوا في الغالب دونما

المقاطعة الحاكم الروماني بسلطة مطلقة (امبريوم) يعين لمدة سنة قابلة للتمديد عدا أسبانيا حيث تكون المدة سنتين . ويساعده رئيس محكمة جنايات ومدير خزانة وثلاثة عسكريين ثم الرفقاء وهم عادة من شباب عوائل صديقة للحاكم . أما الضرائب التي كانت تفرض على المقاطعة فكانت أما محددة كما في حالات اسبانيا أو افريقية أو مقدونية أو عشر انتاج أراضيها كما في آسيا وصقلية . أما الأراضي العامة والملكية والمناجم والغابات في المناطق المحتلة فهي ملك الدولة تستغلها كما تشاء . ثم رسوم الكمارك والحدود . وكثيراً ما كان الحكام يسيئون التصرف بجشعهم حيث كانت وظائف جمع الضرائب تعطى بالمزايدة وترسو على من أعطى قيمة أعلى وصارت هذه الصفة (جمع الضرائب عن طريق المزايدين (Public ANI) من معايب نظام المقاطعات الروماني في العهد الجمهوري) . علماً بأن أول ضرائب فرضت على المقاطعات الخارجية كانت لتغطية مصاريف الجيش فيها تحولت بعدها الى جزية ، وأخذت روما بالتدريج تعتمد اعتماداً كبيراً على المقاطعات وصارت الطريقة منذ سنة ١٦٧ ق . م . ان يدفع الرومان القليل من الضرائب والرسوم وتغطي المصاريف العامة الباقية من واردات المقاطعات . وأخذ الحكام الرومان يثرون بصورة فاحشة بحيث أسرع مجلس الشيوخ بسن القوانين المتعددة ضد الاثراء غير المشروع . وفي سنة ١٤٩ ق . م . عينت محكمة دائمية تتألف من خمسين عضواً من السنات برئاسة قائد للنظر في مثل هذه المخالفات . فقد استغل الكثير من الحكام التصرف لجشعهم واستغلالهم مناصبهم لجمع المال والاثراء غير القانوني لاسيما ان مدة بقائه في منصبه كانت قصيرة الأمد .

صاحب التوسع الروماني بين ٢٦٤ و١٣٣ ق . م . تغيرات مهمة في اقتصاد روما وحياتها الاجتماعية نتيجة لتوسعها في الشرق في مناطق ذات حضارات عريقة . ودخلت روما محصولات جديدة من الخضروات والفواكه وتحسنت الآلات الزراعية وطرق الفلاحة وظهر في ايطاليا نظام المقاطعات الزراعية الواسعة التي يعمل عليها العبيد والمعروفة باسم اللاتيفونديا التي تنتج في الغالب الخمور وزيت الزيتون والصوف من مراعيها لاسيما في جنوب ايطاليا . وتكونت طبقة عاملة كبيرة في روما وظهرت طبقة تعمل بالأعمال الحرة والتجارة وحصل كثير من أعضاء السنات على مقاطعات زراعية خاصة وان قانون سنة ٢١٨ ق . م . منع أعضاء السنات من العمل مباشرة بالمشاريع التجارية خارج ايطاليا ونظروا الى الصيرفة والسمسرة كأعمال غير لائقة .. ونمت زراعة العنب والزيتون لاسيما في جنوب ايطاليا وكثرت المراعي . وحوالي سنة ١٥٠ ق . م . كتب كاتو موظف الاحصاء كتابه في الزراعة وهو دليل عمل الى صاحب الاقطاعية .

في سنة ١٤٦ ق . م . أمر مجلس الشيوخ بترجمة كتاب ماكو القرطاجي في الزراعة الى اللاتينية. ولم تكن اللاتيفونديا بكبيرة المساحة جداً في ايطاليا بل تتراوح بين ٦٦ - ١٥٨ أيكر وكل ٦٦ ايكر تحتاج حسب حساباتهم الى ١٦ عبد لفلاحتها . وقد عمل الكثير من أسرى الحروب في اللاتيفونديا ، وقدر عدد الأسرى الذين دخلوا ايطاليا بين سنة ٢٠٠ و١٥٠ ق . م . للعمل في اللاتيفونديا بربع مليون رجل . وأخبرنا كاتو عن سوء معاملة العبيد هؤلاء من قبل الاقطاعيين مما يفسر سبب حروب العبيد الأولى في صقلية سنة ١٣٥ ق . م . حيث ثار على الرومان حوالي ٧٠ ألف عبد لمدة ثلاث سنوات الى جانب ثورات ايطالية قمعت بكل قسوة . وأدى انتشار اللاتيفونديا الى اضمحلال وقلة عدد الفلاحين في ايطاليا حيث لجأ أصحاب المقاطعات بكل وسيلة لطرده من أرضه والسيطرة عليها . الى جانب التحاقهم بالجيش وسوقهم الى سوح الوغى حيث ظلوا مدداً طويلة نظراً لكثرة حروب هذا القرن الأمر الذي جعلهم يرهنون أراضيهم أو يتركونها ليستحوذ عليها آخرون أو تظل مهملة طيلة مدة خدمتهم أو يضطرون لبيعها والهجرة الى روما والمدن الأخرى . وهاجر آخرون الى غالة القريبة حيث الأراضي الزراعية مازالت متوفرة . وقد فطنت السلطة الرومانية الى مخاطر اللاتيفونديا فعملت على الحد منها . وحدد قانون صدر سنة ٢٠١ وأكد سنة ١٦٧ ق . م . الحد الأعلى للمقاطعة المتملكة ٣١٠ ايكر أيضاً و١٠٠ رأس ماشية و٥٠٠ من الأغنام والخنازير . وفي سنة ١٧٣ ق . م . خول مجلس الشيوخ أحد القناصل لوضع الحدود بين الأراضي العامة والخاصة في كامبانيا حتى لايتم التجاوز على الأولى .

شهدت روما وشبه الجزيرة الايطالية تحولاً كبيراً خلال الفترة التي تلت الحرب الفينيقية الأولى وصارت روما مركز عالم البحر المتوسط الاقتصادي والسياسي ووصل سكانها سنة ١٣٣ ق . م . حوالي النصف مليون نسمة يسكنها تجار من جميع البلدان وعبيد كثيرون يمتلكهم الأثرياء والأحرار يعملون لحساب أسيادهم . وتدفقت جموع الفلاحين الذين فقدوا أراضيهم على روما خاصة حيث وجدوا فيها العمل والراحة . وحوالي سنة ١٣٨ ق . م . ازدادت أسعار الحبوب بسبب ثورة العبيد في صقلية . وسيطر سكنة روما على المجلس القبلي الذي يتمكنون من حضور جلساته . وكان المواطنون وغير المواطنين يستمعون الى الخطب السياسية مما يثير الغوغاء .

ان عدم امكانية أعضاء مجلس الشيوخ من العمل بالتجارة شجع أصحاب رؤوس المال على العمل في المشاريع التجارية والأعمال الحرة . وحوالي سنة ١٥٠ ق . م . وضعت العقود لبناء الكثير من البنايات والأشغال العامة لاسيما بعد تدفق الأموال والموارد من المقاطعات الجديدة . كما نشطت حركة الصيرفة في ايطاليا والمقاطعات . وسيطر رجال الأعمال الرومان على التجارة المحلية في ايطاليا . ولابد أنهم كانوا نشطين في نقل الحبوب التي دفعت كضرائب في صقلية وسردينيا وافريقية ونقلها الى روما . وظهرت طبقة رأسمالية جديدة هي طبقة الفرسان (الاكويستريان) حيث أن التغيرات السنوية في الادارة جعلت من الصعب على روما أن تهيء لجاناً لجمع الضرائب والعمل بالأشغال العامة مما زاد عدد المتقدمين للمزايدة على جمع الضرائب والسماسرة . وبذلك ظهر منذ أواسط القرن الثاني ق . م . الى جانب طبقة الملاكين من النبلاء والكادحين طبقة الفرسان الرأسمالية عملت بالأشغال العامة والتجارة سواء داخل البلاد أو خارجها . وكانوا أثرياء قادرين على تزويد أنفسهم بالخيول وتعهد اليهم رسمياً الخدمة كفرسان لأخذ مكان فرق الفرسان التي كانت تجند من أعضاء مجلس الشيوخ . ولكن الطبقة التي تشتغل بالأعمال الحرة الآن كانت فئة منفصلة ولما كانوا يشكلون غالبية العاملين بسلاح الفروسية فقد سموا بالفرسان . وصار بعضهم أكثر ثراءً من أعضاء مجلس الشيوخ ولو لم تكن لهم سمعة ونفوذ الاخيرين .

كانت روما القرن الثاني ق . م . مستهلكة أكثر من منتجة وتركزت الصناعات على معدات الجيش والبناء والزراعة الى جانب صناعات الفخار والمواد البرونزية واستمرت صناعات تعدين الحديد والنحاس . ومانعرفه عن التجارة البرية في هذا العصر قليلة . فالعامل الروماني الصغير كانَ يبيع منتوجاته في دكانه والساحات العامة أو عند الفورم . وكانت حركة نقل المواد الكثيرة بطيئة وغالية لاسيما على الطرق غير العامة . ولم يكن الأثرياء يهتمون بالتجارة سواء بالبر أو البحر وزادت تجارة الكماليات مع الشرق في القرن الثاني لسد حاجات الأثرياء ونتيجة لاحتلال مناطق بالشرق . وان تقدم تجارة روما مع اليونان والشرق أدت الى تقدم الموانىء في القرن الثاني ق . م . وبنيت الموانىء حتى في التيبر وعند پوتيولي قرب نابولي . وان كثرة دخول الذهب والفضة الى روما وزيادة الأعمال والاستثمارات من جراء التوسعات الاقليمية انعشت الصيرفة . وكانت الأخيرة بيد الأجانب والمتحررين وغير المواطنين من السكان . وبالرغم من أن اقراض النقود كان مهنة مريحة للغاية غير أن الارستقراطيين والمجتمع الزراعي نظر اليها نظرة تنم عن عدم الاحترام .

تـأثر الرومـان خلال هـذا القرن بـالحيـاة المترفـة والمبـاهيج العـامـة في المنـاطق التي استحوذوا عليها ونقلوها الى روما . وأدى تدفق الثروات التي تفشي الرذائل وحياة البـذخ والترف وطفق النسـاء يحررن أنفسهن من التقاليد القديمة . ومنع قانون أوپيان سنـة ٢١٥ ق . م . النسـاء من لبس مـلابس السهرات أو تملـك أكثر من نصف أونس من الـذهب للزينة . وظل هذا القانون مطبقاً حتى سنة ١٩٥ ق . م . وسنت قوانين عـدة في سنوات ١٨٤ ، ١٨١ ، ١٦١ ق . م . تحت تأثير كاتو وضعت حداً للترف والبذخ الزائدين وصارت بموجبها الملابس والحلي والأثاث وما الى ذلك كمالية وتوضع عليها ضريبة قدرهـا ٣٠ ٪ من أصل قيمتها اذا زادت قيمتها عن ١٥٠٠ دينار . وصارت وجبات الطعـام متنوعـة وبـذخـة وغدا اللحم شيئاً اعتيادياً واستوردوا أنواعاً من الأطعمة النادرة والخمور . وتبـدلت خطـة البيوت الرومانية فصار للبيت غرفة استقبال ذات أعمدة وغرف أخرى وفي مؤخرة البيت ساحة ذات أعمدة . وارتفع مستوى المعيشة (٤) .

حدثت في روما تغيرات شملت أوجـه الحيـاة الثقـافيـة نتيجـة احتكاكهـا بـالهلنستيـة وكانت طرقهـا التربـويـة قبـل القرن الثـاني ق . م . بـدائيـة فلم يكن للرومـان أدب أو فلسفة أو كتابة تاريخية ذات أهمية . فلم يكن بمقـدورهم حتى معرفـة الوقت خلال النهـار حيث أدخلوا المزولـة (السـاعـة الشمسيـة) من صقليـة سنـة ٢٦٣ ق . م . وكثر الاهتمام بالثقافة اليونانية واستخدم اميليوس بولوس مدرسين يونـانيين لتعليم أولاده وحـذا حـذوه كثيرون وأخـذ كراتيس من مـالوس سنـة ١٦٩ ق . م . يحـاضر في رومـا بمواضيـع أدبيـة يونانية وأدخل دراسة الفلسفـة اليونـانيـة لرومـا . وصـارت معرفـة اللغـة ضروريـة لكل رجـل مثقف . وكان سكيبيـو اميليـانـوس غـازي قرطـاجـة من رواد الحركـة الهلنستيـة الجديدة . وصـار الأثريـاء يرسلون الآن ابنـاءهم الى المدارس حيث يـدرسون على أيـدي يونانيين وعلى نمط يوناني.فالمثقف الروماني كان يلزمه معرفـة اللاتينيـة واليونـانيـة . وفي سن الثانية عشرة يدخل الطالب المدرسـة الابتـدائيـة حيث يـدرس هو ميروس وهسيود وغيرهم الى جانب كتاب بلـده أمثـال اينيوس وپلوتوس . وتـستـنـد الـدراسـة على الحفـظ وتركز على القواعد والخطابة وفن الالقـاء لعلاقتهـا في مستقبل الشخص السيـاسي . وبين سن ١٤ ـ ١٧ يكون الطفـل مستعـداً لـلانتقـال الى مـدارس البيـان المستنـدة على أسـاس يوناني وعليه أن يقضي سنة خارج ايطاليا لاسيما في اثينا ، ورودس واسكندرية .

تأثر الأدب اللاتيني باليونـاني حيث سـار الأول على أنمـاط يونـانيـة ، فحتى الالفبـاء اللاتينيـة ذات أصل يونـاني عن طريق الاتروسكان . ونرى بقطـع انـدرونيكـوس تراجم عن اليونـانيـة وكثر الاهتمام بـالأدب السـاخر . وفي الأدب الملحمي ، والقصـائـد القصيرة

والرثاء والكتابات التاريخية والتراجم وقلد الكتاب اللاتين اليونانيين رغم وجود طابع جمالي مميز فيها . ومن هذه قصائد اينيوس أبي الشعر الروماني (٢٣٩ ـ ١٦٩ ق . م .) الذي تبنى المآسي اليونانية وقلد طرق النظم اليونانية . وكانت الحوليات التي نظمها اينيوس من القطع الأدبية المهمة مستخدماً الشعر لتمجيد الدولة . ثم الكاتب الكوميدي بلوتوس (٢٥٤ ـ ١٨٤ ق . م .) وتيرنيس (١٨٥ ـ ١٥٩ ق . م .) من افريقية وقد وصل الينا من الأول عشرون قطعة ومن الثاني ست قطع فقط نرى فيها التأثير اليوناني للمدرسة الكوميدية الجديدة من القرن الرابع ق . م . حيث نقرأ عن مخاطرات العاشقين وظلم الآباء ومشاغبات العبيد . وادخل بلوتوس العنصر الفكاهي الى جانب ذكر اشارات قاسية كظلم الأسياد للعبيد . وكانت شعبية تيرنيس كبيرة . أكد افرانيوس (حوالي ١٢٠ ق . م .) الخلفية والجو الروماني للشخصيات . وظهر في أواخر القرن الثاني ق . م . الأدب الساخر الذي صور معايب الأشخاص والعادات . ومن كتابه لوكيليوس (١٨٠ ـ ١٠٢ ق . م .) التي وصلت الينا قطع له . ثم كتابه الساتوراي في ثلاثين فصلاً وحوى مواضيع عدة ، وقد وصل الينا منه حوالي ١٣٠٠ بيت ترينا تأثيره على الشاعر الروماني هوراس . وتوضح أشعاره عصره وانتقاداته اللاذعة للآخرين . وفي النثر الفني هناك بيكتور وأليمنتوس اللذان كتبا في أمجاد الرومان . ثم كاتو ومقالته الوحيدة التي وصلت الينا (عن الزراعة) . وكانت الخطابة طراز العصر . ومن خطباء العصر المعروفين الزعيمان الغراكيان . وبالرغم من وجود القليل من خطب القرن الثاني ق . م . الا ان شهادة شيشرون عنها قد تكون كافية للبرهنة على تقدمها . وبدأ الآن الاهتمام بالقانون وظهر في نهاية العصر مشرعون كبار أمثال موشيوس سكيڤولا وسولبيكوس .

وأظهرت النظريات اليونانية في الأخلاق تأثيراً كبيراً على السلوك الروماني . فالفكر الروماني تنقصه الاصالة ولم يظهر أدب فلسفي ذو أهمية خلال هذه الفترة .

ان تأثير اللغة اليونانية على اللاتينية واضحاً في القواعد والمفردات . وفيما عدا القطع الشعرية اللاتينية المسماة الساتورني والفسكيني التي تغنى في حفلات الزواج فان الأدب اللاتيني ذو خلفية يونانية ابتداء من ٢٤٠ ق . م . عندما ترجم اندرونيكوس ملهاة ومأساة يونانية في الألعاب العامة بروما لتمجيد الانتصار في الحرب الفينيقية الأولى وترجم الأوذيسة الى شعر ساتورني بسيط . وكان الشعراء اللاتين الأوائل من المحررين اليونانيين . ومن العوامل المهمة في تأثير الهلنستية على روما نقل مكتبة بيرسيوس الى روما سنة ١٦٧ ق . م . ووصول آلاف المهاجرين الأخيين والوفود اليونانية الى روما وفلاسفة كبار مثل كريتولوس ، كارنيدس وبينتوس . وكان تعاظم قوة روما العامل

المهم في النهضة الأدبية بروما . ومن الأدباء الرومان الأوائل فينيوس نيفيوس (٢٧٠ - ١٩٩ ق . م .) وهو شاعر من أصل لاتيني اخرج المواضيع الرومانية في أنماط يونانية وكتب ملحمة في شعر ساتورني عن الحرب البونيقية الأولى . ثم پاكوفيوس من برنديزي (٢٢٠ - ١٣٠ ق . م .) واكيوس من اومبريا (١٧٠ - ٨٦ ق . م .) .

في حقل الدين قوت الحرب الفينيقية المشاعر الدينية في الطقوس العامة . فقد عمت خلال أيامها الخرافات فكثرت الفؤول وازداد العرافون والعيافون . وصارت للطقوس الأجنبية شعبية ، فقد شعر الناس بأن آلهتهم القديمة قد هجرتهم وحتى دفن بعض الناس أحياء لارضاء أرواح الموتى . وقد منعت الدولة كل أشكال العبادة غير المعترف بها رسمياً وحتمت تسليم الكتب السحرية الممنوعة في الفورم بتاريخ معين .

فدخل الآن طقس الربة سيبيل الفريجية (الأم العظمى) ربما لعلاقتها بطروادة التي يعتقد الرومان أن اجدادهم هاجروا منها . ومنذ حوالي سنة ١٨٠ ق . م . صار لطقس الاله دايونيسيوس شعبية بالغة بالرغم من معارضة الدولة له في البداية . وبالوقت الذي صار فيه التأكيد عند الكثيرين على الاستعراضات الدينية والأضاحي وعلامات الفأل فقد سرى الشك بالآلهة الى العديدين . وترجمت مقالة يوهيميروس من نهاية القرن الرابع ق . م . والتي توضح بأن الآلهة ليسوا سوى رجال عظام بالماضي عبدهم الناس فيما بعد . كما جلب العبيد الكثيرون والأسرى الى روما أفكارهم الدينية مما أضعف الايمان بالآلهة الرومانية التقليدية وقل تأثير الكهنة بصورة عامة .

كما تغلغلت الفلسفة اليونانية الى روما والتي أثرت في صب الأفكار والأخلاق والنظرة الدينية للرومان . وبالرغم من معارضة المحافظين لتدفق التأثيرات الفلسفية اليونانية الا انها سرت بسرعة وقوة . وصار للاكاديمية الافلاطونية الجديدة أو مدرسة الشك شعبية بوساطة كارنياديس خليفة افلاطون . كما شاعت الابيقورية لتفسيرها الظواهر الكونية بالطرق العلمية . وكان شيوع الرواقية أكثر بعدأعلى يد معلمها بانايتيوس من رودس الذي درس في روما برعاية سكيبيو . وفي القرن الأول ق . م . صارت لأفكار لوكريشيوس شعبية بالغة حيث دعت الناس الى طرح التقاليد ورؤية نور العقل الطاهر الذي يبين لهم خرافة معتقداتهم [٥] .

وفي حقل الفن فقد بدأ منذ القرن الثاني ق . م . عصر جديد في العمارة الرومانية حيث أخذت الثروة تنفق على بناء العمائر على الأنماط اليونانية . وكثرت البنايات العامة وشيد جسر حجري جديد على نهر التيبر مع مسناة على طول ضفتيه وقناتان تزودان

روما بالماء . وأعاد كاتو بناء مجاري المدينة والتي كلفته حوالي ٣٥٠ ألف دينار وبلطت الشوارع . وعم الطراز الهلنستي في العمارة ، وفضل الرومان الطراز الكورنثي في الأعمدة وشاع البناء بالحجر البركاني وزينت البيوت بالصور الجبسية البيضاء وصورت حتى بلاطات الأرض في البيوت بالصور الملونة . وشيدت ساحة فلامينوس لسباق الخيول في نهاية القرن الثالث ق . م . وبعض الباسيليكات وقاعات العدالة وشيد معبدا جوبيتر ستاتور وجونو الملكة . واستعمل المرمر اليوناني في المعبد الأخير وبنيت الأرصفة المسقوفة لمرور السابلة على طرفي الشوارع . كما كان تأثير الفن اليوناني على الفن الروماني مباشراً وقوياً . فقد أولع الرومان بصور المدافن مركزين الاهتمام على صور المعارك والانتصارات العسكرية . كما ولع الرومان بالتماثيل النصفية والتماثيل بالاحجام الطبيعية والصور ومن هذه أقنعة الموت الشمعية للاسلاف في بيوت الاثرياء الرومان وتماثيل بالحجم الطبيعي لأفراد العوائل السابقين . وأمرت الدولة بصنع تماثيل برونزية للملوك والأبطال الاسطوريين في بداية العصر الجمهوري . وفي نهاية القرن الثاني صارت عادة الحكام أن يضعوا التماثيل على شرفهم في المحلات العامة . وأكد النحت الروماني الواقعية التي فاقت هيام الاتروسكان بالطبيعية بالعمل (٦) .

الهوامش

1. Trever, pp. 123–124.
2. Boak and Sinnigen, pp. 142–143.
3. Cary, pp. 239–253.
4. Boak and Sinnigen, pp. 149–162.
5. Cyril Robinson, pp. 217–230.
6. Trever, pp. 151–152, Boak and Sinnigen, pp. 170–172.

الفصل الخامس
الأخوة غراكوس واصلاحاتهم ١٣٣ ـ ١٢٢ ق . م .

عرضت الغزوات الخارجية الجمهورية الرومانية بسبب المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي تلتها الى الضعف عسكرياً . وفي سنة ١٤٠ ق . م . شدد القنصل غايوس ليليوس في تطبيق قانون من القرن الرابع ق . م . يحدد مساحة الأرض المملوكة من قبل الفرد بـ ٣٢٠ أيكر وتقديم مايزيد عن هذه المساحة الى الفلاحين الذين فقدوا أراضيهم مما أغضب السنات . وادخل كراسوس وكلوديوس بلاجير اجراءات مماثلة للحد من الملكية الواسعة ولكنهما واجها معارضة شديدة . وأخيراً ظهر مصلح صمم على المضي بالاصلاح بالرغم من معارضة مجلس الشيوخ (١) . وكانت بداية لصراع دستوري عنيف قطع حتى قلب روما (٢) . والقائد الجديد هو تيبريوس غراكوس من نسل عائلة نبيلة عرفت بشجاعة مواقف أفرادها في الدفاع عن مصالح العامة وقد صار والده قنصلاً مرتين وانتخب تيبريوس غراكوس سنة ١٣٣ ق . م . نقيباً للعامة وهو في سن الثلاثين وبدأ بتسلمه المنصب الفترة المعروفة بعصر الغراكيين المهم الخاص بالمشاكل والقوانين المستحدثة (٣) وكان تأثير كورنيليا والدة تيبريوس عليه كبيراً وهي ابنة سكيبيو الكبير وكانت ذات ثقافة عالية وحرصت على تثقيف أولادها وتنمية دور الخطابة وتأثير الناس فيهم حتى قيل أن تيبريوس وأخاه غايوس قد فاقا بالخطابة والتأثير بالناس والثقافة العامة شيشرون . وقد درس الاثنان على أيدي خير المدرسين أمثال ديوفانيس من ميتلين في البلاغة وبلوسيوس من كوماي الذي غرس فيهما حب الفلسفة الرواقية . وتزوج تيبريوس ابنة ابيوس بلجر رئيس مجلس الشيوخ الذي أعجب بالأول (٤) وارسل تيبريوس في مهمة الى افريقية وكان كويستر(حاكم جزاء)في اسبانيا لحج خلالها في تفاوضه مع الأسبان انتهت بتوقيع معاهدة وخلص جيشاً رومانياً حاصره الثوار هناك ، بالرغم من أن السنات قد رفض تلك الاتفاقية ومزق نصها (٥) . وأول عمل قام به تيبريوس لدى تقلده منصب النقيب كان تقديم لائحته في الاصلاح الزراعي الى المجلس القبلي والقاضي بتوزيع الأراضي الواسعة على العامة الذين لا أراضي عندهم . فقد ذكر في خطبة كيف أنه وجد الاراضي الخالية في مريها باتروريا وهو في طريقه الى اسبانيا وشاهد جموع العبيد الذين يعملون على المزارع الواسعة وهو يعرف بأن الذين حاربوا من أجل روما لم يجدوا الا من مزارع صغيرة المساحة كافية لسد حاجة عائلة واحدة ، فتساءل عمن يحملون السلاح للدفاع عن الامبراطورية لأن العبيد لا يساقون الى الخدمة العسكرية ولا الذين فقدوا أراضيهم ويعيشون الآن جياعاً في المدن ولاسيما روما ويشكلون خطراً على الدولة .

فذكر في خطبة له (ان الذئاب والدببة لهم آماكن يأوون اليها ، ولكن الذين حاربوا من أجل بلدهم ليس لديهم سوى الهواء والشمس . يسألهم قادتهم للدفاع عن بيوتهم ولكنهم لايملكون أياً منها . انهم يحاربون ويقتلون فقط من أجل ثراء وترف الاخرين ، انكم تسمون سادة العالم ولكن ليس لديكم قدم مربع من الأرض) [٦] . ولم يلاحظ تيبريوس بأن عمل العبيد كان نتيجة وليس سبباً للتدهور الى جانب منافسة الحكومة لمبيعات الحنطة من المزارع الخاصة ذلك بالقمح الذي كانت تستحصله من الجزية .

أكد القانون الذي قدمه تيبريوس والمسمى بقانون الأراضي مصادرة الدولة لكل الأراضي الخاصة التي تزيد مساحتها عن ٣٤٠ أيكر ينقص منها ١٦٠ ايكر عن كل ولدين للمالك . وأعفيت الأراضي التي بين ٣٢٠ و٦٤٠ ايكر من الضرائب والايجار وعوض أصحاب الأراضي عن البنايات التي شيدوها والبساتين التي عمروها في تلك الأراضي . وقسمت الأراضي المصادرة الى قطع صغيرة مساحاتها بين ٩ ـ ١٨ ايكر وزعت على مواطنين روما الفقراء الذين لاأراضي لديهم على أن يدفعوا عنها ايجاراً بسيطاً للدولة . واستهدف القانون حل أزمة البطالة في روما والعمل على توطين الفلاحين في ايطاليا ولاسيما القسم الجنوبي منها . وعرض تيبريوس اللائحة على المجلس القبلي لعلمه بمعارضة مجلس الشيوخ لها . وفي يوم التصويت على اللائحة تدفق الفلاحون على روما بأعداد غفيرة . وبعد أن أتم تيبريوس تلاوة خطبته في المجلس أمر كاتبه أن يتلو اللائحة للناس المجتمعين في بناية المجلس . ولما رأى مجلس الشيوخ نفسه في وضع لايتمكن من احباط مشروع تيبريوس أوعز الى أوكتافيوس النقيب الثاني مع تيبريوس بالاعتراض على القانون ثم اتفق النقيبان (اوكتافيوس وزميله تيبريوس) على عرض الأمر أمام السنات الذي ندد بمشروع تيبريوس . فتقدم الأخير باقتراح الى المجلس القبلي طلب فيه عزل أوكتافيوس لتواطؤه مع مجلس الشيوخ ضد رغبة العامة الذين انتخبوه نقيباً للدفاع عن مصالحهم وتم له ماأراد وانتخب نقيب آخر بدله . وشكلت لجنة قوامها ثلاثة أعضاء شملت تيبريوس وأخاه الأصغر غايوس ووالد زوجته كلوديوس أعطيت صلاحيات تشريعية واسعة لتحديد الأراضي العامة . وقامت اللجنة بعملها وقسمت الأراضي واحتاج تيبريوس . للمال اللازم لتنفيذ المشروع (دفع رواتب المساحين والموظفين العاملين وتقديم سلف للفلاحين تعينهم على بناء بيوت لهم وشراء أدوات وعدد وبذور وحيوانات الخ) وهو أمر يستلزم موافقة مجلس الشيوخ [٧] ، ورفض الأخير تقديمها . وحدث أن توفي بتلك الآونة اتالوس الثالث ملك برغاموم الذي أوصى بأمواله الخاصة وبمملكته الى الشعب الروماني ، فانتهز تيبريوس الفرصة وضمن صوت المجلس المئوي بوضع تلك التركة تحت تصرف اللجنة . وانبرى كثير من أعضاء السنات يهددون تيبريوس بالقتل وأخذوا

يطعون القاطعات حول تيبريوس التي منها احتفاظه بتاج وصولجان اتالوس كما يلبسها عندما يعلن نفسه ملكاً على روما (٨) . وهنا صمم تيبريوس على ترشيح نفسه ثانية لمنصب نقيب العامة وعمل في الوقت نفسه على كسب الطبقة الوسطى ووعد بتقصير مدة الخدمة العسكرية وادخال محلفين من طبقة الارسان الرأسمالية الى المحاكم وتوسيع حق التظلم في المحاكم وتقديم حكام المقاطعات المتهمين بالرشوة والاثراء غير المشروع للمحاكمة .
وفي الوقت الذي كان فيه التصويت يسير لمصلحة تيبريوس ، اجتمع السنات في معبد فيدليس وصوتوا على رغبة تيبريوس باعلان نفسه ملكاً مما يستوجب معه تنفيذ القانون بقتله . واسرع كثيرون لمساعدة تيبريوس ولكن الجمهور الغاضب أطبق على تيبريوس واتباعه البالغ عددهم حوالي الثلاثمائة عند باب معبد جوبيتر وقتلوهم ورموا بجثثهم في نهر التيبر . وشكلت محكمة خاصة سنة ١٣٢ ق . م . لمحاكمة بقية اتباع تيبريوس حكمت على الكثير منهم بالموت وطبق فيهم (٩) . وبالرغم من مقتل تيبريوس استمرت لجنة الأراضي في تنفيذ قانونه حتى سنة ١٢٩ ق . م . وافتخر القنصل ليناس في حجر قياس طريق بتنفيذه قانون الأراضي قائلاً بأنه (أول من أجبر الرعاة على فسح المجال للفلاحين) ، وكان عمل لجنة الأراضي صعباً ، فقد كانت الكثير من سندات ملكية الأراضي مفقودةً وزالت معظم معالم الحدود بين المقاطعات الزراعية وبذلك أخذت اللجنة تعتمد على شهادات الأشخاص . وكان لابد لكل هذه الأمور أن تؤدي الى تجاوزات على ممتلكات الأفراد الخاصة . وأخذت اللجنة أراضي من الايطاليين لم تتسلم الطبقة الفقيرة منهم أي قطع منها كما يقضي القانون مما جعل الأخيرين يبحثون عن يدافع عنهم والذي وجدوه في سكيبيو اميليا نوس قاهر قرطاجة الذي يعرف اسهاماتهم العسكرية السابقة . ونجح سكيبيو في تحويل صلاحيات اللجنة القضائية الى القنصلين فيما يخص الحلفاء الايطاليين واللاتين ولكنه وجد ميتاً في ظروف مبهمة .

في سنة ١٢٣ ق . م . انتخب غايوس كراكوس نقيباً للعامة ، وكان قد عمل حاكم جزاء سنة ١٢٦ ق . م . بسردينيا وهو خطيب قوي الشخصية واسع الأفق ، مدحه بلوتارخ وقال أنه رجل يحرص على الحق عالي الخلق ذكي ونشط . وخلال الفترة بين ١٣٢ ـ ١٢٣ ق . م . ازداد نفوذ طبقة الفرسان (رجال المال والأعمال) وبعدت الشقة بين دهماء المدن والنبلاء وفقد العامة أي أمل بالاصلاح من السنات . وصدر سنة ١٣٠ ق . م . تشريع يجعل الاقتراح سرياً في التشريع ويسمح باعادة انتخاب نقيب العامة مرتين متتاليتين . وفي سنة ١٢٥ ق . م . انتخب فولفيوس فلاكوس قنصلاً واقترح مشروع يمنح بموجبه الراغبين من اللاتين والايطاليين الجنسية الرومانية أو حق رفع

الشكاوى على المندوبين الرومان ولكن مشروعه فشل . وثارت المستعمرة اللاتينية فريجيالاي ضد الرومان بسبب فشل مشروع الجنسية وأخمدت ثورتها بكل شدة .

كان مجلس الشيوخ يعد غايوس خطراً على سلطته وسلامته لعضويته في لجنة تقسيم الأراضي التي شكلها أخوه تيبريوس ولتأثيره بالجماهير ولكونه من عائلة كراكوس . وقد سن خلال السنتين من نقابته سبعة عشر قانوناً كلها مضرة بسلطة السنات . وبعد انتخابه حرض الشعب ضد قتلة أخيه وضد أعضاء المحكمة التي أصدرت الأحكام على أعوان أخيه ونفي رئيسها پوپيللوس (الذي حكم على تيبريوس بالاعدام) . وأصدر المجلس القبلي قانوناً منع فيه السنات من تشكيل محاكم خاصة لمحاكمة المتهمين السياسيين لاسيما أولئك الذين ليس لهم حق التظلم . وأصدر قانوناً جديداً لمواجهة الطوارىء طبق فيما بعد ضده ، وعمل على خلق حكومة قوية قادرة على حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي جرها التوسع الروماني ومنها ادارة المقاطعات وسخط الحلفاء . ووجه همه أولاً الى شل حركة مجلس الشيوخ وكسب الفلاحين والطبقة الوسطى ، ثم عمد على احياء مشروع أخيه تيبريوس وتوسيعه فأعاد السلطات الى لجنة توزيع الأراضي السابقة وبدأ بتنفيذ برنامج بناء طرق لمساعدة الفلاحين على نقل محصولاتهم الى الأسواق والوصول الى المدن للاشتراك في شؤونها السياسية وربط الاماكن البعيدة بالمدن وتحسين التجارة . ولأجل اجتذاب دهماء روما اقنع غايوس المجلس القبلي بتشريع قانون القمح الذي وجه الدولة الى شراء القمح من الخارج وبيعه بسعر زهيد للغاية على سكان المدينة (مائة فلس للبواشل « ٨ غالونات » الواحد) . وكانت الحنطة ترد الى روما من مقاطعاتها الخارجية وهنا لاتكلفها سوى النقل والتخزين . وشيدت المخازن الكثيرة في روما لوضع القمح الوارد مما وفر العمل للعاطلين . (١٠) وشرع غايوس قانوناً عسكرياً يلزم الدولة تقديم اللباس والسلاح للجندي دون أن تستقطع منه اثمانها . وفي سنة ١٢٢ ق . م . انقص وزن الدينار الروماني مما مكن المواطنين من دفع ضرائبهم بأموال مخفضة وقلل من أموال الجزية الواردة الى الخزانة العامة من الحلفاء الرومان . وصدرت قوانين ببناء مستوطنات في ايطاليا وافريقية خففت ازمات كثرة السكان في روما وفتحت فرصاً أمام الشباب المستوطنين . ووقع الاختيار على كابوا ، نبشونا قرب تارينتوم ، ومنرقيا قرب اسكولاكيوم وقرطاجة كمواقع لهذه المستوطنات . وشيدت مدينة يونونيا على موقع قرطاجة القديم وسكن به ستة آلاف من شباب روما ووزعت عليهم قطع الأراضي (١٢٥ أيكر للعائلة الواحدة) ، وأشرف غايوس بنفسه على تأسيس هذه المدينة حيث ذهب الى افريقية وبقى فترة من الزمن فيها ولكن مجلس الشيوخ نجح بعد ذلك في معارضة المشروع الذي طبقه فيما بعد أوغسطوس .

قدم غايوس قانونين لمصلحة الطبقة الوسطى التي لم تكن راضية بسيطرة السنات على الأمور المالية وادارة المقاطعات وارداتها . فقانون سمح لآسيا أن تقدم ضرائبها على شكل عشر يجمع محلياً ويعطى لمن ترسو عليه المزايدة العلنية أمده خمس سنوات . وأدى هذا القانون الى مضاعفة الدخل . ومنع أعضاء مجلس الشيوخ من أن يكونوا قضاة في المحاكم المشكلة لمحاكمة المتهمين باستغلال شعوب المقاطعات الرومانية . واشترط أن يمتلك الحكام الذين يتم اختيارهم لهذه المحاكم مالا يقل عن أربعمائة ألف سيسترزيس روماني أي مايعادل ستة آلاف ونصف دينار) حتى يصعب اغراؤهم بالمال والتأثير على الأحكام . وعوقب بموجب قانونه هذا كثير من الحكام لنهبهم المقاطعات التي عينوا عليها . واقترح لائحة يمنح بموجبها الجنسية الرومانية للاتين والحقوق اللاتينية الى الحلفاء الرومان والتي عارضها مجلس الشيوخ بكل قوة وأدت الى تآمر الأخير ضد غايوس . وقد وجد السنات لتنفيذ مؤامرته ضد غايوس خير منفذ في شخص ماركوس ليفيوس دروسوس نقيب العامة وزميل غايوس والذي عارض اللائحة . وقد فشل غايوس في اعادة انتخابه نقيباً للعامة للمرة الثالثة وفقد بذلك سلطته في التأثير على الشعب وماكان أمامه الا حماية نفسه من مؤامرات السنات ضده وعمل على سد كل منفذ أمام أعدائه يتخذوه ذريعة لاعلان الأحكام العرفية في روما والتنكيل بجماعته . وذات مرة كان شخص اسمه لوكيوس اوبيميوس يقدم أضحية في شرفة معبد الكابيتولاين بروما ويشق زميل له يدعى انتونيوس طريقه وسط حشد من الناس حاملاً أحشاء الحيوان المضحى أن كان غايوس حاضراً فأمره الأخير بالوقوف جانباً ناعتاً اياه وجماعته بالمواطنين السيئين . وقد أثارت هذه الاهانة أحد أعوان غايوس فتقدم وقتل انتونيوس بالسكين . وحاول غايوس تفسير الحدث ولكن أوبيميوس دعا جميع المواطنين الرومان الطيبين (على حد تعبيره) لشد أزر الدولة وتقدم مع مؤيديه من أعضاء السنات وأعوانهم وعبيدهم وأجهزوا على غايوس وأتباعه . ولجأ الأخيرون عند الافنتاين وقتل منهم مايزيد عن الثلثمائة . ولما فشلت محاولة غايوس في الهرب أمر أحد عبيده بقتله [١١] وقطع أعداؤه بعد ذلك رأسه ورموا بجثته في التيبر . وشكلت محاكم أعدمت حوالي الثلثمائة من اتباع غايوس . [١٢] ولكن غايوس تمكن من اضعاف نفوذ مجلس الشيوخ ويقلل من سيطرته على أمور الدولة . وضعفت هيبة الدولة وقل حرص المواطنون على خدمتها ونقصت كفاية الموظفين في الدولة وتفشى الفساد خاصة بين المسؤولين ونشطت نزعة التمرد في الجيش . [١٣]

الهوامش

1. H.F. Pelham, Outlines of Roman History, (New York, 1905), p. 202.
2. Sir Charles Oman, Seven Roman Statesmen of the Later Republic, (Edinburgh, 1941), p.3.
3. Hugh Last, Tiberius, CAH, Vol, IX (Cambridge, 1951) pp. 90,91.
4. Frita Heichelheim, History of the Roman People (Englewood Cliffs, 1962), pp. 172–173.
5. J.C. Stobart, The Grandeur that was Rome, (New York, 1951), p. 96.
6. Plutarch, Lives of Great Men, 8:4.
7. Heichelheim, p. 175.
8. Oman, p. 39.

٩ ـ د . عبداللطيف أحمد علي ، التاريخ الروماني ، عصر الثورة (بيروت ، ١٩٧٣) ص ٢ ـ ٤٤ .

10. Heichelheim, p. 178.
11. Oman, p. 79.
12. Odin Gregory, Gaius Gracchus، (New York, 1920).

١٣ ـ د . عبداللطيف أحمد علي ، ص ١٥ ـ ٤٤ .

الفصل السادس
المشاكل الداخلية والازمات الخارجية : ماريوس وسولا

قوبلت وصية أتالوس الثالث في برغاموم بمعارضة قادها اريستونيكوس ادعى أنه ابن الملك يومينيس الثاني من جارية افيسوسية وشهر السلاح ضد روما وحلفائها . ولم تؤيده المدن اليونانية بآسيا الصغرى عدا فوكية ودحرت أفيسوس اسطوله . وسرعان ماعمت الاضطرابات آسيا الصغرى الغربية ابتداءً من البوسفور حتى كاريا جنوباً مؤيدةً ارستونيكوس . وارسلت روما جيشاً لقمع حركة الأخير سنة ١٣١ ق . م . بقيادة كراسوس موكيانوس وحاصرت في بداية سنة ١٣٠ ق . م . مدينة ليوكاي ولكنه تراجع شمالاً واصطدم بقوة فرسان تراقية أدت الى قتله . وخلفه في القيادة القنصل بربرنا الذي دحر اريستونيكوس وأرسل الكثير من الغنائم الى روما . وجاء بعد موت بربرنا المفاجيء أكويليوس قنصل سنة ١٢٩ ق . م . الذي نظم مقاطعة آسيا واستحدث من الأقسام الساحلية الغنية بآسيا الصغرى مقاطعة آسيا الرومانية حيث أعطت روما المناطق المرتفعة الى حلفائها الذين أعانوها من ملوك الدويلات في البلاد [1] . وأرسلت حملة رومانية بين ١٢٥ ـ ١٢١ ق . م . لوضع حد لهجمات الغالين على منطقة ماسيلية (مارسيليا) وضمان الطريق الى اسبانيا ، هجمت على قبيلة الأرفيري ونظمت من جنوب فرنسا مقاطعة رومانية باسم غالة الناربونية تمتد من جبال الألب حتى نهر الرون ونفوا الى روما بيتويتوس ملك الأرفيري وابنه . وفي سنة ١١٨ ق . م . هوجمت قبيلة ستويني في منطقة الألب ونجح فلاكوس في حملة على ساحل دلماشيا ومناطق بايليريا التي حتمت ارسال حملات أخرى فيما بعد .

جاء مكيبسا (١٤٩ ـ ١١٨ ق . م .) بعد والده مسينيسا كملك على نوميديه (ماسيل وهي الجزائر الحالية تقريباً) وعند وفاة الأول خلفه ولداه هيمسال وأذربعل القاصرين وابن عمهما يوغورتا الذي طمع بأراضيهما. وكان الأخير ابنا غير شرعي وعهدت اليه زمن عمه الراحل قيادة جيوش نوميديه ارسلها مكيبسا لمساعدة الرومان في نومانتيا وكان معروفاً بالشجاعة وبعد النظر وله اصدقاء كثيرون بين أعضاء مجلس الشيوخ. وحدث أن قتل يوغورتا ابن عمه هيمسال وهاجم اذربعل الذي هرب الى دولة مجاورة وطلب العون من روما وبعث يوغورتا مبعوثين الى روما لتبرئة ساحته مستعملين الرشوة . وارسل مجلس الشيوخ لجنتين لتقصي الحقائق حاولتا اقناع يوغورتا بايقاف حركاته واحالة نزاعه الى السنات . وكانت رغبة يوغورتا ازاحة اذربعل ومفاجأة

مجلس الشيوخ بسيطرته على كل نوميديـة كيا يعترف بـه . وفي الوقت ذاتـه كان الكمبريون من شمال أوربا قد غزو شمال ايليريا وهاجموا التوريسكي حلفاء روما في نوريكوم . ولم يكتب للحملة التي ارسلتها روما ضدهم بقيادة كاربو النجاح حيث اندحر قرب نوريه ، وفي الوقت الذي كانت فيه اللجنة تتحقق بالأمر شدد يوغورتا خناقه على اذربعل سنة ١١٢ ق . م . ، دحر جيوشه وقتله ودخل سرتا (ربما قسنطينة) . وهدد ميميوس نقيب العامة مجلس الشيوخ باتخاذ موقف حازم ضد يوغورتا وثارت ثائرة روما ضد الأخير لاسيما بعد وصول الأخبار بمقتل تجار ايطاليين في سرتا . ورفض السنات فعلاً استقبال وفد يوغورتا الذي أعلنت الحرب عليه سنة ١١١ ق . م . وأرسل جيش روماني ضده بقيادة كالبورنيوس بيستيا . واختار الأخير خير القادة لحملته ولكن ما ان وصلوا الى شمال افريقية حتى رشاهم يوغورتا فعقدوا معه سلاماً مخجلاً لروما بالرغم من استسلام يوغورتا لروما بموجبه . ورفضت المعاهدة في روما واتهم قادة الحملة بالخيانة وارسلت حملة أخرى بدلها بقيادة كاشيوس . وقد وافق يوغورتا على الذهاب لروما ومواجهة الشعب الروماني . وحدث ان كان في روما آنذاك ماسيفا حفيد ماسينيسا الذي هرب من شمال افريقية خوفاً من يوغورتا . وأخيراً قرر مجلس الشيوخ طرد يوغورتا من ايطاليا واستئناف الحرب ضده سنة ١١٠ ق . م . وارسلت لذلك حملة قادها سبوريوس البينوس الذي عجز عن دفع يوغورتا لمواجهته في معركة فاصلة ثم عهد بجيشه الى أخيه اولوس . ولما رأى الأخير نفسه في وضع حرج اعترف بيوغورتا ملكاً ووافق على الجلاء عن نوميديا . وكان وقع اندحار هذه الحملة الرومانية سيئاً في روما وأثار فيها هياجاً لاسيما أنها وصلت مع أنباء عجز الرومان عن ايقاف اندفاع الثوار في منطقتي الدانوب والرون وعبور الكمبري سنة ١٠٩ ق . م . الدانوب ثانية وغزوهم غالة مما أجبر روما على ارسال جيش قاده سبيلانوس دحره الكمبري . ودحر جيش روماني يقوده القنصل ميتيللوس جيش يوغورتا ولكن الأخير حصل على صداقة جماعتي الجتولي والموري البربريتين . وقد أثرت حرب يوغورتا على روما لأهمية شمال افريقيا للاقتصاد الروماني ، فقد شلت مشاريع عمل طبقة الفرسان وانتهز الديمقراطيون الفرصة فأخذوا يهيجون العامة . وأثرت هذه الأحوال على انتخابات القنصلية لسنة ١٠٨ ق . م . حيث انتخب كايوس ماريوس وهو مواطن من فرسان اربينيوم فشل في حقل الأعمال وبرز في معركة نومانتيا برفقة سكيبيو اميليانوس . ودخل ماريوس حقل السياسة من قبل حيث انتخب سنة ١١٩ ق . م . نقيباً للعامة وأثار اقتراح قدمه يقضي بجعل تصويت الشعب سرياً ، غضب الاوليغاركيين . كما أثار ضغينة الديمقراطيين عندما نقض اقتراح زميله بتوسيع قانون القمح الغراكي . لكن هذه أدت الى فشله في انتخابات المحتسب ثم

اعتزاله العمل ثلاث سنوات . وفي سنة ١١٥ ق . م . انتخب قاضياً وحكم بأسبانيا السفلى بنجاح وقوة . وأكسبه زواجه من جوليا (عمة يوليوس قيصر) نفوذاً وأهمية واقترح قانوناً أعطى بموجبه العامة أكثر حرية في الانتخابات . ثم اختاره ميتللوس كضابط في حملته الى نوميديا لكونه جندياً رائعاً في الشجاعة والمثابرة . وحضر ماريوس الى ايطاليا في اجازة رشح خلالها نفسه لمنصب القنصلية الذي فاز به . وقد جعل ماريوس الحزب الاوليغاركي الى جانب ميتيللوس ، وقد انتقد ماريوس الاثنين واتهمها باطالة الحرب التي وعد بانهائها فوراً ان هو انتخب قنصلاً ، وقد حصل على تأييد الديمقراطيين والطبقات الدنيا من العمال والفلاحين الى جانب الفرسان وتطور الصراع الى نزاع بين ارستقراطية مجلس الشيوخ والفئات الأخرى .

ان أول عمل قام به ماريوس هو تعيين ميتيللوس نائباً للقنصل ثم بدأ في ادخال اصلاحات بالجيش سمح للراغبين بالانخراط فيه بغض النظر عن طبقتهم ودونما أي شروط للتملك . ونعرف أن وجود شرط التملك واقتصار الخدمة على طبقات معينة جعل الجيش قليل العدد لاسيما وسط كثرة حروب الدولة واتساع رقعتها وعدم حماسة المواطنين الذين تتوفر فيهم شروط الملكية . وبدخول الفقراء الذين ليس لديهم سوى قوتهم الجسمانية وحماستهم قوى الجيش وازداد عدداً لاسيما بعد أن زودتهم الدولة بوسائل العيش وأعطتهم املاً بالثراء من الغنائم الموزعة . ولقيت اصلاحات ماريوس في الجيش حماسة من الطبقات الفقيرة وايده الاثرياء الذين تحرروا من واجب الخدمة بالجيش واقتصر عملهم على تدريب عسكري لفترة قصيرة . وادخل الى جيشه تحسينات مستحدثة منها تقسيم فرقه الى ثلاثين شرذمة (بكل منها ٦٠ أو ١٢٠ جندياً) تتألف كل منها من ثلاثة خطوط تقف على مسافات معينة بعضها من بعض . وجعل مقاتلو كل فرقة ستة آلاف مقسمين الى عشر كتائب من الحلفاء والرومان واستبدل الرمح الطويل والدرع الضخم بالرمح الخفيف (البيلوم) والترس الخفيف المدور (كليپيس) . (٢)

تحرك ماريوس بجيشه الى شمال افريقية تاركاً بايطاليا كورنيليوس سولا الذي قضى أكثر حياته بين المغنيين والراقصات وحصل مؤخراً على أملاك محظية يونانية . وفي هذا الوقت رجع ميتللوس الى روما واستقبله مجلس الشيوخ استقبال المنتصرين ومنحه اللقب قاهر نوميديا . وانقض ماريوس على يوغورتا ودحره ولجأ الأخير بعدها عند حليفه وجاره بوخوس ملك موريتانيا (المغرب الحالية تقريباً) . وعهد ماريوس الى السياسة فأرسل سولا كوسيط الى بوخوس طالباً منه ترك حلفه مع يوغورتا وتسليمه الى روما . وتمكن سولا من اقناع بوخوس الذي كان متردداً في البداية ويخشى انتقام روما منه التي

قد تفقده عرشه وتم القبض على يوغورتا وهكذا انتهت الحرب في شمال افريقية بانتصار روما . والحق القسم الشرقي من نوميديا في مقاطعة افريقية الرومانية وأعطي القسم الغربي الى بوخوس لقاء تعاونه وسلم القسم المتبقي من المملكة الى غودا ابن أخي يوغورتا . وتم في روما عرض يوغورتا وأولاده وأفراد أسرته وبلاطه باستعراض نصر حافل قبل أن يدفع الأخير الى حيث يموت جوعاً وعطشاً [٣] سنة ١٠٦ ق . م .

الحد الكبري مع التيوتون لاجتياح غالة وايطاليا وغزت قبيلة التيغوريني غالة الناربونية التي ثار سكانها على روما وقبضوا على رجال الحامية الرومانية في تولوسا (تولوز الحالية) . وباءت حملة القنصل لونيجينوس ضد الأخيرين بالفشل حيث دحر رئيسهم ديفيكو الجيش الروماني ومزقه مما اضطر لونيجينوس الى عقد سلام خسر بموجبه تولوسا . وكان فشل الرومان هذا اشارة لثورة أكثر غالة الناربونية ضدهم . وارسلت روما جيشاً الى غالة بقوده سرفيليوس كيبيو انقض به على الفولكاي بعد رؤيته انسحاب التيغوريني خوف انتقام روما منهم وحرر تولوسا . وفي سنة ١٠٥ ق . م . ظهر الكبري والتغيريني على حدود غالة متحدين مع قبيلتي التيوتون والأمبرونين وأسرع مجلس الشيوخ بارسال حملة ضدهم بقيادة كيبيو وماكز يموس اللذين سرعان ما اختلفا احدهما مع الآخر الى جانب افتقار الجنود للتدريب الكافي مما أدى الى اندحار روما حيث هاجم رجال القبائل الجيش الروماني سنة ١٠٥ ق . م . عند اروسيوم (اورانج الحالية) ومزقوه وانتهت سيطرة روما على غالة عبر الألب وتعرض الطريق بين ايطاليا واسبانيا الى الخطر . [٤] أعيد انتخاب ماريوس قنصلاً ودخل روما دخول المنتصرين وبصحبته يوغورتا كما ذكرنا . ثم سار ماريوس بجيش الى غالة فوجد الكبري قد ساروا لأسبانيا ناهبين ومخربين في وقت عبث به التيوتون بغالة والتي ساعدت على تمرد مناطق عدة منها ضد الرومان . فقام ماريوس بتثبيت سيادته على غالة الناربونية وتدريب جيشه الذي الحق به فرقاً من شمال افريقيا . وحدث في فترة وجود ماريوس بغالة ان ثار العبيد في جنوب ايطاليا وصقلية في وقت أخذت مملكة البونطس على شواطىء البحر الأسود تتحرش بحكام بافلاغونيا اصدقاء روما سنة ١٠٤ ق . م . وتحت حكم ملك من أسرة فارسية متأثرة بالهلنستية يطمح ملكها مثراديتيس (مثراديتيس) الرابع ليصل الى الفرات شرقاً . وهاجم الأخير بالاشتراك مع صديقه ملك بيثينيا منطقة بافلاغونيا سنة ١٠٣ ق . م . وقسمها معه . ووجدت روما في مثراديتيس خطراً على ممتلكاتها بآسيا الصغرى . وكان نجاح الديمقراطيين في انتخابات سنة ١٠٣ ق . م . كاسحاً وقوبلت رسل مثراديتيس الى روما بمعارضة من مختلف الأوساط وشك باحتمال استعماله الرشوة . وظل

ماريوس يترقب بجيوشه الوقت المناسب لضرب القبائل المعادية في غالة بالوقت الذي أخذ يشغل فيه جنوده بالأعمال العامة . فطهروا الجزء الجنوبي من نهر الرون وحفروا قناة أطلق عليها اسم فوسا ماريانا كان لها أثر بوصول التجهيزات لجنوده وانعاش التجارة مما ارضى طبقة الفرسان وأسر أهل مرسيليا .

في سنة ١٠٢ ق . م . أعيد انتخاب ماريوس قنصلاً للمرة الرابعة . وفي تلك السنة رجع الكمبري من اسبانيا والتيوتون وركزا تحشيداتها بالاشتراك مع والامبرونين والتغيوريني على ضفاف الرون تمهيداً لغزو ايطاليا واندفع جمع من التيوتون الامبرونين عبر غالة الناربونية باتجاه الجيش الروماني . واصطدم الاثنان عند اكواسكستياني (اكس اين بروفانس جنوب فرنسا) وكان النصر للرومان . (٥)

وأعيد انتخاب ماريوس قنصلاً للمرة الخامسة ، تقدم بعدها لحرب الكمبري والتيوتون اللذين اندفعا لغزو شمال ايطاليا وكسرا جيشاً رومانياً بقيادة كاتولوس كان يحرس ممرات الألب مسيطرين على غالة عبر الألب (الناربونية) ، مما يهدد ايطاليا بالخطر . فضم ماريوس جيشه الى قوات كاتولوس والتقى بالكمبري سنة ١٠١ ق . م . عند كامبي رودي وكسرهم شر كسرة وقتل منهم كما يروى ١٢٠ ألف وأسر مايقارب نصف هذا العدد ، فأطلق السنات على ماريوس لقب مؤسس البلاد الثالث واحتفلت روما بانتصاراته ومر الكثير من الملوك والأمراء المدحورين في الاستعراض .

أعيد انتخاب ماريوس قنصلاً للمرة السادسة وانتخب ساتورنينوس نقيباً للعامة ، وكان على ماريوس هذه المرة أن يربط الجماهير بالحزب الديمقراطي وممثليه وهو أمر لم يقو عليه . فأسرع ساتورنينوس بتقديم قانون زراعي عرض بموجبه أراضي في غالة لتقسيمها بين المواطنين وآخر بانشاء بضع مستوطنات في المقاطعات الرومانية ، مقدونية ، اخية وصقلية ليستوطنها جنود ماريوس المسرحون سواء كانوا مواطنين رومان أو ايطاليين وعهد تنفيذ هذين القانونين الى ماريوس . ولم ينتخب ماريوس قنصلاً للمرة السابعة بل انتخب انطونيوس وميميوس قنصلين ولكن الديمقراطيين انصار النقيبين غلوسيا وساتورنينوس اغتالوا القنصل ميموس الأمر الذي جعل مجلس الشيوخ يستدعي ماريوس ضد القتلة . وفعلاً اصطدم ماريوس بهم وقتل غلوسيا وساتورنينوس والكثير من أتباعهم.وانتهز السنات الفرصة لاستعادة نفوذه ودعا ميتيللوس من منفاه . وفقد ماريوس تأييد الديمقراطيين دون أن يحصل على ثقة الارستقراطيين فانسحب من الحياة السياسية وغادر الى الشرق.ففي السنوات بين ١٠٠ ـ ٩١ ق . م . استعاد السنات قوته وبذلك سيطرت الطبقة الارستقراطية على الدولة . ولم تنعم الامبراطورية بالسلام خلال

العشر سنوات هذه فقامت ثورة في اسبانيا وأخذت قبائل الألب تهجم وتعرضت آسيا الصغرى لهجات من نيكوميديس ملك بيثينا ومثراديتيس ملك بونطس . وبالرغم من اللجنة التي ارسلها مجلس الشيوخ الى هذين الملكين فقد احتلا غلاطية بآسيا الصغرى ثم الغى مثراداتيس حلفه مع نيكوميديس واحتل جميع كبدوكية .

وفي سنة ٩٥ ق . م . أعطيت غلاطية الى حكامها الثلاثة الاسيقيين كما أعلنت بفلاغونيا دولة حرة ووضعت كبدوكية بيد نبيل فارسي أسمه بارزانيس كملك عليها . غير أن مثراداتيس غزا الأخير سنة ٩٣ ق . م . بالاشتراك مع تيغرانيس ملك أرمينيه وأزاح ملكها من عرشه فأعلن مجلس الشيوخ الحرب عليه وارسل سولا كحاكم على كبدوكية . وفي الوقت ذاته توفي بطليموس ابيوت ملك سرنيكا (برقة في ليبيا الحالية) وأوصى بمملكته الثرية الشهيرة بحاصلاتها الزراعية الى الشعب الروماني غير أن السنات رفض الهدية وعد تلك الدولة مستقلة .

اجتهد الحزب الارستقراطي على حفظ النظام والتوازن بين مختلف الفئات . وان زيادة الثراء وتغلغل الأفكار اليونانية والحرص على التعلم زاد الشعور بوطأة القوانين السابقة وطغيان الخرافات . وكان تقديم الأضاحي البشرية على وشك الالغاء وزاد الرخاء وكثرت القصور في روما وهام كثير من النبلاء بالفن والشعر والتاريخ الخ . الى جانب كثرة العبيد ومواطن الانس واللذة في روما وفتحت مدارس البلاغة في كثير من المدن وعمل العديد في التجارة مع ديلوس ، مصر وآسيا فأثرى كثيرون وهم الربا وتقلد المناصب الحكومية كثير من الانتهازيين وعديمي الكفاءة مما جعل الحكومة ضعيفة وبعدت الشقة بين الفرسان الرأسماليين والارستقراطيين بزيادة ثراء ونفوذ الاولين . وعمل نقيب العامة ماركوس دروسوس عند انتخابه سنة ٩١ ق . م . على توحيد الشعب والنبلاء ضد الفرسان . فاقترح قانوناً تشريعياً ينص على قبول ثلثمائة عضو الى السنات من طبقة الفرسان بالقرعة وتأسيس مستوطنات في ايطاليا وصقلية ثم قانوناً زراعياً في الغالب على نمط قانون الغراكيين ولقيت اقتراحاته معارضة من الفرسان والارستقراطيين . ونجح دروسوس في شق الآخيرين الى صفين ووعد الايطاليين بالجنسية الرومانية ولكن دروسوس كان نصيبه الاغتيال أخيراً ، وان مقتل دروسوس انتصاراً لمعارضيه وبدلاً من منح الجنسية للايطاليين لقى الاخيرون اضطهاداً شديداً على يد فاريوس نقيب العامة ادى الى قيامهم بالثورة المعروفة بالحرب الاجتماعية (٩٠ ـ ٨٨ ق . م .) التي تركزت في وسط وجنوب ايطاليا حيث المقاطعات الزراعية الواسعة والمراعي الشاسعة . وشكل الثوار حكومة عاصمة عند كورفينيوم ومجلساً ضم المدن الثائرة ومجلس سنات بخمسمائة عضو ينتخب قنصلين . ولم تحرز روما في تعقبها الثوار بالسنة الأولى نجاحاً يذكر بل

منيت ببضع اندحارات مات في واحد منها القنصل لوبوس . وانتهز مثراديتيس فرصة الثورة فغزا كبدوكية واستبدل ملك بثينيا بآخر . وفي سنة ٨٩ ق . م . منحت المواطنة الرومانية للرومان الذين لم يؤيدوا الثوار والى الايطاليين القاطنين جنوب نهر البو ان كانوا راغبين بذلك خلال شهرين ونفي ڤاريوس واتباعه لما ارتكبوه بحق الايطاليين . فانصب غضب الجميع على الفرسان الذين اعتبروا مسؤولين عن اندلاع الثورة . وفي الوقت نفسه صدر قانون يمنح غالة عبر الألب حقوق المستعمرات اللاتينية وصارت الخدمة في الجيش لزاماً عليهم . وسرعان ما أخذت المدن المنظمة الى الحلف الثائر ضد روما ، والتي لم تحاربها روما بعد ، ترك الحلف وفشلت بذلك الثورة . كما أرسل السنات وفداً الى مثراديتيس الذي وافق على اعادة بيثينيا وكبدوكية الى ملكيها الشرعيين . علماً بأن روما قد استعملت السلاحين السياسة والقوة ضد الثوار في ايطاليا . حيث ضرب ماريوس المرسين في الشمال من الثوار أعقبه في محاربتهم بومبيوس استرابون الذي هزمهم سنة ٨٩ ق . م . واسترجع منهم اسكولوم . في وقت كان سولا يصفي الثوار من السمنين في الجنوب واستولى على بوڤيانوم مركز قيادة الثوار . وعملت الدولة على تنظيم المدن الايطالية على شكل بلديات أي منحتها حكماً ذاتياً ينتخب المواطنون اعضاءه(٦).

هاجم نيكوميديس ملك بثينيا ، بتحريض من المزايدين الرومان الدين لهم ، أراضي جاره مثراداتيس الأمر الذي أغضب الأخير فجهز اسطولاً وجيشاً غزا به بثينيا وكبدوكية ودحر الجيوش الرومانية فيها وأسر قطع الأسطول الروماني وهاجم كل المقاطعات الرومانية بآسيا الصغرى وقتل وأغرق وأحرق ما يقارب المائة ألف روماني فيها . وكانت روما آنذاك في وضع حرج للغاية ، فالحرب الاجتماعية (حرب السوكي ومعناها حرب الحلفاء) قد انتهت لتوها تاركة الدمار في الكثير من مناطق ايطاليا وخزانة الدولة خاوية . وغزا مثراديتيس بلاد اليونان حيث انضم اليه جميع معارضي روما وصار يتصل بالثوار الايطاليين . وتم اختيار سولا (الذي انتخب قنصلاً) لقيادة الحملة الرومانية ضد مثراديتيس . وفي سنة ٨٩ ق . م . ارسل مثراديتيس جيشاً الى مقدونية بقيادة ابنه واسطولاً الى بحر ايجه احتل ديلوس ، وادى دخوله اليونان الى ثورة بعض المدن اليونانية ومنها اثينا . وفي روما كان الفرسان يؤيدون ماريوس ، وتحالفوا مع الايطاليين وبعض الديمقراطيين لاعادة الصلاحيات الواسعة السابقة للفرسان واستبدال سولا بماريوس . ورأى الفرسان في سولبيشيوس روفوس الذي انتخب سنة ٨٨ ق . م . نقيباً للعامة خير زعيم . واقترح الأخير قوانين تسمح للايطاليين بالانخراط في القبائل الخمس والثلاثين ويسمح بعودة الفرسان الذين نفوا من روما بعد خروج ماريوس الى جانب اصلاح في السنات يقضي باخراج كل عضو تصل ديونه الى الفي

دراخمة . وكان سولا آنذاك في نولا يتهيأ للحملة على آسيا فعاد الى روما للتنسيق مع حليفه بومبيوس روفوس لمعارضة القوانين هذه . وعمل سولا على وضع عراقيل لتعطيل اجتماع المجالس مستحيلاً عارضها الكثيرون وأخيراً جمع سولبيشيوس حرساً قوامه ستمائة فارس مسلح وهاجم به الفورم مهدداً القنصلين ، فهرب القنصل بومبيوس روفوس وعاد سولا الى نولا . وهكذا انكسرت هيبة القنصلين وصار سولبيشيوس سيد الموقف وارسل النقيبين الى سولا كيما يسلم القيادة الى ماريوس . ولكن سولا كان قد اجتذب جنوده اليه بعلاقاته الشخصية الطيبة معهم وهو القائد الشجاع الكريم النشط : وسولا بحكم القانون لا يزال قنصلاً فخطب بجنوده واثار حماستهم فامسكوا بالنقيبين المرسلين الى سولا وقتلاهما وتقدم سولا زاحفاً بجيوشه على روما . وبذلك وضع سولا الآن الجيش في خدمة السنات ضد الفرسان وحلفائهم . واجتمع السنات والغى القانون الذي وضعه سولپيشيوس وعد اثني عشر زعيماً من الديمقراطيين منهم سولبيشيوس روفوس وماريوس اعداء للشعب فقتل الأول وهرب الثاني الى افريقية . وسنت قوانين جديدة للتخفيف عن المدينين (٧) .

سولا :

ولد سولا سنة ١٣٨ ق . م . وهو من عائلة كورنيلي النبيلة ولم يترك له والده من الممتلكات الا القليل وقد درس الأدب اليوناني واللاتيني . والمعروف عن سولا أنه قد أحب اللهو في حياته الأولى وظل حب الانس ومعاقرة الخمور والحسان تلازم حياته حتى النهاية . وأصابته حياته الداعرة الأولى مرضاً عضالاً ظل يقاسي منه حتى نهاية حياته (٨) . وكان سولا جميلاً بوجهه بقع حمر ربما كان لها تأثير على سلوكه وقد تزوج من خمس نساء وعرف ببروده وحيلته ودبلوماسيته التي أظهرها في حرب يوغورثا لما شخصية مهيبة مرحاً يعشق النكتة مما كان له أثر في شعبيته بين الناس وجنوده . وآمن سولا بالقوى الخفية فقد عزا رفعته العسكرية الى الحظ وكان يستشير العرافين في حركاته ويحمل تميمة اينما ذهب ولا يمكن ان يقف بوجهه أي أمر . وأضاف الى اسمه لقب فيلكس (السعيد) واطلق على توأميه فوستا وفوستوس لمواتاة والدهما الحظ (٩) . وقد صار قاضياً سنة ١٠٧ ق . م . وعهد اليه ماريوس برئاسة وحدة فرسان وأرسله كممثل عنه الى بوخوس تمكن من اقناعه على ارسال وفد لروما ثم على تسليم يوغورثا . وترينا هذه دبلوماسية سولا التي ظل يفتخر بجهوده فيها وصورها على ختمه الخاص الذي كان يحمله حتى وفاته . وعمل في كبدوكية حيث دحر سنة ٩٢ ق . م . قائد مثراديتيس وأعاد اريبا بارزانيس الى عرشه وكان أول روماني يتصل رسمياً بالفرثيين ، وكان الى جانب ماريوس عند حربه قبائل الكمبري والتيوتون . وقد صعب على ماريوس رؤية تألق نجم سولا ،

فعندما نصب بوخوس تماثيل في عاصمته تصور استسلام يوغورتا الى سولا غضب ماريوس وامر بوخوس بازالتها . وبرز سولا في اخضاعه السامنيين في حرب الحلفاء (الاجتماعية) واستعادته بوفيانوم مدينتهم الرئيسية . وعندما انتخب قنصلاً سنة ٨٨ ق . م . عهد اليه السنات قيادة الحملة ضد مثراديتيس وغادر الى اليونان في بداية سنة ٨٧ ق . م . لمواجهة الأخير فنزل في درهاكيوم وحاصر اثينا التي كانت مركز حركات مثراديتيس واحتلها سنة ٨٦ ق . م . واستباحها . ثم دحر أخيلوس قائد مثراديتيس قرب خيرونيا في بيوشيا ثم دحره ثانية في معركة ارخومينوس الحاسمة . ولكن اعداء سولا صاروا سادة الموقف في روما بانتخب كينا وماريوس قنصلين سنة ٨٦ ق . م . والغيت جميع تنظيمات سولا وعينوا بدله فلاكوس تبعه فيمبريا لقيادة الجيش ولكن جنود الأخيرين هجروه فانتحر . ولم يعر سولا اهتماماً لهذه التطورات بل استمر في تقدمه بحرب مثراديتيس مستعملاً أموال معابد اليونان لتمويل حملته ، فعبر البوسفور بعد اكماله احتلال اليونان واصطدم بمثراديتيس ووافق الأخير في النهاية على شروط السلام التي قدمها سولا في دردانوس . كما عقد صلحاً مع ملك البونطس وعاد الى ايطاليا تاركاً قائده مورينا على رأس جيوشه في آسيا ومر بأثينا حيث أخذ معه الى روما مكتبة ابيليكون من تيلوس الفنية ووصل الى برنديزي في ربيع سنة ٨٣ ق . م . وهيأ ماريوس جيشاً ضخماً لمواجهة سولا تمكن الأخير من اغراء قادته بالرشوة واستمالة المدن الايطالية بهجره الى جانب تأييد كثير من النبلاء الرومان له أمثال پومپي . وفي سنة ٨٢ ق . م . أحرز سولا انتصاراً على السامنين واللوكانيين الذين كانوا تحت قيادة پونتيوس تيلسينوس امام بوابة كولين في روما تلا ذلك استسلام القوة التي كان يقودها ماريوس الصغير في برنستة . وهكذا قضى سولا على خصومه وصار سيد الموقف وأمر باعداد قائمة بأسماء اعدائه سميت پروسكريبتيو قرر اعدامهم جميعاً وصودرت أملاكهم وبيعت بالمزاد العلني واشتراها مؤيدو سولا وحرم أولادهم وأبناء الأخيرين من التصويت بالمجلس القبلي وتقلد أي منصب عام . وعم الرعب روما وايطاليا كلها . وفي نهاية سنة ٨١ ق . م . أعلن سولا نفسه دكتاتوراً لفترة غير محدودة يقررها هو نفسه وارسل پومپي الى افريقية وصقلية . في سنة ٨٠ ق . م . انتخب سولا قنصلاً فعمل على اعادة الدستور الروماني وارجاع السنات الى سابق قوته وتأييد الارستقراطيين وزاد عدد القضاة الى عشرين ولم يبق لنقيبي العامة أي سلطة قضائية أو سلطة لاقتراح القوانين واحتفل بانتصاره على مثراديتيس بفخامة . وحدد أعمار المرشحين للوظائف العامة (ثلاثون سنة لحاكم الخزانة ، ٣٦ للمحتسب و٤٢ للقنصل) (١٠) ،وصار من الصعب على الحاكم المدني تقلد قيادة عسكرية في الوقت نفسه وزاد عدد أعضاء السنات باضافة ثلثمائة عضو لتأكيد أهميته

لاسيما بعد موت كثيرين من أعضائه في الحرب الاجتماعية واضطهادات ماريوس ولم يعد لمن تبقى منهم اهتماماً بشؤون الدولة (١١) . وجرد المجلس القبلي من وظائفه التشريعية والقضائية . ولأجل أن يدعم سلطته أسس مستوطنات عسكرية في ارجاء ايطاليا وحرم كل الايطاليين الذين حاربوا ضده من امتيازاتهم الرومانية وصودرت أملاكهم وسلمت الى الجنود الذين حاربوا الى جانبه حيث تسلمت ٢٣ وقيل ٤٧ فرقة قطع أراضي في مختلف أرجاء ايطاليا . وكان كثير من هذه المستوطنات في اتروريا واعطى حوالي عشرة آلاف من عبيد مؤيديه الجنسية الرومانية وأطلق عليهم اسم عائلة سولا (كورنيلي) .

وزاد سولا الضرائب ووضع قوانين تمنع الناس من التبذير في مصاريفهم ولكنه كان أول من خرق هذا القانون . كما فصل المحاكم المدنية عن الجزائية ويقضي بالأولى حاكم واحد وبالثانية عدد من الحكام الى جانب اصلاحات استحدثها في المحاكم نفسها .

في سنة ٧٩ ق . م . انسحب سولا من المسرح السياسي طواعية الى مزرعة له في بوتيولي حيث عاش متمتعاً بمباهج الحياة ومشبعاً اهتمامه الأدبي وكتب خلالها تاريخ حياته وعصره (الميمورابيليا) في ٢٢ فصلاً انهاه قبل موته بقليل كما كتب مجموعة شعر لم مقالة . وبقي فيها حتى مات سنة ٧٨ ق . م . قبل لانفجار دموي حدث عنده عندما رأى خنق موظف في بوتيولي بأمر من سولا نفسه لعدم تنفيذه أوامره ، وقد شيع سولا تشييعاً رسمياً ضخماً نظمه بومبي ودفن في الكامبوس مارتيوس بروما . (١٢) .

الهوامش

1. Hugh Last, The Wars of the Age of Marius, CAH, Vol, IX, (Cambridge, 1951), pp. 102–107.
2. A. Schulten, Zur Heeresreform des Marius, Hermes, Vol. 63, (1928), p.240.
3. Sallust, Bellum Iugurthinum, XXXV, 10, Cii–CXiii.
4. L. Schmidt, Zur Kimbern und Teutonenfrage, Klio, Vol. 22. (1929) p.95.
5. M. Clerc, Aquae Sextiae, Histoire d'AixenProvence dans l'antiquite (AixenProvence, 1916).

٦ ـ د . عبداللطيف أحمد علي ، السالف الذكر ، ص ٥٧ ـ ٧١ .

7. Guglielmo Ferrero and Corrado Barbagallo, A Short History of Rome. Vol. I,(New York, 1964), pp. 278–337.
8. Plutarch, The Lives of the Noble Grecians and Romans, (New York, 1932), p.572.
9. C.B. Baker, Sulla the Fortunate, (London,1932), p. 26.
10. W.E. Heitland, The Roman Republic, (Cambridge, 1923), p. 508.
11. J. MacDonald Cobben, Senate and Provinces, (London, 1935), p.1.
12. Harry Thurston Peck, ed., Harper's Dictionary of Classical Literature and Antiquities, (New York, 1965), pp. 1504–1506.

الفصل الســـابع
أواخر العصر الجمهــوري

أ ـ الوضع السياسي والتوسع في الشرق :

تتميز هذه الفترة بظهور جمع من القادة الذين اصطـدمت أطماعهم وحبهم بـالاستئثـار بالسلطة بعضهم مع البعض الآخر مما أثر على الوضع السياسي العـام ولم يتمكن السنـات أو المجالس من ايقـافهم نظراً للحروب التي تخوضهـا والأخطـار التي تحـدق بـالبلاد . وكثيراً مـاكان السنـات يمنح سلطـة عسكريـة لبعض القـادة المعروفين بكفـايتهم ولكن المجالس الأخرى صارت تمنح السلطة ذاتها باتفاق القائد مع تنيبي العامة والتي أطلق عليها القيادة غير الاعتيادية التي يخول بها القائد سلطات واسعـة . وكان غنـايوس بومبي (١٠٦ ـ ٤٨ ق . م .) أول من سلـك هـذا السبيـل ، وهـو ابن پـومبي سترابـون وحـارب معـه في ايطاليا عندما كان في السابعة عشرة من عمره . وقـد ايـد سولا الـذي منحـه لقب المظفر (امبراطور) وعندما انتهت الحرب في ايطاليـا ارسلـه سولا الى صقليـة حيث قتل كاربو واعاد الأمن اليها ثم ذهب الى شمال افريقية سنة ٨١ ق . م . ودحر فيها أهينوربـاربوس وهيارباس ملـك نوميـديـا . وقـد استقبل بحفـاوة عنـد رجوعـه من الشعب ولقبـه سولا بالكبير ودخل روما دخول المنتصرين وهو بعد لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره .

بعد وفاة سولا أيـد بومبي القنصل كاتولوس ضـد زميلـه القنصل ليبدوس سنـة ٧٨ ق . م . الذي حاول الغاء قوانين سولا واقترح مشاريع تجتذب الشعب اليه وتحببـه اليـه أمثال الغاء قرار بيع الحنطة الرخيصة الى الشعب الذي طبقه سولا للافاقة العجز المـالي ثم العفو عن مؤيدي ماريـوس وارجاع أراضيهم اليهم وكافة حقوقهم ثم اعـادة الأراضي التي صـادرهـا سولا من الايطـاليين . وتمكن كاتولوس من الوقوف بـوجـه لبيـدوس فـأحبـط الاقتراحين الأخيرين ولم يعـارض قرار بيـع الحنطـة . ولكن الاضطرابـات شبت في شمال اترووريا حيث طرد الايطاليون الجنود الرومـان الـذين وزع سولا عليهم الأراضي هنـاك وسـار القنصـلان كاتـولـوس ولبيـدوس بجيش لاخمـاد حركتهم . ثم عين لبيـدوس نـائب قنصل في غالة القريبة فصـار يتصل بـالسـاخطين على الـدولـة والثوار الايطـاليين والف منهم جيشاً زحف به على روما لاعـادة انتخـابـه قنصلاً واقرار جملـة قوانين منهـا ارجـاع حقوق تنيبي العـامـة السـابقـة التي أبطلهـا سـولا كما يكسب مـؤيـدين لحركتـه . غير أن كاتولوس كسره وأوقف تقدمه وعهد السنات الى بومبي بمعـالجـة الموقف فـسـار بجيش الى موتينا (مودينا الحالية) وارغم جيشـاً مؤيـداً الى لبيـدوس على الاستسلام ، ثم تقـدم الى

الروريا لمواجهة لبيدوس فانهزم الأخير الذي فشلت محاولاته في نقل القتال الى سردينيا فقتل في المعركة وانضمت بقايا جيشه التي قادها بربرنا الى سرتوريوس الذي كان يتزعم ثورة ضد روما في اسبانيا والتي بعث السنات بجيش يقوده ميتيللوس لاخمادها .

وكان سرتوريوس قائداً من الحزب الديمقراطي مؤيداً الى ماريوس ، أخمد ثورة في شمال افريقية واشترك في الحرب الايطالية وانتخب نقيباً للعامة سنة ٨٣ ق . م . ثم حاكماً لأسبانيا القريبة وهرب الى طنجة (تينجيس) سنة ٨١ ق . م . تخلصاً من سولا ثم عاد لاسبانيا ليتزعم ثورة في لوزيتانيا (البرتغال الحالية) ضد روما سنة ٨٠ ق . م . اتبعت حرب العصابات وأيدته القبائل الكلتية - الايبيرية فصار سيد معظم أسبانيا . وهزم الجيوش الرومانية التي ارسلت لصده بقيادة حاكم اسبانيا الروماني ثم ميتيللوس في سنوات ٧٩ و٧٨ ق . م . وهزم نائبه هرتوليوس جيشاً رومانياً قاده حاكم اسبانيا القريبة وآخر لحاكم غاله الناربونية . وانضمت الى سرتوريوس بقايا جيش لبيدوس التي قادها بربرنا وعمت ثورته اسبانيا حتى البرانس وكل شرقي البلاد . وهنا عهد السنات سنة ٧٧ ق . م . الى بومبي باخماد حركته وعينه نائب قنصل لاسبانيا القريبة . ودحر ميتيللوس سنة ٧٥ ق . م . جيش هرتوليوس قرب سگوفيا . وتقدم بومبي ولم يكن واجهه سهلاً حيث مني ببضع خسائر وتركزت حركاته على الساحل الشرقي وسرعان ما أخذت انتصارات بومبي تتوالى مشيعة الفرقة في صفوف اتباع سرتوريوس انتهت بتمرد بربرنا الذي كانت انكساراته تتوالى حتى هجم على سرتوريوس وقتله . وأخيراً انهزم بربرنا امام بومبي واسره الأخير وقتله وهكذا انتهت الحرب في اسبانيا (١) .

كان الموقف في آسيا الصغرى حرجاً فمثراديتيس لم يأمن جانب روما لعدم مصادقة السنات لمعاهدته مع سولا وصار القراصنة الذين كانت لهم مراكز في بامفيليا ، كريت ، كليكيا وليشيا مراكز لهم يهاجمون السفن الرومانية والسواحل الايطالية ويبيعون ما ينهبون بحرية في جزيرة ديلوس ببحر ايجة . وفي الوقت ذاته ضم تيغرانيس ملك ارمينيا ارجاء من كبدوكية وسورية الى مملكته . وفي سنة ٧٤ ق . م . توفي نيكوميديس ملك بيثينيا وأوصى بمملكته لروما التي قبلتها وحولتها الى ولاية رومانية مما أثار مثراديتيس الذي عارض ضم بيثينيا وأخذ يثير القلاقل لروما فيها عرضاً ابن نيكوميديس ملك بيثينيا الراحل بشهر السلاح في وجه روما . وجرد السنات حملة ضد مثراداتيس قادها القنصل لوكولوس في وقت ارسل به القنصل الثاني كوتا لادارة بثينيا وحراسة المضايق . وهاجم مثراديتيس الأخير ودحره وحاصر ميناء كيزيكوس على بحر بربونتيس (مرمره) ولكنه اضطر الى رفع الحصار والانسحاب من كل بيثينيا نتيجة هجمات

لوكولوس . ثم هاجم الرومان بونطس نفسها وهزموا مثراديتيس بمعركة كابيرا سنة ٧٢ ق . م . الذي لجأ الى بلاط صهره ملك ارمينيا . وبعد اكمال لوكولوس السيطرة على جميع بلاد بونطس التفت الى مشاكل ولاية آسيا الرومانية المالية التي كانت مدنها ترزح تحت عبء الديون لمزايدي جباية الضرائب لروما وللمرابين عن الأموال التي فرضها سولا عليهم . فجعل لوكولوس الفائدة على الديون ١٢ ٪ تدفع بأقساط والغى الفوائد التي تجاوزت حد الديون الأصلي ولم يسمح للدائن أن يحجز أكثر من ربع دخل المدين وأمر أن يقتصر دفع التعويضات على مالايزيد عن ٢٥ ٪ من دخل الولاية فقط . وقد اثارت هذه الأمور غضب طبقة الفرسان في روما لاسيما أن لوكولوس من الارستقراطيين لما رفض ملك ارمينيا طلب لوكولوس بتسليم مثراديتيس غزا الأول ارمينيا ودخل عاصمتها تغرانوسيرتا سنة ٦٩ ق . م . ولم يوقفه عن الاستمرار باكمال احتلال اجزاء ارمينيا الأخرى سوى سأم جنوده من استمرار القتال فانسحب بهم الى نصيبين . ثم عاد الى الغرب ليجد أن مثراديتيس قد استرجع بونطس وهزم ترياريوس النائب الروماني فيها بمعركة زيلا سنة ٦٧ ق . م . تلتها استرجاع تيغرانيس لعاصمته وأراضيه وكان خصوم لوكولوس في روما يحيكون ضده الدسائس التي انتهت بتجريده من سلطاته . وقد عرفت حرب مثراديتيس هذه بالثانية (٢) .

في سنة ٧٣ ق . م . تجمع حول العبد التراقي سبارتاكوس وزميله الكلتي كريكسوس كثير من العبيد وشهروا السلاح ضد روما . وقد بدأت الحركة في كابوا بكبانيا بين العاملين في مراكز تدريب العبيد على المبارزة وانضم اليهم الكثير من العبيد الهاربين حتى بلغ عددهم مايقارب السبعين ألف ودحروا جيشين رومانيين وسيطروا على كبانيا ولوكانيا وكثير من أقاليم الجنوب . ثم هزم سبارتاكوس جيشاً رومانياً آخر قادة القنصلان حتى وجه السنات ضدهم جيشاً قاده نقيب العامة كراسوس الذي منحه سلطات نائب قنصل ثم انضم اليه بعد ذلك حاكم مقدونيا الروماني وبومبي فتمكنوا من القضاء على الثورة وقتل سبارتاكوس وقد عرفت هذه بثورة المبارزين (٣) .

انتخب سنة ٧٠ ق . م . بومبي وكراسوس قنصلان لما احرزاه من انتصارات في اسبانيا وايطاليا ، وبالرغم من عدم توفر الشروط القانونية في بومبي حيث كان عمره أقل من ٤٢ سنة ولم ينتخب قاضياً ونقيب عامة من قبل . وقد صدر قانون يعيد لنقيبي العامة حقوقهم التي ألغاها سولا وصار المحلفون يتم اختيارهم بالتساوي من بين أعضاء السنات وطبقة الفرسان وقضاة الخزينة وارجعت وظيفة الرقيب المالي التي ألغاها سولا . وحدث ان هاجم القراصنة ميناء ديلوس وهدموه سنة ٦٩ ق . م . وصاروا يهاجمون

سواحل ايطاليا في بحري المتوسط والادرياتيك مما عرقل وصول القمح الى ايطاليا . فجردت حملة ضخمة ضدهم عهدت قيادتها الى بومبي طهر بها حوض البحر المتوسط من القراصنة ثم دحر اسطولهم عند كوراكيسيوم في ساحل بامفيليا بآسيا الصغرى وخرب معاقلهم في كليكيا ولكنه عاملهم بعد استسلامهم له بكل طيب واحسان واسكنهم في مدن بكليكيا (٤) .

عهدت الى بومبي سنة ٦٦ ق . م . القيادة في آسيا الصغرى لحرب مثراديتيس وهي ماعرفت بحرب مثراديتيس الثالثة . وعقد بومبي اتفاقاً مع الملك الفرثي مطلقاً يديه في ارمينيا وتقدم هو لضرب مثراديتيس في عقر داره من غلاطية . وهزم بومبي خصمه ملك البونطس عند مدينة داستيرا ولم يقدر تيغرانيس على نجدة صهره وحليفه مثراديتيس لتعرضه هو نفسه لغزو من الفرثيين الى جانب ثورة ولده ضده التي ايدها الرومان . واستأنف بومبي حركاته ضد مثراديتيس سنة ٦٥ ق . م . ودحر الايبريين في جورجيا الحالية كي يضيق الخناق على بونطس من الشرق (٥) . وسار غابينيوس نائب بومبي الى سورية واحتل دمشق . وفي سنة ٦٤ ق . م . اكمل بومبي احتلال بونطس ونظم شؤونها المالية وأدمجها مع بثينيا في ولاية واحدة ثم سار الى سورية ودخل انطاكية حيث قابله المرشحان اليهوديان المتنافسان على زعامة الجالية اليهودية في القدس . ثم انتقل بومبي الى دمشق ثم ذهب الى اريحه بفلسطين وتقدم الى القدس واستولى عليها سنة ٦٣ ق . م . بعد حصار لها دام لثلاثة أشهر . وهنا وصلت اليه الاخبار بانتحار مثراديتيس وكان آنذاك رجلاً طاعناً في السن . وفي سنة ٦٢ ق . م . عاد بومبي الى آسيا الصغرى لينظم شؤونها وقسمها الى ولايات صغيرة تحكم كل منها أسرة حاكمة مرتبطة بروما واستحدث ولاية سورية التي ضمت فلسطين أيضاً ثم كريت وأعطيت مقاطعة اسرهيني وعاصمتها الرها الى الأمير العربي أبكَار الثاني . وارجع أمير حمص سامبسيغراموس الى مكانه وكذلك بطليوس أمير الايطوريين العرب الى اماراته في عنجر (بلبنان الحالية) . واهتم بومبي بالمدن فعمر وأحيا مايقارب الخمسين مدينة في الشرق منح كل منها حكماً ذاتياً واحترم استقلال المدن الأخرى امثال انطاكية وسلوقية العاصي واعفى مدناً عدة من الجزية مبقياً على ضريبة العشر المفروضة على محاصيل التربة .

وفي الوقت الذي كان فيه بومبي يثبت نفوذ روما بالشرق كثر حساده في روما وعلى رأسهم كراسوس الذي أخذ يتقرب الى يوليوس قيصر . والأخير من عائلة نبيلة ومن انصار ماريوس زوج عمته وتزوج من كارنيليا ابنة سينا ولما طلب سولا منه طلاقها

رفض فجرده الأخير من منصبه الكهنوتي . وقد خدم ابام سّولا في آسيا وكليكيا وقبض عليه القراصنة مرة ولم يطلقوا سراحه الا بعد دفع فدية كبيرة .

وفي سنة ٦٩ ق . م . انتخب حاكم جزاء في اسبانيا السفلى ثم عاد الى روما حيث انتخب سنة ٦٥ ق . م . محتسباً فصارت له شعبية بين العامة . وقد اسرف كثيراً في الانفاق للصرف على الحفلات التي كان يستحصلها من كراسوس الذي انتخب آنذاك رقيباً . وبرز في هذا الوقت رجل يدعى كاتيلينا وكان من أسرة شريفة عرف بفساد خلقه وجرأته فاشترك في تنفيذ اغتيالات سولا وانتخب سنة ٦٨ ق . م . قاضياً ثم حاكماً على ولاية افريقية . ولما فشل في الحصول على منصب القنصل سنة ٦٤ ق . م . وفاز منافسوه صمم على الانتقام وتآمر على اغتيال منافسيه اللذين فازا في القنصلية ولكن المؤامرة احبطت واستعمل كراسوس نفوذه لمنع احالة المتآمرين الى المحاكمة (٦) .

لمع في هذه الفترة اسم شيشرون (١٠٦ - ٤٢ ق . م .) وكان محامياً وخطيباً وسياسياً وأديباً عارفاً بمعارف عصره .. وهو ماركوس تلليوس شيشرون ، قضى حياته الأولى في اربينيوم التي أحبها وحرص والده على تعليمه فارسله للدراسة الى روما واشترك في جملة حروب محلية وكان محباً للثقافة اليونانية وانتخب حاكم جزاء سنة ٧٦ ق . م . فأرسله الى صقلية ثم انتخب محتسباً ثم قاضياً وقد لمع نجمه في دفاعه عن أهالي صقلية ضد حاكمهم الروماني فيريس الذي اتهموه بالرشوة وخنق الحريات . وكسب شيشرون الدعوى بالرغم من كثرة المدافعين عن فيريس ولجوئه الى شوء الاساليب لتخليص نفسه . ثم انتخب قنصلاً سنة ٦٣ ق . م . مع انطونيوس . وواجه شيشرون مشكلة ربما كان له دور في تجسيمها لتعظيم نفسه وزيادة شعبيته وهي مؤامرة كاتيلينا منافسه . فقد اتهم الأخير بتدبير مؤامرة لقتل شيشرون وحرق روما واغتيال كثير من أعضاء مجلس الشيوخ ولكن المؤامرة كشفت وقبض على المتآمرين . ويخبرنا بلو تارخ بان الانوار قد اشعلت في الطرق ووضعت المشاعل والقناديل على أبواب البيوت تكريماً لشيشرون بعد هذه المحاكمة التاريخية . وكان شيشرون يتحمس للدستور ويؤيد ثبات قوة السنات والمحافظة على قوة العنصر الارستقراطي . وقد انتقد رجال الوفاق الثلاثي بشدة رلو ا بم قد ناشدوه التعاون فرفض . ثم منع من السكن بمنطقة على بعد اربعمائة ميل من روما وصودرت أملاكه ونهب واحرق بيته واحرق بناء على اقتراح قدمه كلوديوس يقضي بانزال عقوبة شديدة على كل روماني سبق أن حكم على مواطن من بني جلدته لم يحاكم محاكمة نار أو ماء دون استشارة الشعب وكان يريد به شيشرون عندما حكم على كاتيلينا وجماعته دون استشارة الجماهير فرحل شيشرون الى اليونان . وفي سنة ٥٧ ق . م . صوت

الناس على اعادة شيشرون وارجاع املاكه اليه . ثم انيطت لـه مسؤولية ادارة مقاطعة كيلكيا في شمال سورية الذي يقول انه اعاد الأمن اليها ونظمها . وفي الحرب الأهلية كان شيشرون من انصار بومبي . وبعد مقتل يوليوس قيصر سنة ٤٤ ق . م . كتب شيشرون الى « ديقة أتيكوس يمدح بروتوس احد قتلة قيصر واقترح على السنات اعفاء مغتالي قيصر . وبعد اغتيال قيصر كانت الحرب سجالاً بين شيشرون وانطوني حيث اعتقد شيشرون ان حكم انطوني معناه انتفاء الحرية والكرامة لروما . ولما هاجم انطوني شيشرون وهدده القى الأخير خطبته المشهورة بالفيليبية الأولى وهي بداية رسائل ست بهذا الاسم هاجم بها انطوني وأوعده بمصير قيصر نفسه . ثم هاجمه بفيليبية ثانية وخاطب انطوني بها بقوله (هلا تنظر الى نفسك فسوف أخبرك بموقعك ان قارنته مع نفسي . لقد دافعت عن الاتحاد الروماني عندما كنت حدثاً وسوف لاأترك الدفاع عنه الآن وانا كبير السن . لقد احتقرت سيوف كاتيلينا وسوف لا ارتعد الآن أمام اسلحتك ولايمكنني أن اطرح نفسي أمامك بسرور ان كان موتي سيحقق لروما حريتها وكيانها) . وعارض شيشرون دخول او كتافيان (أوغسطس فيما بعد) الى روما في مجلس الشيوخ ورفض طلبه والتي كانت نتيجتها زحف الأخير على روما وهرب شيشرون مع عبده ثم طلبه من الأخير أن يقتله كي لايقع أسيراً في أيدي عدوه أو كتافيان . وقد تسلم الأخير راس شيشرون محزوزاً وأمر بقطع لسانه . وقد كتب شيشرون كتباً عدة منها في الادارة ، ومجادلات توسكولون ، والجمهورية ، ونظريات الطيب الرفيع والشر ، وطبيعة الآلهة ، والصداقة ، والكهولة ، والعرافة ، والقدر الخ (٧) .

ب ـ **الوفاق الثلاثي** : عاد بومبي سنة ٦٢ ق . م . الى روما واثار اعجاب الكل بتجريده جيشه من السلاح وأودع في الخزانة الرومانية ماقيمته حوالي ٣٫٥ مليون دينار عراقي ووزع حوالي ٤٫٥ مليون دينار على صغار ضباطه وجنوده . فربما اعتقد بومبي بأن السمعة والشهرة التي حصل عليها كافيتان لأن توصلاه الى مبتغاه . وعاد بعد ذلك الى روما يوليوس قيصر بعد أن حكم في أسبانيا البعيدة وأخمد الكثير من الثورات فيها جالباً معه ثروة طائلة قدرت بحوالي أربعمائة الف دينار عراقي سد منها ديونه . ونجح قيصر في اقناع بومبي وكراسوس لنسيان خلافاتها وتشكيل مايسمى بالوفاق أو الائتلاف الثلاثي وهو تحالف غير رسمي يؤمن الهدف السياسي لكل منها وتوج هذا الحلف بزواج بومبي من جوليا ابنة قيصر وانتخب قيصر قنصلاً سنة ٥٩ ق . م . وكان بيبولوس شريكه في القنصلية * وكان كراسوس من عائلة نبيلة ثرياً جداً وشجاعاً لكنه انتهازي يتبع أية وسيلة توصله الى مآربه ولـه ارتباطات تجارية وثقت صلته بطبقة

الفرسان . وان خوفه من بومبي كان السبب في تأييده الارستقراطيين / وسبق لبومبي ان طلب من مجلس الشيوخ المصادقة على تنظيماته واجراءاته في الشرق وتقديم اراضٍ لحوالي أربعين الف من جنوده المسرحين وهو أمر رفضه السنات الذي صار يستخف ببومبي بعد تجريده نفسه من الجيش . كما طلب بومبي من السنات تخفيض المبالغ التي على مزايدي الضرائب دفعها لفقر حاصلات تلك السنة الأمر الذي رفضه السنات أيضاً . ولما انتخب قيصر للقنصلية قدم لائحة تقضي بتوزيع أراضٍ خارج كامبانيا وأخرى على الحكومة توزيعها على جنود بومبي المسرحين والمواطنين المحتاجين في روما . وانبرى لمعارضة اللائحة كاتو في السنات فمرضها قيصر على المجلس القبلي حيث تقضه هناك تقهاء الأشراف وبيبولوس الذي تذرع بحجة سوء الطالع . غير أن قيصر طرد معارضيه من الفورم بمساعدة جنود بومبي المسرحين وفازت اللائحة . ولما كانت الأراضي قليلة قدم قيصر لائحة ثانية تقضي بفتح الاستيطان في أراضي كامبانيا المعطاة باللزمة والذي فاز هو أيضاً بالرغم من معارضة كاتو . وتمكن قيصر بواسطة مؤيده تقيب العامة فاتينوس ان يحمل المجلس على مصادقة كافة تنظيمات بومبي في الشرق وان يخفض ماعلى مزايدي الضرائب بآسيا دفعه بمقدار الثلث . وكان قيصر مدفوعاً بتأييد شركائه بالوفاق واستعمل لاقرارها العنف والارهاب . وصودقت لوائح أخرى قدمها مثل منع الحكام في المقاطعات من ابتزاز أموال الشعب فيها وحفظ كافة قرارات مجلس الشيوخ وأعطى مجلس الشيوخ سنة ٥٨ ق . م . كافة طرق الغابات والقطعان كمقاطعة الى القنصلين السابقين ./ ووافق المجلس القبلي على اعطاء قيصر مقاطعتي غالة ماقبل الألب (غالة القريبة سيسألبا ين وهي شمال ايطاليا) وايليريا مع حامية قومها ثلاثة فرق لمدة خمس سنوات تنتهي سنة ٥٤ ق . م . وكانت لقيصر في غالة ماقبل الألب شعبية . وفي سنة ٥٩ ق . م . توفي حاكم غالة عبر الألب (غالة البعيدة) فأضافها مجلس الشيوخ الى قيصر تجدد كل سنة مع فرقة من الجيش . وكانت غالة تتشكى من هجمات القبائل الجرمانية عبر نهر الراين ويطمع الهالفيتيون الكلتيون (سويسرة) في استيطانها وأظهرت أعمال قيصر بأن الوفاق هو الأكثر قوة في الدولة وكان معارضاً للوفاق الذي قال عنه (انه بداية النهاية للجمهورية) . وفي السنة التالية فاز قيصر بالقنصلية وتزوج ابنة بيسو القنصل المشارك له وتخلص من معارضيه الرئيسيين وهما شيشرون الذي نفي وكاتو الذي عهدت اليه مهمة اكمال الحاق قبرص بالدولة الرومانية والتي كانت تحت حكم أخي بطليموس الثاني عشر المعروف بالزمار الذي سخط عليه رجال الوفاق الثلاثة . والتحق قيصر بعد ذلك بمقاطعته ، وسبق لروما ان حمت مقاطعة غالة عبر الألب (الناربونية والتي تقع بين جبال الألب وحدود أسبانيا ومابين جبال الألب ونهر الرون وتمتد شمالاً حتى بحيرة

جنيف بسويسرة وأهم مدنها مرسيليبة) بالتحالف مع قبيب الايدوي . وفي سنة ٧٠ ق . م . غزت القبيلة الجرمانية السويفي مقاطعة غالة كوماتا (غالة الشعر الطويل والتي تمتد من جبال البرانس حتى نهر الراين ومن نهر الرون حتى المحيط الأطلسي) بناء على دعوة قبيلة السقواني عابرين نهر الراين بقيادة ملكهم اريوفيستوس . وعقدت الايدوي سنة ٦١ ق . م . بعد اندحارها سلاماً مع السقواني واستنجدت بروما حليفتها . ولم تتمكن الأخيرة من نجدة الايدوي لانشغالها آنذاك في اخماد فتنة اثارها المرابون الرومان في غالة الناربونية . ولكن في سنة ٥٩ ق . م . بعث اريوفيستوس الذي استوطنت قبيلته في الالزاس الحالية وفداً لروما فمنحته لقب صديق الشعب الروماني . وفي سنة ٥٨ ق . م . خرجت جموع الهيلفتيين من سويسرة بقصد استيطان غرب غالة . ولما حاولوا الوصول الى غالة الناربونية دحرهم قيصر في معركتين وأجبرهم على العودة لمواطنهم الأصلية وعقد معاهدة مع روما . وطلب قيصر من أريوفيستوس ملك السويفي التوقف عن حريته في التوسع فرفض وأخضع السقواني وصار يهدد الايدوي ، فسار قيصر لحربه قبل أن تشكل دولة جرمانية قوية في غالة . وقد دحر قيصر خصمه هذا قرب ستراسبورغ وتعقب قبيلته عبر الراين . وفي سنة ٥٧ ق . م . سار قيصر ضد حلف البلجيك واستسلمت لقواته مقاطعة نورمندي وبريتاني . ولما خرقت قبيلة الفينيقي حلفها مع روما بنى قيصر أسطولاً وهاجمها سنة ٥٦ ق . م . فخضعاً كافة قلاعهم الساحلية وصارت لروما السيادة البحرية على طول سواحل غالة المطلة على الأطلس [٨] ، وفي السنة نفسها استسلمت قبيلة الأكويتاني لقيصر . وفي السنة ذاتها انفصل بومبي عن كلوديوس وصار يؤيد نقيب العامة ميلو الذي دعا الى ارجاع شيشرون فكان له ما أراد . وانتهز بومبي شحة القمح في روما فضمن تعيين نفسه أميناً لتجهيز القمح لمدة خمس سنوات وذلك ماضمنته صلاحيات نائب قنصل في ايطاليا وكافة موانيء وطرق وأسواق الدولة الرومانية فيما يتعلق بالحنطة ، وشعر قيصر بضرورة تجديده وزملائه وفاقهم فاجتمع الثلاثة في لوكا بشمال ايطاليا (شمال شرق بيزا الحالية) في نيسان سنة ٥٦ ق . م . وقرروا تجديد وفاقهم واتفقوا على أن يكون بومبي وكراسوس قنصلين لسنة ٥٥ ق . م . ويعطي بومبي مقاطعتي اسبانيا لمدة خمس سنوات وتمنح سورية الى كراسوس للمدة نفسها والى قيصر تعطى غالة وفعلاً انتخبا قنصلين وصادق المجلس على اتفاقية لوكا .

في بداية سنة ٥٥ ق . م . هاجمت القبيلتان الجرمنيتان الاوسيبيتي والتنكتيري غالة عابرين الراين فهاجمهم قيصر صيفاً ودحرهم ، وفي نهاية صيف سنة ٥٥ ق . م . عبر قيصر مضيق دوفر الى بريطانيا لمعاقبة البريتونيين لمساعدتهم اعداءه في غالة ولكنه لم يبق

طويلاً . وفي سنة ٥٤ ق . م . وبـاسطول كبير جمعه عبر قيصر مضيق دوفر الى الجزر البريطـانيّة بقوة قوامهـا ثلاثين ألف وعبر نهر التـايمس واستسلم لـه الزعيم كاسيفيـلانـوس الذي قاد القبائل البريطانيـة ضـده وعـاد الى غـالـة بعـد أن فرض عليـه الجزيـة وأخـذ الرهائن وعلت في روما أصوات الحماسـة والتـأييـد لانتصـارات قيصر . وقـد خلص الحـاكم الرومـاني غـالـة من حروبهـا القبليـة وثـأر النبلاء من بعضهم الـذين ظلو شوكـة في عين رومـا . وفي سنـة ٥٣ ق . م . هـاجمت قبـائـل النرفي والتريفيري الايبـوريين في غـالـة البلجيكية (من نهر السين حتى الراين الأسفل) وداهموا الحاميات الرومانيـة في منـاطقهم وأبادوا جنود واحدة منها فـأخمـدهـا كلهـا قيصر . وفي سنـة ٥٢ ق . م . قـامت ثورة في وسط غـالـة بقيـادة فرسينغيتـوريكس من قبيلـة الأرفيريني . وكان قيصر وقت نشـوب الثورة في غالة ماقبل الألب فأسرع لاخمادها . وأدى انتصار جزئي للثائر عنـد كَوكَوفيـا الى ثورة الايدوي ضـد قيصر . وانتشرت الثورة الى كل غـالـة وحـاصر قيصر بعـد ذلـك الثـائر وقوتـه الرئيسيـة في قلعـة أليسيـاو اضطرهم الى الاستسلام واستعمل قيصر اللين في معاملة شعوب غالة فاجتذبهم اليه ولم تحول غالة كوماتا الى مقاطعـة رومـانيـة بل عـدت حليفة لروما تحت رعاية مقاطعة غالـة عبر الألب وفرض عليهم تقـديم الجنود والجزيـة . وقد أثارت كل انتصارات قيصر هذه حسد زملائه في الوفاق فطفقوا يحيكون الدسائس .

أخذت العلاقات بين فرثيا وروما بـالتـدهور منـذ أن رفض بومبي اطلاق يـدهم في شمال العراق وزادت العلاقة سوء عنـدمـا دعم أولوس غـابينوس نـائب القنصل في سوريـة مدع لعرش الفرثيين . ولأجل بناء مجد عسكري لـه سـار كراسوس سنـة ٥٣ ق . م . الى الشرق لحرب الفرثيين متـذرعـاً بتهـديـدهم الـولايـات الرومـانيـة في الشرق . ولم يكن لكراسـوس أيـة فكرة عن مـدى استمـدادات الفرثين وصعـوبـة حرب الصحراء ، وقـام كراسوس سنة ٥٤ ق . م . بحملة صغيرة الى العراق انسحب منها الى سوريـة . وفي سنـة ٥٣ ق . م . عبر كراسوس الفرات عـازمـاً على التغلغـل الى داخـل بلاد الفرثيين فطـوق الفرثيون جيشه ودارت معركة بالقرب من كرخـة (حران في شمال العراق الغربي) في ٩ حزيران سنـة ٥٣ ق . م . وابـادوه وذبح كراسوس ولم ينج من جيشـه الا القليـل .[٩] وقد أحدث مقتل كراسوس أزمة في روما بين بومبي وقيصر لاسيما بعد وفاة جوليـا زوجـة بومبي ابنة قيصر .

ترك بومبي روما بعد انتهاء فترة قنصليته الثانية ولكنـه ظل في ايطـاليـا بحجـة أنـه أمين تجهيز القمح وعثا اتباع كلوديوس وميلو فسـاداً في رومـا وهو أمر كان بومبي يرقبـه عن كثب ويحبذه حتى يكون مجلس الشيوخ في النهاية مجبراً على دعوتـه لاقرار الأمن مما أدى الى عدم انتخاب قناصل سنة ٥٢ ق . م . وحـدث أن قتل اتبـاع ميلو كلوديوس في تلك السنة فعمت الفوضى ولجأ اتباع الأول الى للسلاح مما اضطر مجلس الشيوخ الى دعوة

بومبي لاعادة النظام الذي قام به وحوكم ميلو ونفي وصار بومبي بالنسبة للكثيرين الزعيم والمواطن الأول . وصار الارستقراطيون يتقربون اليه نتيجة خوفهم من تعاظم قوة قيصر وثراءه . وقدم نقيبا العامة سنة ٥٢ ق . م . بتأثير قيصر قانوناً يسمح بترشيح شخص غيابياً للقنصلية . وقانونياً لايتمكن قيصر من الترشيح للقنصلية قبل سنة ٤٩ ق . م . (ثلاث سنوات بعد قنصليته الأولى) . وهناك قانون شرعه بومبي يمنح المرشحين الحكام اذا كانوا غائبين عن روما يحوي على فقرة تستثني قيصر ولكن هناك شكاً في شرعية الاستثناء . ويمنع قانون بومبي الثاني القناصل المنسحبين والقضاة لكل سنة ويتركها لاناس يرشحهم مجلس الشيوخ من بين الحكام الاسبقين مضت خمس سنوات على الأقل على انتهاء مدة عملهم . وصار على قيصر العودة الى روما والترشيح للقنصلية كمواطن اعتيادي لايتمتع بأية حصانة وعرضة للاتهامات ، واذا ماصمم على العودة لروما فعليه أن يعتمد على حق النقض الذي يتمتع به النقيبان . وصدر أمر بتجديد مدة حكم بومبي خمس سنوات أخرى . واندفع بومبي لمفاوضة قيصر الذي كان راغباً في الترشيح للقنصلية سنة ٤٩ ق . م . غير أن المفاوضات قد فشلت بين الاثنين ومعها الجهود الخاصة بتوزيع المقاطعات القنصلية سنة ٥٠ ق . م . بجهود صديق قيصر النقيب كوريو . وكان الارستقراطيون وبومبي يريدون الغاء قيادة قيصر قبل انتخابات القنصلية وهو امر يقاومه قيصر مما دفع بومبي الى أخذه قيادة الجيوش الرومانية في ايطاليا . وفي بداية سنة ٤٩ ق . م . صوت مجلس الشيوخ ، نتيجة ضغط الارستقراطيين وبومبي ، على انهاء قيصر لقيادته في تاريخ معين والا يعد عدواً للشعب . ونقض النقيبان مارك انطوني وكاشيوس القرار ولكن الاستقراطيين طردوهما من مجلس الشيوخ وهددوهما بالقتل . وفي ٧ كانون الثاني سنة ٤٩ ق . م . أصدر السنات أمره بدعوة القناصل والحكام الآخرين بما فيهم بومبي كنائب قنصل لحماية الدولة وعدوا قيصر عدواً للشعب وهرب انصار الأخير واسرعوا لمقابلته في غالة ماقبل الألب وطلب منه النقيبان الحماية (١٠) .

الحرب الأهلية : (٤٩ ـ ٤٥ ق . م .) :

كان طلب قيصر ترشيح نفسه وهو متغيب عن العاصمة غير قانوني لذا رفضه مجلس الشيوخ وجرد قيصر من القيادة وأعلنه عدواً عاماً ، فما كان من قيصر الا أن غادر مقاطعة غالة ماقبل الألب وعبر نهر روبيكون (وهو الحد الفاصل بين تلك المقاطعة وبقية ايطاليا) في كانون الثاني سنة ٤٩ ق . م . على رأس جيشه المدرب والشديد التعلق به ، واستولى على اريمنيوم . وصمم بومبي بناء على قلة عدد جنوده وعدم كفاية تدريبهم على الانسحاب الى اليونان كي يستكمل بها استعداده ويعاود الهجوم على

ايطاليا . واستنكر كثير من اتباع بومبي خطته من الذين كانوا عاقدين عليه الأمل في الدفاع عن روما واصطدم بقيصر القائد دوميتيوس أهينوباربوس الموالي لبومبي خلافاً لنصيحة الأخير فاندحر وأدمج قيصر قواته بجيشه . وفعلاً عبرت جيوش بومبي بحر الادرياتك عند ميناء برنديزي الى اليونان . وخارج روما اجتمع قيصر بالنقباء مواليه ومع مناصريه في السنات ودافع عن تحركه وأعلن تمسكه بالدستور ورغبته في حقن الدماء والتفاوض مع بومبي . وفي الوقت ذاته وضع قيصر يده على ماتبقى من مال بالخزانة ، وسار بعد فترة الى اسبانيا لعرقلة انضمام الجيوش الرومانية هناك لخصمه في وقت ضمن قائده كوريو له سردينيا وصقلية وشمال افريقية . وفي طريقه لاسبانيا حاصر قيصر مرسيليا التي تمردت عليه تاركاً مواصلة اخضاعها الى قائده تريبونيوس وتمكن هو في اسبانيا من دحر الفرق الموالية لبومبي وضم كثير من جنودها اليه . وفي فترة غياب قيصر عن ايطاليا ضمن القاضي بريتور قراراً من المجلس المئوي يقضي باعلان قيصر دكتاتوراً والتي مارسها بالفعل لمدة أحد عشر يوماً فقط . وكان قيصر خلال تلك الفترة متسامحاً مع أعدائه وقام باصلاحات عدة منها تخفيف الديون واعاد حقوق المواطنة لأبناء المتضررين أيام سولا وأعاد المنفيين بموجب أحكام قوانين سولا . وفي سنة ٤٨ ق . م . انتخب قيصر قنصلاً للمرة الثانية وأول عمل قام به هو السير للقضاء على بومبي . وفعلاً عبر قيصر بجيوشه الادرياتيك الى ساحل ابيروس في اليونان واستولى على أبولونيا وتحرك الى دوراخيوم . وتحصن بومبي في بترا جنوب دورا خيوم وسار قيصر الى ثيساليا ثم جمع قواه عند فرسالوس جنوب لاريسا حيث دارت معركة بينه وبين بومبي سنة ٤٨ ق . م . سميت بالاسم نفسه (فرسالوس أو فرساليا) وكانت رغم ضراوتها نصراً لقيصر وهرب بومبي الى قبرص ثم الى مصر .(١١)

كان بطليموس الثاني عشر ملك مصر قد مات سنة ٥١ ق . م . وخلفه على العرش ابنته كليوباتره السابعة وأخوها الأصغر منها بطليموس الثالث عشر . وقد لقيت كليوباتره معارضة من أخيها وبطانته أدت الى نشوب ثورة ضدها في مدينة الاسكندرية . وخشي بطليموس الثالث عشر تأييد بومبي وايوائه ان يثير غضب قيصر فعمد الى ارسال من اغتال بومبي حال وصوله مصر . وفعلاً قتلت الجماعة التي ارسلت لاستقبال بومبي هذا القائد . ثم وصل قيصر الى مصر بعد ذلك حيث علم بمصرع خصمه وأعلن عن رغبته في فض النزاع بين كليوباتره وأخيها . وقد أودعت كليوباتره في سفينة صغيرة أقلعت من الساحل السوري تحت حماية أبولودوروس من صقلية ووصلت الى الاسكندرية وسلمت الى قيصر عارية في صندوق . وقد فتنت الملكة البطلومية قيصر

وملكت عقله وقد غضب اخوها بطليموس على خيانة اخته وتقديمها نفسها رخيصة الى الزعيم الروماني . ودعا قيصر الملك المصري ووجهاء الاسكندرية لمواجهته وعقد الصلح بين بطليموس وأخته ولكن الأمر لم يرق ليوثينوس الخصي مربي الملك والمتنفذ في البلاط خوفاً من بطش كليوباتره فدعا اخيلاس قائد الجيش البطلومي في الفرما بالزحف على الاسكندرية . وبعث قيصر برسولين الى بطليموس يطلب منه التوقف عن مهاجمة الاسكندرية ولكن اخيلاس قتل احدهما وجرح الآخر وهكذا بدأت حرب الاسكندرية . وتقدم أخيلاس الى الاسكندرية وتحصن قيصر في الحي الملكي (البروخيوم) قرب الميناء الشرقي الكبير وأحرق سفن الاسطول البطلومي ، ثم وصلت المساعدات الى قيصر من مالك عاهل الانباط ومثراديتيس البرغامي واشتبك قيصر بالاسطول البطلومي الذي أعيد بناؤه وانتصر عليه . وأخيراً انتهت الحرب باندحار البطالمة ودخول قيصر الاسكندرية سنة ٤٧ ق . م . وبمقتل بطليموس الثالث عشر غرقاً واعلان كليوباتره ملكة على مصر وتزوجها بناء على وصية أبيها من أخيها الأصغر (بطليموس الرابع عشر) وكان له من العمر آنذاك أحد عشر سنة . وبالرغم من أن قيصر لم يتزوج كليوباتره بصورة شرعية الا أنها انجبت منه ولداً سمي سيزاريون . وعندما طلب أخوها بعد ثلاث سنوات الاشتراك في الحكم عملت على دس السم له وصارت هي القوة الوحيدة في مصر حيث حكمت لمدة الست سنوات التالية في سلام دونما ثورة أو غزو خارجي ، وكان قيصر قد ارسل آرسينوي أخت كليوباتره وعدوة الرومان الى روما .

استغل فرناكيس الثاني ابن مثراديتيس ملك بونطس فرصة انشغال القادة الرومان بالحرب الأهلية فتقدم من القرم وغزا كبدوكية وارمينيا الصغرى واجتاح بونطس . وسار قيصر الى فلسطين ثم ذهب لانطاكية فآسيا الصغرى بجيوشه والتقى بفرناكيس عند زيلا في جنوب البونطس ودحره . وعاد قيصر الى روما سنة ٤٨ ق . م . فوجدها تعاني من اضطرابات مؤيديه الذين تراكمت ديونهم بسبب الحرب فأوقف قيصر كل الفوائد التي استحقت منذ بداية الحرب الأهلية وأعفى المستأجرين في روما من دفع ايجار سنة واحدة شرط أن لايزيد عن مقدار معين في روما ونصف هذا المقدار في بقية ايطاليا . وأخيراً سار قيصر الى شمال افريقية لدحر انصار بومبي الذين جهزوا جيشاً لمواجهته . وقد أعاق سكيبيو زحف قيصر سنة ٤٦ ق . م . وكانت تعاون الأول فرق سام بعضها يوبا ملك نوميديا . وكان لابينوس وجنوده يضربون بقيصر قرب روسبينا . وتدهور مركز قيصر الا أن انضمام بوخوس ملك موريتانيا اليه قوى مركزه . واصطدم قيصر بأعدائه قرب مدينة ثابسوس وكانت المعركة نصراً حاسماً لقيصر وانتحر كاتو ولجأ لابينوس وولدا بومبي بأعجوبة . وعاد قيصر بعدها الى روما حيث استقبل استقبال

المنتصرين واحتفل بانتصاره على غالة ومصر وبونطس وافريقية . وكان يسير أمام عربة قيصر في الاستعراض ملوك المناطق التي أخضعها أمثال فركنجيتوريكس الزعيم الغالي وارسينوي أخت كليوباتره ويوبامللك نوميديا والعربات محملة بالغنائم المهمة ووزعت خلالها مكافآت نقدية الى الجنود والمراتب ولجميع المتفرجين ونصبت الموائد الفخمة وشيدت لتخليد الذكرى بهو وسوقاً سمياً باسم قيصر ومعبد للربه فينوس .

ساريوليوس قيصر اثر انتهاء الحفلات وماصاحبها من مبارزات وألعاب الى اسبانيا للقضاء على بقايا انصار بومبي . وكان كاشيوس حاكم اسبانيا الذي تركه قيصر فيها منذ سنة ٤٩ ق . م . قد استبد وآذى السكان مما أدى الى ثورة فيها ضد روما استغلها ولدا بومبي ونصيره لابينوس فذهبا الى اسبانيا بعد انكسارهم في معركة ثابسوس بتونس الحالية . ودارت معارك عدة بين الطرفين كانت آخرها معركة موندا (موندا الحالية جنوب غرب ملقا) سنة ٤٥ ق . م . التي انتصر بها قيصر وكانت نهاية الحرب الأهلية . (١٢)

دكتاتورية يوليوس قيصر (٢٨ تموز سنة ٤٦ ق . م . ١٥ آذار سنة ٤٤ ق . م .) :

اتبع قيصر منذ انتصاره في معركة فرسالوس سياسة تنطوي على اللين والتساهل مع اعدائه السياسيين فلم يستعمل العنف معهم . ووضع منهجاً جذرياً لبناء دولة رومانية جديدة لاسيما ان هو كان أحد العوامل التي أدت الى تقويض النظام الجمهوري . وقد عمل قيصر على حصر السلطة بيده وتثبيت نظام مركزي في شخصه وقد قتل وهو في بداية المطاف وسنظل جاهلين بهدفه الحقيقي . وكان مجلس الشيوخ اداة طيعة في يده وقد أغرق قيصر بالسلطات والمناصب وألقاب التشريف (المنقذ والمؤسس والمحسن الخ) . وقد ازاد عدد أعضاء السنات من ٦٠٠ الى ٩٠٠ وكان الجدد من انصاره وضباطه السابقين والغالين المؤيدين لسياسته . وكان جل اعتماد قيصر على الجيش الذي كان يطيعه طاعة عمياء . وقد اعيد انتخاب قيصر دكتاتوراً لمدة عشر سنوات سنة ٤٦ ق . م . بسلطة الامبريوم المطلقة . وعين رقيباً لمدة ثلاث سنوات في تلك السنة ثم مدى الحياة وكاهناً أعظم أي صار رأس الديانة الرسمية للدولة الى جانب الصلاحيات الاضافية التي كانت تمنح له بين آونة وأخرى أمثال حق ترشيح نصف حكام الولايات في ايطاليا وخارجها . وفي سنة ٤٤ ق . م . صار لزاماً على جميع الحكام القسم بطاعة جميع أوامر قيصر . وكان منح مجلس الشيوخ لقب المظفر (امبراطور) له سنة ٤٦ ق . م . مهماً

حيث كان هذا اللقب يمنح أيام الحروب فقط للقادة المنتصرين وليس بأوقات السلم ثم منحه لقب اب بلاده وأطلق على الشهر الذي ولد فيه اسمه (جولاي ، جوليوس) وصار يحتفل به بالأضاحي والصلوات ، ووضع تمثاله مع تماثيل ملوك روما الأقدمين وفي معبد كويرينوس (رومولوس المؤله) مع كتابة يذكر كاشيوس ديو كونها (الاله الذي لايقهر) وحمل تمثاله مع تماثيل الالهة في الاستعراضات ووضعت عربته امام معبد جوبيتر وكرس معبداً خاصاً لعبادته وطبع رأسه على العملة وشكلت على شرفه حلقة جديدة من الكهنة واقرن مع رب الارباب جوبيتر حيث لقب جوبيتر يوليوس وكاهنه الخاص انطوني . واصطنع نسباً له يربطه بالملوك والآلهة واستخدم جميع رموز الملكية وكلها تدل على نية قيصر بارجاع النظام الملكي في شخصه أو من يرثونه (اوكتافيان الذي تبناه أو ولده من كليوباتره) . ولكن عندما هتفت به العامة كملك قال (أنا قيصر وليس ملك) . وقيل أنه كان ينوي نقل العاصمة من روما الى الاسكندرية أو ايليوم مما أدى الى اغتياله .

عم الدولة الرومانية السلام والأمن خلال فترة حكم قيصر . وقد تم تقدير عدد السكان والزم المستفيدون من توزيع الحنطة بتقديم اقرار بثرواتهم صارت الحنطة الرخيصة تقدم بموجبها مما أدى الى تخفيض مستلمي الحنطة من ٣٢٠ ألف الى ١٥٠ ألف وخف العبء عن الخزانة العامة . وشرع بتنفيذ الكثير من المشاريع الاستيطانية الكبرى والأعمال العامة التي خففت من عدد العاملين في المدن لاسيما روما وتوفر العمل حيث اهتم قيصر بتخفيف أزمة ازدحام السكان بروما والتي بلغ مجموع سكانها حوالي مليون نسمة في عهده . ووضع مشروع لاعادة تخطيط مركز روما كما يخف تزاحم البيوت فيها كما نظمت حركة المرور واستغلت الأراضي العامة المتروكة . وضم قانون أصدره أن يكون ثلث الرعاة أحراراً . وحل قيصر نقابات العمال والنوادي التي استغلها الزعماء الغوغائيون لاثارة الشغب والارهاب ولم يبق الا التنظيمات الحرفية القديمة والخاصة باليهود . واستحدث قوات مسلحة ألحقها بالشرطة لتعين على حفظ النظام . وعوقب قاتل أقرب أقربائه بمصادرة أملاكه في وقت فرضت عقوبة مصادرة نصف الممتلكات على القتلة من غير الأقرباء وظل النفي مفروضاً على الماسين بسمعة الدولة . وأدخل قيصراً اصلاحاً الى التقويم ، فقد كان التقويم بالسابق على النظام القمري مكيفاً على السنة الشمسية باضافة شهرين كبيسين (٢٢ ، ٢٣ يوم) كل أربع سنوات . وأهمل المسؤولون عن التقويم اضافة الأشهر حتى صار الفرق عند بدء قيصر حكمه ثمانين يوماً . واتخذ قيصر تقويماً جديداً جعل السنة بموجبه ٣٦٥ يوماً وربع ويعدل الكسر باضافة يوم

واحد الى نهاية شهر شباط كل أربع سنوات وصار الأول من كانون الثاني بدء السنة الجديدة .

وأدخلت قوانين جديدة فرضت بها الرسوم على المنتجات الشرقية الغالية واقتناء الماس والجواهر وركوب العربات التي يجرها الأشخاص وبناء المدافن الضخمة ، كما شجع الزراعة وأوصى بأن يستغل الرأسماليون نصف أموالهم في الأرض وأن يكون ثلث عمالهم في مزارعهم من الأحرار ، وأصلح الطرق مما انعش التجارة . وشجع الاستيطان في ايطاليا والولايات واستوطن ٢٠ ألف مسرح من حروب غالة في ايطاليا وافريقية وكورنث وغالة الناربونية . ومنح سكان غالة ماقبل الألب الحقوق اللاتينية وشجع هجرة الايطاليين الى الخارج حيث كان يبعث الى الولايات بفقراء روما . وقدر عدد المستوطنات التي انشأها في الولايات بأكثر من عشرين وزاد عدد المواطنين الرومان الذين حصلوا على اقطاعات في الخارج الى أكثر من مائة ألف مواطن . ومنح كل مستوطنة دستوراً ومنها جنيتيفابوليا في اورسو بأسبانيا وعين لها هيئة حاكمة وحتم أن يكون راعي المستوطنة مواطناً ايطالياً اعتيادياً ويوافق على اختياره ثلاثة أرباع أعضاء المجلس التشريعي المحلي وشدد الدستور على معاقبة المرتشين ودعم الصناعة . وحصلت على المواطنة الرومانية الكثير من البلديات في الولايات الرومانية مثل قادس باسبانيا واوليسيبو (لشبونة) في البرتغال وفينا بالنمسا ومعظم مدن صقلية الخ . وأعيد بناء قرطاجة وكورينث ونمت مستوطنات مهمة في سينوب وهرقلية على البحر الأسود وافريقية وأسبانيا . ووضع قانون البلديات الجديد أساساً واحداً لجميع المدن الايطالية وصار لكل مدينة مجلس بلدي يضع التشريعات واقتصرت مناصب البلدية على الذين خدموا في القوات المسلحة وحرمت على ممارسي دفن الموتى والمتهمين بجرائم معينه وبكل مدينة لجنة قوامها أربعة ينتخبون سنوياً لادارة شؤون المدينة التشريعية والتنفيذية.واستعيض عن نظام العشر القديم المفروض على الولايات الرومانية بجزية سنوية ثابتة . ووضع مشروع لتجميل روما وشيد الكثير من المباني أمثال معبد مارس العظيم وبهو جوليا ودار جديدة لمجلس السنات وجففت أهوار بومبتيني وبحيرة لوكرين وعمق ميناء أوستيا وشقت قناة في مضيق كورنث وأخرى توصل ميناء بوتيولي مع أسفل التيبر على طول ساحل ايطاليا الغربي . وعندما قتل قيصر سنة ٤٤ ق . م . كان يعد العدة لغزو بلاد الفرثيين انتقاماً لدحرهم الرومان في موقعة الكرخة . (١٣)

كثر المعارضون لسياسة قيصر الاستبدادية وسلطاته الواسعة وبدأ التآمر عليه منذ موندا ، وأخيراً نجحت مؤامرة حاكها كاشيوس وبروتوس . والأول كان من جماعة بومبي

وقد أصدر قيصر عليه العفو وعين قاضياً . وكان بروتوس من جماعة بومبي أيضاً أنقذه قيصر في فارسالوس وعينه مرافقاً له ويظهر ان شيشرون كان يعرف بالمؤامرة حيث توضح رسائله حنقه على حكم قيصر الفردي . ولم تكن لدى المتآمرين أية خطة . وقيل أن كالپورنيا زوجة قيصر لم تكن راغبة في خروجه يوم مقتله لحلم سيء رأته فارسل قيصر انطوني ليجيء جلسة لمجلس الشيوخ على أساس الفأل السيء ، ولكن المتآمرين ارسلوا دسيموس لاقناع قيصر بالمجيء الى السنات وفعلاً دخل قيصر مجلس الشيوخ وسلمه شخص ورقة أخطره فيها بالمؤامرة التي ستنفذ ضده ولكنه قتل والورقة بيده دون أن يقرأها . ووقف المتآمرون حوله داخل مجلس الشيوخ ليحملوه على الموافقة على طلباتهم ووقف أحد المتآمرين في الخارج ليشغل انطوني عن الحدث وسحب كمير عباءة قيصر عن رقبته وضربه كوسكاو تلاه الآخرون بضرباتهم وكانت ضربة بروتوس هي القاتلة خر نتيجتها صريعاً عند قدمي تمثال بومبي وهو في السادسة والخمسين من عمره .(١٤)

ولم يكن لدى مغتالي قيصر أي خطط للمستقبل وأسرعوا لاعلان النبأ الى الناس في الفورم فاستغربوا لخلو المكان من الناس تقريباً فانسحبوا تحت حراسة جمع من المبارزين . وآلت السلطة الى لبيدوس رئيس الفرسان وانطونيوس ، وكان الأول على رأس فرقة تريد التوجه الى غالة الناربونية وأسبانيا الداخلية حيث عين حاكماً هناك . فقرب قسماً من جيشه الى العاصمة وتهيأ لدخولها ولكنه أخيراً سمح لزميله انطوني أن يمسك بزمام الأمور وغادر هو الى اقليمه . وكان قيصر سنة ٤٤ ق . م . زميلاً لانطوني في القنصلية وسلمته كالبورنيا زوجة قيصر حال وفاته وصية الأخير ودعا هو السنات الى الاجتماع يوم ١٧ آذار وعقد سلاماً مع خصمه السابق دولا بيللا الذي صار زميلاً ثانياً لانطوني في القنصلية محل قيصر . ووافق السنات بناء على اقتراح شيشرون باعلان العفو على قتلة قيصر كما وافق على اقامة تشييع رسمي عام لقيصر . وأثار منظر قيصر مسجىً في تابوته وعباءته الملطخة بالدماء وقراءة وصيته وكلمة التأبين التي ألقاها انطوني أثراً كبيراً على اثارة الجموع الى جانب حزن جنوده عليه وصبهم غضبهم على المتآمرين الذين هربوا من روما . وقد أوصى قيصر بجزء من ثروته الى بروتوس أحد قتلته وبثلثيها الى اوكتافيوس ابن أتيه بنت أخته والذي كان له آنذاك ثمانية عشر سنة من العمر وبتحويل بساتينه على ضفة التيبر اليمنى الى متنزهات عامة واعطاء كل مواطن مايعادل الخمسة دنانير عراقية . وأخمدت قوة عسكرية الاضطرابات وهدمت مذبحاً شيده بعض المعجبين بقيصر لعبادته في الفورم . وكان قيصر قد عين كاشيوس وماركوس بروتوس قتلته على اقليمي ليبيا وكريت فأمرا بالمغادرة اليهما لكنهما أعفيا من منصب النقيب . ومنح كثير من مسرحي جنود قيصر أراضي بعيداً عن روما بسرعة وأرسلوا اليها كما ألغي لقب

الدكتاتور . كما منح مجلس الشيوخ سورية الى دولابيللا ومقدونية الى انطوني بسلطة نائب قنصل . ولم تبق علاقة انطوني بمجلس الشيوخ جيدة حيث تجاهل الأول محاولات مجلس الشيوخ لوضع حد لمصاريفه . وفي نيسان وصل اوكتافيوس الذي تبناه قيصر الى روما حيث اتخذ الاسم اوكتافيان وقابل انطوني مطالباً اياه بحصته في تركة قيصر . ولكن انطوني قد بدد ثروة قيصر بسرعة وخشي انطوني من وجود اوكتافيان فضمن لنفسه الى جانب مقدونية ولايتي غالة القريبة والناربونية لمدة خمس سنوات حتى أنه نقل فرق قيصر الى ولايتي غالة من مقدونية لحماية نفسه عند مغادرته روما . وفي تموز سنة ٤٤ ق . م . دب الخلاف بين انطوني وقتلة قيصر حيث طلبا أكثر مما أعطيا فرفض انطوني طلبهما وغادرا ايطاليا . وبعد شهرين فشى الخلاف بين انطوني وشيشرون حيث القى الأخير خطبته الشهيرة المعروفة بالفيليبية الأولى التي هاجم بها انطوني الحقها بثانية نعت انطوني بها (بالمخاطر غير المهذب الذي يشارك قيصر طموحاته في الخيانة) واعلن فيه انه قد كرس نفسه للدفاع عن الحرية ضد المستبدين العسكريين القساة . وفي تشرين الأول اتهم انطوني اوكتافيان بمحاولة اغتياله ، وفي الوقت الذي كان انطوني فيه يستعد لنقل جنوده من مقدونية دعا اوكتافيان جنود قيصر لنصرته ولبى نداءه الآلاف ممن استوطن كامبانيا حتى انضمت له فرقتان من فرق مقدونية وانسحب انطوني الى غالة القريبة ولكن مجلس الشيوخ أمر حاكم غالة القريبة دكيموس بروتوس ان يبقى في منصبه ولا يرضخ لانطوني . وبعد خروج انطوني من روما استمر شيشرون في القاء خطبه التي عرفت بالاسم نفسه (الفيليبية) والتي بلغ عددها الخمس التي يهاجم بها انطوني . واصطدم انطوني بحاكم غالة القريبة ، وحاصره في مدينة موتينا ، وطلب انطوني من مجلس الشيوخ بابقاء قوانينه مقابل انسحابه الفوري من غالة القريبة وبعد خمس سنوات من غالة الناربونية . واجابه مجلس الشيوخ بالغاء قوانينه واعلان حالة الطوارىء وانضم الى مجلس الشيوخ القنصلان هيرتيوس وبانسا . وشدد انطوني حصاره على جيوش حاكم غالة القريبة في موتينا فانجدتها جيوش رومانية قادها القنصلان واوكتافيان وكانت معركة موتينا اندحاراً لانطوني وقتل فيها القنصلان وانسحب هو الى جنوب فرنسا وأعلنه السنات عدواً عاماً . وانضمت الى انطوني هناك جيوش من اسبانيا وغالة وفرق لبيدوس ، زحف بها جميعاً على ايطاليا واكتسح غالة القريبة التي هرب حاكمها بروتوس الذي رفض اوكتافيان مساعدته لعلاقته بقاتل قيصر . وقد تمكن قتلة قيصر (ماركوس وبروتوس وكاشيوس) من السيطرة على الأقاليم الشرقية بعد مقتل دولا بيللا ومنحهما مجلس الشيوخ سلطة عسكرية مطلقة في الشرق كما عهد بالبحرية الى سكستيوس بومبي الذي اتخذ من مرسيليه قاعدة له . وطلب اوكتافيان من السنات ترشيحه قنصلاً

والاحتفال بانتصاره وتقديم مكافآت لجنوده ولما رفض مجلس الشيوخ زحف على روما سنة ٤٣ ق . م . ودخلها دون معارضة وانتخب هو وقريبه لبيدوس قنصلين لتلك السنة . كما نجح في اقناع مجلس العامة باصدار قانون لمحاكمة قتلة قيصر وكان كل قاتل منهم آنذاك على رأس جيش كبير .

في الوقت الذي تدهورت به العلاقة بين اوكتافيان والسنات نجح الأول في التقرب الى انطوني بفضل وساطة لبيدوس . ورفع اوكتافيان كل العقوبات التي اصدرها السنات ضد انطوني وتم الاجتماع بين انطوني واوكتافيان ولبيدوس في بونونيا بغالة القريبة حيث وقعوا وفاقاً لمدة خمس سنوات عرفه المؤرخون باسم الوفاق الثلاثي الثاني ووافق عليه المجلس القبلي بتأثير نقيب العامة تيتيوس . وصارت السلطة العليا الآن بيد زعماء الوفاق وصار السنات العوبة بأيديهم . وبموجب الاتفاق منح انطوني غالة كوماتا وأعطيت أسبانيا وغالة الناربونية الى لبيدوس وحصل اوكتافيان على صقلية وسردينيا وافريقية وتزوج اوكتافيان من كلوديا ابنة زوجة انطوني . كما اتفقوا على ضرب ماركوس بروتوس وكاشيوس في الشرق . ونشرت حكومة الوفاق قائمة بأسماء الخونة التي صودرت أملاكهم ومنهم شيشرون الذي أخذ أوكتافيان يلاحقه ولم يسلم منه الا بأمره عبده أن يقتله . وفرضوا ضرائب جديدة على الملاكين وانشأوا مستوطنات جديدة للمسرحين في ايطاليا وشيدوا معبداً ليوليوس قيصر عند موقع دفن رماد جثته وصدر قانون باعتباره الهاً .

ذهب كاشيوس الى سورية حيث كانت له فيها شعبية بين الفرق الرومانية بحمايتها من الفرثين بعد اندحار الكرخة . وقد حل كاشيوس محل دولا بيللا الذي عين حاكماً عليها وقتله في طريقه اليها تريبونيوس حاكم ولاية آسيا . وآلم مقتله مجلس الشيوخ فأوعز الى كاشيوس بتأديب تريبيونيوس وتمكن كاشيوس من حصاره في اللاذقية سنة ٤٣ ق . م . مما اضطره على الانتحار . وبعد سقوط اللاذقية اتفق كاشيوس وبروتوس وسيطرا على كل آسيا الصغرى في وقت سيطر به سكستيوس بومبي على سردينيا وصقلية . ودعا انطوني لمساعدته اوكتافيان وتقدما سوية الى مقدونية واصطدما بجيوش بروتوس وكاشيوس في معركة فيليبي على الحدود بين مقدونية وتراقيا . وقد اندحر كاشيوس في مواجهة انطوني اندحاراً قاده الى الانتحار في وقت انتصر بروتوس على أوكتافيان . ولكن انتصار بروتوس لم يدم طويلاً حيث مني هو أيضاً بخسارة دفعته الى الانتحار وأعدم أوكتافيان الكثير من ضباطه .

جرد انطوني واوكتافيان شريكهما لبيدوس من ولاياته حيث اخذ اوكتافيان منه

اسبانيا وصارت غالة الناربونية من حصة انطوني . ووصل انطوني الى قمة مجده بعد انتصاره في فيليبي فأخذ له الشرق وترك ايطاليا لاوكتافيان الذي كلف بتوزيع الأراضي على مسرحي جنود فيليبي في ١٨ مدينة . ولما لم تكن هذه الأراضي كافية فقد صادر أوكتافيان أراضي مناطق أخرى مما أغضب الكثيرين ومنهم فولفيا زوجة انطوني وأخوه انطونيوس . واندفع الأخير سنة ٤١ ق . م . بجيوشه من برينسته الى روما ووعد الشعب بأن أخاه سوف يرجع للجمهورية هيبتها وربما استحصل موافقة السنات لشن حرب على أوكتافيان . وتقدم الأخير محاصراً جيوش انطونيوس في باروسية وأجبرها على الاستسلام وعامل هو انطونيوس بالحسنى في وقت ارسل به جنوده للسيطرة على غالة التي استسلمت له حامياتها . وهنا وصل انطوني الى برنديزي التي رفضت فتح أبوابها له فحاصرها وحشد أوكتافيان جيوشه لملاقاته ، ولكنهما تمكنا ، بتوسط اصدقاءهما ، من التفاهم واتفقا على احتفاظ اوكتافيان بغالة واسبانيا ويبقى الشرق بيد انطوني وتعطى افريقية الى لبيدوس . وحدث أن توفيت فولفيا زوجة انطوني واقترن الأخير باوكتافيا أخت اوكتافيان .

وجه اوكتافيان همه للقضاء على سكستيوس بومبي ، وكان الأخير قد دحر أوكتافيان في معركة بحرية سنة ٤٢ ق . م . وصار يتعرض لتجهيزات الحنطة الى روما وانتهز فرصة نزول انطوني في برنديزي فسيطر على سردينيا . ولما زادت تعرضاته لناقلات الحنطة الى روما عرض العاصمة الى خطر المجاعة ، اتفق سكستيوس بومبي واوكتافيان في مؤتمر عقد قرب ميسينوم على تقديم اوكتافيان تعويضات الى سكستيوس واللاجئين وتعيين سكستيوس نائب قنصل في صقلية وسردينيا مقابل فك الأخير الحصار البحري وسماحه بوصول المؤن الى روما . وحدث أن تزوج اوكتافيان من سكريبونيا قريبة سكستيوس بومبي ولكنه طلقها حالما ولدت له ابنته جوليا واقترن بليفيا التي كانت مطلقة آنذاك وعندها ولد من زوجها السابق كلوديوس نيرو وهو تيبريوس وكانت حاملاً بآخر هو دروسوس . واثار اوكتافيان تمرداً في سردينيا مكنه من السيطرة على الجزيرة خلافاً لاتفاقه مع سكستيوس . واجتمع انطوني مرة أخرى باوكتافيان في تارنتوم واتفقا ان يقدم انطوني الى اوكتافيان ١٢٠ سفينة يزود الثاني مقابلها انطوني بأربع فرق يسحبها من افريقية (وقد وفى انطوني بوعده في وقت لم يلتزم فيه الثاني بما قطع على نفسه) كما قررا تجديد فترة وفاقهما خمس سنوات أخرى . وفي سنة ٣٨ ق . م . وجه اوكتافيان حملة الى صقلية دحرها سكستيوس عند مضيق مسينا . واستعان اوكتافيان باغريبا قائده في غالة والذي تمكن من الانزال في شمال صقلية والتقى فيها بجنود لبيدوس الذي اتى للمساعدة واندحر سكستيوس بومبي في معركة عند نولو خوس قرب

المضيق وهرب الى آسيا الصغرى حيث لقي حتفه بعد ذلك . وقد عزز انتصار اوكتافيان هذا شعبيته في ايطاليا . وحدث ان تركت لبيدوس جيوشه وانقذه اوكتافيان من غضبهم عليه ومنحه الكهانة العظمى ومنحه السنات عن وصوله روما الحصانة . وفي سنة ٣٥ ـ ٣٤ ق . م . أخضع اوكتافيان المناطق الثائرة على ساحل الادرياتيك الشرقي .

دعا انطوني كليوباتره لمقابلته في كليكيا سنة ٤١ ق . م . التي اقنعته بقضاء فصل الشتاء في الاسكندرية وارضاء لها أمر انطوني باعدام اختها وشقيقتها الصغرى أرسينوي . ثم هاجم الفرثيون المناطق الرومانية في الشرق بقيادة فاقور ابن الملك الفرثي اورود وبصحبته القائد الروماني لابينوس الذي أرسله بروتوس وكاشيوس قبل موتها لخطب ود الملك الفرثي . ودخل لابينوس الآن سورية مع جيش فرثي وانضمت له الحامية الرومانية فيها ثم اندفع لآسيا الصغرى وسارت قوة فرثية بقيادة فاقور واحتلت فلسطين . وارسل انطوني جيشاً بقيادة فينتيديوس اخرج الفرثيين من آسيا الصغرى وسورية ـ فلسطين وفي سنة ٣٧ ق . م . بعث انطوني جيشاً رومانياً آخراً بقيادة سوسيوس قضى على المتمردين في القدس الذين يدعمهم الفرثيون ونصب في اجزاء فلسطين هيرود المعروف بالكبير حاكماً وفي سنة ٣٦ ق . م . تغلغل انطوني داخل ايران عن طريق ارمينيا ووصل اتروباتيني (اذربيجان) وحاصر فراسپا (قرب تبريز) ثم رفعه وانسحب بقدوم الفصل البارد . وفي سنة ٣٤ ق . م . تقدم انطوني الى ارمينيا وازاح ملكها ارتافاسديس .

لقد تزوج انطوني من كليوباترة سنة ٣٧ ق . م . واعترف بولدها من قيصر واسمه قيصرون ابناً شرعياً لقيصر وخليفتها على عرش مصر وقدم لها اجزاء من فلسطين والأردن فضلاً عن قبرص وبرقة وجنوب سورية وجعل شمال سورية وكليكيا وديعة للقاصر قيصرون ، في وقت هجرته زوجته اوكتافيا وصار ألعوبة بيد كليوباتره ، كل هذه الأمور ساءت الى علاقته باوكتافيان والى سمعته في روما . وهاجم اوكتافيان خصمه انطوني في مجلس الشيوخ هجوما حمل القنصلين وثلثمائة من أعضاء مجلس الشيوخ الموالين لانطوني على ترك روما . وفي صيف ٣٢ ق . م . طلق انطوني زوجته اوكتافيا وعز على اوكتافيان ان يرى امرأة أجنبية ذات سمعة سيئة تحل محل أخته زوجة لانطوني . وفي سنة ٣١ ق . م . انتخب اوكتافيان قنصلاً وانتهى أمد الوفاق . وتقدم انطوني ، الذي أوصى أن يدفن عند موته الى جنب كليوباتره ، بجيوشه الى اليونان وبصحبته كليوباتره واتخذ من خليج اكتيوم مركزاً لاسطوله واستولى اوكتافيان على كورنث ومناطق استراتيجية اخرى قاطعاً على قوات انطوني اي ارتباط مع داخل اليونان مما عرقل

وصول المؤن لجيوشه . واصطدم الاسطولان في خليج اكتيوم وكانت نصراً لاوكتافيان وهرب انطوني وكليوباتره الى مصر وتبعهما اوكتافيان باسطوله سنة ٣٠ ق . م . وهجرت انطوني جيوشه فدخل اوكتافيان الاسكندرية وانتحر انطوني أولاً وتبعته كليوباتره . وأمر أوكتافيان بقتل قيصرون وابن انطوني الصغير من كليوباتره وأعلن مصر اقليماً رومانياً وحمل أموالها الى روما التي عاد اليها حيث احتفل بانتصاراته لمدة ثلاثة أيام . (١٥)

حـ ـ حضارة القرن الأول ق . م . : شهد القرن انتقالاً سياسياً ضعف خلاله السنات نتيجة لكسب الزعماء الغوغائيين العامة أو استبداد العسكريين . واتسعت دائرة المواطنة الرومانية وشملت كثيرين وصار المواطنون منذ سنة ١٣٣ ق . م . أما مؤيدين أو معارضين لمجلس الشيوخ . وغير ارستقراطيو مجلس الشيوخ سياستهم الخارجية من التباطؤ بضم مقاطعات جديدة وحسن معاملة الشعوب الخاضعة لهم الى سياسة تعمل لمصلحة الملاكين والرأسماليين الرومان . ومنذ لوكوللوس حتى اوكتافيان صار التوسع وضم الأراضي شعار الدولة . وصارت الحكومة ضحية الجنود المتهنين والقادة الانتهازيين الذين يسعون وراء الغنائم والأراضي والسلطة . وفشل بومبي في محاولته التوفيق بين الحكم العسكري والدستوري وصار قواد الجيش هم الساسة وقل تدريب الجنود ، فصارت روما تعتمد في سلاح فروسيتها على الغاليين والأسبان ولم يعد للرومان أنفسهم أي اهتمام بقتال نظراً لتدفق الثروة الى ايطاليا مما أدى الى كثرة المشاحنات والحروب الأهلية . وفي الوقت الذي لم يسك السنات فيه سوى العملة الفضية أصدر قواد الجيوش عملة ذهبية وضعوا عليها صورهم والقابهم لدفع مكافآت جنودهم . وصار القواد يتنافسون في منح جيوشهم الأموال مما أفلس الخزينة ولم تصل أي من الغنائم الى خزانة الدولة خلا ماأودعه بومبي . وبدأ قيصر حروبه لايفاء ديونه التي بلغت ٣٧٥ ألف دينار عراقي ، وحصل فقط من بيع السراه في غالة على مايعادل أكثر من ٦ ملايين دينار عراقي وأغرق الأسواق بالذهب مما جعل سعره يهبط بنسبة السدس ولم يضع أياً منه في الخزانة العامة . وصرف الكثير منها لكسب المؤيدين وشراء الممتلكات والبذخ وسار قواد هذا القرن على النمط نفسه وسدد انطوني ديونه المتراكمة من خزينة الدولة . وكثرت مصادرات الممتلكات والقروض الاجبارية من الأفراد والمدن والتي يمارسها كل قواد القرن بلا استثناء ولم يتورع قيصر من أخذ أموال أحد المعابد عندما احتاج الى المال ، وحاول السنات لمواجهة الافلاس فرض ضريبة قدرها حوالي أربعة دنانير عراقية على كل بيت روماني الى جانب ضريبة قدرها ٤ ٪ على الأملاك . واقترض اوكتافيان أموالاً من المعابد وفرض ضريبة عالية على كل عبد الى جانب فرضه ضريبة على التركات ولأجل تمويل حروبه مع

انطونيو حتم على النـاس دفع ربع دخلهم السنوي الى الـدولـة . ونعرف أن سـولا وبومبي وقيصر قد أمروا بنهب المقاطعات . وصارت روما منـذ هـذا القرن معتمـدة في رفاهيتهـا على الولايات التابعة لها .

قـاست المـزارع كثيراً من تخريبـات الحرب الأهليـة وانتزاع أراضي من الكثيرين لتوزيعهـا على مسرحي الحروب ابتـداء من مـاريـوس . ولايعتقـد فـارو في كتـابـه دى روستيكا ان هنـاك أراضي غير مـزروعـة في ايطـاليـا التي هي في نظره بستـان خضراء ، ولكن الكتاب من بعده صاروا يدعون الى ضرورة استيطان المناطق المتروكة في ايطاليا وشكوا من تدهور الزراعة ، وبالواقع استمرت الزراعـة مزدهرة بـالرغم من النكسـات التي أصـابت البلاد . وظلت المقـاطعـات الكبيرة بـالرغم من كثرة توزيـع قطـع الأراضي على المسرحين من الجنود ، فقد وزع سولا ١٢٠ ألف قطعة ارض ومنح قيصر ٨٠ ألفـاً وأعطى اوكتافيان ١٧٠ ألفاً . وامتلك الكثير من الرومـان الأراضي الشـاسعـة في الاقـاليم خـاصـة صقلية وشمال افريقيـة . ووزع مـاريوس الأراضي على جنوده في شمال افريقيـة وربمـا في غالة الناربونية وأعطى قيصر جنوده أراضي في غاله وأسبانيـا أيضـاً ، وظهر أن الكثيرين ممن حصلوا على قطع الأراضي لم يكونوا مهتمين بالفلاحة فأهملوها أو باعوهـا للرأسماليين . واستمر النبلاء على شراء الأراضي المصـادرة بـأثمـان بخسـه كما أولعـوا ببنـاء القصـور في الأرياف . وكانت لدى بومبي مقاطعـات واسعـة وامتلـك لوكوللوس اراضي حوت قصوراً جميلة . وادخلت اشجار فاكهة جديدة الى ايطاليـا والمعروف أن لوكوللوس ادخل الكرز والمشمش من ارمينيـا ، كما دخلت أنواع مستحدثـة من الحيـوانـات والاسماك من الخـارج وأخذوا يحسنون أنواعها وحفرت البرك لتربيـة الأسماك والقواقع وربوا الطواويس والحمام والبـط . واستمر النبـلاء على صرف مـاكانت تردهم من الأمـوال على الـزراعـة الى جـانب الرغبـة في منـافسـة الحنطة المستوردة من الخـارج والتي أدت الى الاهتمام بـالمقـاطعـات الواسعة . شجعت الأموال التي تدفقت الى ايطاليا من الأقاليم الصناعـة والتجـارة . وكان سوق روما في حاجـة الى الكثير من المنتجـات الى جـانب حـاجـة المـاكنـة العسكريـة . واستمرت الصناعة الرومانية على نطاق ضيق متركزة في الدكان حيث كان صاحب الدكان تسـاعده عـائلتـه وبعض العبيـد والصنـاع الأحرار المستـأجرين . وكانت شوارع بومبي الرئيسية محاطة بـالـدكاكين الصغيرة . وكانت هنـاك مصـانع أكبر لعمل الجرار والقرميد بأنواعه . واكتسبت صناعة اواني المائدة الحمراء المزججة المعروفة بـالاريتين شهرة كبيرة في العالم القديم . وصارت منـاطق بيتيولي وحوض البو مركزاً لصنـاعـات الفخـار وازدهرت صناعات البرونز والنحاس في كابوا . وصنعت الأدوية الطبية في شمال ايطاليـا وانتعشت صناعة البناء بكثرة البنايات وتنوعها وتعقدها نتيجة لتدفق الثروة من الخارج ومنذ عهد

قيصر بدأ استعمال المرمر في الأعمدة . كما صنعت في شمال ايطاليا المصابيح الطينية وقرميد زينة السقوف . وتركزت صناعة الحديد في بوتيولي حيث صنعت الأدوات الحديدية والأسلحة التي كانت تحتاج الى رأسمال ضخم وأسواق خارجية واسعة . وهناك صناعة الخمر والزيت وفي بومبي كان المستهلكون يحصلون على هذين المنتوجين من المزارعين رأساً . كما عمت القصر والدباغة . وكانت الأجور قليلة ومستوى العمال واطئاً وغالبية العمال من العبيد . وان توفر العمل الرخيص وكثرة الأيدي العاملة اعاق الابداع وقتل ملكة الاختراع . وهناك أمثلة قليلة لمعامل كانت تنتج على نطاق واسع وترسل منتجاتها الى أماكن بعيدة . وان كثرة الطلب على الضروريات والكماليات نظراً لكثرة الأموال التي وردت الى ايطاليا شجع الصناعة والتجارة . ولتجهيز منطقة حوض البحر المتوسط استخدم الكثير من الأيدي العاملة في عمل الآلات المختلفة والأقمشة والاثاث والأواني وأدوات الزينة والقطع الفنية .

صارت روما عاصمة لامبراطورية مركز تجارة العالم القديم فازدهرت موانيء ايطالية خاصة باتيولي على خليج نابولي وبرنديزي على الادرياتيك . وتوسعت وكثرت المستوطنات اليونانية والسورية في الموانيء والمدن المهمة مما يدل على الدور الكبير الذي أداه الأجانب في التجارة . وكانت الحروب والمشاكل الداخلية تؤثر على التجارة التي أخذت في الانتعاش بعد قضاء بومبي على القراصنة . وصارت منطقة تعامل الرومان جميع أرجاء الامبراطورية الواسعة حيث كان يطلق على جالياتهم الاسم كونفينتوس . وكان النبلاء يأبون العمل في التجارة الا خلال وسطاء أحياناً في وقت كانت غالبية الفرسان ممولين وصيارفة . ولم تكن السفن بالكبيرة في هذا القرن (معدل حوالي ٢٠٠ طن كحمولة للسفينة) وهي تعتمد على الريح وبطيئة السير تمخر البحار في الغالب صيفاً . وزادت الواردات كثيراً على الصادرات وتم توازن المدفوعات بالذهب والفضة القادمة من الأقاليم وغنائم الحرب . وكانت أهم وارداتهم الحنطة والعبيد واستوردوا السمك والملح والفواكه المجففة والاحجار الكريمة والخمور النادرة والسجاد من آسيا الصغرى . وجلبوا من سورية الزجاج والصبغ الارجواني والأقمشة وخشب الأرز ، ومن الشرق الأقصى والهند الحرير والتوابل والقطن والعاج ومن بلاد العرب البخور والحجر الكريم . ومن مصر البردى والزجاج والملابس الغالية الثمن والحيوانات الحية . ومن الأقاليم الغربية استحصلوا اللحوم المقددة والعنبر والقصدير والفضة والمعادن ومن اليونان المنحوت والصور .وكان استيراد القمح الى رومابيد التجار الرومان الذين جلبوها من صقلية وشمال افريقية لذا كانت في سرت الكثير من مستوطنات الرومان وكذلك في صوتيقة وثابسوس . وأثرت الاضرار التي حلت في ديلوس خلال السنوات ٨٦ و٦٩ ق . م . على

التجارة في بحر ايجه مما أدى الى احتكار الاسكندرانيين والسوريين للتجارة وازدهار مراكزهم في بوتيولي وغيرها .

امتاز القرن بالتصادم بين الرأسماليين وارستقراطي السنات ووقوع الاولين ضحايا للقادة المستبدين فحرم سولا ٢٦٠٠ منهم وألفين من قبل حكومة الوفاق الأول وصودرت أملاكهم . وجمع القادة العسكريون أموالاً طائلة ، وبدأ بالقرن الأول في روما عصر الاثرياء حيث نعرف عن ست رومان كان دخل الواحد منهم ٦٥ ألف دينار عراقي سنوياً . وبلغت ملكية كراشوس ثلاثة ملايين دينار عراقي أي أكثر من ضعف ماكان يمتلكه جده الذي كان يعد أثرى روماني في زمن الفراكيين . وكان الثراء متركزاً بيد حفنة من العوائل مقابل « ٣٢٠ ألف عائلة كانت تتسلم الحنطة من الدولة سنة ٥٠ ق . م . وقد أدت الحروب الأهلية الى الاثراء الفجائي للكثيرين . » وكان الروماني اذا أراد أن يكون عضواً بالسنات فيجب أن يمتلك ماقيمته ١٧٠ ألف دينار عراقي والفارس يمتلك حوالي السبعة آلاف دينار عراقي . ونعرف عن تكوين شركات مساهمة لم تكن بالدائمة . وكثيراً ماكان يتفق اثنان على العمل المشترك . وازداد عدد الصيارفة كثيراً خلال النصف قرن وكانت غالبتهم من الأجانب أو الكبانين ، ولم تكن الصيرفه بالمهنة التي يحترمها الرومان لما عرف عن جشع المرابين واحتكار الأجانب لها . وكان الصراف لوكيوس جوكوندوس الذي وجدت كافة معاملات مصرفه في بومبي قد عمل في كافة الفعاليات التجارية بما فيها سمسار عبيد . وكان الصيارفة يتسلمون ودائع نقدية من الناس يدفعون عنها فائدة ، كما يتسلمون الرهون ويقرضون الأموال ويحولون النقود المحلية الى أجنبيه وبالعكس ، وكان للكثير منهم وكلاء في الخارج ، وفتحت الدولة مصارف لهذه المصلحة العامة ، وكانت المدن والملوك يقترضون أحياناً خاصة في الشرق . وكان سعر الفائدة في روما ٦ ـ ٧ ٪وفي الاقاليم ١٠ ـ ١٢ ٪ وقد يصل أحياناً الى ٤٨ ٪ وبلغ مجموع ما اقترضته المدن بآسيا الصغرى من المرابين الرومان قبل وصول بومبي لها حوالي ١٣ مليون دينار عراقي . وأدى جشع المرابين الى ثورة في آسيا سنة ٨٨ ق . م . راح ضحيتها كثيرون .

ادى الثراء وكثرة العبيد الى تغير الوضع الاجتماعي عند الرومان . فقد ازداد عدد السكان المواطنين من مليون ونصف سنة ٨٥ ق . م . الى حوالي ٣٫٥ مليون سنة ٢٨ ق . م . وكان سكان ايطاليا حوالي ١٠٫٥ مليون الى جانب حوالي أربعة ملايين عبد ثم الأجانب ، وقارب عدد سكان روما المليون . وظل الارستقراطيون يشكلون الطبقة الرومانية العليا وكانوا يسعون وراء المناصب حباً بالاثراء والبذخ . فكان شيشرون

يصرف حوالي ١٣٠٠ دينار عراقي سنوياً علىٰ تعليم ولده في اثينا . وكان لدى النبيل الروماني الكثير من القصور العاجة بالعبيد . وقد قدر أحد قصور كلوديوس بربع مليون دينار عراقي . وكان قصر لوكوللوس مليئاً بالحدائق والمكتبات والأروقة وبخاصة بالقطع الفنية . وصار الأثرياء يتركون روما خلال الصيف ليقضوه على مصايف ساحل خليج نابولي أو على سفوح جبال الابناين . وكان شيشرون والذي لم يكن ثرياً يذهب الى جبال اربينوم . وصرف الأثرياء وقتهم في مشاهدة سباق العربات والمبارزات المختلفة والسركس وصيد الحيوانات الوحشية التي يجلبونها من الخارج . ودفعوا الأموال الطائلة بالقطع الفنية من نحوت وصور ، فمرة دفع لوكوللوس ١٧ ألف دينار عراقي بقطعة فنية ودفع قيصر عن أخرى ٣٤ ألف دينار عراقي واشترى أخو الأول تمثالاً لابولو بـ ٢٠٠ ألف دينار عراقي وبيع كوبان من الذهب بسعر ٢٠ ألف دينار عراقي واشترى قيصر لؤلؤة الى سرفيليا ام قاتله بروتوس بحوالي ١٠٠ ألف دينار عراقي . ودفعوا اثماناً خيالية لقطع الأثاث ، فقد اتهم كاتو بأنه اشترى أغطية للمائدة مستوردة من جنوب العراق بـ ١٣ ألف دينار عراقي . كما صرفوا الأموال الطائلة على موائدهم التي حوت اصناف المآكل النادرة التي أولع بها الرومان واشتروا العبيد الماهرين في الطبخ بأثمان باهظة جداً . ويقال أنه كان في مخزن هورتنسيوس عشرة آلاف جرة خمر مستورد ، وقيل أن النبلاء الرومان صاروا يتناولون المقيئات حتى يعود مرات عدة الى تناول الطعام . وأدى البذخ بالكثيرين الى الاقتراض فكانت مجموع ديون انطوني وهو حدث السن مائة ألف دينار عراقي ثم ازدادت الى مايقارب السبعة أضعاف . وبلغ ديون ميلو مليون ومائتي ألف دينار عراقي . وحذا كثير من الفرسان حذو النبلاء في البذخ ، وكان يقابل هذا الترف فقر الطبقة العامة الذين أثرت على أعمالهم كثرة العبيد . ويظهر هذا التناقض بمقارنة منطقة الفقراء في ارغيليتوم مع حي سكنى الاثرياء على البالاتاين ، مما سبب زيادة حوادث الاجرام . وكان لمصادرة الأراضي بغية توزيعها على العسكريين المسرحيين أثره على الوضع السيء في ايطاليا ، وتأثر الكثير من أفراد الطبقة العليا عن الزواج أو عزفوا عنه ، ولم تعد العائلة الرومانية متماسكة كما كانت قبلاً نظراً لعدم اهتمام الكثيرين بالدين التقليدي المتوارث ثم الرغبة في العيش بسهولة وترف الى جانب التعقيد الذي أتت به الثقافة الهلنستية الجديدة والتحرر الاقتصادي والاجتماعي للنساء . وشاع الطلاق والزواج لأسباب سياسية وصارت النساء يحسبن أعمارهن بعدد أزواجهن حيث غدت كثرة الازواج امراً شائعاً . وحتى كاتو المعروف بخلقه الرفيع طلق زوجته ليقترن بأرملة صديق له ، وتزوجت توليا ابنة شيشرون ثلاث مرات وتوفيت وهي في مقتبل العمر ، وتزوج

سولا وبومبي خمس مرات وقيصر وانطوني أربع مرات . وقال روماني عند دفن زوجته (ان انتهت الحياة الزوجية بالموت وليس بالطلاق مثل زواجنا شيء نادر) . ويظهر من شواهد قبور العامة بأنهم ظلوا متمسكين بالتقاليد المتوارثة . وكثرت الحفلات المختلطة وأولع العديد من النساء الثريات بالأدب والفن ، فكانت كورنيليا أم الاخوان كراكوس تستقبل الفلاسفة والأدباء في بيتها ، وفتحت سمبرونيا ابنة غايوس كراكوس ، المعروفة بثقافتها وجمالها ، بيتها ليلاً لاجتماعات ليلية سرية صاخبة ارتادها السيء السمعة من النبلاء الشباب ونسمع عن كثير من النساء اللواتي برزن في حقل السياسة . وكان للكثير من النساء أملاكهن الخاصة وأعمالهن التي يدرنها أما بأنفسهن أو بوساطة عملاء لهن . وشاعت الحرية الجنسية بين نساء الطبقات العليا . ولنا خير مثال من كلوديا حبيبة كاتولوس والتي صارت خليلة الى كيليوس وقال عنها شيشرون (صديقة كل رجل) . ولم ينظر المجتمع الروماني الى المومسات باحترام . وقد كثر عددهن الآن وتمتعن بحرية العمل شريطة أن يحصلن على أجازة ولايقدرن على ترك عملهن بأية صورة وعليهن أن يرتدين ملابس خاصة كي يسهل تمييزهن .

ضعف الوازع الديني خلال القرن وعم الشك واللامبالاة وتأثر الدين بالفردية التي عمت وضعف النزعة الوطنية والاتجاه الفكري وتأثير الفلسفة اليونانية والطقوس الشرقية ، ونقرأ عن اهمال للواجبات الدينية حتى بين تنظيمات الكهنة . وأدى تفكك العائلة ، بالرغم من استمرار اهتمامها الى حد ما بدين العائلة والموضح في مذابح العائلة في بيوت بومبي وديلوس الى تدهور الاخلاق العامة.وقد جلب الثراء معه التحلل الخلقي وعبادة الطقوس الشرقية (الالهات سيبيل وايزيس المصرية وسرايبس المصري وبعل السوري ومثرا وجاهوفة) . وصاحب طقس ايزيس الذي شاع بين النساء طقوساً سرية تطهيرية لضمان المستقبل . ولم ينفذ قرار السنات سنة ٥٠ ق . م . القاضي بهدم معابدها داخل روما . وعندما وصلت كليوباتره الى روما زمن قيصر شيد الأخير على شرفها معبداً لايزيس . وكان العبيد المجلوبون من الشرق سبباً آخر في انتشار هذه الطقوس . كما دخلت روما الطقوس السرية ، ولم يعد للناس اهتماماً بالدين التقليدي حيث كانوا يرون استعمال الساسة لألواح العرافة ، التي توضح رغبة الآلهة حسب معتقدهم ، لأغراضهم الخاصة وانزال الاذى بأعدائهم . وصار الدين ألعوبة بيد السياسيين ، فانطوني الغى سنة ٤٤ ق . م . طقس قيصر والذي ارجعه رسمياً بعد مضي سنتين حكام الوفاق الثاني . ومزج بينيتيوس الرواقية مع الافلاطونية وعظم پوسايدونيوس السوري الرواقي الروح على حساب الجسد وعدها اثيرية خالدة . وعمت الاتجاهات في السخرية والشك

وصار للتنجيم شعبية وهام المثقفون بالفلسفة الهلنستية التي حلت عندهم محل الدين . وعمت في روما الابيقورية التي كان من دعاتها لوكريشيوس الملحد التي أكدت على ضرورة التمتع بملذات الحياة مؤكدة على العلم والمادية ونظرية التطور والتكون الذري للكون . وهام بالفلسفة الرواقية الكثيرون التي عدوها الدليل العملي في الحياة ودرسها بينيتيوس الرودسي في روما . والكون ، برأيهم ، من صنع روح العالم الكلية وهي عقلانية مقدسة وفي الانسان شعلة من العقل المقدس ولذلك عليه أن يجعل العقل دليله في الحياة . وتتوضح هذه الأفكار عند ڤارو وشيشرون ، كما دخلت الفلسفة في مناهج الدراسة خلال نهاية القرن . وتمسك آخرون بالفيثاغورية التي تركز على لغة الأرقام وتناسخ الأرواح .

كانت التربية هلنستية كلياً واتقن المثقف الروماني اللغة اليونانية الى جانب لغته اللاتينية . وزادت المدارس الخاصة ولانعرف ان كان الأولاد والبنات يتعلمون سوية ولكن في الغالب انها كان على انفصال . وظل التعليم منحصراً في الطبقات الثرية وربما كان البنات يتلقين دروسهن الأولى في البيوت . وكانت العائلة الرومانية تخصص معلماً يونانياً لتدريس ابنائهم وتلقينه اليونانية وأحياناً يرسل الولد الى المدرسة الابتدائية (لودوس) في سن السابعة حيث يدرس البلاغة والخطابة واللغة ويعتمد على الحفظ . وكان الطالب يذهب الى المدرسة في الصباح الباكر ويعود الى البيت ظهراً ثم يرجع للمدرسة حتى المساء . وكانوا يعطلون خلال أشهر الصيف الحارة وأيام الاحتفالات والعطل . وفي سن السادسة عشر (سن لبس التوغا) يدخل الولد المدرسة الخاصة (غراماتيكوس) حيث يدرس الأدب والحساب والهندسة والفلك والموسيقى الخ . وشاعت الرياضة البدنية في الجمنازيوم والتي عارضها المحافظون الرومان . ولم يكن المعلم يحترم المركز في المجتمع الروماني ويتسلم راتبه شهرياً من ولي أمر الطالب بموجب عقد . وتختلف الرواتب بالنسبة الى مهارة المعلم ومركزه . وتركزت دراسة النبيل الروماني الخاصة على الخطابة والبلاغة وتبدأ بعمر السادسة عشر برعاية خطيب يوناني . وكان المعلم يؤكد حفظ الخطب المهمة على طالبه والالقاء . وكثيراً ماكان النبلاء الرومان يربطون أنفسهم بخطيب يوناني . وصار السفر للدراسة خارج ايطاليا (رودس ، الاسكندرية ، اليونان ، برغاموم) موضة العصر .

وصل التأثير اليوناني على الثقافة الرومانية قمته خلال النصف الأول من هذا القرن ، فقد أولع الكتاب بتقليد أسلوب تيرينس وأدباء الاسكندرية فصار الأدب مصطنعاً . وفي الشعر ضعفت الدراما ولم يهتم الرومان بالمأساة بالرغم من استمرار عرض بعض

مسرحيات اينيوس وباكوفيوس واكيوس . وطغت القصص الشعبية الهزلية على الملهاة الهلنستية . وصرفت الأموال الطائلة على الموسيقى والملابس وزينة المسارح . ومن شعراء العصر كاتولوس (حوالي ٨٤ ـ ٥٤ ق . م .) وهو ثري من غالة البعيدة رحل الى روما وصار صديقاً لقيصر . وكان يحب اللهو وصرف أموالاً طائلة فيه . وقد أحب كلوديا (دعاها ليزبيا في شعره) وكانت جميلة لاتخجل من اتيان الرذائل وخلدها بشعره . وركز أكثر شعره على الحب والمغامرات الغرامية ، وقد يكون أول روماني ينظم الشعر الغنائي وجاءت بعض اشعاره تراجم عن اليونانية . وقد فقد الكثير من شعره ، وان قصائده السبع تقليد لشعراء الاسكندرية ومنها أتيس التي مجد بها طقس الربة سيبيل ثم زواج بيليوس ثيتيس فرثاء عصفور . ثم الشاعر الفيلسوف لوكريشيوس (٩٥ ـ ٥٥ ق . م .) الذي حاد عن الاتجاه الاسكندراني . وقصيدته الطويلة حول طبيعة الأشياء تشرح عقائد ابيقور كاساس لنظرية ديموكريتوس في الذرة . وقد اعتقد ان رسالته هي تحرير الفكر البشري من الخرافات والخوف من الموت . وكثر في اشعاره التكراروجاءت مليئة بالمشاعر والخلق العالي وامتازت بالفصاحة وقوة الأسلوب . وفي النثر الفني برز شيشرون الذي توضح كتبه احاطته بعلوم عصره ومنها كتاب الاختراع وهو أقدم مؤلفاته والذي يختلف عن بقية كتبه بافتقاره الى تجاربه في الحياة . ثم كتب الخطابة ، بروتوس ، المجادلات التاسكلونية والجمهورية ، وطبيعة الآلهة والقوانين والقدر والشيخوخة ، والصداقة والواجبات ، وامتاز شيشرون بأسلوبه الفصيح وبلاغته وكثرة شواهده التاريخية وفكره العلمي وحبه لروما . وأكد كتابه الجمهورية ضرورة الانسجام والتوازن بين مختلف الطبقات حسب قوانين توفق بين الفلسفلة اليونانية والقوانين الرومانية . ويوضح كتابه القوانين تأثره بالرواقية وقال مرة عن نفسه (وتراني مغرقاً كل ليلة في جميع أنواع الدراسة) . ومن المؤرخين سالوست (٨٦ ـ ٣٥ ق . م .) المؤيد لقيصر والعامة ومن كتبه حرب يوغورتا ومؤامرة كاتالاين ، وقد حاول بكتاباته تقليد توسيديديس بالوصف وادراج الخطب والمقدمة الطويلة . ثم يوليوس قيصر الذي فقدت أكثر كتاباته ولكن ماتبقى منها يوضح قدرته وشموخه . ولم يبق من انتاجه الأدبي سوى بعض تقاريره السياسية التي قدمها السنات وخطبه حيث كان خطيباً مصقعاً . وأهم كتبه التاريخية الحرب الغالية (سمي التعليقات) الذي تناول حروبه في غالة وهو الى جانب غناه بالمعلومات التاريخية فهو قطعة أدبية رائعة ولو أنه لم يذكر فيها اسمه . ثم كتابه عن الحرب الأهلية . وترينا كتاباته جمال العبارة ورفعة الأسلوب . ثم كورينيلوس نيبوس من غالة القريبة والذي فقدت غالبية كتاباته التاريخية ، ومن كتبه تراجم حياة رومان وأجانب مشهورين والذي قلده فيه فيما بعد بلوتارخ وترجم فيه حياة ساسة وعلماء

وعسكريين وبالرغم من اعتماده على مصادر يوثق بها وغزارة مادته فقد جاءت كتاباته يعوزها الدقة . وفارو (١١٦ ـ ٢٧ ق . م .) صاحب كتاب الزراعة واللغة اللاتينية وقطع منيپ الساخرة . ويوضح كتابه الأول رقة أسلوبه وخلوه من أي تعقيد والثاني اشتقاقه الكلمات وتأثيرها والأخير عبارة عن خليط من الشعر والنثر يبين حبه للنكتة واحاطته بأحوال الرومان .

امتاز القرن الأول ق . م . بالتطور في حقل القانون والتشريع بفضل توسع روما الذي فرض عليها ضرورة توسيع قانونها واعطائه صفة دولية . فلم يعد القانون رومانياً صرفاً بل دخلت به تأثيرات هلنستية وكثر الاهتمام ببيانات القضاة في القانون المدني الروماني وظهر مشرعون تجاوزوا كتابات ايليوس من القرن الماضي والذي اطلقوا عليه (مهد القانون الروماني) ، أمثال سكايڤولا استاذ شيشرون المعروف بمحافظته ويعكس كتابه القانون المدني في ثمانية عشر فصلاً الصراع بين المبادىء الوطنية القديمة والاتجاه المتأثر بالهلنستية . ثم سيرڤيوس روفوس الذي كتب تعليقات على الألواح الاثنى عشر وتعرض كتاباته التأثير الهلنستي .

وبالرغم من محافظة الفن على التأثيرات الاتروسكية والايطالية المحلية فان الرومان قد تأثروا نتيجة توسعاتهم بالتقدم الفني الذي لاحظوه في مدن الاسكندرية وانطاكية وبرغاموم واثينا . وصار امتزاج التأثيرات هو طراز العمارة آنذاك . فشاع التركيز على تزيين الواجهات والترف في البناء واغراق الأعمدة الكورنثية بالزينة . وقلد الرومان الشرقيين في تشييد البنايات العامة والقصور الفخمة . وادخل المرمر والحجر الصلب في البناء الذي زين بالأقواس والشبابيك الكثيرة . وشيد سولا الكثير من المعابد والقصور في ايطاليا وجددها أمثال مزار فورتونا في برينستة والمعبد المدرج في تيبور وشيد كاتولوس معبداً لجوبيتر كابيتولينوس وقاعة للوثائق . وبنى بومبي المسرح الدائم الذي يسع عشرة آلاف متفرج سنة ٥٥ ق . م . الذي زينه بالمرمر ثم المعابد المكرسة الى منيرڤا وهرقل وقاعة المائة عمود وبناية الكوريا (مكان اغتيال قيصر) وهي رواق بأعمدة محاط بالحدائق المزينة بالقطع الفنية . كما شيد قيصر فورم جوليان شمال الفورم القديم وهو بناية محاطة بأروقة ذات أعمدة كورنثية وسطه معبد ڤينوس المزين بالتماثيل والى جانبه تمثال كليوباتره الذهبي الذي يقابله تمثال قيصر . وشاع طراز الزينة الاسكندراني ذو الأوراد والفواكه . وبعد وفاة قيصر شيد تمثال لطقسه وبنى اوكتافيان معبداً لابولو ثم المكتبة على البالاتاين . وشيد اغريبا على حسابه الخاص قنطرة اطلق عليها اسم قيصر وحمامات ضخمة .

زاد التأثير الهلنسي في النحت والتصوير والقطع الفنية الصغيرة ، فقد هام الأثرياء الرومان بعد توسع روما في الشرق بالقطع الفنية الشرقية . فالى اتيكوس صديق شيشرون من اثينا تعود المنحوتات الجدارية في قصر شيشرون . وافتخر سكوروس بأنه وضع في مسرحه ثلاثة آلاف تمثال جاء بغالبيتها من وراء البحار . ونهب المسرحون الذين اسكنهم قيصر في كورنث القبور من اصصها البرونزية وباعوها للمزايدين الرومان . وزاد التأثير اليوناني بتدفق الفنانين اليونانيين الى روما . وهام الرومان بالمنحوتات الجدارية الطينية ذات المواضيع الهلنستية : ومن قطع القرن الفنية راس شيشرون الموجود في لندن والفاتيكان . وكما وصل نحت تماثيل النساء الى عنفوانه في الواقعية والجمال مثل راس كليوباتره الموجود الآن بالمتحف البريطاني . وأعطتنا الصور الجدارية (لأشخاص أو احداث أو مناظر) من بومبي خير مثال للتصوير خلال هذه الفترة وتعرض التأثير الهلنسي في العمل والموضوع . ومن هذه صورة معركة اسسوس الموجودة في نابولي الآن والتي توضح مدى تقدم فن التصوير ثم الصور من بيت ليفيا على البالاتين وبيت ليفيا في بريما بورتا (بضع أميال شمال روما) حوالي ٤٠ ق . م .(١٦)

الهوامـــش

1. A. Schulten, Sertorius, (Leipzig, 1926).
2. Cary, op. cit. pp. 350–354.
3. Hugh Last and R. Gardner, CAH, Vol. IX. (1951), pp. 329 ff.
4. H.A. Ormerod, Piracy in the Ancient World, (Liverpool, 1924) pp. 190–247.
5. F. Guse, Die Feldzeuge des drittenMithradatischen Krieges in Pontus and
Armenien, Klio, Vol. 20, (1920) pp. 332.

٦ ـ د . عبد اللطيف آحمد علي ، السالف الذكر ، ص ١٠٠ ـ ١٦٩ .

٧ ـ د . سامي سعيد الأحمد ، شيشرون رجل خلده التاريخ ولم يحكم عليه ، المجلة التاريخية ، مجلد ٣ ، (١٩٧٤) ص ١٣٦-١٦٣ .

د . عبداللطيف أحمد علي ، السالف الذكر ، ص ٢٣٧ ـ ٢٩١ .

8. M. Cary, The Conquest of Gaul, CAH, Vol. IX, pp. 537–573.
9. F.R. Smith, Die Schlacht bei Carrha, Historische Zeitschrift, Vol. 115, (1916), pp.237.
10. Boak and Sinnigen, op. cit. pp. 221–234.
11. F.L. Lucas, The Battlefield of Pharsalos, Annual of the British school at Athens, Vol. 24, (1919–1921), pp. 34.
12. F.E. Adcock, The Civil War, CAH, Vol. 9, (1951), pp. 638–690.

الدكتور عبداللطيف احمد علي ، أعلاه ، ص ٢٣٧ ـ ٢٩١ .

١٣ ـ نفسه ، ص ٢٩٢ ـ ٣١٦ .

14. Trever, op. cit. pp. 231–240.
15. Cary, A History, p. 422–449.
16. Trever, op. cit. pp. 266–304.

الفصل الثامن
عصر الامبراطورية ـ اغوسطوس والحالة زمانه

عاد اوكتافيان الى روما سنة ٢٩ ق . م . واحتفل بانتصاراته خارج ايطاليا مدة ثلاثة أيام بعد أن قضى على جميع خصومه ومن هذه السنة تبدأ الامبراطورية التي ترأسها . وفي سنة ٢٧ ق . م . أعلن أوكتافيان امام مجلس الشيوخ تنازله عن السلطات المطلقة التي كانت بيده خلال الحرب ضد انطوني ووضع الدولة بيد مجلس الشيوخ والشعب الروماني . علماً بأنه كان ينتخب لمنصب القنصلية كل سنة وكانت سنة ٢٧ ق . م . هي سنة قنصليته السابعة . وفي السنة نفسها بدأ أوكتافيان يستعمل اللقب امبراطور الذي منح له سنة ٤٣ ق . م . جزءاً من اسمه ولقباً معناه المظفر . ومنحه السنات سنة ٢٧ ق . م . أيضاً بناء على اقتراح بلانكوس لقب أغوسطوس الذي يتضمن القدسية والاحترام فضلاً عن لقب المواطن الأول أو الزعيم PRINCEPS . أما لقب أبو البلاد فقد منحه مجلس الشيوخ له سنة ٢ ق . م . وظل اغوسطوس ينتخب قنصلاً كل سنة حتى سنة ٢٣ ق . م . وظل الحكم فردياً في شخصه في وقت كان ينعت هو الحكم بالجمهوري حتى انه أمر بتدوين العبارة (ذكرى اعادة الجمهورية) على النقود . ولم يتقلد اغوسطوس القنصلية بعد سنة ٢٣ ق . م . سوى مرتين لأسباب اضطرارية . وفي هذه السنة واجه اغوسطوس مشاكل (مؤامرة ضده ، مرض شديد وانقسام في جماعته حول الخلافة) وحصل فيها على السلطة التريبونية من مجلس الشيوخ والجمعية وصار بموجبها حامي العامة وصار له حق التوسط ودعوة المجلس وسيطرة على التشريعات من كلا المجلسين . كما منح حق الاعتراض الذي يتمكن بموجبه ايقاف اجراءات الحكام وقرارات السنات . كما وسعت سلطته البروقنصلية (كحاكم مخول) وصار هو الامبريوم البروقنصلي يجدد كل خمس سنوات الذي يلزم على كافة الحكام الامتثال لأوامره وقانوناً كان القائد المتمتع بسلطة الامبريوم يمنع من دخول روما الا في حالة الاحتفال بانتصاره ولكن سمح لاغوسطوس بدخول المدينة . وأعطى له حق اعلان الحرب وعقد السلام وسمح له بموجب قوانين اخرى بتوسيع دائرة العوائل النبيلة وسلطة رقيب حتى يجري التعداد السكاني ويعيد تنظيم السنات وصار له حق الاشراف على الانتخابات وترشيح الحكام . وقرر اغوسطوس أيضاً جعل الجيش ثابتاً ينخرط به الجنود بالتطوع وحصر القيادة العليا للجيش في شخصه وزيد عدد ضباط حرسه الى اثنى عشر ومنح حق الجلوس بموقع متميز بمجلس الشيوخ بين القنصلين ومنح حق الاشراف على التموين وقام اغوسطوس سنة ٢٢ ق . م . بجولة في الولايات الشرقية استمرت حتى سنة ١٩ ق . م . ولما عمت الفوضى

خلال فترة غيابه طلب قنصل سنة ١٩ ق . م . منه العودة الى روما وفعلاً رجع وأعاد بعودته النظام وفرح مجلس الشيوخ لرجوعه وخلدوه باقامة معبد كرس الى الهة الحظ العائد . علماً بأن اغوسطوس رفض سنة ٢٢ ق . م . اختياره قنصلاً دائماً اودكتاتوراً الذي صوت عليه الشعب .

سخر اغوسطوس الكتاب والشعراء للدعاية له وتثبيت مركزه والمبادىء التي اتى بها امثال ميكيناس وفرجيل وكانت انياده الأخير وقصيدته الشعرية القروية دعاية واضحة لاغوسطوس جعلت منه شاعر البلاط . ثم الشعراء هوراتيوس واوفيد وبروبرتيوس الذين اغرقوا اغوسطوس بالمدح المنقطع النظير . وكان أغريبا ساعد اغوسطوس الايمن وكان بمعيته عند دخوله ايطاليا بعد مقتل قيصر وعين بريتوراً (قاضياً) سنة ٤٠ ق . م . ثم حاكماً على غالة وقاد اسطول اغوسطوس في معركة اكتيوم وانتخب قنصلاً ثلاث مرات . وفي سنة ٢١ ق . م . تزوج جوليا ابنة اغوسطوس . وقد تزوج تيبريوس ابنته فيبسانيا . وقد توفي الأول سنة ١٢ ق . م . وأوصى بكل مايملك لاغوسطوس .

ارسل اغوسطوس سنة ١٢ ق . م . الأخوين تيبريوس ودروسوس لغزو المنطقة بين الألب والراين فنجحا في ضمها الى الامبراطورية . وفي سنة ٩ هاجمت قبائل الجرمان بقيادة زعيمهم ارمينيوس المنطقة ذاتها وابادت ثلاث فرق رومانية ارسلت لصدهم بقيادة فاروس بعد أن ذبحوا رجال الحاميات الرومانية . ووضع الرومان الاستحكامات القوية في المنطقة بين نهري الدانوب والراين . وفي الشرق صار نهر الفرات الحد الفاصل بين المناطق التي يحتلها الرومان والفرثيون .

أما مشكلة ولاية العهد فقد كان اغوسطوس ينوي ترشيح ابن اخته مارسيلوس الذي زوجه من ابنته جوليا ولكنه توفي سنة ٢٥ ق . م . فاختار أغريبا وزوجه من جوليا أيضاً ولكنه مات سنة ١٢ ق . م . فرشح حفيديه غايوس قيصر ولوكيوس قيصر (ولدي اغريبا من جوليا ابنته) . ولما توفيا سنة ٢ و٤ رشح اغوسطوس للخلافة تيبريوس ابن زوجته ليفيا الذي أجبره على طلاق زوجته الأولى فيبسانيا اغريبينا ابنة اغريبا من زوجته الأولى ويتزوج من ابنته جوليا الكبرى المشهورة بمجونها واستهتارها وكثرة أزواجها التي سببت لهم المتاعب فتزوجها سنة ١١ ق . م . وتبناه اغوسطوس سنة ٤ وأجبره على تبني جرمانيكوس ابن أخيه دروسوس .[١]

بتشجيع من اغوسطوس اعتبرت روما الهة وقرنت عبادتها بعبادة اغوسطوس نفسه (عبادة الملاك الحارس لشخصه) في وقت نمت في الأقاليم وبعض مناطق ايطاليا عبادة

اغوسطوس نفسه ونظم عيد خاص بعبادة روما يسمى عيد روما واغوسطوس يحتفل به كل خمس سنوات وصار في كل اقليم معبداً لهذا الطقس الجديد (آسيا الصغرى ، لوغدونوم « ليون الحالية » عاصمة غالة الناربونية وفي المانيا الخ) . في وقت نظر الكثيرون الى اغوسطوس كمنقذ ارسل لخلاص الدولة الرومانية ودخل اسمه منذ حوالي ١٢ ق . م . في الغالب بكل يمين وقسم رسمي . ولأجل احياء طقوس الدولة العامة فقد أعاد أغوسطوس تشكيل مجامع الكهنة القديمة الخاصة بأداء طقوس معينة أو طقوس خاصة بآلهة معينة وصار هو عضواً في كل مجمع من هذه حتى تم اختياره بعد وفاة ليبدوس الحبر الأعظم للبلاد أي رأس الدولة الديني الأعلى . وعهد اليه مجلس الشيوخ سنة ٢٨ ق . م . باعادة تعمير كثير من المعابد والمزارات فأصلح معبد جوبيتر كابيتولينوس وكويرينوس وماغناماتير (الأم العظمى) وادعى بانه عمر اثنين وثمانين مزاراً . وشجع اغوسطوس طقوس الآلهة فورتونا ربة الحظ وباكس (السلام) وقرن اسمه بالكثير منها . واعتبر سنة ٤٠ ق . م . ابن الاله (قيصر) وجعلت له البلديات الرومانية سنة ٣٦ ق . م . مكاناً في معابدها . وسميت باكس الهة السلام الاغوسطي وسمي مركوريوس بمركوريوس الأغوسطي رب الثروة وكونكورديا اغوسطا وهرقل مانح الخيرات . كما شيد معبداً جديداً الى الاله مارس المنتقم (الذي انتقم لاغوسطوس من أعدائه ومزقهم) في الفورم الجديد الذي بناه وآخر في الفورم القديم ليوليوس المؤله حيث دفن رفاته بعد حرقه . والى جنب بيته على تل البالاتين شيد اغوسطوس معبداً فخماً للاله ابولو حامي عائلته الذي أعطاه النصر وانقذ البلاد من دمار الحرب الأهلية . وأحيا عبادة اللاريس (الأرواح الحارسة) وهي الآلهة التي تحرس تقاطع الطرق ويتمسك بعبادتها عادة الفقراء وتحمي العائلة وتحافظ على رفاهيتها وولائها وجعلها رسمية . وأقام بكل حي من أحياء روما الـ ٢٦٥ معبداً لهذه الآلهة الحارسة وللملاكه الحارس نفسه تعتني بها لجنة من أربعة أعضاء ينتخبون سنوياً من بين سكان الحي . وأمر مجلس الشيوخ سنة ١٤ أن يكون اغوسطوس المؤله من آلهة الدولة الرسمية .

أصدر اغوسطوس عدة قوانين لاصلاح الحياة الاجتماعية فضلاً عن تشجيعه نوادى الشباب واكثاره منها . وقد ساعدته في صياغة قوانينه الاجتماعية زوجته ليفيا ، وكان متألماً من سوء تصرفات ابنته جوليا غير الأخلاقية الشائنة . فقد أصدر أغوسطوس سنة ١٩ و١٨ ق . م . قوانين يوليوس جعل بها الأسرة تحت حماية الدولة فقام بتقويم العائلة وتشجيع الزواج وانجاب النسل وجعلت الزنا جريمة يعاقب عليها قانوناً ووضعت

العراقيل أمام غير المتزوجين وغير المنجبين مفضلاً تعيين الآباء بالوظائف العامة . وأعطى للزوج الحق في سوق حبيب زوجته وإياها الى الحاكم حتى بعد طلاقها منه . وفي سنة ا أصدر قانوناً آخر حرم فيه على السيد وضع أية قيود على زواج عبيده الذين يوصي بعتقهم بعد وفاته وسمح بالزواج من المعتقات لغير أعضاء مجلس الشيوخ [٣] ، وقد اجيزت قوانين بسوليوس كل رجل يتراوح عمره بين ٢٥ ـ ٦٠ وكل امرأة بين ٢٠ ـ ٥٠ بالزواج ووضع عقوبات على المخالفين وحرم المضربين على الزواج من ارث اقاربهم الا كانت ثرواتهم الخاصة تزيد عما يعادل ١٥٠ دينار عراقي وحرم كل عازب يتجاوز سن الستين من الارث . كما فرض ضريبة عالية على العانسات وغير المنجبات منها دفع ضريبة تبلغ ١ ٪ سنوياً على كل ماتملك . وصارت المنافسة بين المرشحين للمناصب بعدد ما عنده من أبناء وخفض السن القانوني للمناصب السناتورية بعدد ما عند المرشح من الأبناء ، وحتم على المطلق / المطلقة الزواج خلال ستة أشهر من طلاقها والأرمل / الارملة خلال سنة من وفاة زوجته / زوجها . ثم عدلت الى سنة ونصف للأولين وسنتين للأخيرين ، وأعطى فرصة للعازبين الوارثين للزواج حتى يصبحوا مؤهلين لتسلم مواريثهم وزيدت حقوق الامهات . ونعرف ان لما فشل اغوسطوس في اصلاح ابنته جوليا نفاها الى جزيرة سانتا ماريا (نيداتاريا القديمة) ونفى مشاركيها في الرذيلة . علماً بأن ابنته جوليا هذه قد اعدمت فيما بعد لسوء أخلاقها . ونظراً لمعارضة الفرسان خاصة لقوانين يوليوس أصدر أغوسطوس سنة ٩ قوانين بابيوس وبوبايوس التي خففت من القانون السابق وقدمت امتيازات اكثر لتشجيع العازبين على الزواج والحث على الانجاب ، فرفعت بعض القيود عن ارث العازبين والعوانس واستثنى العقيمين من القيود كافة ، ومنح امتيازات واعفاءات للمتزوجين والمنجبين وأعفى المرأة ذات الثلاثة ابناء من أية وصاية ، وكان أغوسطوس قد أصدر سنة ٢ ق . م . قانوناً عرف باسم قانون فوفيوس وكانينيوس حدد به عدد العبيد الذين يتمكن السيد من عتقهم حسب وصيته وتبنى تشريعات لتحول دون حصول المعتقين على الجنسية الرومانية. وأعقبه بقانون آخر سنة ٥ وضع قيوداً على حق السيد في عتق عبيده اثناء حياته . وربما أصدر قبل ذلك الجنسية اللاتينية للكثير من العبيد الذين اعتقوا دون حصولهم على الجنسية الرومانية أو اعتراف رسمي بحريتهم . وحصل تثقيف الشاب بعناية أغوسطوس الخاصة . لأجل حفظ الأمن في العاصمة استحدث أغوسطوس قوة قوامها ٤٫٥٠٠ رجل برأسهم قائد من أعضاء السنات الى جانب شرطة للحراسة ليلاً واطفاء الحرائق قوامها سبعة آلاف برأسهم شخص من طبقة الفرسان ، وصار تعداد قوة حراسة الامبراطور خمسة آلاف بعهدة قيادة من الفرسان .

خفض أغوسطوس عدد أعضاء السنات الى ٨٠٠ ثم الى ٦٠٠ وعين لعضويته افراد جدد . كما شكل محكمة من أعضاء السنات يرأسها القنصلان للبت في القضايا الخطيرة الخاصة بأعضاء السنات . وصارت قرارات السنات أكثر قوة من قبل وشكل لجاناً من بين أعضائه يستشيرهم في أمور الدولة المهمة .وفي الحقل العسكري خفض أغوسطوس عدد فرقه من ٧٠ ـ ٧٥ سنة ٣١ ق . م . الى ٢٧ وجنوده من نصف مليون الى ٣٠٠ ألف للدفاع عن حدود يبلغ طولها ٦٠٠٠ كيلومتر واقطع المسرحين أراضي ذكر أنه اشتراها ، وحدد سنوات الخدمة العسكرية سنة ٦ بستة عشر سنة في الحرس البريتوري (الملحق بالامبراطور) وعشرين في فرق مجندي الرومان و٢٥ في القوات المساعدة (الاوكزيليا الأجانب) وصار للدولة الحق في سوق الأفراد الى الجندية . ويمنح الجندي في الحرس عند تسريحه قطعة أرض ومايعادل ٢٠٠ دينار عراقي وفي الفرق قطعة أرض ومايعادل ١٢٠ ديناراً عراقياً . كما استحدثت خزانة خاصة بالجيش وشيد اسطولاً ضخماً مع قاعدتين بحريتين في رافينا على الادرياتيك ومسينوم على خليج نابولي وتجنيد قواته البحرية من الولايات بخدمة امدها ٢٦ عاماً . وكان اغوسطوس يمنح الجنسية الرومانية للجنود المسرحين ويشيد لهم المستوطنات . وليس للجندي حق الزواج خلال مدة خدمته واذا تزوج فلا يعد زواجه ولأطفاله منه شرعيين ، وظل هذا القانون ساري المفعول حتى الغاه الامبراطور سبتميوس سيفيروس في نهاية القرن الثاني . ومنع الضباط من اصطحاب زوجاتهم الى ساحات القتال . (٤)

احتفل أغوسطوس سنة ١٧ ق . م . بالعيد المئوي الذى اعتبر فاتحة عهد ذهبي جديد الغاية منه تطهير البلاد من الآثام وبعث الأمل والحياة في الأمة ولهذا العيد خلفية حيث استجد خلال أزمة الحرب البونيقية الأولى سنة ٢٤٩ ق . م . وظل يكرر كل مائة سنة . وجعل اغوسطوس المدة ١١٠ سنوات واحتفل الآن بعيدها الثالث حيث اقيمت الاستعراضات تتخللها العاب شتى وفرق انشدت النشيد المئوي الذي أعده للمناسبة الشاعر هوراس . علماً بأن الامبراطور كلوديوس في فترة لاحقة استجد عيداً مئوياً آخر للاحتفال بتأسيس روما .

قسم أغوسطوس روما ادارياً الى ١٤ منطقة تنقسم الى ٢٦ حياً يشرف على كل منطقة منها نقيب للعامة أو محتسب . كما عين اثنين من أعضاء مجلس الشيوخ مشرفين على تنظيم استيراد وتوزيع الحنطة ثم استعاض عنهما بمدير للتموين من طبقة الفرسان . واستحدثت مصالح عين عليها مراقبين من أعضاء مجلس الشيوخ ذي المرتبة القنصلية أو القضائية (البريتورية) للاشراف على القنوات العامة ، والمعابد والمباني العامة والجسور ثم الطرق

بايطاليا . ومنذ سنة ٢٧ ق . م . صارت ادارة بعض الأقاليم بيد أغوسطوس مباشرة (ترابط بها فرق رومانية) في وقت كأن السنات يدير الأخرى رغم اشراف الامبراطور نفسه على كافة الولايات العامة . وتتألف الاقاليم الامبراطورية من الولايات غير المستقرة ، ونعرف ان اغوسطوس كان يتنازل الى السنات عن بعض المقاطعات حالما يشعر بتقدمها ووصولها الى الحد المقارب لمقاطعات داخل ايطاليا مثل بايتيكا باسبانيا البعيدة (بعد أن أخمد ثورات قبائل السالا والريتين في غالة القريبة والكانتابرين فيها وأسس مستوطنات للمسرحين الرومان وجعل من لوزيتانيا (البرتغال الحالية) ولاية امبراطورية) وغالة القريبة أو العكس كما الحال في ايليريا التي تسلم ادارتها من السنات سنة ١١ ق . م . ثم كليكيا وسردينيا سنة ٦ . أصدر أغوسطوس سنة ٧ ، ٦ ق . م . مرسومين لاصلاح القضاء في كريت وبرقة (كانا ولاية سناتورية واحدة أي يديرها مجلس الشيوخ) . وفي سنة ٤ ق . م . خفضت نفقات الشكاوى القضائية التي ترفع ضد أي موظف روماني يتهم بالسرقة والرشوة . وصار السنات يختار هيئة تحاكم الحكام المتهمين . ووضعت الآن أسساً أحسن للضرائب والتجنيد المفروضة على الأقاليم . وقرر اجراء مسح عام للامبراطورية باشراف اغريبا واجراء تعداد للسكان وممتلكاتهم . وكانت هناك ولايات ضمن الامبراطورية لاتدفع ضرائب بل تحميها روما وتدير شؤونها الخارجية وتقدم هي لروما المساعدات العسكرية عند طلب الأخيرة لها مثل موريتانيا وتراقيا وكبدوكية وغلاطية (التي حولها أغوسطوس الى ولاية رومانية) . وكان حكام ولايات مجلس الشيوخ يختارون بالقرعة من بين القناصل السابقين (الذين مضت عشر سنوات على الأقل من اعتزالهم) والقضاة (الذين مضى خمس سنوات على اعتزالهم) عدا ولايتي آسيا وافريقية اللتين كان يشترط أن يكون حاكم كل منهما قنصلاً سابقاً ويلقب حاكمها بروقنصل (حاكم مخول بسلطات القنصل) مع موظف مالية (كويستور) وثلاثة مندوبين . أما الولايات الامبراطورية فكانت بيد مندوبين عن الامبراطور يعينهم هو من أعضاء مجلس الشيوخ ، الى جانب قواد الفرق الرومانية ورقباء مالية مرتبطين بالامبراطور رأساً) . وكان حاكم مصر يتم اختياره من طبقة الفرسان تسنده ثلاثة فرق رومانية . وبعد ان قضى اغوسطوس على ثورة غالة كوماتا وبلجيكا وفرنسا عدا أقسامها الجنوبية الساحلية .. قسموها الى ثلاث مناطق هي اكويتانيا في الجنوب ولوغدونوميا بعاصمتها عند ليون الحالية (لوغدونوم القديمة) في الوسط وبلجيكا بالشمال . وكان الرومان بقيادة دروسوس قد دحروا الريتين ثم القبائل الجرمانية حيث شهد الاستحكامات العسكرية من فندونيا (قرب بال بسويسرة حالياً) حتى كاستراڤيتيرا (قرب اكسانتين الحالية) وموغونتياكوم (ماينز) ثم عبر نهر الراين اربع مرات بين

السنوات ١٢ ـ ٩ ق . م . ليضمن أمن المنطقة المحصورة بين نهري الراين والب . كما ساعده الاسطول الذي بناه على اخضاع قبيلة الباتافي الساحلية . وعندما توفي دروسوس (الذي لقب بعد موته جرمانيكوس اي قاهر الجرمان) في طريق عودته من هذه الحملة سنة ٩ ق . م . بسقوطه من حصانه أعقبه أخوه الأكبر تيبريوس الذي أتم الفتح . وكانت قبائل حوض وسط الدانوب وجنوبه من قبائل البانونين والكيتاي (الداكين) والباسترنين يهاجمون ولايتي ايليريا ومقدونية ودحرهم ماركوس كراسوس حاكم مقدونية في السنوات ٣٠ و٢٩ ق . م . وتوغل داخل اراضيهم مخضعاً المويسيين جنوب الدانوب . وشن تيبريوس حملات ضد البانونين والالمان (بين الراين والب) ودحرهم بين سنوات ١٢ ـ ٩ ق . م . وصار نهر الدانوب حد الدولة هناك . ووصل تيبريوس خلال توغله سنة ٤ نهر ألب ليخضع الجرمان ثم غزا قبيلة الماركوماني (بين نهري ألب والدانوب من منطقة بوهيميا) . وسحق تيبريوس ثورة بانونيا ودلماشيا وتحولت بانونيا وموِيسيا الى ولاية رومانية . وفي سنة ٩ ثارت القبائل الجرمانية (الكيروسكي والكاتي) بقيادة ارمينيوس وابادوا كما ذكرنا ثلاث فرق رومانية عند غابة تيوتوبورغ ، ونجح تيبريوس في اخماد ثورتهم في حملتين عبر الراين ولكن لم يسيطر على كافة الأراضي بين نهري ألب والراين بل جعل حدود الدولة الرومانية عند نهر الراين وليس ألب كما كانت قبل الثورة . وفي ارمينيا نصب تيبريوس ملكاً موالياً للرومان واسترجع من الملك الفرثي فراتيس الرابع الاسرى والاعلام التي اسرها من . منها الرومان خلال معركة الكرخه حتى ارسل الملك الفرثي أولاده الأربعة الى روما كرهائن . ولكن سرعان ماسيطر على أرمينية سنة ٦ الحزب الموالي للفرثين . ونصب الرومان في فلسطين هيرود الكبير ليحكم اجزاء واسعة وعند وفاته سنة ٤ ق . م . قسمت المملكة بين ابنائه الثلاثة . وفي سنة ٦ صارت مملكة هيرود ولاية رومانية . كما أدرك أغوسطوس أهمية اليمن التجارية (ومع الهند والصومال) وشهرتها بالتوابل والصمغ والبخور فارسل حملة لاحتلالها قادها ايليوس غاللوس حاكم مصر سنة ٢٥ ق . م . نقلت قواتها عبر البحر الأحمر الى الساحل الغربي للجزيرة العربية وسارت على طول الساحل ولكنها اضطرت الى الانسحاب ، وفي السنة نفسها غزا النوبيون مصر فصدهم بترونيوس حاكم مصر الجديد وطردهم متقدماً جنوباً واستولى على عاصمتهم نباته عند جبل برقل (قرب بلدة كريمة الحالية) وضمن سيطرة روما حتى الشلال الأول . وبسيطرة روما على مصر احتكرت التجارة مع الهند بفضل اكتشاف الرياح الموسمية وصارت السفن تبحر من موانيء مصر على البحر الأحمر الى الهند وسيلان حتى الصين . كما ضم اغوسطوس نوميديا الى ولاية افريقية ونصب يوبا الثاني زوج كليوباتره ابنة انطوني وكليوباتره ملكاً على موريتانيا سنة ٢٥ ق . م . لثقته به

كحليف ولضمان أمن شمال افريقية . دفع اغوسطوس حدود الامبراطورية الى الدانوب لضمان أمن البلقان واستحدثت في منطقة الدانوب اربع ولايات هي ريتيا (شرق سويسرة الحالية وقسم من التيرول) ونوريكوم (جزء من النمسا) والتي صارت ولاية سنة ١٦ ق . م . وبانونيا (المجر وشرق يوغسلافيا « صارت ولاية سنة ١٠ » ثم مويسيا (جزء من بلغاريا قرب البحر الأسود) . وصارت غلاطية بآسيا الصغرى ولاية رومانية سنة ٢٥ ق . م . كما ضمت كبدوكية سنة ١٧ . نظم اغوسطوس الجيش وجعله نظامياً يخدم فيه الجندي مدة طويلة بالحاميات المنبثة بارجاء الامبراطورية وصار النسر شعار الفرقة الرومانية وصارت للجيش الآن قيادة رسمية عليا حصرها اغوسطوس بشخصه وهو الذي يعين قواد الجيش كافة يأخذون الاوامر منه ومسؤولون اليه فقط . وصار سكان الاقاليم يخدمون في القوات المساعدة في سلاحي المشاه والخيالة . وازداد عدد أفراد الجيش كثيراً ، وكانت ولايات مجلس الشيوخ (آسيا ، صقلية وغالة الناربونية) لاترابط بها فرق عسكرية عكس الولايات الامبراطورية . وتركزت العساكر في الولايات الحدودية امثال خط الراين وولايات الدانوب وسورية في وقت رابطت قوات قليلة بافريقية ومصر وبريطانيا . وكانت المناصب العليا في الأقاليم أو الجيش تسند الى قضاة أو قناصل سابقين ويلقب حاكم الولاية السناتورية پروقنصل (حاكم مخول من الرتبة القنصلية) أو من الرتبة البريتورية . وكان الامبراطور يتدخل في شؤون الولايات السناتورية ويختار حكامه في الولايات الامبراطورية من بين أعضاء السنات الذين يثق بهم ويطلق على حاكمه فيها نائب الامبراطور (ليگاتي أوغوستي) وله نواب مساعدون (ليگاتي) . وكان الامبراطور أحياناً يسند ادارة ولاية أقل أهمية الى رجال من طبقة الفرسان ويسمى (وكيل اغوسطوس پروكيراتور) مثل ريتيا وموريتانيا الخ . تسنده قوات مساعدة . (٥)

استمرت المحاكم الجنائية الدائمة التي أنشأها سولا وعرضت عليها قضايا خاصة بحكام ولايات ثانوية الأهمية . ومرة أدين حاكم بالابتزاز في ولايته فصدر الحكم بتغريمه وقد تصل العقوبة الى حد النفي وأحياناً كان المتهمون ينتحرون خوفاً من الفضيحة أو يوكلون خطيباً لبقاً أو محامياً كبيراً للدفاع عنهم . وكان سكان الاقاليم يرسلون وفوداً الى روما تعرض مطالبهم والتي كثيراً ماكانت تهمل ولكن الأمر صار غير ذلك الآن حيث كانت الشكاوى تصل الى الامبراطور ومجلس الشيوخ ويحرصون على الاصغاء لها . حتى صارت مجالس محلية لسكان الولايات تحتفل بالمناسبات الدينية والمدنية المتعلقة بالامبراطور ، وفي الولايات الغربية كان رئيس هذا المجلس يسمى كاهن الولاية (وفي الولايات الشرقية سمي رئيس اقليم آسيا أسيارخوس) ورئيس ولاية بيثينيا وانبثت

خلال حكم اغوسطوس في كل الولايات والحصر الرؤساء في الاثرياء الجدد الذين استفادوا من النظام الجديد واكتسبوا الجنسية الرومانية . وقويت الآن العلاقة بين الحكومة المركزية وحكام الأقاليم الأمر الذي ساعدت عليه شبكه الطرق التي فتحت وتنظيم مصلحة البريد . كما استحدثت عدة مناصب مدنية لادارة الاقاليم أكثرهم من طبقة الفرسان . وكان في كل ولاية امبراطورية وكيل مالية (بروكوراتور) يمثل الخزانة الامبراطورية (فيسكوس) والتي كانت منفصلة عن خزانة الدولة العامة التي بيد مجلس الشيوخ.وكان في كل ولاية لمجلس الشيوخ مدير مال (كويستور) خاص بها ينقل للامبراطور سراً أخبار الولاية ومرة عزل الامبراطور حاكاً وباخرى أعدم حاكاً ثانياً بناء على وشايتين ضدهما وصلتا اليه . وكان بعض وكلاء المالية من المعتقين الذين زاد استخدامهم فيما بعد . وتوسع خلال هذه الفترة ومابعدها منح الجنسية الرومانية التي صارت وسيلة للاغراء وربط أجزاء الدولة المترامية الأطراف .

قبل أن يموت أغوسطوس سنة ١٤ أمر باجراء احصاء عام للامبراطورية بلغ عدد المواطنين بموجبه ٤,٩٣٧,٠٠٠ مواطن . كما أمر بتخليد كل أعماله في الأثر المعروف بأثر انقرة أو أعمال اغوسطوس المؤله (Res Gestae) [٦] .

ظل التعليم خلال فترة حكم اغوسطوس كما كان بالسابق وباهظ التكاليف ولذلك صار في مراحله المتقدمة مقتصراً على ابناء الطبقة الثرية ولكن لما زادت واردات الدولة عمد أغوسطوس للصرف على التعليم واخذ يرشح المعلمين للمناصب الحكومية لرفع مستواهم وحمل الناس على تغير نظرة عدم التقدير السابقة لهم . وفتحت زمانه مدرسة في أوتون بغالة لتعليم أولاد نبلاءهم وحث اغريكولا نبلاء بريطانيا على تعليم ابناءهم بالتربية الرومانية [٧] .

اهتم اغوسطوس بالحياة الأدبية وشجع الأدباء وكانت علاقته متينة بكثير من الشعراء أمثال فرجيل وهوراس حتى انه حدد لبعض أدباء عصره المواضيع التي كان يود أن يعالجوها وحث بعض اصدقائه على الاسهام في الحركة الأدبية . وصارت قصور اصدقاء له مثل مسينا وميسالا نوادٍ للشعراء والتف كثير من رجال الأدب حول اسينيوس بوليون مؤسس أول مكتبة عامة في روما .

أدت مصادرة الأراضي واعادة توزيعها خلال فترة الوفاق الثاني الى تغير كبير في ملكية الأراضي حيث صغر حجم الاقطاعيات الكثيرة . ولأجل منع أصحاب الأراضي الجدد من بيعها قدم اغوسطوس لهم القروض فاقبلوا على زرع اراضيهم بكل مثابرة

وعزم . وعندما قضى اغوسطوس على القرصنة والخطف فقد قطع المصادر الاساسية للعبيد في ايطاليا مما شكل نقصاً في الأيدي العاملة بالنسبة لأصحاب الأراضي الواسعة . وان السلام الذي حققه اغوسطوس والأمن في كافة أرجاء الامبراطورية ادى الى ضمان الملكية والامان في الحل والترحال مما شجع الصناعة والتجارة . وسمح اغوسطوس بالعمل لنقابات الصناع التي اوقفها قيصر عن العمل لنشاطاتها السياسية ونظم الآن عملها بموجب برامج . وشملت كل المهن سواء من أصحاب الحوانيت الصغيرة أو العامل عبيداً وأحراراً وحصر واجباتها في الحقل الاجتماعي ومساعدة الفقراء منهم . وفعلاً شيدت هذه النقابات لأعضاءها مقابر جماعية لأفرادها وأخذوا يلتقون كل شهر تقريباً على طعام أو شراب .

عمت الامبراطورية وحدة اقتصادية وتدفقت أنواع البضائع والمحصولات الى ايطاليا حتى من مناطق بعيدة كالصين والهند لسد حاجات الطبقات المترفة المتزايدة . وشجع اغوسطوس التجارة بفتح الطرق وبناء الجسور والموانيء وظلت التجارة الخارجية بيد السوريين واليونانيين واستمر پوتيولي ميناء رئيساً للاستيراد والتصدير . وزادت الواردات عن الصادرات كثيراً ولم تعمل الدولة على جعل ايطاليا مكتفية ذاتياً . وعم الرخاء اسبانيا ومخر تجارها البحر المتوسط والمحيط الأطلسي وصارت مصر وشمال افريقية مخزن غلال الامبراطورية . واشتهرت غالة بالصوف والقمح وفي مصر الحق اغوسطوس بالدولة غالبية أراضي المعابد وألغي نظام الضرائب والاحتكارات البطلومية وخفضت رسوم الكمارك وصارت مصر مركز التجارة مع الهند واليمن والشرق الأقصى .

يعكس أدب عصر أغوسطوس مجتمعاً معقداً أفسدته الثروة وفسخ نظامه العائلي وعمه الترف والاسراف في الملذات والسعي وراء الجنس . وصرنا نسمع عن المآدب الفخمة ذات المآكل المتنوعة وحياة الطبقة النبيلة والمترفين من الطبقة الوسطى البذخة .

وفي المعتقدات صرنا نلحظ طلائع اعتقاد بحياة بعد الموت والحاجة الى التطهر والخلاص والتي سنراها أكثر وضوحاً في سينيكا من زمن نيرون وأخذت النبوات والطقوس السرية الغامضة تؤكد ظهور منقذ وجده الكثيرون في شخص اغوسطوس فعدوه الاله ايولو نزل الى الارض بشكل انسان وخالق النور والسلام وهو الاله حارس الجديد جالب الخير . وانبرى الشعراء يتغنون بطقوس ايطاليا القروية وعمت الرواقية التي فقدت الآن طابعها السياسي وتأثرت بالطقوس اليونانية والشرقية وصارت أشبه بدين يؤمن به كثيرون . كما صار للأبيقورية شعبية منقطعة النظير ، وشاعت الفلسفة الاكلكتيكية (يأخذ بها الفرد من كل فلسفة مايرضيه) ، فهو راس بالرغم من كونه ابيقورياً أكد بأن ليس له فلسفة معينة . ووجد كثيرون القناعة الروحية في الفيثاغورية الجديدة بتأكيدها خلاص الروح والطقوس السرية الغامضة والخلاص وطقوس التطهير وحياة بعد الموت . وصار للطقوس

السرية الهلنستية شعبية بالغة بالرغم من جهود اغوسطوس للحد منها نراها واضحة في زينات قبور عصر اغوسطوس . وصار لروما شخصية عالمية تعج بجاليات من مختلف الأديان والخلفيات . وشاع التنجيم البابلي بين مختلف طبقات الشعب وزاد الولع بالسحر وقوة الأرقام السحرية .

يعد عصر أغوسطوس فترة نضج في الحركة الأدبية وعصر ذهبي بالشعر وفضي بالنثر . وكان تأثير الادب الاسكندراني كبيراً وطرق الكتاب جميع أنواع الأدب واتخذ الكثيرون الملحمة والشعر الغنائي اليوناني والنماذج اليونانية قدوة لهم . فاستوحى الشاعر فرجيل أمثلة من هوميروس وهسيود وانيوس وهام هوراس في سافو والكيوس وأناكريون . وعم الأدب النصحي وتأثر الكثيرون بسياسة اغوسطوس في الاهتمام بالطقوس والعادات الايطالية القديمة لبعث الشعور الوطني للعصر الجديد . وعم الولع باستخدام الكلمات والتعابير القديمة وشواهد الشعراء الأولين . وظهر مهتمون بالماضي مثل ليفي وفرجيل ويعكس الأدب في عصر اغوسطوس اضمحلال التأكيد على العقل وتنامي الاعتقاد بالطقوس والمعتقدات السرية . فمن أدباء العصر فرجيل (٧٠ ـ ١٩ ق . م .) الذي ولد في غالة القريبة وتوضح كتاباته ثقافته الواسعة . واشتهر بقصيدته المعروفة بالانياذة التي صارت ملحمة وطنية رومانية . وهي تدور حول مغامرات اينياس بعد سقوط طروادة وحب ديدو لايناس وزيارته لصقلية ثم وصوله كوماي بايطاليا ونزوله العالم السفلي حيث يرى والده انكيسيس ويحصل على رؤيا اعجازية لمستقبل أبناء جلدته المجيد ومستقبل أبطال روما .

يعد الشاعر هوراس (٦٥ ـ ٨ ق . م .) أعظم شعراء اللاتين بعد فرجيل ، وقد احتضنه ميكيناس الذي كان بمثابة وزير بلاط لاغوسطوس فكرس نفسه لمدح الأخير وذم أعدائه . وكتابه الأول في الهجاء (أخرجه حوالي ٣٥ ق . م .) وضمن قصائد في الهجاء والسياسة والغزل والوصف . ثم كتاب المتنوعات الذي شمل موضوعات شتى في الأدب والنصح والسخرية والوصف . ثم القصائد (كارمينا) التي قلد بها سافو اليونانية وهي في الشعر الغنائي ويحوي قصائد سياسية أغدق فيها بالمدح على شجاعة تيبريوس ودروسوس وباغوسطوس واخرى تشيد بعظمة روما وغيرها بالغزل .. ثم الرسائل وكتاب فن الشعر وهو رسالة الى آل بيزو منظومة في البحر السداسي للشعر وتشتمل على نصائح في قواعد النقد الأدبي . وبمناسبة العيد المئوي نظم هوراس النشيد الذي ذكرناه . وقد نجح هوراس في تصوير عصره ومناظر ايطاليا بأسلوب دقيق واضح .

ومن الشعراء الآخرين ألبيوس تيبولوس (٥٤ ـ ١٩ ق . م .) وكان من طبقة الفرسان وصديق هوراس وله قصائد كثيرة في حبيبته ديليا (اسمها الحقيقي پلانيا) التي كرس لها قصائد كتابه الاول الستة . وكرس كتابه الثاني الى جارية اسمها نيميس . ثم الشاعر سكستوس بروبرتيوس (٥٠ ـ ١٥ ق . م .) الذي كانت حبيبته الجميلة سنثيا موضوع كتبه الثلاثة الأولى والتي حزن كثيراً لفقدها . وينقص شعره العمق بالرغم من اصالته . وقد أكثر من مدح روما وأغوسطوس الذي عده الهاً ومنقذاً للعالم .

كما اشتهر الشاعر أوڤيد (٤٣ ق . م . ـ ١٧) الذي تزوج ثلاث مرات ونفاه اغوسطوس أخيراً سنة ٨ الى جزيرة تومي (كوستانزا الحالية) حيث قضى سنواته الأخيرة على أساس تأثير كتابه (ارس اماتوريا) غير الأخلاقي على افساد الشباب ولعلاقته بافساد اخلاق جوليا ابنة الامبراطور . وفي كتبه أموريس الذي تنقصه الأصالة والغرض الجاد ويرينا شعره تأثره بالأدب الاسكندراني وان حبيبته كوريننا كانت من نبات خياله . ثم كتابه الهيرويديس الذي كان على شكل رسائل من بطلات اليونان الى احبائهن الغائبين ، وكانت قصيدته علاج الحب آخر قصائده في الحب . كما كتب الفاستي وهو تقويم بالأعياد الرومانية كرسه الى اغوسطوس وقد أكمل ستة مجلدات منه (نصفه) حتى نفيه . وكتابه المهم الآخر هو الميتامورفيسيس الذي أكمله سنة ٨ الملىء بالقصص الحزينة والأساطير البطولية وسقوط طروادة وحرب اينياس ووصوله ايطاليا الخ .

قاسى النثر في عصر اغوسطوس انحطاطاً عما كان عليه في الفترة السابقة . فلم يظهر من يضاهي شيشرون في فصاحة وجمال الأسلوب وتنوع أغراض الكتابة وعمقها . ومن الكتاب المهمين خلال فترة أغوسطوس كان ليڤي (٥٩ ق . م . ـ ١٧) الذي هاجر الى روما وله من العمر ثلاثون سنة من پادوا . وكتابه المهم هو تاريخ الجمهورية الرومانية الذي غطى به تاريخ الرومان من تأسيسها حتى وفاة دروسوس وقد فقدت أكثر أجزائه وكان صديقاً لاغوسطوس وفخوراً بروما التي تحيز لها في كتاباته واهتم بعرض كتاباته بأسلوب رصين .

من كتاب عصر اغوسطوس كان ڤيريوس فلاكوس الذي ألف أول معجم لاتيني مرتب حسب حروف المجاء وكتب اخرى . ثم غايوس يوليوس هيجينوس الذي عهد اليه اغوسطوس ادارة مكتبة اليالاتين بروما وكان عالماً بالنحو له فيه مؤلفات عدة وواحد في الزراعة . وقد نسبت اليه كتب اخرى تعود بالواقع الى شخص آخر يحمل الاسم نفسه من عصر لاحق . ومن مؤرخي الفترة ديودوروس الصقلي صاحب كتاب المكتبة التاريخية في أربعين فصلاً والذي عاش طويلاً في روما ، وادعى بأنه قضى ثلاثين

سنة في الأسفار وحوت الفصول الأربعة عشر المتبقية من كتابه حقائق غير مترابطة بالرغم من أهميتها التاريخية . ثم المؤرخ ديونيسيوس الهاليكارناسي الذي عاش في روما أكثر من عشرين سنة بعد معركة اكتيوم تشبع خلالها بحب روما وكتابه (الآثار الرومانية) الذي كتبه سنة ٨ ق . م . حوى عشرين فصلاً . ثم المؤرخ نقولا الدمشقي صديق هيرود وصاحب كتاب التاريخ العام في ١٤٤ فصلاً الذي لم يبق منه سوى شذرات وآخر في مدح اغوسطوس .

ترجع لهذه الفترة خارطة اغريبا للامبراطورية الرومانية التي رسمها في الرواق ذي الأعمدة وجاءت يعوزها الضبط والدقة ولم تظهر الأرض بها كروية . ومن كتاب العصر سترابون من آسيا الصغرى صاحب كتاب الجغرافية بسبعة عشر فصلاً كان الفصلان الأولان في الجغرافية الطبيعية والبقية في وصف العالم المعروف آنذاك وكان يذكر مصادره التي جاءت كثيرة .

كان تأثير السلام والثراء كبيراً على التقدم الفني في عصر اغوسطوس ولكنه لم يكن تأثيراً بعيد الغور كما في الشعر وذلك لتأثير الفنانين اليونانيين وكثرتهم وكانت المواضيع أما هلنستية أو ايطالية قديمة وضعت في قالب جديد . وبتأثير صور زعماء الفترة تحسن نحت العصر بسحة مستحدثة ومعنى رمزي جديد للدولة العالمية . وجاءت التماثيل واقعية وذات مظهر ومعنى روماني . وكثرت صور أغوسطوس وعائلته المنحوتة وتماثيلهم سواء من البرونز أو المرمر وبأشكال عدة . ومنها تمثال لاغوسطوس يحمل الصولجان بيد وبأخرى يؤشر بالحجم الطبيعي الآن في الفاتيكان الذي يوضح الواقعية والتأثير الهلنستي - الايطالي . كما وصلتنا صور اوكتافيا وليفيا واغريبينا الكبرى وافراد أسرة أغوسطوس . والأثر المهم من عصر اغوسطوس هو مذبح السلام الذي شيد في كامپوس مارتيوس بروما بين ١٣ - ٩ ق . م . لشكر الآلهة على سلامة عودة اغوسطوس من غيابه الطويل في غالة والمانيا . والاثر هو جدار مرمري مربع يحيط المذبح وداخل الجدار مزين بأوراد وأوراق مدلاة من رؤوس ثيران وزينت الأقسام الداخلية من الجدران بأوراق وأوراد في طرز حلزونية . وهناك افاريز من الأشكال المنحوتة تجسم مثل أغوسطوس الوطنية فوقها وعلى الجانب الشرقي امرأة مع طفلين ربما ترمز الى الأرض الأم أو ايطاليا . وصورت في الجدارين الشمالي والجنوبي استعراضاً وفي الجنوب اغوسطوس وأسرته مع ممثلي الهيئات الدينية وعلى الشمال أعضاء السنات والحكام والناس . وان ماتبقى من صور عصر أغوسطس قليل منها صور بومبي الجدارية واثنان من بيت ليفيا في بريما بورتا من حوالي سنة ٤٠ ق . م .

ركز أغوسطوس على تجميل روما حيث شهدت الكثير من البنايات الجديدة وقد ذكر اغوسطوس (وجدت روما مشيدة بالطابوق وتركتها مدينة مرمر) . وبدأ يوليوس قيصر توسيع وتعمير فورم روما الذي أكمل توسيعه أغوسطس . وعند وفاة الأخير كانت أهم مباني الفورم هي ، معبد كونكورديا (رمز الوئام) في الشمال الغربي وقربه الى الجنوب معبد ساترن (اله الزراعة الروماني) (سنة ٤٢ ق . م .) والى الجنوب باسيليكا جوليا وشرقها معبد كاستور وفي النهاية الشرقية معبد يوليوس قيصر المؤله وقربه من الخلف الريغيا (مقر الحبر الأعظم) الذي أعيد بناؤه سنة ٣٦ ق . م . والى الشمال كانت باسيليكا اميليا التي أصلحها اغوسطوس . ثم معبد جانوس في مكان ما من الفورم والى شمال الفورم كان الارغيلتوم وهو طريق اشتهر بباعة الكتب . وفورم يوليان ومعبده المكرس الى فينوس الذي بدأه يوليوس قيصر وأكمله اغوسطوس ثم فورم اغوسطوس الجديد ذو الأروقة والتماثيل . كما جفف القسم الشمالي من كامبوس مارتيوس والذي كان مستنقعاً وعمرت فيه مسارح بالبوس ومارسيلوس سنة ١١ ق . م . واصلح مسرح بومبي وبني البانثيون وقناة اغريبا الواسعة وحماماته الجميلة وباسيليكانبتون . وفي القسم الشمالي من الكامبوس شيد أول مدرج حجري ومقبرة فخمة دائرية الشكل ارتفاعه ٦٠ قدم وقطره ٢٠٠ قدم للعائلة المالكة . وصار الارتفاع المسموح به لكل بناية [illegible] .

كما عمرت أجزاء أخرى من روما ، فقد أصلح معبد جوبيتر كابيتولينس على الكابتيلاين وشيدت معابد ومزارات اخرى قربه بينها معبد مارس أوالتور الصغير المدور وجوبيتر تونانس الشهير بمرمره الجميل الذي يخلد نجاة اغوسطوس من الخطر بإسبانيا . وشيد اغوسطوس له قصراً جميلاً على البالاتين سمي بالاتيوم والذي يليق باله على حد قول الشاعر أوفيد . وعلى مقربة منه معبد ابولو الذي كرسه اغوسطوس سنة ٢٨ ق . م . المشيد بالمرمر الأبيض وذو الأعمدة الثابتة وتمثال فخم لأغوسطوس كابولو وتماثيل بنات داناوس الخمسين ومهاجميهن بالعدد نفسه . وكان في هذا المعبد الكتب السبيلة والمكتبة . وعلى البالاتاين شهدت ليفيا وتيبريوس معبداً لأغوسطوس المقدس بعد وفاته . وحولت مستنقعات الاسكويلاين الى متنزه جميل . وتمتاز بنايات عصر اغوسطوس بالعظمة والفخامة واستعمال الأقواس والقباب .

يستعمل اللقب (امبراطور) الذي قال عنه (انا مالك لعبيدي وامبراطور على جنودي وزعيم على بقية أفراد الشعب) .

تمردت بصعود تيبريوس الجيوش في منطقتي الراين والدانوب (ايلبريا) بسبب تجاوز مدة خدمتهم الحد المقرر وقلة الرواتب . واخمد دروسوس تمرد فرق بانونيا (بين الدانوب والالب) وقضى جرمانيكوس على تمرد فرق الدانوب الثانية وتقدم ارمينيوس وزحف جرمانيكوس سنة ١٦ لاخضاع الأخير ولم تكن انتصاراته عليه بالحاسمة ولكنها كانت باهظة التكاليف . ونظمت شؤون المانيا سنة ١٧ حيث حصرت قيادة جيوش الراين بقائد واحد وصارت المانيا منطقتين عليا وسفلى كل واحدة تحت قيادة ليفاتي برتبة قنصلية ترتبط ماليتها مع غالة بلجيكا.ودب الخلاف بين زعماء الألمان حيث شن ارمينيوس حرباً ضد ماروبودوس ملك قبائل الماركوماني الذي لجأ الى ايطاليا واسكنه تيبريوس في رافينا واغتال جندي بعد ذلك ارمينيوس وهكذا فقدت الثورة الالمانية زعيمها . وأقام جرمانيكوس احتفالاً كبيراً عند رجوعه الى روما بمناسبة انتصاره ووزع حوالي خمسة دنانير عراقية على كل مواطن روماني .

سار جرمانيكوس بأمر الامبراطور الى الشرق سنة ١٧ فحل مشكلة خلافة عرش ارمينيا وقوى علاقته بالفرثيين وجعل كلاً من كبدوكية وكوماغين ولاية رومانية مستقلة . ولكن الامبراطور استبدل بحاكم سورية الروماني وصديق جرمانيكوس آخر اسمه كالبورنيوس بيسو الذي يمقته جرمانيكوس ، ولم يعترض الأخير على ذلك التعيين بل سافر الى مصر لزيارة آثارها ، وكان الدخول الى مصر محظوراً على أي شخص الا بأمر من الامبراطور نفسه . وبالرغم من دخوله مصر دون ترخيص من الامبراطور صار يوزع فيها القمح من المخازن لحل مشكلة القحط مما أغضب تيبريوس الى جانب تصرفات جرمانيكوس المستقلة في آسيا واصداره عملة فيها تحمل سورية وقبل ذلك لم يعترض على طلب فرقه المتمردة في الراين باعلانه امبراطوراً . وحدث ان اصدر الامبراطور أمراً بعزل بيسو عن ولاية سورية ولكن الأخير حاول اخذ منصبه بقوة السلاح لدى عودة جرمانيكوس من مصر الى سورية . وفي هذا الوقت مرض جرمانيكوس وتوفي بانطاكية واتهم بيسو بتدبير موته واستدعي الى روما للدفاع عن نفسه تجاه هذه التهمة ولمحاولته العودة الى منصبه بالقوة . غير أن بيسو انتحر ونفي ولده الأكبر لمدة عشر سنوات ولم ينقذ زوجته من المحاكمة ومصادرة أملاكها الا تدخل تيبريوس وامه لنفسا . وكانت

الهوامش

1. Cyril E. Robinson, op. Cit., pp. 237–274.
2. A.D. Nock, CAH, Vol. X, (1952), pp. 471–489.
3. Ronald Syme, The Roman Revolution, (Oxford, 1960), pp. 442–445.
4. Cary, op. cit., pp. 505–507.
5. Boak and Sinnigen, op. cit., pp. 285–292
6. Ibid, pp. 269–297.

د . عبداللطيف أحمد علي ، الامبراطورية الرومانية (بيروت ، ١٩٧٤) ص ٢ - ٢٢١ .

- نور الدين حاطوم ، نبيه عاقل وآخرون ، موجز تاريخ الحضارة ، الجزء الأول ، (دمشق ، ١٩٦٤) ، ص ٦٤٧ .

8. Trever, op. cit., pp. 354–379.

الفصل التاسع
الامبراطورية الرومانية زمن اليوليو - كلوديون (١٤ - ٦٨)

تربع على عرش روما بعد وفاة اغوسطوس ولده بالتبني تيبريوس وكان في الخامسة والخمسين من عمره وآنذاك قائداً للجيش بسلطة الحاكم المخول ، واطلق على الحكم بصعود تيبريوس عهد اليوليو - كلوديون لان تيبريوس من اسرة كلوديوس وبالتبني من اسرة يوليوس قيصر . وقد تقلد تيبريوس قبل ذلك مناصب عامة كثيرة جعلته ذا خبرة واسعة بالادارة والحكم . غير أن نفيه الى جزيرة رودس بين السنوات ٦ ق . م . و٢ م قد اثر على نفسيته وجعله شكوكاً فضلاً عن زواجه الاجباري من جوليا ابنة اغوسطوس التي لم يكن ليميل اليها . ولم تكن طباعه لتؤهله الى المنصب الكبير الذي تقلده وقد تظاهر أمام السنات بأول جلسة له بعد وفاة اغوسطوس بأنه لايرغب في تقلد المنصب حتى يجعل مجلس الشيوخ يلح عليه به وقد يكون ادراكه بمقت الكثيرين له هو السبب . وقد اثار هذا التردد المصطنع ريبة الكثير من أعضاء مجلس الشيوخ منه .. ودعاه السنات في بداية حكمه الى تنظيم تشييع رسمي لاغوسطوس وتاليهه وسماع وصيته . وقد حرص تيبريوس على اتباع سياسة اغوسطوس التي تستند على التعاون الوثيق مع السنات بالرغم من اصطدام تيبريوس بمجلس الشيوخ بضع مرات . وكان يدخل السنات دونما حرس ويقوم تحية للقنصلين ويتنحى عن مكانه لهما . وكل لجنة كانت تضم أعضاء من السنات ان لم يكونوا كلهم منه . وفي سنة ١٩ اتهم بعض الكهنة بفضيحة خاصة بعبادة الربة ايزيس المصرية وقد أعدم الكهنة والقى بتمثال الالهة في التيبر وخرب المعبد واجبر المتعبدون على حرق زيهم الخاص . ولم يهتم تيبريوس باقامة الالعاب والبذخ على الاستعراضات والاحتفالات والاكثار منها لعدم رغبته في تبذير المال الأمر الذي أغضب الدهماء . وكثيراً ماكانت الشكاوى تقدم حول تصرفات الممثلين حتى انه نفى بعضهم من ايطاليا سنة ٢٣ ووضع قيوداً على عدد النازلين في ألعاب الجالدة (١) .

عد تيبريوس الكثير من العبيد المعتوقين من أصل حر وسمح لهم بلبس الخاتم الذهبي ولما كثر عدد هؤلاء صدرت التعليمات بضرورة تقديم الاثبات بكون المعتوق حراً لجيلين . ورفض تيبريوس ان يقدم له يمين البيعة كل سنة ولم يتقبل منصب القنصل الا ثلاث مرات وقد صار ولده دروسوس قنصلاً سنة ٢١ وجرمانيكوس (ابن اخيه دروسوس وزوج اغريبينا ذات اللسان السليط ابنة اغريبا من جوليا ابنة اغوسطوس) سنة ١٨ وسيجانوس قائد الحرس البريتوري سنة ٣١ . ورفض تيبريوس اللقب (أبو البلاد) ولم

اغربيينا زوجة جرمانيكوس متحمسة لاتهام بيسو بالاشتراك بالمؤامرة ودس السم لزوجها .

وبالرغم من أن تيبريوس لم يكن محترماً لقدراته وانتصاراته العسكرية وخبرته في الادارة . فكان ارستقراطياً محافظاً عرف بنضجه السياسي وتقديره للواجب ومحافظته على القانون . وبالرغم من كره بعض أعضاء السنات له وتآمرهم على حياته فان حقد أفراد عائلته عليه كان الأشد قوة ضده . فقد منع بناء المعابد واقامة التماثيل له ورفض تسمية شهر باسمه . ومن أعماله ان جعل منصب محافظ روما دائمياً يعهد لرجل معروف بالحنكة وعضو بمجلس الشيوخ من بين القناصل السابقين وتحت امرته الكتائب الثلاثة الخاصة بالمدينة . كما عين من بين أعضاء مجلس الشيوخ مشرفين على ضفاف التيبر وحسن الجهاز الاداري حيث صار اختيار الحكام حسب الكفاية . وحفظ طاعة الجيش له وحسن تدريبهم وصار لقب الامبراطور خاصاً بالمنتصرين من افراد العائلة المالكة . وفي سنة ٢٣ ركز مرابطة الكتائب البريتورية التسع المسؤولة عن محافظة روما عند بوابة فيمينال بروما بعد أن كانت منبثة بأماكن شتى قرب روما . وقد زاد هذا من قوة ونفوذ هذه الكتائب وصار قادتها فيما بعد يتدخلون حتى في تقرير خلفاء الامبراطور ويفسر تعاظم مركز سيجانوس قائد هذه الفرق زمن تيبريوس . وفي الناحية المالية اتبع تيبريوس سياسة عادلة قويمة في فرض الضرائب وأخذ الاحتياطات لمنع زيادة أسعار الحنطة في أوقات الأزمات وظلت مخازن روما طوال عهده مليئة بالقمح . ولم ينفق على بناء معابد جديدة ولم ينسب اليه سوى اقامة معبد اغوسطوس واصلاح مسرح پومبي . وكثيراً ما كان ينفق من ماله الخاص ولم يرفع نسبة الضرائب . حتى انه قلل ضريبة المبيعات الى النصف . واشترط ان يكون أعضاء طبقة الفرسان من جدين حرين وان لاتقل قيمة ممتلكاته عن ستة آلاف دينار عراقي . ولم تنجح اجراءاته في طرد العرافين لاسيما الملحقين بالآلهة الشرقية مثل ايزيس المصرية . ولم يهتم بدين الدولة الرسمي وشكل هيئة من أكابر النبلاء للعناية بطقس اغوسطوس المؤله واعتنى تيبريوس بايطاليا وجعل طرقها آمنه بوضعه نقاط حراسة في ارجاءها كافة وشجع الزراعة وقدم خلال ازمة سنة ٣٣ قروضاً للمحتاجين يدفعونها خلال ثلاث سنوات دونما فائدة ، واهتم بتحقيق العدل جاعلاً مجلس السنات محكمة الجنايات العليا ورفض تنفيذ حكم الاعدام قبل مرور تسعة أيام على صدور الحكم . ولكن خوفه من تعاظم نفوذ سيجانوس جعله يوسع نطاق قانون الخيانة ليشمل فضلاً عن التعرض للدولة أي اتهامات بالتعرض لشخص الامبراطور وأي من أفراد العائلة المالكة والذي أدين الكثيرون بموجبه . وكثر المخبرون الذين صارت لهم

حصة من مبلغ الغرامات والمصادرات . وكان المخبرون في البداية يخبرون السلطة عن المدينين لخزانة الدولة واستغلهم اغوسطوس للاخبار أيضاً عن مخالفي قانون الزواج الذي شرعه وشملوا زمن تيبريوس كل تعرض للدولة أو الامبراطور مما أثار الرعب بين الناس الذين صاروا يخشون (من كثرة المخبرين) حتى افراد أسرتهم . ولم يجد نفعاً اجراء الامبراطور بتشكيل لجنة من خمسة عشر شخصاً من السنات للنظر في التقارير الكثيرة الواردة . كل هذه الأمور لطخت سمعة تيبريوس ونعته المؤرخون بالظلم والقسوة غير المتناهية .وتحولت معه الامارة من حرة الى دكتاتورية وطغيان .

لم يوسع تيبريوس الامبراطورية وحافظ على السلام قدر الامكان . وحول غالة القريبة بعد استقرار الأوضاع فيها وتقدمها الى ولاية سنتورية واطلق عليها اسم غالة الناربونية . كما اهتم بطرق وتجارة وصناعة ولايات غالة الثلاث . وعم السلام الحدود الألمانية حيث اجبر أعداداً كبيرة من قبائل السويبي والماركوماني على الاستقرار عند ضفاف الدانوب العليا وسمح لهم بتأسيس كيان مرتبط بروما . وبعد ثورة قبائل الفريسي الناجحة جعل تيبريوس الراين حدوداً للامبراطورية وقوى استحكامات حدود الدانوب من نوريكوم حتى البحر الأسود وشق بها طرقاً عدة وقضى على ثورة أهل الجبال بتراقيا سنة ٢١ . كما قامت ضده ثورة محلية في شمال افريقية تزعمها الزعيم النوميدي تاغفارنيس الذي خدم بالجيش الروماني سابقاً استمرت من سنة ١١ حتى ٢٤ وانتهت بالفشل وقتل زعيمها . وفي سنة ٢٤ قام العبيد بثورة في جنوب ايطاليا لم تدم طويلاً.وكان حكم تيبريوس بالنسبة للولايات التابعة لروما عصر رخاء وسلام حيث شقت الطرق وشيدت المستوطنات واتبعت سياسة اقتصادية عادلة . فقد حرص تيبريوس على تعيين خير الحكام لها وحمى مصر من الضرائب التعسفية . وعندما ارسل والي مصر له أكثر من المبلغ المقرر لجزيتها السنوية كتب له الامبراطور (ان واجب الراعي الطيب هو جز صوف غنمه لا حلاقتها) . وأعطى مجالس الولايات حرية أكثر وكان عطوفاً عليهم فعندما ضرب زلزال مناطق عدة من آسيا الصغرى أمر بتقديم القروض والاعانات للمتضررين وأوقف عنهم دفع الضرائب ثلاث سنوات . فاذا كان تيبريوس ظالماً وطاغية في ايطاليا فقد كان عطوفاً رؤوفاً محباً لسكان الولايات التابعة لروما .

لم يكن لتيبريوس نظام خلافة ثابت للعرش . فبعد وفاة جرمانيكوس عين تيبريوس ولده دروسوس سنة ٢٢ معاوناً له في الحكم بسلطة تريبونية . وقرب تيبريوس قائد الفرق البريتورية سيجانوس (من طبقة الفرسان) الذي صار اشبه بوزير غير

معين ومستشار غير رسمي له مما اثار معارضة دروسوس . وكان سيجانوس يطمع بالعرش فأغرى ليفيلا زوجة دروسوس على دس السم لزوجها ووعدها بالزواج والعرش . وفي سنة ٢٣ توفي دروسوس وغطيت المؤامرة بكل اتقان ، وأحزن الحدث تيبريوس وشكل نقطة تحول في حياته . فرشح تيبريوس للعرش نيرون ودروسوس ولدي جرمانيكوس واغريبينا . وبعد وفاة دروسوس صار الامبراطور اكثر اعتماداً على سيجانوس وزاد من طغيانه وظلمه . وبتأثير من سيجانوس شن الامبراطور حملة على مؤيدي اولاد جرمانيكوس والمتعاطفين مع اغريبينا وقتل منهم كثيرين أمثال الفيلسوف الرواقي ومؤرخ الحرب الأهلية كوردوس وابنة عم اغريبينا . وفي غمرة الخوف على حياته انسحب تيبريوس سنة ٢٦ الى جزيرة كابري القريبة من نابولي ، بتأثير في الغالب من سيجانوس حتى يخلو له الجو لاكمال تآمراته والوصول الى مبتغاه ، وقد اثار اعتزال الامبراطور في كابري نتائج وخيمة على الدولة وشخصه . فصارت كابري مركز الحكومة في وقت صار سجانوس به الحاكم الأوحد لروما . وفي سنة ٢٩ توفيت ليفيا والدة الامبراطور وارملة اغوسطوس ، وان عدم اظهار تيبريوس لأي اشارة تدل على حزنه لفقدها قد يدل على سروره بخلاصه منها خاصة وانها كانت متنفذة تريدان ترى الامور تسير على ماتشتهي ، وقد أمر ببساطة مراسيم الدفن والتشييع . وبتأثير من سيجانوس بعث الامبراطور برسالة الى مجلس الشيوخ يتهم بها اغريبينا ، التي كان يكرهها ومنعها من الزواج بعد وفاة جرمانيكوس ، بالوقاحة وولدها نيرون بالاستهتار . ولما تباطأ مجلس الشيوخ في الاجابة اردفه برسالة ثانية ونفي الاثنان الى جزيرة قاحلة . ولم يبق امام سيجانوس الا دروسوس ابن جرمانيكوس الثاني والذي اقنع زوجته باتهامه وفعلاً تم له ما أراد واستدعى من كابري وسجن في روما . فصار سيجانوس هو الشخص الأقوى في الدولة فاستبد بالأمر وأمر بتشييد المذابح ونحت التماثيل له واستحدثت الألعاب على شرفه . وصار تيبريوس يغرق سيجانوس بالألقاب الفخمة وزوجه من حفيدته جوليا واشركه معه في القنصلية ومنعه من دخول كابري في وقت اخذ به يقرب غايوس (فاليكولا) الابن الثالث لجرمانيكوس . وهنا صمم سيجانوس على قتل تيبريوس مما أثار الأخير عند معرفته بالأمر فأرسل شخصاً اسمه ماكرو كقائد للحرس البريتوري ليحل محل سيجانوس في وقت بعث به رسالة الى مجلس الشيوخ قراها أمامه القنصل روغولوس ، بحضور سيجانوس ، اتهم به الأخير بالخيانة . ولم يعترض أحد فأمر مجلس الشيوخ باعدامه وارسل قوة قتلته خنقاً [٢] وعمت روما بمقتله الافراح ومزقت الجماهير جثته وأطاحت بتماثيله وعد يوم مقتله عيداً باسم عيد الخلاص . واعترفت ارملة سيجانوس (ليفيلا ارملة دروسوس ابن الامبراطور التي تزوجها سيجانوس بعد ذلك باراً بوعده لها) بتآمر

سيجانوس على قتل دروسوس . وظلت اغريبينا مع ولدها دروسوس سجناء في جزيرة قاحلة حتى ماتا جوعاً ورفض الامبراطور دفنهما في المقبرة الملكية . واستمرت مطاردة اتباع سيجانوس لمدة سنة أمر الامبراطور بعدها بقتل جميع السجناء . وفي سنة ٣٧ توفي تيبريوس ميتة طبيعية (٢) .

جاء بعد تيبريوس حفيده بالتبني والابن الثالث لجرمانيكوس واغريبينا غايوس الذي اشتهر منذ صغره بالاسم غاليكولا ومعناها الحذاء العسكري الصغير لمصاحبته والده ولبسه الزي العسكري منذ صغره . وكان تيبريوس قد أوصى بتقسيم ثروته بين غايوس وحفيده الصغير تيبريوس غيمللوس . وأخذت هذه الوصية كرغبة في خلافتهما له على التوالي . ولكن تيبريوس لم يوصي رسمياً بالخلافة من بعده وعند موته ايد ماكرو قائد الحرس البريتوري ترشيح غايوس فاستجاب لذلك السنات . وكان غايوس (٣٧ ـ ٤١) عند اعتلائه العرش في الخامسة والعشرين من عمره . وقد رفض السنات في اول اجتماع له اعتبار تيبريوس الهاً ودفن رماد جثته بعد حرقها في مقبرة اغوسطوس الملكية .

ومنذ الحداثة أظهر غايوس تصرفات غريبة عزاها البعض الى تربيته مع أمراء شرقيين امثال هيرود اغريبا . وكثيراً ماكان يظهر في البلاط بملابس نسائية . وقد تبنى غايوس حال تربعه على العرش غيمللوس حفيد عمه تيبريوس واستقبل الشعب صعوده بالافراح وذبح الأضاحي وهاجم في خطابه بمجلس الشيوخ تصرفات تيبريوس مما أفرح أعضاءه فقرروا اعادة قراءة الخطاب كل سنة . والغى قانون الخيانة ونفى المخبرين واطلق سراح السجناء السياسيين واستدعى المنفيين والغى مراقبة الكتب وضريبة المبيعات في ايطاليا . واقتسم السلطة مع مجلس الشيوخ وقرر طبع سجلات الدولة ورفض اتخاذ لقب أبِ البلاد وزاد عدد المحلفين وضم أعضاء جدداً الى طبقة الفرسان . ودفن رماد أمه وأخيه في المقبرة الملكية بروما وأطلق على شهر ايلول اسم جرمانيكوس واسبغ على جدته انطونيا (ام والده جرمانيكوس وزوجة دروسوس أخي تيبريوس التي توفيت سنة ٣٨ وعرفت بجمالها وعفتها) جميع ألقاب الشرف التي كانت تتمتع بها جدته ليفيا وجعل عمه كلوديوس زميلاً له في القنصلية . كما أكثر من المهرجانات وبذخ في الصرف عليها . غير أن سياسة اللين والاعتدال لم تدم طويلاً حيث انقلب رأساً على عقب وصار طاغية بكل مافي الكلمة لايشعر بمسؤولية . فالغى تبنيه لغيمللوس وقتله بعد أشهر من تتويجه ومن ثم قتل ماكرو الذي اسنده في اعتلاء العرش وصديقه منذ حلوله في كابري دونما محاكمة . ولم يعد يستشير أياً من أفراد أسرته أو غيرهم واستدعى المخبرين وارجع قانون الخيانة وبدأ عهد طغيان وقسوة . وصار يبذخ في الصرف على

ملذاته مما أفلس ميزانية الدولة خلال سنة واحدة مما جعله يجتهد في ابتزاز أموال الاثرياء بكل صورة لسد العجز فأعدم كثيراً من أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان للاستحواذ على ثرواتهم . وان شتاء سنة ٣٩ - ٤٠ في لوغدونوم كان مشهوداً بكثرة من قتلوا فيه وصودرت ممتلكاتهم . ويذكر المؤرخ سويتونيوس ان مجوهرات واثاث قصور اغوسطوس قد جردت وارسلت الى غالة لبيعها بعيداً عن الأنظار . واعتقد بأنه صار الهاً حقاً وأمر على مخاطبته كرب . وعد حتى اخواته الهات وكون جميع الآلهة قد حلت فيهم . وظهر امام الناس في المعابد لابساً حلة الاله باخوس أو الربة فينوس أو هرقل . وربط الكاباتالاين والبالاتاين بجسر حتى يتصل مباشرة بأخيه الاله جوبيتر وامر بوضع نحتاً لرأسه على جميع الآلهة وشيد معبدين في روما مع كهنة واضاحي لعبادته وحتى انه اتهم بتزوجه من اخته . وقد فاقت قسوته وحبه للقتل سابقيه جميعاً فأمر بتهشيم جميع تماثيل رجالات العصر الجمهوري ورفع كتب فرجيل وليفي من المكتبات . واتخذ اصدقاء له من الممثلين والرياضيين والراقصين حتى انه كثيراً مانزل في حلبات النزال ورقص في المسارح العامة وفرض على طبقتي الفرسان والسنات الاشتراك في سباق العربات .

قاد غايوس سنة ٣٩ حملة الى الراين لاخماد ثورة للقبائل الالمانية ربما كسب بها نصراً جزئياً . وكشفت مؤامرة لقتل غايوس قام بها قائد قوات اعالي الراين لينوتولوس غينتيليكوس لوضع اميليوس لبيدوس على عرش روما بدل غايوس واشتركت بها اختا الامبراطور اغريبينا الصغرى وجوليا . وقد فشلت المؤامرة ونفى الامبراطور اختيه وذلك بجهود القائد غالبا . وقضى الامبراطور شتاء تلك السنة في غالة عند لوغدونوم وتقدم حتى مضيق دوفر وقيل أنه أمر الجنود بجمع اصداف ليجعلها رموزاً لانتصاره . وحاول العبور الى بريطانيا ولكنه عاد خوفاً من نشوب ثورة ضده في روما . وغدا بعد رجوعه الى روما أكثر قسوة من قبل وصار يقدم رجليه ليقبلها الجميع وشن حملة على الفلاسفة الرواقيين وقتل منهم اثنان . ورفع نسبة الضرائب حتى على اجور الحمالين والفاحشات مما زاد النقمة عليه بين الجميع وتقدم تريبيون في الحرس البريتوري اسمه كاشيوس كيريا سبق ان اهانه الامبراطور وبصحبته ضباط كانوا يخشون بطشه فحاصروا الامبراطور في زاوية من قصره ومزقوه مع زوجته وابنته الرضيعة بالسكاكين .

احيا غايوس في الولايات الرومانية طريقة استخدام الملوك المحليين التابعين أمثال آسيا الصغرى ، فلسطين وتراقيا ما أضعف قوة الامبراطور . فحول ولاية كوماغين مثلاً الى دولة تابعة عليها امير محلي وقتل بطليموس الملك التابع لروما في موريتانيا لمصادرة أملاكه وحول بلاده الى مقاطعة رومانية . وأجبر الجالية اليهودية في القدس

والاسكندرية على وضع تمثال لشخصه في كل بيعة لهم وتمثال ضخم له في مقدس معبد القدس وترك الالتزام بيوم السبت . وعارض كثير من اليهود اجراماته حتى ان يهوداً من مدينة جمنية الى الجنوب قليلاً من يافا اصطدموا بيونانيين كانوا يقيمون مذبحاً لعبادة غايوس وهدموه [٤] . لم يوص غايوس بالخلافة من بعده وكان مقتله فجائياً فأراد البعض ارجاع الجمهورية ورغب آخرون في ابقاء نظام الزعامة ولكن بنقلها الى عائلة أخرى ولكن الحرس البريتوري اختار كلوديوس بن دروسوس واخ جرمانيكوس الذي وجدوه مختفياً بأعلى مكان في القصر فنصبوه امبراطوراً .

حكم كلوديوس (٤١ ـ ٥٤) وكان في الخمسين من عمره بالرغم من معارضته هو نفسه لادراكه ضعف شخصيته حيث لم يحظ في حياته بعطف والديه وكان يتلكأ في الكلام ويهز رأسه ويسيل من فمه اللعاب وكان مهزلة لأفراد الأسرة المالكة وقضى وقته بين العبيد والمعتوقين . وقد قبل أخيراً المنصب الخطير باقناع صديقه هيرود اغريبا له وقدم لكل جندي من الحرس البريتوري مايعادل ثمانية دنانير عراقية كمكافأة ووافق السنات على صعوده . وكان محباً للبحث وأهتم بدراسة اللغة اليونانية وقواعد اللغة اللاتينية وأضاف ثلاثة حروف الى الالفباء اللاتينية وولع في التاريخ الروماني وألف كتاباً عن تاريخ قرطاجة في ثمانية فصول وآخر عن الاتروسكان في عشرين فصلاً وآخر عن روما منذ معركة اكتيوم في واحد وأربعين فصلاً . وكان الامبراطور غايوس كثيراً مايستدعيه من بين كتبه ليضحك عليه في بلاطه . وقد أثر اهتمامه بالتاريخ على سلوكه خلال حكمه فاجتهد على السير وفق سنن الاقدمين وهام في حب يوليوس قيصر والتزم بتعاليم الدين الروماني ووقف بوجه طقوس الأديان الشرقية . وقد احترم السنات الذي لم يأبه له ربما لاختيار الحرس البريتوري له وسيطرة زوجاته وعبيده ومعتوقيه عليه .

أخذ كلوديوس يترأس محاكم القصر متبعاً طريقة اغوسطوس وفي سنة ٤٧ تحمل سلطة الرقيب المالي لمدة سنة ونصف . وقضى على قاتلي غايوس والغى قانون الخيانة وأطلق سراح المساجين السياسيين وأعاد المنفيين بضمنهم اختاغايوس . وارجع الممتلكات المصادرة لاصحابها والتماثيل المسروقة من مدن آسيا الى اماكنها وخففت الضرائب . وأكثر من المهرجانات والمنازلات التي أولع بها كلوديوس نفسه وأحيا المناسبات ومنع ممارسة الطقس الدرويدي في غالة . وكان هذا الطقس ذا شعبية في أرجاء عدة من غالة ويجتمع الشباب لسماع شروح كهنته لتعاليمه ويقدمون الأضاحي الخاصة والعامة . وكان كهنة الطقس يشرفون على كل ناحية من حياة الأفراد ويقضون بينهم ومن يعاقبه الكهنة يحرمه الناس ويجتمع الناس مرة بالسنة في منطقة قبيلة الكرنوت (التي تتركز حوالي غينابوم)

(أورليانز الحالية) التي يقدسونها ويعدونها مركز الدنيا ليصطلح المتخاصمون . ولم يشتركوا في حروب أو يدفعوا ضرائب حتى أعفوا من الخدمة العسكرية وقالوا بتناسخ الأرواح واهتموا بالنجوم ومارسوا السحر وقدسوا البلوط ثمرة وشجرة وكثيراً ماحرضوا على الثورة ضد الرومان .

واستحدث كلوديوس هيئة تتألف من ستين عرافاً (يفحصون احشاء الحيوانات المضحى بها) للمدن الاتروسكية . اعتمد كلوديوس على ضباط ماهرين واهتم بالجيش وتدريبه . ووجه همه نحو المشاريع العامة التي وفر بها العمل لالاف العمال ، فأكثر من شق الطرق في ايطاليا والولايات وأكمل قناة أكوا كلوديا ذات القوسين المزدوجين التي حملت الماء عالياً لتروي مرتفعات المدينة . وشهد المقبرة المعروفة باسم الهيبوغيوم في روما بمزاتها واسكبتها وحنيتها وممرها المؤدي الى الصحن والتي كانت طليعة الباسيليكا المسيحية . وشيد ميناء جديد قرب اوستيا على مصب التيبر الأيمن ذا فنار عند المدخل وأسوار عظيمة تعرف الآن باسم بومبي الثانية . وشق نفقاً طوله ثلاثة أميال لتحويل الماء الفائض من بحيرة فوسين (لاغو فوسينو الحالية) قيل انه استخدم لاكمالها ثلاثين الف عامل في احدى عشرة سنة ولكن سرعان ما طمر القناة الطمي . وشرع قانوناً ضمن به استمرار نقل الحبوب وحصر تزويدها بيد وكيل أعمال امبراطوري ولم يشجع الملاكين على ترك أراضيهم والغياب عنها .

أسند كلوديوس مجلس الشيوخ وأضاف عوائل نبيلة جديدة ولكنه أغضبه عندما صار رقيباً مالياً ومنح الايدوي (الهيدوي وهم شعب من غالة يقطن بين نهر اللوار (الليغر قديماً) والسون (أرار قديماً) وهم أول شعب غالي يحالف روما) الامتيازات السناتورية . كما اهتم كلوديوس بالقضاء وكثيراً ماكان يستمع ساعات الى المحاكمات في الفورم . وبالرغم من احقيته في محاكمة موظفي الدولة فانه احال قضاياهم الى مجلس الشيوخ وكان يتدخل أحياناً في أحكام السنات . وأعطى مدراء المال صلاحيات في القضايا المالية الخاصة بالولايات حتى يجعلهم مستقلين عن سلطة حكام الولايات . والكثير من تشريعاته القضائية تدل على اهتمام بحفظ النظام ورغبة في التقدم والتطور حيث ازاد عدد المحلفين بتقليل أعمارهم وزيادة أجور المحامين ومنع تعذيب المواطن الروماني وشهادة العبيد ضد أسيادهم ونظم زواج النساء من الأحرار بالعبيد وعد ثمرة هذا الزواج عبيداً . وتقدم الجهاز الاداري وتوسع كثيراً وزادت اقسامها زمانه واخذ مجلس الشيوخ يفقد مركزه كشريك في الحكم مع الامبراطور وأخذت السلطة تنحصر بيد الأخير وبلاطه . وترينا النقوش وأوراق

البرجي اهتمامه بشؤون الدولة وزيادة موارد المقاطعات الامبراطورية . وعهد ادارة الأقسام الادارية التي فتحها الى المعتقين من عبيده كمراقبين وامناء سر والحق بهم موظفين كثار . ولم يرضي هذا مجلس الشيوخ الذي أخذ أعضاؤه يتآمرون ضده . ففي سنته الأولى واجه حركة ضده واخرى بتحريض النبلاء لقائد دلماشيا على استبدال كلوديوس ولكن باءت الحركتان بالفشل . وصار رأساً لجهازه الاداري يعني بمراسلات الامبراطور عهده الى عبده المعتق ناركيسوس ، وعين پالاس أميناً للخزانة الامبراطورية وآخر كامين لمكتب الشكاوى وتقلده المعتوق كاليستوس الذي صار له نفوذ كبير وآخر كأمين للمراسلات الخاصة وغيره للتحقيقات القضائية وآخر مستشار للامبراطور يحرر أوامره وخطبه ثم أمين مكتبة القصر . وبذلك سيطر المعتقين على كافة فروع الادارة وصارت مرافق الدولة بيد الجهاز الحكومي الجديد حتى ادارة الطرق والقنوات وتجهيز القمح وعين غالباً حاكماً على ولاية لمجلس الشيوخ (افريقية) . وكان الامبراطور يلح على مجلس الشيوخ بضرورة المناقشة الجادة وحضور الجلسات بانتظام والتصويت . وقد اضيفت في عهده ولايات جديدة الى الامبراطورية واهتم بالولايات . ويذكر نقش اعطاءه امتيازات لقبيلة الانوني في الالب ومنح الحكم الذاتي لكثير من المقاطعات امثال فيرولاميوم في بريطانيا وأسس مستوطنة في كامولودونوم ببريطانيا . وأضاف فرقتين الى الجيش وثلاث كتائب الى الحرس البريتوري وأخمد قائداه پولينوس وغالباً سنة ٤٥ ثورة في موريتانيا وقسمها الى ولايتين امبراطوريتين هما موريتانيا القيصرية وحدها نهر الملوية غرباً ونهر الوادي الكبير شرقاً ثم موريتانيا الطنجية وحدها الجنوبي خط يمتد من سلا غرباً الى واليلي شرقاً . وادى الاشمئزاز الذي عم المغرب من التوغل الاستعماري الروماني وكثرة المستوطنين الرومان والايبيرين والغال الى الثورة بعد مقتل بطليموس الذي قتله الامبراطور غايوس (ابن خالته) في ليون بغالة حيث كان يحسده على وسامته وجمال شكله الى جانب طمعه في ثروته . وارسل كلوديوس قوات كثيرة لاخماد الثورة كما ذكر وقتل القائد پولينوس لأدمون زعيم الثورة ولكن الثورة لم تنته واستمرت القوات الرومانية بالتوغل خلف وليلي واخترقت لأول مرة جبال الأطلس . ويذكر لنا پلني ان الرومان استعملوا كل الأسلحة ومن ضمنها سلاح التفرقة بين النوميدين والمور والفينيقيين (٥) .

أكثر كلوديوس من شق الطرق في غالة واسبانيا التي استغل المناجم بصورة مكثفة وشيد في غالة المستوطنات والمراكز التجارية وأعطيت الحقوق اللاتينية والمواطنة الرومانية لكثير من جماعاتها وصار لنبلاء غالة حق الترشيح لمجلس

الشيوخ . وغزا كلوديوس بريطانيا المشهورة بثراءها . وقد رأى كلوديوس الفرصة سانحة لغزوها حيث تفككت وحدتها بوفاة كونو بيلينوس ملك الترينوبانتين في ايسكس الذي كون دولة قوية من المقاطعات الجنوبية الشرقية ودبت الخلافات بعد وفاته حول العرش وهرب أحد ابنائه الى روما وطلب من كلوديوس العون . فهجم پلوتيوس ويساعده اسطول ونزلوا عند شواطىء سسكس وكنت . وفي معركتين دحروا البريتوريين الذين كانوا بقيادة كاراتاكوس وأخيه ش. ، نهر التايمس . ثم وصل الامبراطور بجيوش اخرى وتقدم الجميع صوب كامولودونوم (كولچستر الحالية) . ثم عاد كلوديوس الى روما ليحتفل بانتصاره في مهرجان ضخم مع احتفال بحري ومنحه السنات لقب بريتانيكوس (قاهر بريطانيا) الذي تنازل عنه لولده وشيد قوس نصر لتخليد انتصاره احدهما في كامپوس مارتيوس في روما . وبقى پلوتيوس حاكماً على بريطانيا حتى سنة ٤٧ تلاه منها سكاپولا الذي تقدم حتى منطقة ترنت وسيڤرن الجبلية وتوقف عند خط ليصل بين لنكولن وأكستر وقضى على حرب العصابات التي قادها كاراتاكوس ضد الرومان مدة تسع سنوات والقى بعدها القبض عليه وارسل الى روما مع عائلته . وشق الرومان الكثير من الطرق في بريطانية . وفي المانيا تقدم القائد كوربولو قائد فرق المانيا السفلى وعبر الراين معاقباً قبائل الفريسي والشوكي حتى أوقفه كلوديوس عن التقدم . وقد استخدم كوربولو جنوده بعد ذلك لشق قناة تصل بين روتردام ولايدن بهولنده الحالية . وحولت كولون التي سميت كولونيا كلوديا أغريپينيسيس على اسم زوجة كلوديوس الرابعة والتي ولدت هناك . وأكمل الطريق المعروف باسم ڤيا كلوديا البالغ طوله ٣٥٠ ميلاً والذي يربط شمال ايطاليا بالدانوب الأعلى المهم للتجارة ونقل الجنود . واستقرت الأوضاع في تراقيا حيث حول كلوديوس أقسامها الجنوبية والوسطى الى ولاية رومانية وأدمج قسمها الشمالي في ولاية مويسيا سنة ٤٦ . وصارت مركزاً لعبادة قيصر . واجرى سنة ٤٧ ـ ٤٨ احصاء لسكان الامبراطورية بلغ فيه عدد المواطنين الرومان حوالي ستة ملايين اي بزيادة مقدارها مليون ونصف عما كان عليه زمن أغوسطوس . وفي آسيا الصغرى ادمج ليشيا مع پامفيليا سنة ٤٣ واتخذت الكثير من المدن فيها اسم الامبراطور . وأسست في سورية مستوطنة للمسرحين في مدينة بطلمية . وفي فلسطين عين اغريپا هيرود حاكماً على يهوذا والسامرة وعند وفاته عين مكانه حاكماً رومانياً ، ومنح الجالية اليهودية بالاسكندرية حرية العبادة . وشقت في ارجاء الامبراطورية الكثير من الطرق وشنت حملة ضد اللصوص وقطاع الطرق وكثيراً ماساعد الامبراطور المدن التي كانت تهدمها الزلازل .

كان كلوديوس تحت تأثير زوجاته ومعتوقية الذين صاروا يتدخلون بشؤون الدولة ويبيعون المناصب ويصادرون أملاك من يمقتون ويعاقبوهم . وكان تأثير زوجته ميسالينا (ام ولده بريتانيكوس) في بداية حكمه كبيراً وقد قتلت كل من اعتقدت بوقوفه في وجهها واشتهرت بالخلاعة والتهتك . وذكر سويتونيوس انها قتلت ٣٥ عضواً من السنات و٣٠٠ فارس . وكانت علاقتها الغرامية مع النبيل الثري سيليوس مفضوحة حتى قيل انها تزوجته سراً وحرضته أخيراً على قتل زوجها الامبراطور ولكن الأمر كشف في النهاية فأمر الامبراطور عبده المعتوق ناركيسوس بقتلها . وفي السنوات الست الأخيرة من حكم كلوديوس وقع تحت نفوذ زوجته الرابعة اغريپينا الصغرى وام نيرون التي تزوجها سنة ٤٩ وهي كبرى بنات اخيه جرمانيكوس من اغريپينا الكبرى ابنة اغريپا . وكان المقربون للامبراطور من معتقي القصر في عداء مع بعضهم ومنقسمين الى جماعتين متنافستين الأولى بزعامة ناركيسوس التي تؤيد بريتانيكوس والثانية برئاسة بالاس الذي تآمر مع اغريپينا لضمان العرش لولدها من زوجها السابق (نيرون) . وحصلت من الامبراطور على لقب أوغسطا حتى انها شاركته السلطة وجلست معه على العرش وهي أول ملكة يصدر الأمر بوضع صورتها على العملة . وقد اساءت معاملة بريتانيكوس وحرصت على تثقيف نيرون الذي عين قاضياً وبدأت حملة قتل معارضيها تحت رعاية قائد الحرس البريتوري بوروس . وفي سنة ٥٠ اقنعت اغريپينا وبالاس الامبراطور على تبني نيرون حتى يرعى بريتانيكوس . وكان نيرون يكبر بريتانيكوس بخمس سنوات واعطى نيرون اللقب امير الشباب وهو في سن الثالثة عشرة واقترن باوكتاڤيا ابنة كلوديوس من زوجته ميسالينا . وقد مات كلوديوس فجأة وهو في الرابعة والستين من عمره وقيل ان اغريپينا قد دست له السم في الكمأ . وعده مجلس الشيوخ بعد موته الهاً [٦] .

اعتلى العرش نيرون (٥٤ ـ ٦٨) وكانت سياسته خلال الثمانية أعوام الأولى من حكمه (حتى سنة ٦٢) تختلف عن الستة الأخيرة (٦٢ ـ ٦٨) . ففي بداية عهده أظهر نفسه معتدلاً لايحب الفخفخة والبذخ فرفض لقب أبي البلاد ولم يوافق على نحت تماثيل له أو أن يكون بدء السنة من شهر ميلاده (كانون الأول) . وكان تأثير بوروس والكاتب الفلسفي الساخر لوكيوس سينيكا الاسباني الأصل الذي اختارته اغريپينا لتدريس نيرون سنة ٤٩ خلال الفترة الأولى من حكمه واضحة فعزى اليهما حسن الادارة وتصريف الأمور . وكان عمر نيرون عند صعوده العرش سبع عشرة سنة وكان مولعاً في الانس وركوب الخيل . وكان تأثير أمه كبيراً

والصراع بين مستشاريه بوروس وسينيكا واضحاً . وكان نيرون في البداية تحت تأثير أمه ووضع صورتها على العملة مع صورته وكانت تستقبل الوفود الأجنبية . ولم يرق هذا التصرف لأفرانيوس بوروس وسينيكا وحاولا بوساطة پالاس التأثير على نيرون للحد من نفوذها . ولما عرفت حاولت سمه ففشلت ، ثم ألغى حراستها ومنعها من التدخل بالسياسة . وفشلت محاولته باغراقها في سفينة انزلها في خليج ناپولي صممت لتغرق حال ملامستها الماء ، ثم بعث انكيتوس فدخل عليها في بيتها وقتلها سنة ٥٩ وكان لزوجته الثانية پوپايا ضلع في تحريضه على قتلها . وصدق أعضاء مجلس الشيوخ ماقدم لهم الامبراطور من تفسير حول موتها فعمت الافراح وصنعت التماثيل الذهبية الى منيرفا وأعلن مجلس الشيوخ يوم شكر للآلهة وسار نيرون في ذلك اليوم الى الكابتيلاين بموكب نصر حافل . ولما تخلص من أمه ترك تصريف الأمور الى مستشاريه وانغمس هو في حياة لهو ورذيلة بين حانات الخمور والمواخير . وفي سنتي ٥٩ و٦٠ ادخل عيدين جديدين هما ايرفينااليا (لتخليد اول حلاقة لذقنه) ونيرونيا الذي تخلله سباق عربات وموسيقى ورقص ، حتى انه ضرب مرة وبقيت آثار الضرب على وجهه مما اضطره الى وضع حرس خاص به لمرافقته . وقد تزوج من پوپايا سابينا قبل مقتل أمه بقليل ، بالرغم من معارضة أمه ، وكانت ذات جمال باهر وتزوجت مرتين وكان زوجها الثاني اوثو صديق نيرون من طبقة الأشراف . وقد اتخذها نيرون خليلة وعين زوجها حاكماً على لوزيتانيا فاضطر الى طلاقها ، وبعد ست سنوات من زواجه هذا طلق زوجته الأولى أوكتافيا بحجة عقمها ونفاها الى كپانيا ولما رأى تعلق الشعب بها نقلها الى جزيرة پانداتاريا (ڤندوتينا الحالية) ثم لفق عليها تهمة الزنا والخيانة واعدمها . وصارت اوكتافيا بطلة مأساة كتبها سنيكا مستشار ومؤدب نيرون .

ساعد نيرون خزانة مجلس الشيوخ بمنحها مايعادل ٦٠٠ ألف دينار عراقي من خزانة الامبراطورية الخاصة وعين لادارتها ولاة امبراطوريين . وأصدر عملة برونزية جديدة وتحسنت العملة بصورة عامة حتى ان احسن العملة الرومانية تعود لعهد نيرون . وقلل وزن الاوريوس الذهبي (يعادل دينار ونصف عراقي) والدينار الفضي (صارت قيمته الآن حوالي ٣٦ فلساً عراقياً بعد ان كان حوالي ٥١ فلساً) حتى يعادل ثمن المعدن الثمين الذي يزنه . وسارت ادارة مدينة روما بصورة طيبة فتجهيز الحنطة كان يتم وفق خطة منتظمة وحسن ميناء انتيوم وصدر قانون بحسن معاملة العبيد سمح لهم بموجبه رفع الدعاوى على أسيادهم عند محافظ

المدينة . ونظم الألعاب في المدينة وأسس مستوطنات عدة للمسرحين من الخدمة وغيرهم ووضع حداً لتجاوزات المزايدين على الضرائب . ومنع قانون صدر سنة ٥٧ أي حاكم من القيام بعرض منازلات أو حيوانات وحشية في مقاطعته أو اقامة حفلات توديعية للحاكم الذي تنتهي مدة حكمه وساق اثنى عشر حاكم مقاطعة بتهمة عدم التزامهم بهذه الأوامر .

هام نيرون في حب سباق العربات والألعاب اليونانية وأصر أنه يكون اللاعبون من الارستقراطيين والفرسان ونظم هيئات للشباب اطلق عليها الاوغستياني لممارسة الألعاب ونظم مباريات كل خمس سنوات . واشترك بنفسه في مباريات موسيقية وكان يظهر في مسرحيات بملابس التمثيل ويرقص ويغني ويضرب العود ومرة غنى في نابولي مما افقده احترام الارستقراطيين وانتقده عليها مستشاراه بورروس وسنيكا . وقد أثر مقتل بورروس سنة ٦٢ (والذي اتهمه نيرون بعلاقته مع أمه اغريپينا وقد يكون السبب للاستيلاء على ثروته) وتقاعد سنيكا على ادارة نيرون العامة حيث حلت محلهما في التأثير على نيرون زوجته پوپايا وتيغيلليانوس الوضيع الأصل الذي عينه نيرون رئيساً للحرس البريتوري واشترك معه في كل مظالمه ومفاسده . ولم يعد للسنات أية قيمة بل طغى على أعضائه الخوف من بطش الامبراطور الذي فاقت مصاريفه على حفلاته ومفاسده كل حد مما أفلس الخزينة . وفي سنة ٦٥ ماتت پوپايا وهي حامل ببنت نتيجة ضربة من الامبراطور . ولأجل سد عجز الميزانية لجأ نيرون الى قتل ومصادرة أملاك الكثيرين . وفي سنة ٦٤ شبت النار في روما مبتدئة من دكاكين في سركيس ماكزيموس واستمرت أسبوعاً ملتهمة عشرة من أحياء روما الأربعة عشر مخربة ثلاثة منها تخريباً تاماً منها قصر اغوسطوس ومعبد اپولو على الپالاتاين . ويذكر كافة المؤرخين (عدا تاسيتوس) ان نيرون هو الذي بدأ الحرق ولكن ليس هناك أي دليل يثبت اقدام نيرون على الحرق . وفي الوقت الذي يؤكد بعض المؤرخين مراقبة نيرون للحرق وهو يغني أغنية تهديم طروادة يذكر تاسيتوس هرعه لاخماد النار ومساعدة المتضررين وفتح المباني العامة لايواء الذين فقدوا بيوتهم وجمعه التبرعات لهم وتخفيضه أسعار الحنطة الرخيصة . وقد أعاد نيرون بناء روما وفق خطة جديدة أكثر عصرية بشوارع عريضة وساحات وحدائق وشوارع بسقائف وشيد محل منطقتي كيليان والاسكويلاين القذرة مايعرف بالمنزل الذهبي وهو قصر بحدائق وبحيرات ووضع وسطه تمثاله الضخم البالغ ارتفاعه ١٢٠ قدماً .

لمواجهة المصاريف الكثيرة فرض نيرون الضرائب في ايطاليا والولايات وجرد المعابد من كنوزها وزادت مصادراته لأملاك المتهمين السياسيين مما جعله ممقوتاً من الشعب . ولأجل تحويل كره الشعب اشار عليه مشاوروه بلصق تهمة حرق روما بالمسيحيين فأخذ في اضطهادهم حيث كانوا مبعث ريبة وكراهية لرومان روما لحداثة دينهم . فرمى بعضهم الى الحيوانات الوحشية في الملعب وشنق واحرق غيرهم الخ بعد أن ادانتهم المحاكم باشاعة الفوضى ومحاولة قلب نظام الحكم . وقد فصل تاسيتوس في اضطهاد نيرون للمسيحيين وهو أول مؤرخ نعرفه ذكر صلب المسيح زمن حاكم فلسطين الروماني پونتيوس پايلوت . وازداد فساد نيرون بعد مقتل زوجته پوپايا وبدأ حركة اضطهاد وقتل واسعة النطاق بالاشتراك مع تيغيللينوس قائد الحرس البريتوري .

ارسل نيرون سنة ٥٨ ثم ٦٣ قائده دوميتيوس كوربولو لتأكيد سيطرة روما على أرمينيا فاجتاح ارمينيا ودخل عاصمتهم القديمة اركساتا والجديدة تيغرانوكرتا ، فطرد الفرثين وعين تيغرانيس الخامس الموالي لروما ملكاً ولكن الملك الفرثي هاجم ارمينيا واجبر القائد الروماني الجديد بايتوس الذي سار لاعادة نفوذ روما على الاعتراف بأخي الملك الفرثي ملكاً على ارمينيا وبوضع معاهدة مخجلة . فعاود كوربولو سنة ٦٣ هجومه على ارمينيا واتفق أخيراً مع الفرثين بان اعترف بأخي الملك الفرثي كملك على ارمينيه شريطة الاعتراف بسلطة روما وفعلاً تسلم العرش سنة ٦٧ امام تمثال الامبراطور نيرون في معسكر روماني ثم من نيرون نفسه في روما وعم السلام ارمينية لنصف قرن تلا . وفي سنة ٦٦ ثارت الجالية اليهودية في فلسطين على الرومان . احتل سنة ٥٨ القائد الروماني پولينوس جزيرة مونا (انغليس الحالية) في بريطانيا مركز الدرويدين وأخمدت ثورة في شرق انكلتره وصادر أملاك رؤساء شعب الاكيني واساء معاملة ملكتهم بوديكا (التي يمدها الانكليز جدتهم الكبرى) زعيمة الثورة . ودحر البريتونيون فرقة رومانية وخربوا ثلاثة مدن مهمة هي كامولودونوم ، ڤيرولانيوم (سنت البانز) ولوندينوم (لندن) وقيل انهم قتلوا ٧٠ ألفاً من الرومان وحلفائهم . وقد باغتهم بولينوس وقتل منهم ٨٠ ألف على مايروى مما أرهب بوديكا فانتحرت . أثار العدد الكبير من المعتوقين اليونانيين والشرقيين الذين يمسكون بوظائف الدولة ومرافقتها الادارية استياء الارستقراطيين وقد ازداد نيرون طغياناً بعد مقتل زوجته پوپايا وبدأ حركة اضطهاد واسعة النطاق ، ففي سنة ٦٦ احيل سكابولا ابن حاكم

بفيتيليوس امبراطوراً . وكان الأخير في غالة فحضر على الفور الى روما وبدأ بتقريب الفرسان وعد بدء صعوده العرش منذ اعلان مجلس الشيوخ له امبراطوراً لامن بيعة جنوده له . وقد ترك فيتيليوس الامور الى مقربيه ڤالينس وسيكينه اللذين شجعاه على حياته الماجنة وأخذا في سرقة أموال الدولة حتى انهما اصدرا عملة مزيفة لسد المصاريف العامة . ولذلك اقنعت فرق الشرق ڤيسپيشيان القائد من طبقة الفرسان الذي ارسله نيرون لاخماد ثورة الجالية اليهودية في فلسطين لأخذ العرش . فسار ڤيسپيشيان الى مصر لقطع القمح عن روما وفي الاسكندرية أعلن امبراطوراً وايدته فرق ايليريا والدانوب التي تقدم قائدها پريموس الى ايطاليا والتحق الاسطول عند راڤينا بالثورة ودحرت جيش فيتيليوس ودخلت روما وظلت تعبث وتنهب بها أربعة أيام وقتل مايقارب الستين ألفاً واحرقت الكثير من اجزائها وكان ڤيتيليوس من بين الضحايا . ولم يوقف العنف غير المتناهي الا وصول القائد موكيانوس أحد اعوان ڤيسپيشيان الذي ظل يدير شؤون روما لمدة ستة أشهر وصل في نهايتها ڤيسپيشيان (٧) .

حضارة العصر :

زادت الأملاك الامبراطورية ومقاطعات اثرياء الرومان الواسعة في الولايات لاسيا في افريقية ومصر . وذكر پلني الكبير ربما مبالغاً بأن ستة من الرومان كانوا يمتلكون نصف أراضي افريقية زمن نيرون . واستمرت اللاتيفونديا بالتوسع وصار الكثير من الملاكين يؤجرون الى مستأجرين أحرار (كولوني) بدلاً من زرع عبيدهم لها حيث أدركوا قلة الأرباح المجنية في حالة استخدام العبيد لاسيما عند غياب الملاكين . وقل تزويد العبيد والاقبال عليهم . وكانت المقاطعة الايطالية النموذجية خلال القرن الأول متوسطة الحجم وحولت مناطق واسعة الى متنزهات ومناطق صيد . والف لونيوس كولوميلا من هذه الفترة كتاباً في الزراعة أكد فيه أهمية زراعة الكروم ومساوىء غياب الملاكين وتركهم لأراضيهم بل عليه مراقبة فلاحية مباشرة أو بصورة غير مباشرة عن طريق مراقب يعينه وان يشتري العبيد الشغولين ولو بأثمان باهظة . وبرأيه فان الكولوني ليسوا بأكثر ثقة من العبيد . وصار ملاكو ايطاليا يستخدمون النساء في المزارع . وهناك ادلة عن تحسن معاملة العبيد في المزارع الواسعة حيث فتحت لهم المستشفيات وانشئت الحمامات واستأجر بعض العبيد الذين يوثق بهم أراضي من أسيادهم . وأعتني

بريطانيا السابق الى الحاكم وقتل وكذلك بترونيوس مدير حفلات القصر وبعض الفلاسفة الرواقيين مثل بريا و ثراسيا بايتوس الذي انتحر . وكانت النتيجة ان دبرت مؤامرة لتنصيب عضو مجلس الشيوخ الثري كالپورينوس پيسو سنة ٦٥ . وترأس المؤامرة قائد الحرس الپريتوري و٤١ عضواً من مجلس الشيوخ بينهم لو كان الشاعر ابن أخي سينيكا ولكنها فشلت وقتل غالب القائمين بها منهم سينيكا ولو كان . واتجه نيرون الى الانتقام فلم يبق مثر بمنجى من طمعه او انتقامه واضطر السنات على الموافقة على اقتراحه بتأليه پوپايا ورضيعتها ، وأكثر من الوشاة وقتل كثيرين وانتحر قائده كوربولو في اليونان سنة ٦٧ .

زار نيرون اليونان سنة ٦٦ حيث حضر أربع العاب عامة كان فيها جميعاً الفائز وقد غنى ورقص في حفلاتها وعد فائزاً في سباق للعربات بالرغم من فشله . وفي كورينث أعلن اعفاء اليونانيين من الجزية ، وطاف في ارجاء اليونان جامعاً التحف والآثار النادرة ولكنه لم يزر اثينا واسبارطة . واستقبل عند عودته الى روما استقبال الفاتحين وشبهه المستقبلون باپولو وهرقل وخلد رجوعه بعملة عليها صورته وهو يضرب العود . وفي غالة قاد ڤيندكس الكلتي ثورة ضد روما وجمع جيشاً ضخماً وأيده القائد غالباً حاكم اسبانيا القريبة . وتقدم لاخماد الثورة روفوس حاكم المانيا العليا الذي دحر ڤيندكس وذبحه . ولكن الأمور لم تستقم لنيرون في روما ، فقتله المأساوي لزوجته پوپايا وعداء مجلس الشيوخ له وجموع الرومان الساخطين من ارتفاع أسعار القمح الى جانب سريان الاشاعات بأن نيرون يريد نقل العاصمة الى الاسكندرية ، عقد الموقف في روما . فهرب نيرون من روما حال تسلمه رسالة مجلس الشيوخ بادانته سنة ٦٨ فانتحر وأمر مجلس الشيوخ بتحطيم تماثيله .

نصبت الفرق في اسبانيا قائدها العجوز غالباً امبراطوراً ووافق على تعيينه الحرس الپريتوري الذي وعد بدفع مراتبه مكافآت ثم مجلس الشيوخ الذي آمل ان يرجع الحكومة الدستورية . ولكنه أغضب الحرس الپريتوري برفضه اعطائهم ماوعدهم به من مكافآت . كما اثارت اجراءاته التقشفية لسد عجز الميزانية الكثيرين ضده ثم تقاعسه عن ادانة تيغيليوس حليف نيرون في آثامه وجرائمه الى جانب عداء فرق الراين له . وفي بداية سنة ٦٩ أعلنت الفرق في المانيا العليا والسفلى قائدها ڤيتيليوس امبراطوراً وأيدته فرق الراين . وتقدمت هذه الفرق الموالية لروما لغرض تعيين ڤيتيليوس . وتقدم أوتو زوج پوپايا السابق بجيوشه الموالية لصدهم ولكنه اندحر قرب كريمونا وانتحر واندفعت الجيوش لنهب روما واعترف مجلس الشيوخ

بـــالمراعي والمروج وادخـل البرسيم لأول مرة من الشرق . وظهرت المحـــاريث ذات العجلات والألواح المنحنية التي تحفر عميقاً بالتربة . وصار التأكيد على خصوبة الأرض بزرعها بالمحاصيل المتنوعة والبقول وأدخل طين المرل الخصب المليء بكربونات الكلسيوم من غالة واسبانيا . وصارت كامبانيا تنتج أحسن أنواع الزيت والخمر وغدت منطقة جبل ألبان في لاتيوم المركز الثاني في انتاج خمور وشجعت زيادة الطلب عليها من منطقة الدانوب زراعة الكروم في حوض البو واشتهرت استريا بزراعة الزيتون . وفي الولايات تركزت ملكية الأراضي في الامبراطور وعائلته ومقربية واثرياء روما . وفي زراعة القمح صارت افريقية ومصر تنافس صقلية في تزويد روما بالقمح . وصارت اراضي اثرياء روما في افريقية والتي صادرها نيرون تدار من مديرين يؤجرون كقطع صغيرة الى المؤجرين الامبراطوريين . وتطور نظام الري حيث حفظ الماء في خزانات كبيرة بشمال افريقية وشيدت السدود وشقت الكثير من القنوات وزادت زراعة القطن في مصر ودخلت زراعة الخوخ الى بلجيكا والكرز من ارمينيا الى ايطاليا ثم الى بريطانيا واستوردت ايطاليا خمر اللاذقية الجيد وتين سمرنا (ازمير) وتقدمت الزراعة في غرب البحر المتوسط وصارت تنافس في محصولاتها ايطاليا .

شجع الأمان والسلام الذي عم الامبراطورية وسياسة الاقتصاد الحر التي اتبعها الأباطرة وتخفيض رسوم الكمارك وحرية التنقل والعمل ، التجارة والصناعة . فقد زادت حركة النقل في الانهار والبحار وصارت هناك حركات نقل بحرية منتظمة بين بيوتيولي واوستيا وبرنديزي وكورسيرا . وكان لرغبة الاباطرة في تأسيس مدن جديدة في المناطق القروية والقبلية لاسيما في اسبانيا وغالة وافريقية اثر كبير بذلك . وتوسعت اسواق تصريف البضائع الايطالية كصناعة الزجاج . وترينا كثرة الدكاكين والبضائع والأدوات المكتشفة والموضحة بالصور من مدينة بومبي تحول تلك المدينة من مقر لملاكي الأراضي الى مركز صناعي وتجاري . فلم تعد الصناعة الايطالية مقتصرة على كامبانيا بل شملت مناطق عدة أمثال اكويليا وموتينا حيث انتاج الفخار وميديولانوم (ميليون أو ميلان الحالية) وپاتاڤيوم (پادوا) حيث مصانع المنسوجات الصوفية ثم الصناعات المعدنية والورق في روما . وان اهم معمل للطابوق اعتمد عليه في تزويد روما به عند اعادة بنائها بعد حرقها كان يمتلكه عضو من السنات اسمه دوميتيوس أفير وكان مصدر ثراء كالڤيا كريسپينيلا من زمن نيرون هو تجارتها في الزيت والخمر . فالصناعة الايطالية وصلت في هذه الفترة الى عنفوانها وكان تنوع وكثرة وغلاء الغنائم التي جلبت من

الشرق دليلاً على ثراء الولايات الشرقية . ويظهر من نقوش آسيا الصغرى وبرديات مصر انتعاش الصناعات القديمة فيها امثال الزجاج في الاسكندرية وصيدا والمنسوجات الحريرية والكتانية في مدن آسيا الصغرى . وقد توصل ضاع صيدا في أواخر القرن الأول ق . م . الى صنع الأواعي الزجاجية بالنفخ بدل صبها

وبالرغم من عدم تشجيع الأباطرة للتجارة مع الألمان في منطقتي الراين والدانوب الأعلى فيما عدا نقاط معينة فقد تقدمت الصناعات فيها وتجارتها . وفتح خط جديد لاستيراد العنبر من كارنونتوم على الدانوب الى شرق البلطيق وصارت صناعات ايطاليا المعدنية تصل الى شمال المانيا والأقطار الاسكندنافية . ولأول مرة بدأت العلاقات التجارية بين روما والشرق الأقصى عن طريق العربية الجنوبية فالهند ومما ساعد على ذلك اكتشاف هيپالوس للرياح الموسمية الذي شجع السفر صيفاً والرجوع شتاءً . وكانت السفرة من روما الى الهند بما فيها السير براً عبر مصر تستغرق أربعة أشهر . وفي زمن أغوسطوس تبودلت الوفود بين الهند وروما واستورد الرومان منها الجوهرات والحرير . ومخرت السفن نهر البايتس (الوادي الكبير بأسبانيا) حتى هسپاليس (اشبيلية) ونهر الراين حتى كولون وصارت قرية لوتيتيا (باريس) ميناء مهماً . وزار التجار الغربيون سيلان وخليج البنغال زمن كلوديوس ونيرون وان المعاهدات التي عقدت بين روما وفرثيا لابد ان تكون قد حوت بنوداً تخص تسهيل التجارة للطرفين . وقد عثر على منسوجات يونانية في منغوليا مما يدل على تبادل سلع على طول الطريق عبر الممرات الصينية الى بحر الخزر . وزادت أهمية الاسكندرية التي كانت تبادل الزجاج والصناعات المعدنية والكتان بالمنتجات الهندية . ويوضح كتاب الطواف حول البحر الارتيري من القرن الأول معرفة الرومان بسواحل الهند وبلاد الصومال وزيارات التجار اليونانيين لبلاط ملك الحبشة ووصولهم زنجبار . ووصل بعض حرس نيرون البريتوري أعالى النيل حتى منطقة الخرطوم ربما لتهيئة غزو الحبشة وعبر قائد روماني زمن كلوديوس ممرات جبال الاطلس الى حدود الصحراء ربما غايته فتح

طريق تجاري مع غرب افريقية . وظل طريق القوافل الى طرابلس بيد سكنة الواحات ولم تصل الى مرحلة مهمة . ووصل الزيت والخمر الايطالي الى أوربا الغربية والهند . وعثر على صناعات كاپوا البرونزية في شمال بريطانيا وشواطيء البحر الأسود واسبانيا . وراجت مصنوعات كامپانيا والاسكندرية الزجاجية في غالة وبريطانيا ومقاطعات الراين . وعم الفخار الاريتاين الايطالي جميع أنحاء الامبراطورية . وادخلت انواع جديدة من الحيوانات والنباتات والفواكه الى ايطاليا من الشرق . وكان القسم الغالب من الأعمال في العاصمة بيد المعتوقين الذين سمح لهم بدخول منظمات الحرفيين حتى ضمن كهنة الطقوس الشرقية . وظل محرروهم يقدمون لهم المساعدات فصار منهم معماريون ونجارون وصيارفة . وشقت الطرق الكثيرة عبر التلال والوديان وشيدت الجسور عبر الأنهار والمنخفضات ووضعت أحجار قياس المسافات ورسمت خرائط بأسماء المحطات والاتجاهات والمسافات والخانات والأماكن المهمة . وربما كان بامكان المسافر أن يقطع ٧٠ كيلومتر في اليوم او حتى ضوعف هذا الرقم اذا كان مراسلاً امبراطورياً ، وفي البحار كانت السفينة الاعتيادية بأبعاد ٢٠٠ × ٥٠ قدم أو بحمولة قدرها ٥٠٠ ـ ١١٠٠ طن . ونعرف أن سفينة وصلت الى روما وهي تحمل مسلة مصرية قديمة (الآن في ساحة القديس بطرس) واخرى كانت تحمل مسلة وأربعمائة ألف بوشل (البوشل يساوي ٣٢ لتر ونصف لتر) حنطة وبضائع أخرى . ونقرأ عن سفينة حملت ستمائة وأخرى ١٢٠٠ مسافر . واذا كان الجو ملائماً فتسير السفينة حوالي ١٠٠ ـ ١٥٠ ميل بحري خلال ٢٤ ساعة . وكانت السفرة من پوتيولي الى الاسكندرية تستغرق ٨ ـ ١٢ يوماً ومن پوتيولي الى قرطاجة يومين ومن اوستيا الى قادس سبعة أيام .

شهدت الفترة زيادة في عدد وحجم المدن سواء في ايطاليا أو الولايات نظراً لتشجيع الأباطرة والسلام والثراء وصار نفوس روما يقرب من المليون نسمة . وغدت قرطاجة الجديدة الميناء المهم في افريقية محل عوتيقة . وازدهرت قادس في اسبانيا كمركز للتجارة مع روما وأثرت باتافيوم واكويليا بزيادة حجم تجارتها مع بلدان الدانوب . وحلت اريليت محل مرسيليا وناربو كمركز التجارة مع الداخل وتوسعت ليون لتكن عاصمة غالة وغدت لندن مركز تجارة بريطانيا الرئيس مع غالة . وفي اليونان صارت كورينث الوسيط التجاري بين ايطاليا والشرق ثم أفيسوس في آسيا الصغرى وانطاكية ملتقى الطرق التجارية الى آسيا وتوسعت الاسكندرية بحيث صار تعداد سكانها ثلثمائة ألف نسمة وذات علاقات تجارية مع

بلاد العرب الجنوبية والهند والصين . وذكر پلني الكبير ان روما الآن اكبر مدينة بالعالم زمانه تقطنها من شعوب الامبراطورية المختلفة كافة وذات شوارع ضيقة بحيث ان اعرضها يتراوح بين ١٦ ـ ١٩ قدماً ولم تكن مضاءة ليلاً والمارة عرضة للاعتداء بالرغم من فرقة الشرطة التي شكلها اغوسطوس . ويظهر أن غالبية الشوارع لم تكن مبلطة ومزدحمة بالعربات التي تجرها الخيول والحفات .

ضعفت الطبقة النبيلة الرومانية القديمة نتيجة كثرة من أعدم منهم وامتناع أعداد كبيرة منهم عن الزواج وحلت محلها طبقة نبيلة جديدة غالبيتها من طبقة الفرسان وسكان الولايات وصار الكثير من المعتوقين العبيد اثرياء في الأعمال وذكر أن أحد معتوقي نيرون قال عن شخص امتلك مايعادل مليون دينار عراقي بأنه فقير للغاية . وزاد الثراء والرخاء خلال العصر ونشطت التجارة والصناعة وان أعلى رقم لرأسمال خاص امتلكه لنتولوس كان ٤٫٥ مليون دينار عراقي الذي أجبره الامبراطور تيبريوس على توصيته له بأمواله .

زاد الترف وتبذير المال والبذخ على الكماليات حتى صارت موضوع تهكم الساخرين من الفلاسفة الرواقيين والكتاب أمثال پلني الكبير وسينيكا وبيترونيوس . فقد شيدت القصور الواسعة ، فمنزل نيرون الذهبي حوى غرفاً مزينة باللؤلؤ وكانت خيوله مسرجة بالفضة والذهب وكانت زوجته پوپايا تستحم بحليب الحمير . وصرف ابيكيوس ١٣٥ ألف دينار عراقي على مفاسده ثم انتحر لما رأى أن ماتبقى لديه لايزيد عن ١٥ ألف دينار عراقي . ودفع لوكوللوس ٣٠٠٠ دينار عراقي لعشاء وهو مبلغ غير باهظ . وكان ثوب اغريپينا منسوجاً بالذهب وصارت موائد الطعام تكلف عالياً ودفع الأثرياء مبالغ خيالية لشراء الجواري الموهوبات الجميلات والغلمان الوسيمين او لسمكة نادرة او نعامة . واستوردوا أغلى أنواع الحرير والملابس من الشرق حتى الصين ودفعوا مبالغ سخية للعطور والجوهرات وزودوا قصورهم بالاثاث الفاخر والادوات الفضية والذهبية . واحتفظوا بالعبيد الكثار ودفعوا اثماناً خيالية للموهوبين من العبيد واحتفظوا بأعداد غفيرة منهم في مختلف الاختصاصات . كما صرفوا بكل اسراف على دفن موتاهم وقبورهم وتوابيتهم . ويقول تاسيتوس ان البذخ وصل الى عنفوانه في الفترة بين معركة اكتيوم وصعود فسپشيان على العرش .

استمرت العوائل المحافظة في عزلتها وكان معدل الزواج بين ١٢ ـ ١٦ ويدير الزوج أملاك زوجته وكانت ترافقه الى الحفلات العامة والمسارح وحتى الى قصر الامبراطور وصرن يشتركن في مباريات العربات والمنازلات الرياضية والألعاب وبرز منهن شواعر واهتم آخريات بالفلسفة والسحر والفلك . وزادت حوادث الطلاق وصارت النساء يحتسبن أعمارهن بعدد أزواجهن ، ويذكر جوفينال ان امرأة تزوجت ثمانية أزواج في خمس سنين ويعد الشخص الذي كتب على شاهد قبر زوجته أنه قنى معها ٤١ سنة شيئاً نادراً وقلما كان الزواج يستمر حتى الموت . وكثيراً ماكانت السيدة تتخذ حبيباً لها من بين عبيدها . وكان للسيد الحق في انزال أية عقوبة بعبيده حتى قتلهم حتى منع الامبراطور هدريان السيد من قتل عبده . وكثرت الألعاب وصار عدد الأعياد العامة زمن تيبريوس ٨٧ وزادت في القرن الرابع الى ١٧٥ واستمرت احتفالات تراجان بانتصاراته في داكيا أربعة أشهر . وكانت تقام شتى أنواع الألعاب والعروض والاستعراضات الترفيهية من بينها المبارزات بين الحيوانات والبشر والحيوانات الوحشية بعضها مع بعض واولع الناس بالسركس وشيد الأباطرة أغوسطوس ونيرون و دوميشيان البنايات لها ، كما اهتموا بالمنازلات الرياضية امثال تلك بين الاقزام والنساء والنساء بعضهن مع البعض ، ثم رمي المجرمين واسرى الحرب الى الحيوانات المفترسة ، ثم عرض المسرحيات المنوعة والحفلات الموسيقية .

ازدهر الأدب وكثرت المكتبات الخاصة ولم يعد الأدب تعبيراً عن جوانب الحياة وجاءت غالبية الكتابات مصطنعة وغير مخلصة ودونما هدف . واحب كثيرون البلاغة وسادت النمطية والهدف المباشر في الأسلوب . ولم يعد الاهتمام باللغة اليونانية كبيراً كما كان من قبل وساروا على هدى أسلافهم اللاتين واستولن روما كثير من كتاب الولايات كغالة واسبانيا . وطغى الشعر على مناهج مدارس البلاغة وفقدت التربية ارتباطها بالحياة وبقيت الخطابة عنصراً مهماً فيها . وصار الكثير من الارستقراطيين الاثرياء يشجعون الشعراء ويقدمون لهم الخدمات والعطايا السخية . وان كتاب المجادلات (كونتروفيرسياي) تأليف سينيكا في خمسة فصول يعرض جوانب عدة من الحياة في روما ويوضح أدب العصر الفضي والتصنع والفصاحة والتنسيق والقصائد القصيرة التي تختتم بعبر أو بسخرية ولكن أسلوب سينيكا كان متحرراً الى حد ما من هذه المثالب . وقد اعترف بانحطاط الأدب في زمانه واستهدف توجيه الانظار الى تقليد أسلوب الأسلاف . وكانت أغلب الكتابات الأدبية عملية وأخرى من النوع الموسوعي . ومن الكتاب الموسوعين پلني سكوندوس المعروف بالكبير صاحب كتاب التاريخ الطبيعي

وهو محاولة جمع الحقائق في العلوم الطبيعية والجغرافية وتاريخ الفن ويقع كتابه في ٣٧ فصلاً واعتمد به على ٢٠٠٠ مؤلف وخمسمائة كاتب . ثم كتاب التعليقات لاغريپا في جغرافية الامبراطورية الرومانية . وهناك كتاب حقائق وأصول الأخلاق لڤاليروس مكزيموس الذي قدمه الى الامبراطور تيبريوس وهو مرجع للكتاب ومعلمي البلاغة . وقصصه بارعة وأسلوبه مصطنع وممل وهو مصدر مهم عن دين الرومان القدامى وعاداتهم . والكاتب الموسوعي الآخر هو اولوس كورنيليوس كيلسوس الذي لم يبق من موسوعته سوى ثمانية فصول في الطب توضح أسلوبه البسيط المباشر . وهزلت الكتابة التاريخية ، فقد سجن ومنع الطعام عن المؤرخ كوردوس حتى مات واحرقت كتبه . واتجه البعض الى مدح الأباطرة امثال باتركولوس الذي كان تاريخه مدحاً لتيبريوس وربما كان مخلصاً في ذلك حيث أنه صحب هذا الإمبراطور في بعض حملاته وانهى كتابه سنة ٣١ قبل تدهور الأوضاع زمن تيبريوس . ويوضح كتابه تنوعاً في المادة ولم يهتم بالأدب ولم تكن له نظرة عميقة شاملة للتاريخ ، ثم كوينتوس كورتيوس روفوس الذي وصل الينا ثمانية فصول من كتابه الذي تضمن عشرة فصول عن حياة الاسكندر الكبير . وقد اهتم بالأسلوب وكانت معلوماته متناقضة أحياناً تبين اهتمامه بالموضوع دون أن يكون مؤرخاً . والمؤرخ اسينيوس پوليو الذي كتب عن الحروب الأهلية (٦٠ ـ ٤٢ ق . م .) لم يصل الينا بعد . وترك كلوديوس وتيبريوس تعليقات شخصية وكتبت اغريپينا الصغرى كثيراً عن أسرار حياة البلاط ووصف پومبونيوس ميلا في الجغرافية اسبانيا وساحل غالة الشمالي وتضمن كتابه معلومات خاطئة كجعله الدانوب يصب في بحر الادرياتيك .

ثم كتابات الامبراطور تيبريوس بالطب والقانون والنقد والفلسفة والقواعد . وكثر الشعراء منهم حتى شخصيات من العائلة المالكة أمثال تيبريوس وجرمانيكوس . ثم الشاعر فيدروس وهو عبد من تراقيا نظم قصصاً اسطورية باللاتينية لغرض التسلية وصارت له شهرة واسعة . وازدهر الأدب زمن نيرون حيث ألف كولوميلا من قادس كتاباً في الزراعة بأسلوب واضح والشاعر بترونيوس مؤلف القصة الساخرة ساتيريكون والتي تتضمن قصة عشاء تريمالكيو النبيل الروماني.ويعد بترونيوس أبا القصة الواقعية في الأدب الروماني الذي صور طبيعة الانسان بأسلوب بسيط متميز . ثم سينيكا مستشار نيرون الذي كتبب التعازي خلال فترة نفيه ثم دي كلمنتيا ينصح به نيرون الحدث السن ان يحكم باعتدال وله ١٢٤ رسالة في الأخلاقيات موجهة الى لوكيليوس ومحاوراته الاخلاقية الاثنتا عشرة التي منها قصر الحياة والهدوء والالتزام ثم الاسئلة الحقيقية . وامتاز

ببلاغته وسعة اطلاعه ومعرفته باللغة اللاتينية . وتتلخص فلسفته في أن المبادىء الالهية تتفق مع العقل اللالهي والانسجام مع الطبيعة ، وكان رواقياً وشاعراً . وفي الأدب الساخر برز الشاعر اولوس فلاكوس (٣٤ ـ ٦٢) وكان رواقي النزعة والشاعر لو كان ابن أخي سينيكا الذي درس في روما واثينا واستدعاه نيرون منها ليلتحق بخدمته وقد أجبره الأخير على الانتحار لاشتراكه في مؤامرة پيسو ضده . ومن مؤلفاته فرساليا في عشرة فصول ينتهي العاشر بحرب قيصر في مصر وكان معجباً بفرجيل وقلده كثيراً .

عثر على بيوت من هذا العصر في پومبي مثل بيت ڤيتي وهي عادة من طابق أو طابقين وشيدت واجهة البيت حول ردهة وبالخلف ساحة داخلية تحيط بها أعمدة مسقفة من ثلاث جهات (پريستايل) وحديقة . وفي ايطاليا والغرب استعمل الطابوق الملطخ بالصبة في البيوت الثرية مع تدفئة مركزية بانابيب من الطين تنبثق من فرن تحت الأرض . أما المعابد فكانت مشيدة حسب الخطة الايطالية محاطة بالأعمدة الكورنثية . وبدأ أغوسطوس باستعمال المرمر الملون سواء في البيوت الخاصة أو البنايات العامة وهناك بيوت بطوابق عدة حول ردهة اوپر يستايل . وحوت المنازل شبابيك وشرفاً تطل على الشوارع الرئيسة والفرعية وملئت ارضيات البيوت وجدرانها والأقواس والشبابيك بالصور المختلفة وحوت كذلك تماثيل نصفية أو كاملة ومنحوتات بالنحت العميق والنافر .

وحوى معبد سكوروس ثلاثة آلاف تمثال برونزي وغطت الزينة حتى القبور . وفي روما كانت قصور الأباطرة والنبلاء واسعة وذات طبقات عدة . وظلت المعابد تتبع الخطط القديمة وصارت العمارة في روما عند اعادة تعميرها زمن نيرون أكثر حيوية وخرجت من التقليد الأغوسطي . واعتقد البعض أن خطة أرض البيوت العامة المعروفة في اوستيا وهركولانيوم من القرن الثاني لها اصلها في روما الجديدة التي بناها نيرون . وتبين الصور التي اتتنا للأباطرة الواقعية والدقة في عملها مما تدل على مدى التقدم في فن التصوير .

غدت الفلسفة الرواقية أكثر رواجاً وكثر معلموها في روما امثال كورنوتيوس وموسونيوس روفوس اللذين أثرا كثيراً على التربية والأدب آنذاك . وكان للابيقورية شعبية بين الشباب ومحبي اللذة . وصار الاتجاه الروماني بصورة عامة نحو الاكلكتيكية . وفي زمن نيرون اتخذت الرواقية صبغة سياسية وتبنت معارضة الامبراطور ووصلت الى عنفوانها زمن دو ميشيان . وان حماسة الرومان لطقس عبادة اغوسطوس تحول الى كره لخلفائه . وكانت المناهج التي شهدت الى تيبريوس وكلوديوس قليلة هذا المقاطعات الشرقية . واستمرت عبادة الامبراطور في المقاطعات حتى في ايطاليا كجزء من دين

الدولة وصار بالتدريج مناسبة لعيد دولة آخر . وفي الريف الايطالي ظلت آلهة العائلة اليونانية ـ الرومانية مقدسة وأحب دهماء المدينة منها كثرة حفلاتها ولم يهتم بها المثقفون . وبالنسبة الى المفكرين الرومان كانت الفلسفة الخلقية قد حلت محل الدين . وأولع الرواقيون بالآلهة الشخصية التقليدية الموضحة في العقل الكوني . ولم تكن الفلسفة كافية لما تطمح له الروح . وقد دخل التنجيم الى روما من شرق البحر المتوسط في نهاية العصر الجمهوري فزاد الآن شعبية واهتم به أغوسطوس وتيبريوس وصدرت أوامر عدة بنفي منجمين من روما . وحصلت الطقوس الشرقية على شعبية بتأكيدها الدين الشخصي وتحريكها العواطف وطقوسها وتأكيدها الخلاص الشخصي بعد الموت بالخلود . فصار لآلهة آسيا الصغرى وسورية ومصر الكثير من الاتباع لاسيما طقس الربة ايزيس المصرية التي تطورت تحت التأثير الهلنستي الى ام الكون الحنون التي ضمنت لعبادها السعادة في هذه الدنيا والآخرة . وقد بدأ طقسها في پوتيولي بنهاية العصر الجمهوري وانتشر الى روما رغم كل محاولات طرد كهنتها منها . وفي سنة ٤٣ ق . م . قررت الدولة تشييد معبد رسمي لايزيس وسراپيس . وكان طقسها مثيراً للعواطف يؤديه كهنة محترفون وهام به كثيرون وشيدت لها عدة معابد في ايطاليا والغرب مع زميلها سراپيس لاسيما بين التجار والبحارة وعمت بين الكثيرين عبادة مثرا . وكثر معتنقو اليهودية واعتنقتها حتى پوپايا زوجة نيرون بالرغم من عدم ميل الرومان الى اليهود ودينهم . وفي هذا العصر ولد في بيت لحم بفلسطين السيد المسيح الذي بشر بتعاليمه الخاصة بحلول مملكة الله والعصر الجديد وأكد الحب وبدأ القديس بطرس وپولس بحركاتها التبشيرية في ارجاء العالم الروماني . وفي سنة ٤٩ عقد في القدس مجمع لزعماء الدين الجديد . (٨)

الهوامش

1. CAH, Vol., X. pp. 607–617.
2. Cary, op. cit. pp. 521–523.
3. Trever, op. cit. pp. 390–402; Boak and Sinnigen, op. cit. pp. 298–302.

د . عبد اللطيف أحمد علي ، الامبراطورية .. السالف الذكر ، ص ٢٤٦ ـ ٢٥٤ .

4. Cary, p. 525; Trever, pp. 403–407; Boak and Sinnigen, pp. 432–433.
   Cryil Robinson, pp. 283–285.

٥ ـ د . محمد علي سليمان أيوب ، دراسات في تاريخ المغرب القديم ، (الدار البيضاء ، بلا) الباب الرابع .

6. Trever, pp. 407–416, Boak and Sinnigen, pp. 303–306.

د . عبد اللطيف أحمد علي ، الامبراطورية .. ص ٢٦١ ـ ٢٦٦ .

Cryil Robinson, pp. 285–292, Cary, pp. 526–528.

7. Cary, pp. 528–531.

د . عبد اللطيف احمد علي ، الامبراطورية .. ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩ .

Trever, pp. 417–429; Boak and Sinnigen, pp. 306–310; Cyril Robinson, pp. 292–299.

8. Cary, pp. 560–590; Trever, pp. 430–478.

الفصل العاشر
عصر الأباطرة الفلافيين (٦٩ ـ ٩٦)

يبدأ حكم هذه الأسرة بصعود تيتوس فلافيوس فسبيشيان العرش (٧٠ ـ ٧٩) من مدينة التلال ريته . واسم العائلة (فلافيوس) يظهر بأسماء ملوك السلالة الثلاثة . وقد عمل فسبيشيان في السلك العسكري فكان نقيباً عسكرياً في تراقيا وكويستور في كريت وقورينة وعمل محتسباً وقاضياً . وفي زمن كلوديوس عين قائداً بدرجة لغاتي في المانيا وبريطانيا واخضع فكتيس (جزيرة رايت) وصار قنصلاً سنة ٥١ ثم حاكماً مخولاً (بروقنصل) في افريقية زمن نيرون . وقد برهن سواء في الوظائف التي تقلدهاأو كامبراطور بأنه اداري أكثر من كونه رجل دولة . وكان فقير الحال طوال مدة توظفه واتهم مرة بالحصول على المال بطريق غير شريف ولكنه اكتسب سمعة عسكرية حميدة وأحبه جنوده ، وقد ارسله نيرون لاخماد ثورة الجالية اليهودية في فلسطين سنة ٦٦ . وكان والده جامع ضرائب ومقرض مال .

عندما تربع فسبيشيان على العرش كانت هناك ثورتان تعصفان بالدولة الرومانية هما ثورة الباتافيين في المانيا السفلى عند دلتا الراين . فقد كان هؤلاء لايدفعون الجزية بل يعملون في الجيش ، كساعدين وقد حنقوا على روما زمن نيرون لاتهامه زعمائهم بالخيانة . وقد أطلق سراح زعيمهم يوليوس كيفيليس بعد وفاة نيرون فايد فسپيشيان أولاً ولما عرف بموت فيتيليوس أعلن ثورة على الدولة وانضمت اليه مناطق عدة في غالة والمانيا وايده كلاسيوس وتيوتور زعيما قبائل التريفرين واللنغونين واجبرت خمس فرق رومانية في نوفيسيوم على الراين على الانضمام لهم لأن قواد هذه القوات المحلية كانوا وطنيين ودعوا الى دولة غالية مستقلة بعاصمة عند تريفس (اوغستا تريفير وريم) . غير أن الثورة لم تحصل على تأييد من غالة كافة ، فلم تؤيد الثوار بعض القبائل الغالية لدى اجتماعها في مؤتمر دوروكور توروم (ريمز).والسبب هو ان الرومان قد أحسنوا معاملة الغاليين وازدهرت غالة بأقسامها في ظل السلام الروماني . وقد دحرت الجيوش الرومانية الثوار بجيوش قدمت من ايطاليا بقيادة كرياليس وصلت اليها تعزيزات من اسبانيا وبريطانيا وهرب كيفيليس . ولم ينتقم منهم فيسپيشيان مكتفياً بتجريد أربع من الفرق الرومانية التي أيدت الثوار من السلاح ونقل الفرقة الخامسة الى مويسيا .

تمردت الجالية اليهودية في فلسطين سنة ٦٦ ضد السلطة الرومانية ، وكان الرومان قد أعفوهم من الخدمة العسكرية وعبادة الامبراطور ولكنهم سمُوا من دفع الجزية

للرومان ، وفي سنة ٦٦ استثنى حاكم فلسطين الروماني اليهود من الجنسية الرومانية وحدث ان هجم الاغريق في قيصرية على اليهود فيها واعملوا ذبحاً فيهم ، ولما سار القائد الروماني في سوريا لاخماد التمرد قاومه يهود فارسل نيرون قائده فيسبيشيان مع مايزيد عن ٥٠ ألف جندى لقمع الثورة . وتمكن من القضاء على المتمردين لولا وصول الأخبار بوفاة نيرون فتوقف بانتظار أوامر الاستمرار بالقتال من الامبراطور الجديد . ولما غادر الى الاسكندرية ترك القيادة الى ولده تيتوس الذي قضى على الثورة حيث حاصر القدس لمدة سبعة أشهر ودخلها سنة ٧٠ وقد خلد والده له انتصاره في قوس نصر ابتناه في السركس بروما .

أرخ فسپيشيان صعوده من المناداة به امبراطوراً في الاسكندرية لامن اعتراف السنات به ، وقد اعترف مجلس الشيوخ به كاغوسطوس ثاني . وفي سنة ٧٣ أعلن ولده زميلاً له في الحكم وخليفة . وهو أول امبراطور من أصل اعتيادي حيث أن والده من طبقة الفرسان . وكان فسپيشيان يستهزء بمادحية الذين كانوا يبتدعون له نسباً عريقاً وأصولاً ارستقراطية . وكان مثقفاً باليونانية واللاتينية واداريا حازماً ، بسيطاً صريحاً ومتهلباً يعوزه الابتكار . وقد اجرى تعداداً لسكان الامبراطورية وادخل الى السنات أعضاء جدد من سكان الولايات واستخدم الكثير من رجال طبقة الفرسان مكان المعتوقين في الخدمة المدنية ومنح الجنسية الرومانية لكثير من سكان الولايات والحقوق اللاتينية لكل سكان مدن اسبانيا واسس مستوطنات عدة في الولايات لكثير من سكان الولايات والحقوق اللاتينية لكل سكان مدن اسبانيا واسس مستوطنات عدة في الولايات المختلفة . وشجع المدن ذات الاستقلال الذاتي ان تحكم نفسها محلياً وشدد الرقابة على موظفي الدولة كافة وعاقب المتهمين منهم بالفساد . وقد احترم فسبيشيان مجلس الشيوخ وكان يستشيره في الكثير من شؤون الدولة ولم يسمح له بالتدخل في شؤون الحكم الذي احتكره في شخصه فقط ، مما أثار معارضة الكثيرين على رأسهم الزعيم هلفيديوس بريسكوس الرواقي الاتجاه والذي نفي ثم اعدم سنة ٧٥ لمعارضته الامبراطور حتى شتمه له . وبزيادة المعارضة ضد الامبراطور نفى الكثير من المتهمين .

اشتهر فيسپيشيان بسياسته المالية الحازمة لمواجهة مشكلة افلاس الدولة وخلو الخزانة العامة من المال نتيجة تبذير الأباطرة السابقين . فقد شدد في جباية الجزية من الولايات والغى قانون اعفاء اليونان من الرسوم الذي سنه نيرون . وألف لجاناً لتحديد الأراضي في ايطاليا والولايات حتى يتم استرجاع الكثير من الأراضي التي أخذها الناس ،

وفصلاً استرجعت الأراضي العامة التي استحوذ عليها بطريق غير قانونية . وفرض ضرائب جديدة واتبع سياسة تقشفية ، وكان لنجاح سياسته المالية كبيراً بحيث سد النقص بالموازنة وأعاد الثقة عند الناس بالدولة وتمكن من القيام بأعمال عمرانية كثيرة منها اعادة بناء معبد جوبيتر الكابيتوليني وتشييد معبد السلام في السوق العامة ومعبد الكولوسيوم قرب قصر نيرون الذهبي ومنح اعانات مالية لمدرسي البلاغة .

أعرض فسپيشيان عن سياسة اسناد قيادة جيوس الولايات الى قوات وطنيين منها واستبدل الحرس البريتوري برجال موالين له . وارجع اليونان كولاية سناتورية وجعل سردينيا وكورسيكا ولاية امبراطورية ودفع الحدود في بريطانيا حتى اسكتلندة وفي المانيا ضم الأراضي بين الراين الأعلى ومنابع الدانوب ، وقوى خط الدفاع عن نهر الفرات بتوحيد غلاطية وكبدوكية ومناطق قريبة منها في ولاية واحدة . وأقام حاميات رومانية على طول الطريق بين ارمينيا وأعلى الفرات وأدمج كوماغين مع سورية وأخمد في افريقية ثورة قبائل الغرامانتين وزاد الجزية المفروضة على الولايات جميعاً واختار أحسن الحكام لها .

خلف فسبيشيان ولده تيتوس من دوميتيلا التي كانت قبل زواجه منها خليلة لرجل من الفرسان ثم اعتقها (٧٩ ـ ٨١) المشابه اسمه لاسم والده الثلاثي والذي عرف باسم تيتوس وكان وسيماً عكس والده القبيح الشكل ولكنه مثله عسكري يحبه جنوده وكان عند وفاة والده قائداً للحرس البريتوري وشريكاً له في الحكم . وقضى على مؤامرة دبرها كينيكا سنة ٧٩ لأخذ العرش منه وأمر بقتله . وأمر منذ بداية حكمه بايقاف نشاط الوشاة المحترفين ولم يحاكم أحداً بتهمة الخيانة حتى انه رفض محاكمة متآمرين على حياته فتوقف السنات عن معارضته . وفي آب سنة ٧٩ ثار بركان فيزوف قرب نابولي مصحوباً بزلزال عنيف وخرب مدن پومبي وهركلانيوم وستابي وهلك سكانها . وقد ترك پلني الصغير وصفاً دقيقاً للنكبة في رسالتين بعثها الى تاسيتوس جواباً على رسالة من الأخير له مستفسراً عن عمه پلني الكبير الذي كان يعمل قائداً لاسطول روماني عند مسينوم وقتل اثناء الحدث . وقد انطمرت هركلانيوم تحت ركام سمكه ستون قدماً وقد تم كشفها وعثر فيها على مكتبة فيلسوف ابيقوري حوت ١٧٥٦ لفة بردي وعرض ما اكتشف في المدن المطمورة بمتحف نابولي . وقدم تيتوس المساعدات للمتضررين بوساطة لجنة عينها . وقد شيد الحمامات المعروفة باسمه وأكمل بناء الكولوسيوم الذي يسع ٩٠ ألف متفرج . وان كرمه الزائد ومصاريفه الكثيرة انهكت الخزانة العامة وفي سنة ٨٠ شبت نار في روما استمرت ثلاثة أيام دمرت معبد جوبيتر الذي شيده فسبيشيان . وتوفي تيتوس

سنة ٨١ دون خلف ويصفه المؤرخ سويتونيوس بحبيب الجنس البشري . (١)

جاء بعد اخوه دوميشيان (٨١ ـ ٩٦) وقد وعد الحرس البريتوري بمكافآت سخية فأيدوه بصعود العرش . وسار على نهج تيبريوس فكان طاغية مستبداً وأمر موظفي القصر بمناداته سيداً وربا وجعل القسم بروحه الحارسة اجبارياً وانشأ هيئة كهنوتية باسم الكهنة الفلافيين للاشراف على مراسيم عبادة والده وأخيه المؤلهين . وقد كرهه السنات بالرغم من مقدرته الادارية العالية واغرقه شعراء بلاطه مثل ستاتيرس ومرتيال بالمدح وجعله تاسيتوس سفاحاً طاغية ولم يخف سويتينوس كرهه له بالرغم من امتداحه لمقدرته العسكرية والقضاء زمانه . وأخذ دوميشيان يمارس منصب الرقيب والقنصل منذ سنة ٨٤ حتى موته وترسخت الاوتوقراطية زمانه لاسيما بعد انتصاره في المانيا ولم يهتم بالسنات وأهمل السوابق الدستورية ، وضاعف عدد حراسه ولم يسمح بعمل تماثيل غير فضية أو ذهبية له . وصار غالبية موظفي الجهاز الاداري زمانه من الفرسان واتبع سياسة والده المالية وزاد رواتب الجنود بنسبة الثلث وقلل عدد الفرق . ورمم الكثير من المباني التي خربها حريق سنة ٨٠ وعمر دوميشان قصر اغوسطوس ووسعه وصار يعرف باسم دوموس فلافيانا وهو أحسن قصور الأباطرة حيث الغرف ذات الشرفات في طابقين وعلى كل الجوانب دوائر الدولة وباسيليكا لمقابلات الملك وقاعة طعام.وأعاد بناء معبد جوبيتر الكابيتولاني وشهد آخر لجوبيتر الحارس على تل الكويرينال وأصلح المكتبات العامة وأرضي الناس بالمهرجانات الكثيرة وتوزيع القمح وقدم المكافآت للناس التي وصلت الى مايعادل الخمسة دنانير عراقية للشخص الواحد أحياناً .

تمسك دوميشيان بالدين الوطني وأنشأ عيداً جديداً للاله جوبيتر الكابيتوليني وأصدر تعليمات حتمت على المشاهدين في الألعاب العامة بها لبس التوكا ومنع التمثيليات الاباحية ومنع التجارة بالخصيان وجعل الموت عقوبة للزانيات من عذارى ڤيستا ونفى الرجال الذين اتصلوا بهن . وعاقب رئيسة كاهنات ڤيستا بدفنها حية ووضع العراقيل امام العبيد الراغبين في العتق وطبق قوانين اغوسطوس الخاصة بالزنا والزواج مما جر على الامبراطور كراهية الكثير من أعضاء السنات والفرسان . غير ان قوانينه كانت تخالف سلوكه الشخصي حيث أسرف في الملذات واتخذ من ابنة أخته عشيقة له . وعارض انتشار الطقوس الشرقية بالرغم من تأييده عبادة ايزيس وسرابيس الذي بنى لهما معبداً فخماً وكثيراً ماكان يستشير المنجمين . وسمح لليهود ان يشيدوا بيعات لهم واستمروا في دفع ضريبة الرؤوس ومنعهم من بث الدعاية لدينهم . واتهم ابن عمه كليمنس وزوجته دوميتيلا بالالحاد وهناك من يعتقد ان التهمة الحقيقية هي المسيحية وربما يكون هذا

هو سبب قتله لولديها اللذين اتخذهما خلفاء له حيث ان تحول بعض أفراد العائلة المالكة الى المسيحية قد نظر له الامبراطور كتحد لطقس الامبراطور الذي كان يتحمس له دوميشيان أكثر من والده . وأخمد دوميشيان ثورة قامت بها الجالية اليهودية سنة ٨٦ .

أحسن دوميشيان اختيار حكام الولايات وبالرغم من ذلك ثار الكاتيون شمال الماين وألحق أراضيهم بالدولة الرومانية وبعثرهم في غابات وسط المانيا وضم الأراضي شمال الماين . وقد احتفل عند عودته الى روما بانتصاره . هذا وتوسع شرقاً من بون على نهر الراين الى جنوب لورش وربط هذا الخط مع آخر يسير على طول الدانوب الى ريتيا وحصن طرق الحدود مما يدل على اهتمامه بالدفاع عن الحدود . واباد رجال قبيلة كاملة في شرق طرابلس بليبيا عندما ثارت على السلطة الرومانية سنة ٨٥ وضرب قبائل البدو في موريتانيا لتأثير السياسة الرومانية في زراعة الأراضي الرعوية على اقتصادها . وفتح طرقاً عدة بالامبراطورية وصرف المال على تزيين روما فشيد داراً جديدة للسنات وبضعة معابد جديدة ومقراً جديداً على البالاتاين وشيد في الكامبوس مارتيوس قاعة للموسيقى وسركساً .

اهتم دوميشيان بتوسع حدود الامبراطورية كدعاية لحكمه الفردي المطلق . فقد توسعت الحدود في بريطانيا بفضل قائده اغريكولا والدزوجة المؤرخ تاسيتوس ، الذي كان آنذاك حاكماً لبريطانيا فأخمد ثورات عدة ووصل الى اسكتلندة ودحر سكانها الكاليدونيين الذين اتحدوا تحت لواء زعيمهم كلاغوس ، وأكمل احتلال ويلز ، وكان الحاكم كيرياليس (٧١ ـ ٧٤) قد وسع الحدود الشرقية شمالاً وربما أسس يورك وشيد التحصينات بينها وبين جيستر . أما فرونتينوس فقد اخضع جنوب ويلز واكمل خليفته اغريكولا (٧٧ ـ ٨٤) غزو شمال ويلز وجزيرة مونام تقدم شمالاً في بريطانيا الغربية ثم شرقاً واصلاً الى خليج فورث مشيداً الكثير من الحصون في النقاط الاستراتيجية المهمة . ثم تقدم في جنوب غرب اسكوتلندة (كلدونية) ثم الى المرتفعات شمال اسكتلندة وصارت الحدود الرومانية عند خط يصل كلايد وفورث . وقاد دوميشيان نفسه جيشاً عبر نهر الراين ابتداء من مدينة موغونتياكوم (ماينز الحالية) واخضع الكاتين وطردهم من منطقتهم حول جبل تاونوس واستكمل الخط الدفاعي بين نهري ماين ونيكز ولما انشغل الرومان بثورة ساتور نينوس تقدم الكاتيون ثانية فعاد بعد ذلك دوميشيان اليهم وكسرهم . وفي سنة ٨٥ اندفع الداكيون (من ترنسلفانيا) وطغوا على رومانيا والمجر الحاليتين تحت قيادة ملكهم ديكابالوس الذي اتخذ من سارميز يغيثوسا (فارهيلي

الحالية) عاصمة له مستولياً على مويسيا (الصرب وبلغاريا) ملحقاً الهزيمة بحاكمها الروماني سابينوس . وتمكن فوسكوس قائد الحرس البريتوري من ردهم الى شمال نهر الدانوب ولما حاول غزو داكيا نفسها فشل وقتل فعين الأمبراطور بدله يوليانوس الذي انتصر على الكاتيين في موقعة تياي سنة ٨٨ ، وهنا ثار الماركومانيين والكواديين ضد روما فسار اليهم الامبراطور نفسه لكنه فشل في اخضاعهم مما اضطره الى مصالحة ديكابالوس سنة ٨٩ . وسار دوميشيان لحرب بعض القبائل الجرمانية والياز بجيين القاطنين غرب داكيا بين نهري ثايس والدانوب . وفي سنة ٨٨ ثار انطونيوس ساتورنينوس حاكم المانيا العليا ونادت به الفرق الرومانية هناك امبراطوراً لكن ثورته لم تدم طويلاً حيث كسره وقتله ماكسيموس حاكم المانيا السفلى الروماني .

عمل دوميشيان على رومنة الولايات الرومانية واحسن ادارتها وعين عليها حكاماً وموظفين اكفاء عليها مما ادى الى ازدهار أحوالها . وفي ايطاليا منع زراعة بساتين جديدة وحث الفلاحين على زراعة نصف أراضيهم حنطة . وللتخفيف عن كاهل الناس اسقط دوميشيان في بداية عهده متأخرات الضرائب عن الخمس سنين الماضية . وفي روما أصلح نظام توزيع الماء وأحسن وسائل خزن السلع الاستهلاكية .

شكلت ثورة ساتورنينوس نقطة تحول في حياة دوميشيان وسياسته حيث صار اكثر قسوة وشدة . وغدا يتخوف من أعضاء مجلس الشيوخ ويستمع الى الوشاة وتحولت سنواته الأخيرة الى عهد ارهاب وبطش راح ضحيته كثيرون . ونفي كثير من الفلاسفة والمفكرين امثال ديوكريسوستوم وابيكتيتوس واعدم الكثير من اليهود والمسيحيين لمعارضتهم طقس عبادته . وزاد تخاوفه عدم حصوله على ولد يخلفه واعدم ولدي فلافيوس كليمنس اللذين رشحهما لخلافته . وأخيراً نجحت المؤامرة التي دبرتها زوجته دوميتيا على حياته مع رئيس الحرس البريتوري واغتيل دوميشيان سنة ٩٦ وقرر السنات لعن ذكراه . (٢)

لم تكن روما خلال العصر الفلافي قادرة على الاحتفاظ بجيش كبير يحمي الحدود المترامية لعجز الميزانية . وقد زيدت مدة الخدمة من عشرين الى ٢٥ سنة وكانت الرواتب تزاد أيضاً فقد ازاد اغوسطوس رواتب الحرس البريتوري من حوالي ٣٠ ديناراً عراقياً سنوياً الى ٤٥ وأفراد الجيش من تسعة دنانير الى ١٣٫٥ دينار سنوياً . وقدم نيرون الحنطة للحرس البريتوري الى جانب رواتبهم ، وجعل دوميشيان رواتب الحرس البريتوري ٦٠ ديناراً سنوياً و١٨ للجند . أما الجنود المساعدون فكانت رواتبهم زمن

اغوسطوس حوالي ٤٫٥ دينار سنوياً . وكانت تدفع الى كافة الجنود مكافآت عند التسريح (٣٠٠ دينار عراقي للحرس الهريتوري و١٨٠ للجند) . أما المساعدون فكانوا يتسلمون المواطنة الرومانية وحق عقد زواج شرعي فقط ، وبدأ كلوديوس يدفع مكافآت للجنود تصل الى مايعادل رواتب خمس سنوات . وكانت قيادة الجيش أو الفرقة في بدء الامبراطورية محصورة في مراتب مجلس الشيوخ (السناتورية) في وقت يمكن للفرسان بما فيهم نبلاء البلديات قيادة كتيبة فرسان أو وحدة من المساعدين . ويتم اختيار رؤساء الكتائب (السنتوريون) من الايطاليين او من ابناء المستوطنات العسكرية الرومانية وهم على مراتب يتدرجون فيها ويتنقلون من الوحدات والولايات المختلفة . وان السنتوريون هو المدرب الحقيقي للجيش وكان يتسلم ١٥٠ ديناراً سنوياً زمن اغوسطوس ويضاعف في الرتب المتقدمة ويترفع الى نقيب أو قائد وحدة . وحرص الأباطرة على الابقاء على سمومركز ورفعة الايطاليين والرومان وسيطرتهم على الجيش . وفي الفترة من اغوسطوس الى فسپيشيان كان ٦٧ ٪ من جنود الفرق من ايطاليا و١٧ ٪ من غالة الناربونية .

كانت المقاطعات الزراعية الخاصة والأملاك الامبراطورية تدار بوساطة المؤجرين الأحرار (الكولوني) يقدمون عيناً ويمكن للفلاح الذي يزرع أرضاً بكراً ان يبقى فيها واذا زرعها زيتوناً أو فواكه فله الحق برهنها أو توريثها . وتوسع الانتاج الزراعي كثيراً خلال القرنين الأولين للامبراطورية وشجع الأباطرة الزراعة العلمية واحياء الأراضي الموات بالمشاريع الاروائية . وفي نهاية القرن الأول واجه انتاج الكروم مشكلة زيادة الانتاج كثيراً من الاستهلاك فهبطت أسعار الخمور كثيراً ولذلك منع دوميشيان زراعة الكروم . وفي الحقل الصناعي يمتاز العصر الانطوني والفلافي في نمو الكوليجيا (جمعيات الأشخاص ذوي المهنة أو الهواية المشتركة « دينية ، مهنية ، ترفيهية » لتقديم الدفن الملائم لزملائهم ويعطون بدلات اشتراك وأجور شهرية . واكتشف منجم مهم للذهب في داكيا وكثف العمل في مناجم الحديد في بريطانيا « سسكس ويلد وغابة دين »ومناجم الرصاص في منديپس وشروبشير مما زاد الصادرات من هذا المعدن .

ولم يعد صناع فخار اريتيوم قادرين على منافسة فخار غالة . ومنذ سنة ٧٠ ألحق أباطرة الصين هضبة تاريم ونظموا خطين تجاريين الى باكترا (بلخ) وانطوخيا مارغيانا (مرو) حيث تلتقي القوافل القادمة من الشرق الأقصى بالتجار السوريين واليونانيين .

ازداد عدد الولايات الرومانية من زمن اغوسطوس الى هدريان من ٢٨ الى ٤٥

نتيجة الغزو أو التقسيم . وكانت الولاية تدفع الجزية وتشمل هذه ضريبة الرأس والخراج على الأراضي وضريبة أخرى على الأعمال التجارية ومهن معينة . وهناك رسوم الكمارك و٥ ٪ على الارث والأخيرة مفروضة على الرومان فقط . وفي مقاطعات مجلس الشيوخ كانت ضريبة الأرض محدودة تقدر سنوياً . وعلى المقاطعات تقديم تجهيزات للجيوش الرومانية وتحويل زيارات الموظفين الرومان والاباطرة والغى اغوسطوس نظام اعطاء جباية الضرائب الى البوبليكاني بالمزايدة . وكانت الامبراطورية خلال القرن الثاني اتحاداً واسعاً من البلديات ذات الحكم المحلي .

تعد فترة الفلافين عصر الأدب الفضي للرومان ، ومن الشعراء ڤاليريوس فلاكوس مؤلف الارغو نوتيكا وهي اسطورة جاسون والصوف الذهبي التي توضح قدرته على الوصف وخياله الواسع وقد حذا بها حذو ابو للونيوس الروديسي. وكتب سيليوس ايتاليكوس اسطورة كبيرة عن الحرب البونيقية الثانية . ثم الشاعر پوبليوس ستاتيوس الذي قربه دوميشيان لمدحه له وقد قلد ڤرجيل وقصيدته الرئيسية ثيبيس ثم سلڤا وهو ديوان حوى ٣٢ قصيدة شعرية في مواضيع تافهة . والشاعر ڤاليريوس مارتيال المولود في ايطاليا سنة ٦٤ والمتوفي سنة ١٠٤ ومن كتبه السپكتاكولا وصف به العروض المسرحية وافتتاح تيتوس لقاعة المسرح وله قصائد قصيرة كثيرة . ومن هذا العصر پلني الكبير صاحب التاريخ الطبيعي في ٣٧ فصلاً أهداه الى الامبراطور تيتوس سنة ٧٧ وكتب له مقدمة رائعة . والكتاب موسوعة لمعارف زمانه في كل حقل . ووصلتنا من هذه الفترة مقالات عدة في مختلف المواضيع الشعرية والفنية وصلتنا منها اثنان هي الستراتاغاماتا تأليف فرونتينوس وهو موظف عمل في بريطانيا والمانيا زمن دوميشيان وكان مسؤول بتجهيز الماء زمانه . ثم كتاب كلوڤيوس روفوس عن نيرون ، ومن رجال البلاغة المشهورين كوينتليان من اسبانيا وكان يتسلم رواتباً من الخزانة الامبراطورية وعينه دوميشيان معلماً لأحفاد أخيه ومن كتبه تربية الخطيب . ومن كتاب العصر المؤرخ اليهودي فلاڤيوس جوزيفوس الذي كتب باليونانية عدة كتب عن الحرب اليهودية والعاديات اليهودية والرد على ابيان ثم الفيلسوف الاسكندراني اليهودي فيلون وديو من بروسا (المعروف بالفم الذهبي ديوكريسوستوم) من آسيا الصغرى ، وقد جاء الى روما زمن فسبيشيان وطرده دوميشيان وقد أخبرنا عن حياته الأولى في كتابه الحوار البورسثيني وعد سفسطائياً وبليغاً وكان مفكر متشعب الهواية ومن كتبه الاسكندريانا الذي وصف به حياة الترف في الاسكندرية ، ثم اولمبيكا الذي ذكر فيه وصف فيدياس للتمثال الذي صنعه للاله زووس في اولمپيا ثم كتاب يوبويكا[٣] . وهدمت الجماهير تماثيل دوميشيان وانقضت على عملائه ومؤيديه .

الهوامـــش

1. Cyril Robinson, pp. 312–321, Trever, pp. 481–489; Boak and Sinnigen, pp. 310–315.
2. Cyril Robinson, pp. 321–331; Trever, pp. 489–501; Boak and Sinnigen, pp. 315–321; Cary, pp. 607–624.

د . عبداللطيف أحمد علي ، الامبراطورية .. ص ٢٨٣ ـ ٢٩٠ .

3. Cyril Robinson, pp. 331–358; Trever, pp. 529–607; Cary, pp. 666–698.

د . عبداللطيف أحمد علي ، الامبراطورية .. ص ٢٩٠ ـ ٣٠٠ .

ووزع مايعادل عشرين ديناراً عراقياً على كل فرد روماني وذبح خلالها مايزيد عن أحد عشر ألف رأس من الماشية .

قام اليهود باضطرابات في الأماكن التي يوجدون فيها (قبرص ، وقورينة بليبيا والاسكندرية بمصر) ذبحوا خلالها الكثير من الرومان . فأرسل تراجان قائده توربو الى مصر فقضى على الفتنة اليهودية بالاسكندرية وفي قبرص استقر الوضع وانتقم الرومان من اليهود .

امر تراجان حاكمه في سورية كورنيليوس بالما سنة ١٠٥ بضم مملكة الانباط العرب وأطلق على المنطقة المحتلة هذه سنة ١٠٦ اسم الولاية العربية ، وأعطى هذا الاحتلال لروما سيطرة على خطوط القوافل التجارية المؤدية من الساحل العربي على شاطىء البحر الأحمر شمالاً الى دمشق فتدمر وموانيء فلسطين وسورية . وقبل ذلك كانت ممتلكات اغريبا الثاني في فلسطين قد أضيفت سنة ١٠٠ الى ولاية سورية . وفي سنة ١١٤ سار تراجان الى ارمينيا ولحرب الفرثين بسبب طرد الملك الفرثي خسرو للملك ارمينيا كزيداريس الذي نصبته روما واسندته . ووصل تراجان الى انطاكيا ثم سار عبر شمال العراق الى نصبين فاستسلم له حكام الملك الفرثي . وقضى الشتاء في انطاكية وعاد الى نصيبين سنة ١١٥ وأمر بصنع سفن انزلها في دجلة أوصلت جيوشه الى طيسفون التي سقطت بيده . وفي سنة ١١٦ مخر تراجان في نهر الفرات ووصل الى الخليج العربي ويقال انه رأى فيه سفينة تقلع الى الهند وتمنى لو كان أحدث سناً لسار الى هناك . ولما اشتدت المقاومة للرومان قضى عليها ايروكيوس كلاروس الذي اخضع بلاد بابل واحرق سلوقية على دجلة . كما أخمد لوشيوس كويتوس ثورة في شمال العراق وألحق المنطقة بالدولة الرومانية وشكلت منها ولايتا مابين النهرين واشور . وعند عودة تراجان نصب على العرش الفرثي في طيسفون ابنا آخر لخسرو اسمه پارثاماساپاتيس ولاقي تراجان مقاومة شديدة عندما حاول احتلال مدينة الحضر العربية في شمال العراق الغربي وارتد عن اسوارها خائباً بعد أن لقي من بسالة أهلها ما أعجبه .

كان تراجان معروفاً ببساطته حيث كان يأكل ويذهب للصيد مع اصدقائه وكأنه واحد منهم . ولما عرف يوماً أن شخصاً معيناً يتآمر لقتله ذهب بنفسه الى بيته دونما حرس او مرافقين وتناول الطعام معه . وكانت له طريقته الخاصة في اجتذاب الناس وفي الادارة اشرف على كل صغيرة وكبيرة . وكانت علاقته طيبة مع السنات واحاطه علماً بكل تحركاته وأعماله وسمح له بتعديل اجراءاته .

الفصل الحادي عشر
عصر الأباطرة الخمسة الصالحين ٩٦ ـ ١٨٠

وسمي أيضاً بعصر السلام والرخاء وأطلق على أباطرتها الاثنين الاخيرين اسم الانطونين ، وكان أولهم ماركوس نرفا (٩٦ ـ ٩٨) وعائلته بالأصل من كريت وهو محام قربه نيرون وأحب شعره وكان عضواً بارزاً في مجلس الشيوخ وتقلد مناصب عدة زمن فسبيشيان وتيتوس فكان قنصلاً مع الأول سنة ٧١ وقنصلاً مرة أخرى سنة ٩٠ مع دوميشيان الذي سرعان ماانفاه الى تارينتوم . وعند اغتيال دوميشيان وقع اختيار بترونيوس سيكوندوس قائد الحرس البريتوري وبارثينيوس حاجب القصر على نرفا وأعلنوه امبراطوراً بموافقة مجلس الشيوخ وكان آنذاك بعمر متقدم يزيد عن الستين ومعتل الصحة . وكان نرفا معتدلاً في سياسته فلم يعاقب حتى كراسوس الذي تآمر لقتله ، ومدح الكتاب القدامى عدله وحبه للعلم فتحقق بصعوده مايريده الفلاسفة الرواقيون من الحاكم . كما دعا المنفيين وأبعد الوشاة (الذين رفض تسليمهم الى الجماهير الغاضبة) والغى الضرائب وعامل المسيحيين بالحسنى واحترم مجلس الشيوخ الذي اختاره واقسم يميناً بعدم الحكم بالموت على أي عضو بالسنات وايقاف العمل بقانون الخيانة . واتبع سياسة تقشف شديدة لسد النقص بالميزانية ، ولم ترض سياسته رجال الحرس البريتوري الذين طلبوا منه تسليمهم قائدهم بترونيوس والحاجب بارثينيوس وقتلاهما انتقاماً لمقتل دوميشيان . وان كثرة مطالب الحرس اقنعت نرفا بأن الدولة تحتاج الى رجل أكثر حزماً وشدة منه ولم يكن له ولد فتبنى رسمياً تراجان ، وكان آنذاك قائد فرق أعالي الراين واشركه معه في الحكم سنة ٩٧ وخلفه بعد وفاته في بداية سنة ٩٨ . وامتاز حكم نرفا بمحاباته لروما وايطاليا وانشأ صندوقاً خيرياً (الألمنتا) لمساعدة ابناء المحتاجين والفلاحين الفقراء واهتم بالبريد وبنى في روما مخازناً للغلال وشيد القنوات العالية لنقل المياه . (١)

خلفه تراجان (٩٨ ـ ١١٧) وهو أول امبراطور روماني لم يولد بايطاليا حيث انه ولد بالمستوطنة الرومانية في ايتاليكا قرب اشبيلية باسبانيا سنة ٥٢ وكان والده عضواً في مجلس الشيوخ . دخل السلك العسكري صغيراً وتدرج حتى وصل الى رتبة قائد (بريتور) سنة ٨٥ وخدم في الشرق والمانيا وصار قنصلاً سنة ٩١ ومنحه نرفا عند تبنيه له الألقاب قيصر ونرفا وامبراطور . وكان تراجان وقت وفاة نرفا في كولون ففرح بصعوده الجميع وكان عسكرياً لامعاً في التنظيم والحرب وأحبه جنوده وخشوه بنفس

الوقت لأنه كان يشاركهم الصعاب ويقاتل جنباً الى جنب معهم في المعارك . ولم يرجع الى روما الا بعد أكثر من سنة من اعلانه امبراطوراً لانشغاله في استقرار الحدود على طول نهري الراين والدانوب . وقد أكمل تحصينات الراين والاغري ديكوماتيس (اراضي العشر وتشمل قسماً من المانيا يقع شرق الراين وشمال الدانوب) . ووافق على صعوده الحرس البريتوري والسنات . وأسس مستوطنة عسكرية جديدة (كولونيا تراجانا) قرب ڤيتيرا (على الراين الأسفل قرب برتن الحالية) وشق طرقاً جديدة على طول الراين والدانوب . ودخل روما سنة ٩٩ راجلاً وبصحبته زوجته پومپيا بلوتينا . وفي سنة ١٠١ سار لحرب الداكيين الذين أسس ملكهم ديكيبالوس لهم مملكة واسعة في مايسمى الآن رومانيا وسبق ان استرضي دوميشيان ملكهم هذا بدفع اعانة سنوية له وقد شغلته حرب الداكيين الأولى ثلاث سنوات طلب ديكيبالوس في نهايتها الصلح وقبل قدمي تراجان . واحتفل الأخير بانتصاره في روما سنة ١٠٣ واتخذ لقب داكيوس (داحر داكيا) . وفي شمال افريقية وسع تراجان حدود نوميديا الجنوبية الى الصحراء وبذلك ضم أراضي جديدة لتوزيعها على الفلاحين . كما أحكم سيطرته على بدو الصحراء بوضع حامية الولاية عند لمبيسيس الاستراتيجية الموقع والتي شيدت على مقربة منها مستوطنة ثاموغداي (تمجاد) في الجزائر الحالية . وفي سنة ١٠٤ سار تراجان ثانية لحرب ديكيبالوس الذي ظهر انه كان يراوغ روما وصار يشيد التحصينات ويجمع السلاح ويستقبل الهاربين الرومان وحدث ان خطف لونجينوس قائد الحامية الرومانية وهجموا أخيراً من الجنوب عبر الدانوب وهاجموا الجيوش الرومانية في مويسيا فعبر تراجان الادرياتيك وسار طويلاً في البر لحربهم وأطبق عليهم من الشرق والغرب .. وحوصرت عاصمتهم سارميز يغيثوسا وهرب ديكيبالوس ثم انتحر وهرب السكان الى الجبال بالشرق وصارت داكيا ولاية رومانية وحولت سارميز يغيثوسا الى مستوطنة رومانية باسم اولپيا تراجانا وجلب المستوطنون لها من جميع أنحاء الامبراطورية وغالبيتهم من الولايات الشرقية وشيدت مدن كثيرة واستغل مناجمها الكثيرة . وشيد تراجان خلال عملياته الحربية ضد الداكين جسراً على الدانوب عند الترن سيڤرين الحالية وبنى تراجان عموده المشهور في روما لتخليد انتصاره على الداكيين الذي نحت عليه ٢٥٠٠ شكل تصور مهندسين يشيدون جسوراً وعمالاً يصنعون طابوقاً وجنوداً يستغلون مناجماً وفرقاً عسكرية تهجم وجنوداً رومانيون في التشكيلة المعروفة باسم الضفدعة وفوق رؤوسهم الدروع تقيهم من ضربات سهام الأعداء .

واحتفل تراجان بانتصاراته على داكيا رسمياً لمدة ١٢٣ يوماً أقيمت خلالها المهرجانات

تمرض تراجان خلال حملته في بلاد مابين النهرين فأسرع الى ايطاليا لكنه توفي في سيلينوس بكليكيا التي صارت تعرف منذ ذلك الوقت باسم تراجانو پوليس أي مدينة تراجان . وحمل رماد جثته الى روما في زير ذهبي ودفن في استعراض فخم تحت عموده . ولم يكن لتراجان ولد ولم يعين أي خلف له ويذكر أن في اليوم نفسه الذي توفي به تراجان تسلم قريبه هادريان وكان آنذاك حاكما على سورية رسالة تذكر ان تراجان قد تبناه كوريثه وابنه ولانعرف أنه كان تراجان حقاً هو صاحب الفكرة وقيل أن صاحبة الرسالة هي پلوتينا زوجة تراجان التي قيل انها في حب مع هادريان غير أن الأخير كان مقرباً لدى تراجان الذي أسبغ عليه الكثير من القاب الشرف والمراتب .

شيد تراجان طرقاً عدة في الامبراطورية منها الطريق عبر أهوار پومپتيني ذو الجسور الكثيرة على الجداول المتعددة . كما ابتنى خزاناً كبيراً في اوستيا وقناة في روما مع مسرح في الكامپوس مارتيوس وشيد الفورم المعروف باسمه ذا الباسيلكات الكثيرة والمكتبات وفي الوسط عمود تراجان . كما شجع تراجان الزراعة وحسن الموانيء في اوستيا وانكونا واستمر في تمويل الصندوق الخيري لمساعدة ابناء المحتاجين وقدم القروض الى الفلاحين بفوائد مخفضة خصص أرباحها لاسناد تربية الاولاد والبنات وشمل بتوزيعه الحنطة عدداً كبيراً من الأطفال حتى يشجع الآباء على الانجاب وعين أمناء لادارة ممتلكات البلديات للخروج من ازماتهم المالية . (٢)

جاء بعده هدريان (١١٧ ـ ١٣٨) وكان عمره آنذاك واحداً وأربعين سنة . وقد ولد في اسبانيا وان تراجان (ابن عم والده) قد اشرف على تربيته لان والده قد توفي وعمر هدريان عشر سنوات . دخل هدريان الجيش في سن مبكرة وصار نقيب فرقة قبل وفاة دوميشيان كما كان مثقفاً بثقافة يونانية عالية ومعجباً بالهلنستية حتى سمي باليوناني الصغير . وكان متزوجاً من سابينا حفيدة اخت تراجان ورافق الأخير في اكثر حملاته مما اكسبته خبرة عسكرية واسعة . وعند وفاة تراجان أعلن هدريان امبراطوراً وأيدته الفرقة الرومانية في سورية ومجلس الشيوخ . وأول عمل قام به هدريان هو عقده صلحاً مع الفرثين اخذ نيه موافقة السنات ارجع به للفرثين ما استحوذ عليه تراجان وصار نهر الفرات هو الحد الفاصل بين المناطق التي يحتلها الرومان ومناطق الفرثين . وعاد الى روما سنة ١١٨ ومنحه مجلس الشيوخ نصراً ولقب ابا البلاد ولكنه رفض الأمرين . وقد عاقب أربعة من أعضاء السنات ، بالاعدام لاشتراكهم في مؤامرة ضده بالرغم من كونهم قناصل سابقين ومن المفضلين عند تراجان ، مع العلم ان هدريان قد اقسم يميناً أن

لايعدم عضواً من مجلس الشيوخ الا بقرار من مجلس الشيوخ ومحاكمة حرة من قبل المجلس نفسه . وعمل هدريان على تقليل نسبة الضرائب المفروضة وأسس مصلحة تشرف على المالية العامة يرأسها شخص من طبقة الفرسان مع أمناء للاشراف على جمع ضريبة الارث (٥ ٪) . واستحدث منصباً جديداً لسوق المتجاوزين على ضرائب الدولة في ايطاليا والمقاطعات . وصار فرض الضرائب من اختصاص لجنة يختار أعضاءها السنات من بين افراده ووجهاء المنطقة .

توجه هدريان سنة ١١٩ لحرب قبائل لاني السكيثين والسرماتين (شرق بولنده وجنوب روسيا الاوربية) والداكين لكنه حل المشاكل معهم سلمياً . وأولع هدريان بالتجوال في الامبراطورية حيث زار كل مقاطعات الامبراطورية لتفتيش أجهزتها الادارية والتعرف على رغبات السكان وتنظيم الولايات والنظر في مشاريعها العمرانية . وقام برحلتين طويلتين استغرقت الأولى من ١٢١ ـ ١٢٦ والثانية من ١٢٩ ـ ١٣٢ الى جانب جولاته القصيرة . وقد زار في الرحلة الأولى غالة وهولنده والولايات الالمانية على الراين وبريطانيا ثم اسبانيا التي ابحر منها شرقاً الى آسيا الصغرى ثم اليونان وصقلية وشمال افريقية التي انشأ بها خطاً دفاعياً من نوميديا (الجزائر) الى موريتانيا (المغرب) . وفي الثانية زار بعض مناطق آسيا الصغرى وسورية وأنشأ خطاً دفاعياً من دمشق الى ايلات . ثم عرج الى مصر وقام برحلة نيلية الى مصر العليا وأسس مدينة انطينوبولس (بلدة الشيخ عبادة في محافظة المنيا) تخليداً لذكرى صديقه انطينوس الذي غرق هناك . وفي بريطانيا أمر بتشييد سور من فم نهر كلايد حتى سلواي فريث لضمان المقاطعات الرومانية وحمايتها من هجمات الكاليدونين . وقام في بنائه القائد بلاتوريوس نيبوس من الحجر بطول ٧٣ ميلاً وارتفاع يقارب ٢٠ قدماً وأمامه خندق عميق وخلفه طريق يسير بمحاذاته وفي جنوبه استحكامات هي تعليات ترابية عرضها ٢٥ قدم لحمايتها . وحوى السور مراكز حصينة متقاربة وعلى مسافة كل ميل روماني ممر حصين وبلغ عدد الممرات ٧٩ .

رغم كون هدريان بسيطاً في حياته ويختلط مع أترابه بحرية مثل تراجان لكنه كان شكوكاً وهو أول امبراطور روماني يطلق لحيته . وقد انتحرت زوجته ساببنا قبل موته بقليل وقيل أنه هو الذي دس لها السم . وفي سنة ١٣٦ اتهم سرفيانوس بالتآمر ضده وأعدمه بالرغم من تقدمه في السن . وكان هدريان امبراطوراً عادلاً وحازماً ، لكنه مليء بالصفات المتناقضة فكان يؤمن بالخرافات التي راح ضحيتها الكثيرون حتى من المقربين اليه ، كما نسبت اليه مؤلفات منها تاريخ عصره نشره باسم عبده المعتوق فليغون وجمع

النحوي دوريثيوس بعض كتابات هدريان . ولدينا الآن بعض خطب هدريان وقراراته وأشعاره القصيرة وقطعة جميلة يناجي بها روحه وقيل أنه نظمها قبل موته بقليل . وقيل أنه قد انتمى وهو مار في اثينا في حلقة للطقوس السرية الايلوسينية .

لم يصدر هدريان أي قرار ضد المسيحيين الا انهم قاسوا كثيراً زمانه حتى توسط لهم عنده كودراتوس مطران اثينا والوجيه المسيحي فيها اريستيديس . وفي فلسطين قام بار كوكبا (ابن الكوكب) بثورة قاد بها الجالية اليهودية ضد الرومان وكان هذا قاطع طريق ادعى انه المسيح الذي ينتظره اليهود . وأخمدت الجيوش الرومانية حركته خلال ثلاث سنوات وحول هدريان الضفة الغربية الى ولاية رومانية باسم سورية الفلسطينية وعمر القدس وأطلق عليها اسم ايليا كابيتولينا وهو اسم مزج بين اسم عائلة هدريان واسم الاله جوبيتر كبير آلهة الرومان . كما شيد معبداً لهذا الاله في القدس وقيل أنه نصب تماثيل للآلهة فينوس في مواقع شنق المسيح وقيامته وأقام عبادة لأدونيس في المغارة التي ولد بها المسيح . ولم يسمح لليهود بسكنى القدس ولا الاقتراب لمنطقة مدى النظر منها ولم يعطهم الحق بدخول القدس الا خلال يوم ٩ آب من كل سنة فقط وهو ذكرى تخريب المعبد .

عرف هدريان باصلاحاته الادارية حيث كان يستشير مجلساً (كونسيليوم) وكثر موظفو جهازه الاداري وقسم ايطاليا الى اربع مناطق على كل منها حاكم برتبة قنصل مرتبط به وبذلك صارت ايطاليا متصلة بشخص الامبراطور وظل هذا النظام ساري المفعول خلال فترة حكم هدريان . كما نظم سلك الوظائف المدنية الذي اعتمد به على طبقة الفرسان الذين اعفاهم من الخدمة العسكرية وجعل هناك ديوانين للمراسلات اليونانية واللاتينية واستحدث منصباً جديداً للاشراف على الخيول والعربات الخاصة بمصلحة البريد في ايطاليا . كما شكل لجنة خاصة من كبار رجال القانون لجمع القانون الروماني . والمعروف ان كل حاكم قضائي (بريتور) ان يصدر عند مباشرته عمله منشوراً يذكر فيه برنامجه القانوني وربما يلغي اجراءات سابقة او يتبعها . وكان حاكم الأجانب القضائي (بريتور بريجرينوس) يصدر منشوراً آخر عند تعيينه يتضمن اجراءاته . وعهد هدريان الى سالفيوس يوليانوس كبير فقهاء زمانه بجمع كافة المنشورات البريتورية وأصدرت تحت اسم المنشور الهدرياني الدائم الذي صار المرجع القانوني للرومان الى جانب فتاوى الفقهاء وأحكام الأباطرة والتي صارت الأساس لمدونة جوستنيان القانونية في الفترة البيزنطية . وارسل هدريان الى الولايات الامبراطورية فقهاء في القانون لمعاونة الحكام في تنظيم القضاء . حيث كان اهتمام هدريان بالولايات

انطونينوس بناء ضريح هدريان وشيد معبداً لعبادة هدريان المؤله . وعزل القضاة الأربعة الذين عينهم هدريان لادارة العدل في ايطاليا . كما حسن دفاعات الحدود لاسيما في ريتيا ، وفي بريطانيا شيد سوراً من مصب نهر كلايد حتى مصب نهر فورث شمال سور هدريان . ونظراً لادارته المالية الحازمة صار قادراً على تقديم بعض مظاهر التسلية والمهرجانات للجماهير وشيد أبنية عدة . وفي سنة ١٤٦ منح السنات بناء على اقتراحه السلطة التريبيونية لخليفته ماركوس اوريليوس . (٤)

جاء بعد انطونينوس خليفة ماركوس اوريليوس (١٦١ ـ ١٨٠) وهو آخر أباطرة روما العظام وكان من أصل أسباني بالرغم من كون عائلته رومانية سكنت مستوطنة سوكوبو بأسبانيا . واسم ماركوس اوريليوس الأصلي ماركوس اينوس فيروس ثم اتخذ الاسم ماركوس ايليوس اوريليوس فيروس .

وايليوس هو اسم عائلة هدريان اما الاسم اوريليوس فيعود لانطونينوس بيوس . ثم ابدل الاسم فيروس بانطونينوس وعرف باسم ماروس اوريليوس (٥) . وهو من عائلة عرفت بالخلق العالي والاهتمام بالقضايا الفكرية . وقد توفي والد ماركوس بعد ميلاده بقليل ولم يتذكر عن والده شيئاً سوى ماكانت ترويه له أمه دوميتيا لوكيلا وهي ابنة قنصل سابق وكانت مولعة بالثقافة اليونانية ، تقية وذات اخلاق عالية اثرت بها كثيراً على ماركوس . فأخبرنا ماركوس بأنه تعلم منها الخوف من الآلهة والكرم والابتعاد عن الشر في الفكر والعمل (٦) . وقد جعله هدريان من الفرسان وهو في سن السادسة بالرغم من ان السن المعروفة لدخول هذه الطبقة سبعة عشر . واهتم به أيضاً جده انيوس فيروس الذي اعتزل الحياة بعد قنصليته الثالثة ووجه همه لحفيده ماركوس . ولم يرسل ماركوس الى المدرسة بل تعلم على أيدي مدرسين خصوصيين منهم ديوجنيتس الذي زرع فيه العقلانية وعدم الايمان بالخرافات . ودرسه النحو اسكندر من كوتايوم اليونانية المعروف بدقته واهتمامه بالتراث اليوناني لاسيما هو ميروس (٧) . وكان استاذه في الفلسفة والشرع فرونتو المحامي وفي الفلسفة كلوديوس ماكزيموس روستيكوس الفيلسوف الرواقي المعروف والذي أثر كثيراً على ماركوس فصار مثله رواقياً ، كما درسه سكستوس اللغة اليونانية (٨) . وقضى ماركوس الكثير من وقته في الريف الايطالي الهادىء ببيوت جده وتراجان وزوج عمته انطونينوس مما نمى فيه حب التأمل والعزلة . وفي سن السابعة أدخله هدريان في مدرسة سالي الخاصة بالاله مارس التي ينخرط بها أبناء أعضاء مجلس الشيوخ ورجالات الدولة للتدرب في البلاغة والسياسة . وعندما تبناه انطونينوس لازمه مدة ثلاث وعشرين سنة حتى قيل أن ماركوس لم يغب عن بيت انطونينوس طيلة هذه

كثيراً . ولم يكن هدريان متشدداً في منح الحقوق اللاتينية كما منح الحقوق البلدية الى قصبات نمت بظل المستوطنات العسكرية الحدودية الرومانية . وكانت علاقة هدريان بالسنات طيبة واستمر في اتباع سياسة تراجان حول نسبة أعضاء السنات المقبولين من آسيا الصغرى والولايات الشرقية بحيث صار السنات في نهاية القرن الثاني خير ممثل للامبراطورية ككل.

عمر هدريان كثيراً في روما فشيد معبداً الى تراجان وآخر الى فينوس وروما تعد من أوسع المعابد في المدينة . كما شيد مقبرة فخمة خلف التيبر وهي المعروفة الآن باسم قلعة القديس انجيلو وقد دفن فيها هو وبعض خلفائه . وشيد كذلك جسراً على التيبر.

لم يرزق هدريان بولد فتبنى بادىء الأمر كومودوس (فيروس) المعروف بدعارته وفلتانه ، ولما توفي هذا قبل وفاة هدريان بقليل تبنى الأخير انطونيوس . (٣)

احتل انطونيوس العرش بعد هدريان (١٣٨ ـ ١٦١) وهو بالأصل من غالة الناربونية وكان آنذاك في الثانية والخمسين من عمره وقد تبناه هدريان قبل وفاته بقليل واشترط عليه تبني ماركوس اوريليوس وقد أطلق عليه السنات لقب پيوس (المتحمس الحنون) لأنه تمكن من اقناع مجلس الشيوخ المتردد على اعتبار هارديان الهاً ومنحه التكريم الواجب وربما كان منح اللقب لادراك السنات لشعور انطونيوس بالواجب وحرصه على النظام وكان متزوجاً من فوستينا ابنة انيوس فيروس الذي تبناه هدريان وكانت ذات سمعة رديئة. ويعد من أحسن الأباطرة الرومان حيث كرس جهوده لرفاهية شعبه ، وكانت له خبرة في الادارة حيث عينه هدريان حاكماً على بعض الولايات وعضواً في مجلسه الاستشاري وكان عضواً في مجلس السنات . وصدر في عهده تشريع يقيد بطرق عدة حق السيد على عبده فصار لزاماً على السيد الذي تثبت قسوته في معاملة عبده بيعه . ولم يتبع انطونينوس سياسة هدريان في تأمين حدود الامبراطورية فقضى أكثر وقته في ايطاليا ولم يشن حرباً حتى لحماية حدود الدولة . وكانت علاقاته طيبة مع مجلس الشيوخ حياته بسيطة كريماً لأصدقائه واجتماعياً بالطبع ومحبوباً من الجميع ومعروفاً كفقيه عارف بالشريعة وفي زمانه امتدت الحدود في بريطانيا الى شمال سور هدريان وحوالي ١٠ ـ ٢٠ ميلاً في الزاوية بين الراين والدانوب حيث وضع خطاً دفاعياً جديداً والمعلومات عن عصره قليلة ، فهناك اضطرابات في داكيا وقامت جماعة الالانين من القفقاس بغزوات على ارمينيا . وفي الزراعة أجر الكثير من الملاكين الكبار أراضيهم الى المستأجرين الصغار واضمحلت الزراعة العلمية . وصار المستغلون الصغار يستثمرون مناجم الدولة بدلاً من المقاولين الكبار مما أدى الى قلة الانتاج وانعدام الكفاية . واكمل

المدة أكثر من مرتين وقيل أيضاً أن انطونينوس لم يرفع أحداً دون أخذ رأي ماركوس وعين كويستراً وهو في السابعة عشرة وقد تزوج ماركوس من ابنة عمته فوستينا ابنة انطولينوس وفوستينا الكبرى سنة ١٤٥ ورزق منها بأحد عشر طفلاً مات منهم ستة في حياتها . اشرك ماركوس خلال الثماني سنوات الأولى من حكمه معه في الحكم لوكيوس اوريليوس ڤيروس ابن لوكيوس ڤيروس الذي سبق أن نصبه هدريان خليفة له وتوفي قبل وفاة هدريان بقليل . وقد تبناه انطونينوس مع ماركوس بناء على أمر هدريان ولكن انطونينوس نحاه عن الخلافة نظراً لرذائله وضعف شخصيته وعيوبه . وبالرغم من اختلاف شخصيتي وصفات ماركوس ولوكيوس فقد حكما بصورة مشتركة وبتعاون (١٦١ ـ ١٦٩) وكانت خطأة فادحة ارتكبها ماركوس بالرغم من أن الزعامة كانت في يده . وقد زوجه ماركوس من ابنة اخته لوكيلا وعهد اليه بحرب الفرثيين التي قام بها خير قيام بفضل حنكة قائده السوري الأصل افيديوس كاشيوس . ففي سنة ١٦١ هجم الملك الفرثي ولغاش الثالث على ارمينيا وتغلغل في سورية وقتل القائد الروماني في كبدوكية الذي سار لصد المهاجمين ، وخربوا سورية ، وكان عدد الجنود الرومان المشاركين في هذه الحملة ٧٥ ألفاً . وقد أرسل جيش روماني الى ارمينيا بقيادة ستاتيوس پرسيكوس في وقت سار كاشيوس بجيش لحرب ولغاش . وتمكن كاشيوس من احتلال الرقة ودوسارا والرها والانتصار في سورا على الفرات ودخل سلوقية طيسفون حيث خرب القصر الملكي . وكانت مهمة پرسيكوس ناجحة أيضاً فقد دخلت الجيوش الرومانية عاصمة ارمينيا وأخذت حاكمها أسيراً ونصبوا بدله حاكماً رومانياً واستمرت الحرب أربع سنوات (١٦١ ـ ١٦٥) . لكن سرعان ماتفشى بين الجنود الرومان داء الطاعون ومات نتيجته كثيرون فانتهز الفرثيون الفرصة فسيطروا على ارمينيا ولكن الرومان تقدموا ثانية سنة ١٦٦ وطردوا الفرثيين من شمال العراق هي الخابور وطردوا حاكم ارمينيا الفرثي فعادت ارمينيا الى النفوذ الروماني ونصبوا عليه حاكماً موالياً لهم .

سار ماركوس لحرب القبائل الجرمانية التي اجتاحت داكيا وعبرت الدانوب واجتازت جبال الألب الى ايطاليا سنة ١٦٦ واحتلوا نوريكوم وبانونيا ووصلوا اكويليا على الادرياتيك وأخذوا يهاجمون الجيش الروماني . وكانت حاجة هذه القبائل ومنها الفكتوالي والماركوماني والكوادي الى مزيد من الأراضي كبيرة حيث لم تعد منطقة سكناهم بين الراين والفيستولا كافية لهم وأخذوا في التوسع على حساب الأراضي الرومانية . وقد سار ماركوس ضدهم أولاً وبصحبته شريكه لوكيوس وانقذا اكويليا . وكان الاصطدام الأول سنة ١٦٨ نصراً للرومان . وفي سنة ١٦٩ هجموا على داكيا

وتغلغلت قبيلة الكوستوبولي في شبه جزيرة البلقان حتى اثينا . وفي طريق العودة الى ايطاليا سنة ١٦٩ توفي لوكيوس . وكانت الامبراطورية آنذاك تشكو من عجز بالميزانية وقلة بالرجال لفتك وباء الطاعون بالمواطنين مما اضطر ماركوس على بيع كنوزه الخاصة في المزاد العلني وتسجيلها ايراداً للدولة . وسار ماركوس سنة ١٦٩ بنفسه لحرب القبائل الجرمانية في مائة وخمسين ألف جندي (٩) فاصطدم الايجيين والماركوماني . وقد دحرت الأولى سنة ١٧٠ ومنيت الثانية بخسارة فادحة سنة ١٧٢ وطلبت الصلح من روما وجند رجالهم في مراتب الجيش الروماني . وفي سنة ١٧٢ هاجم الكوادي الجيوش الرومانية فعبر ماركوس الدانوب ودحرهم . وقد شهد الامبراطور وجيشه صعوبات جمة في المناخ والأرض والحياة تلقاها بكل صبر وكانت تجربة عملية أثرت على فلسفته . وان بعض تفاصيل هذه الحملات مذكورة منها نجاة الامبراطور وقواته من خطر محتم بانتصاره على الكوادي سنة ١٧٢ بعد وقوع زوبعة غير اعتيادية وصقيع وبرد . وعزا الامبراطور الحدث الى الاله جوبيتر تونانس وادعى المسيحيون انه جاء استجابة لأدعية الجنود المسيحيين الى الله والذين كانوا يؤلفون الفرقة المعروفة بالملتهبة ويقال ان الامبراطور ماركوس عرف ذلك وأطلق على فرقة المسيحيين هذه اسم فرقة الرعد . وقد انهزم الكواديون وسمح لهم بالاستيطان في بعض مناطق الامبراطورية . واستغرقت جهود ماركوس السابقة في اخضاع هذه القبائل خمس سنوات لم يرجع خلالها الى روما . في وقت كانت الامبراطورية لاتزال تشكو من وباء حمله الجنود القادمون من حملة الشرق ضد الفرثيين لفتك بالكثير من السكان الى جانب فيضان التيبر الذي سبب خراب الكثير من البنايات والبيوت وقتل الزرع والضرع والبشر . وفي سنة ١٧٣ دحر ماركوس الماركوماني وسلموه الكثير من الأسرى والمواشي ثم هاجم الايزيجيين واكوستوبوكين في شرق غاليسيا . وفي سنة ١٧٨ سار ماركوس اوريليوس مرة أخرى لحرب الكوادي والماركوماني في بوهيميا وموراڤيا وكانت حركاته ضدهم ناجحة بحيث لم تتمرد القبائل الجرمانية ضد روما للمائتي سنة التالية .

في سنة ١٧٥ اشيع في الشرق ان الامبراطور ماركوس قد مات فصدق كاشيوس بالاشاعة وأعلن نفسه امبراطوراً فصمم ماركوس على حربه ولكنه قبل ان يسير ضده سمع بذبح ضباطه له وانتهاء التمرد وبعث برأسه الى ماركوس الذي عفا عن المتآمرين معه . وقرر ماركوس القيام برحلة في الامبراطورية لتوحيد اجزائها وتقوية الرابطة بين الحاكم والشعب . وفي سنة ١٧٥ غادر ماركوس پانونيا مع زوجته وولده كومودوس فزار اثينا وتجول في داكيا وموسيا وسمرنا (ازمير الحالية) وسورية - فلسطين وأبحر الى

الاسكندرية وعفا عن سكانها ثم عرج الى انطاكية مركز الثورة ضد الدولة وعاقبها . وفي قرية هلالي ماتت زوجة الامبراطور وحزن لوفاتها وقطع زيارته وعاد الى روما . وفي سنة ١٧٧ حدثت ثورات في غالة ومصر وموريتانيا بين القبائل .

استبدل ماركوس المشرفين على توزيع القمح الرخيص لاساءتهم التصرف ووضع بدلهم موظفين من المراتب القنصلية او البريتورية ومايقاربها . وأسس دوراً الى الفقراء والعجزة ومالية خاصة لاعانة الفقراء من الموظفين واهتم بالقضاء وزاد عدد الأيام التي ينظر بها هو في شكاوى الناس الى ٢٣٠ يوماً (١٠) . وقد يصل بتحقيقه في قضية الى اسبوعين غير أنه لم يعاقب المدانين بالصرامة التي ينص عليها القانون وكان يحيل قضايا الاعدام الى مجلس الشيوخ لتصديقها كما بسط الاجراءات القانونية في المعاملات واصلح طريقة اختيار القضاة . وأوجد ميزانية خاصة لمساعدة الزوجات الصغيرات السن ومنع الاستحمام المشترك وعمل على تحسين أحوال العبيد فأصدر قانوناً حتم على أصحاب العبيد احالة مخالفات عبيدهم الى المحاكم دون معاقبتهم هم انفسهم لهم ولايحق للأخيرين تعذيبهم لحملهم على الاعتراف بجرائمهم بل عليهم رفع دعاوى ضدهم في المحاكم . وهناك مواد في القانون الجديد خاصة باخفاء العبيد وعودة العبد الهارب ومكنت مواد أخرى العبيد من ادارة ممتلكات أسيادهم الذين يموتون دونما ورثة . كما حسن ماركوس مركز المرأة فسمح لها أن تقدم شكوى ضد ادارة قانون الحبوب وأعفي الزوج الذي يقتل زوجته التي اكتشفها تحيا مع شخص آخر . وعد ماركوس الزواج مؤسسة مستقلة ومنع ابنة عضو مجلس الشيوخ من الاقتران بأحد معتوقي والدها كما شجع الجنود على الزواج . وعين ماركوس موظفاً خاصاً يشرف على استيراد الحبوب إلى روما من الولايات . وشجع الزراعة في الولايات وسمح للمزارعين بعدم حضور جلسات المحاكم خلال أوقات الحصاد والغى المنازلات العنيفة في الملاعب وساق المنازلين الى الخدمة العسكرية . ومنح الجنسية الرومانية لطالبيها مما زاد المدخولات لأن هناك رسوماً كانت تفرض على منح الجنسية الرومانية . وصار مالك الأرض الجديد مسؤولاً عن كل الضرائب السابقة غير المدفوعة عن الأرض . (١١) وفي سنة ١٨٠ توفي ماركوس اوريليوس بالحمى في معسكره بمدينة فندوبونا (فينا الحالية) .

كان ماركوس اوريليوس رواقياً ويعكس كتابه التأملات الذي دونه قبل وفاته ببضع سنوات أفكاره وفلسفته . ويظهر أنه لم ينو أن يكون كتابه في متناول القراء بل انه كتب أفكاراً خطرت خلال فترات تأمل لاستعماله الخاص في الغالب دونها اثناء فترة حربه مع القبائل الجرمانية وقد ذكر في فصول الكتاب الأخيرة الأمكنة التي كتبها فيها . فقد كتب الفصل الأول خلال حربه الكواديين والثاني بكارنونتوم في بانونيا ؛

والكتاب خال من الترتيب عدا الفصل الأول . ويتضمن الكتاب ماتعلمه ماركوس من الآخرين والصفات التي وجدها عند الشعوب والأمم الأخرى والتي جعلته يجتهد في تحسين نفسه . فمن جده تعلم الخلق الطيب وضبط النفس . ومن اقربائه واصدقائه ومعلميه استقى الصفات التي يسعى المرء لاكتسابها خلال آلاف السنين وهي التواضع والتقوى والابتعاد عن الشر واحترام الكبار وحب الصدق والحق . والموت برأي ماركوس خير وليس شراً لانه يحل بجميع الناس وهو عملية طبيعية يلزم ان لا يخاف منها المرء . فالموت يجردنا من الحاضر ولكن ليس من الماضي والمستقبل وهو لغز الطبيعة وتحلل العناصر . فالبشر زائلون ولاقيمة للحياة ولذلك علينا أن نكون قنوعين بالحياة ومع الطبيعة . وان سوء الحظ يجب أن لايمنع الانسان ، برأي ماركوس ، من أن يكون عادلاً وحصيفاً ومتواضعاً وصادقاً الخ .. والكون متكامل وكل الأشياء فيه أجزاء من هذا الكل بما فيه الانسان . وكل مايحدث للانسان فهو شيء يحدث لخير الكل بالرغم من نفور الشخص منه أحياناً . (سلام عام سواء في البيت أو المدينة أو الامبراطورية أو العالم أو في القلب) الخ .. الوقت مثل نهر يحمل معه كل شيء ويشغل الانسان مكاناً قصيراً وسريع الزوال في مسار الزمن .. الجميل جميل بنفسه اما الثناء عليه والاعجاب به فليس جزء منه ويحتاج الجمال الى الحق والالتزام والتواضع .. ان الاسراف بالملذات يضر الروح وكذلك الألم كما يضر بها عدم الاخلاص والكذب .. وان الاشياء المادية لاتمس الروح ولاتؤثر عليها الأفكار ولذلك يوصي ماركوس بالحرص على الأفكار .. جميع الأشياء اجزاء في الكون ، واذا تغير شيء فانه يتبدل الى جزء آخر من الكون .. الانسان أسمى من الحيوانات جميعاً وكل المخلوقات لأنه يتملك عقلاً .. كن صبوراً ومتحملاً وابتعد عن الغضب وحاول مساعدة الذين اخطأوا بعد أن تريهم اخطاؤهم .. ان الحياة الطيبة هي الحياة الفلسفية . ويحترم ماركوس الدولة ويقول أن مالايؤذي الدولة لايضره ومن يقتنع بما أصابه يعيش مع الآلهة وان الرجل الطيب هو الذي لايضر أحداً بالقول أو بالعمل . (١٢) وتقرأ في التأملات أيضاً الأقوال (احفظ نفسك بسيطاً طيباً بعيداً عن كل رذيلة وموبقة ، محترم ، مستقيم ، محب للعدل خائف من الآلهة ، محب للآخرين حريص على أداء واجبك .. احترم الهتك ، انقذ اخوتك البشر ، فالحياة قصيرة ، ان هذا هو حصاد الحياة الأرضية) .

ولسوء حظ هذا العاهل الفيلسوف فقد امتاز عصره بكثرة النكبات والكوارث التي حلت بالامبراطورية من فيضانات وزلازل وتفشي أمراض وقحط . وكان عندما يكرس معبد جديد فلم يكرسه الى أي من الآلهة الأولمبية بل الى الرحمة والشفقة وما الى ذلك .

وهناك اشارات في كتابه التأملات امثال (قطعوا ارباً ارباً بوساطة الحيوانات الوحشية) ، ربما تشير الى المسيحيين الذي قيل انهم لقوا اضطهاداً زمانه . ويقول المؤرخ السوري اميانوس مارسيلينوس بان ماركوس عندما زار سوريا وفلسطين قد تقزز من اليهود في الأخيرة وصاح قائلاً (ياماركوماني ياكوادي نقد وجدت بعد زمن طويل جماعات أكثر تعاسة منكم) ، والماركوماني والكوادي من القبائل الجرمانية المتخلفة زمانه وأراد أن يقول بعبارة أخرى أن اليهود أقبح جماعة رآها في حياته . وهناك وثائق مسيحية (ربما تكون ملفقة) تحمل أدلة على مدى الاحترام الذي كان يكنه المسيحيون الى الامبراطور اوريليوس . وان اوريليوس عرف الفلسفة بأنها مدرسة الحق والفضيلة . ويظهر انه لم تكن لديه فكرة واضحة عن الاله فاحيانا يذكر بالمفرد واخرى بالجمع وأحيانا نراه متقبلاً المعقيدة التقليدية بتقوى بسيطة وأخرى نستنتج منها بأنه ملحد .

خلف ماركوس اوريليوس ولده كو مودوس (١٨٠ - ١٩٢) الذي اشركه والده معه في الحكم فترة وكان ضعيف الشخصية جباناً وقاسياً مولعاً باللذات ورث ، حسب مايظهر ، الرذائل من أمه فوستينا ويبدأ المؤرخ كاشيوس ديو كلامه عنه بالقول (والآن يهبط تاريخنا من مملكة ذهب الى تلك من حديد وصدأ) . وكان عمره عند اعتلائه العرش تسع عشرة سنة . وعقد الصلح مع الماركوماني والكوادي الذين كان يحاربهم بصحبة والده عند وفاة الأخير وبالشروط التي تمتعوا بها بالسابق والتي حفظ بها المصالح الرومانية على طول الدانوب . وعاد كومودوس الى روما ليعش حياة بذخ وفساد تاركاً لمقربيه الأمور أمثال پرينيس رئيس الحرس البريتوري المعروف بقسوته بالرغم من ادارته الحازمة وخبرته . وبعد أن قتله الامبراطور سنة ١٨٥ متهماً اياه بالخيانة استأثر بالأمور العبد الفريجي كلينڈر الذي ظلت الامبراطورية تئن تحت نير ظلمه لثلاث سنوات وحول الدولة الى مزاد علني تباع به وظائف الدولة ومالها ولما هاج الشعب لقحط جاء نتيجة سوء ادارة المسؤول عن توزيع القمح وبعد فشل فرسان الحرس البريتوري في كبح جماح الشعب الثائر دفع الامبراطور لهم بكليندر فقتلوه شر قتله . وكان أنيقاً في لباسه يكثر من الاستحمام حتى قيل انه كان يستحم ثماني مرات باليوم الواحد ناثراً الذهب على شعره يرتاد الملاعب وينازل الحيوانات الوحشية التي قتل منها الكثير نظراً لقوته البدنية ولم يتورع عن قتل منازليه من المتبارين وقيل انه فاز في ٧٣٥ مباراة وكان رامي قوس ماهر يهوى سباق الخيل ، واتخذ من البطل الخرافي هرقل الهه الشخصي ورسم رموزه (العصا وجلد الأسد) على تماثيله وعد نفسه تجسده على الأرض وأطلق على نفسه هرقل روما حتى قيل أنه كان يلبس حلة هرقل ويأخذ يضربه رجال بلاطه بالعصا .

حكم كومودوس في روما كطاغية مطلق حيث سرعان ماتخلص من وزراء والده والقى زمام الحكم الى جمع من موظفيه المفضلين واهتم بارضاء الحرس البريتوري الذي أيده وحماه . وقد ضرب جماعته العدل جانباً بينما انصرف الملك في حياة فجور ولهو نضبت من جرائها الخزانة العامة من المال وفسر ارتفاع الاسعار في أواخر القرن بالتضخم الذي نتج عن مدفوعات الأباطرة ومصاريفهم على جنودهم وأحبائهم . وانه فاق كل من قبله بالانانية حتى انه غير اسم روما واطلق عليها اسمه وهو الشخص الوحيد الذي فرض عبادته خلال حياته وسك نقوداً رسم عليها صورته كاله وكان يذبح خصومه بيده وصار قنصلاً سنة ١٩٢ . وقد دبرت مؤامرات عدة ضده ، فقد حاول ماترينوس وهو جندي هارب وجمعاً من الجنود الهاربين ، اغتيال كومودوس في احتفال الالهة سيبيل ، كما حاولت اغتياله اخته لوكيلا بالاشتراك مع پومبيانوس ابن زوجها فلم يكتب لها النجاح . وقد قمع الاضطرابات في الامبراطورية زمانه (موريتانيا ، والكاليدونيون في بريطانيا وقبائل داكيا) بكل نجاح لكنه رضخ لمطالب المتمردين من فرق الجيش في بريطانيا . وامتلأت ايطاليا بالسراق الذين وصلوا في غالة من القوة بحيث سيطروا على مدن بكاملها وهاجموا قوات الدولة .

بلغ من بذخ الملك ومقربيه ان أفلست الخزانة وبعد فشل المؤامرات ضده صار شكوكاً وأوقع جام غضبه بأعضاء السنات الذين قتل منهم الكثيرين . وعاد الوشاة وكثرت مصادرات أملاك المعارضين له . لكنه في الوقت نفسه أكد حقوق المستأجرين الزراعيين في المقاطعات الامبراطورية بأفريقية حيث أدخل المشرفون نظام سخره لايختلف بالشدة عن الاستعباد سنة ١٨٢ . وفي سنة ١٨٦ فتح كومودوس مصلحة ملاحة لنقل المحاصيل الزراعية من افريقية الى روما .

في سنة ١٩٢ قتل كومودوس خنقاً وهو في الحمام وقتله لاعب نازله في مباراة مصارعة كان قد رشاه كونيتوس لايتوس قائد الحرس البريتوري الذي لم يأمن جانب الملك عندما اصطدم بعشيقة الملك مارسيا وحاجبه اكليكتوس . وقيل ان الثلاثة قد تآمروا على قتل الامبراطور وحرضوا المصارع عندما وجدوا اسماءهم في قائمة لدى كومودوس فيها اسماء من ينوي قتلهم وبعد فشل مارسيا في محاولتها سمه . وأمر السنات بعدم تخليد ذكراه وكسر تماثيله ومسح اسمه من الكتابات كافة وقد دفن سراً غير أن خليفته بيرتيناكس نقل رفاته الى مقبرة هدريان . واختار القتلة لخلافته بيرتيناكس . وظلت الامبراطورية في حرب أهلية حتى سنة ١٩٧ اغتيل خلالها بيرتيناكس وخلفه يوليانوس الذي وقفت ضده ثلاث فرق عسكرية رومانية متنافسة رشحت كل منها

قائدها للعرش وهم البينوس في بريطانيا وسبتميوس سيفيروس في پانونيا العليا ونايجر في سورية . وأخيراً تمكن سيفيروس من دخول روما متفقاً مع البينوس ثم دحر نايجر . (١٣) .

حضارة العصر :

صحب حصر الامبراطور للواجبات الادارية في شخصه تطور جهاز اداري بموظفين مرتبطين بالامبراطور يعينون ويرفعون بارادته وكان الموظفون في البداية من المعتوقين . وقد اختار دوميشيان وتراجان موظفين من طبقة الفرسان وعمم هدريان هذه الممارسة فقل عدد المعتوقين في دوائر الدولة مما أدى الى تحول جهاز الادارة من ادارة قصر باختصاصات متباينة الى مصلحة مدنية بموظفين تحسن الآن حالهم . واخرج هدريان المعتوقين من غالبية الوظائف المالية العليا في الولايات . وقد ازداد عدد الموظفين الماليين الكبار من طبقة الفرسان من ٢٣ زمن اغوسطوس الى ٧٠ زمن سبتميوس سيفيروس . وازداد عدد الموظفين كثيراً زمن تراجان وهدريان وصاروا زمن الأخير يسيطرون على جميع فروع الادارة . كانت اصلاحات هدريان في جمع الضرائب مهمة ، فقد حل موظفون حكوميون بدلاً من المقاولين الخاصين لجمع الضرائب واستحدث منصب المدافع المالي حيث يعقب قسمه مصالح الدولة ضد المتهربين من دفع الضرائب . ووصلت المركزية في الحكم عنفوانها زمن سبتميوس سيفيروس الذي جعل الاشراف العام على الجهاز الاداري بيد الحكام البريتوريين . وصار النظام البروقراطي للحكومة واسعاً ومتخصصاً ومتناسقاً . وعهد هدريان الى طبقة الفرسان بهذه الوظائف وفتح سبتميوس سيفيروس باب الوظائف المدنية والمالية الى الجنود مما يدل على تحيزه للجيش . ومنذ زمن هدريان صار الفرسان يدخلون مجلس السنات غالباً كقناصل سابقين وفي القرن الثالث وصلوا الى منصب حاكم المدينة السناتوري وصارت الشواغر في مراتب الفرسان العليا نتيجة ذلك تملأ من درجات هذه الطبقة الدنيا الذين كانوا يجندون من المعتوقين والجنود وارستقراطيي البلديات والولايات مما أدى الى تحول الفرسان من رومانيين صرف الى طبقة تمثل الامبراطورية ككل . وبعد القرن الأول قلت نسبة الداخلين من ايطاليا والغرب في وقت زادت به نسبة أولئك من افريقية وآسيا الصغرى بالقرن الثاني ومن سورية والعربية الحجرية في القرن الثالث . وجاءت زيادة نسبة الداخلين من الاقطار الشرقية في وقت وصل به عدد الداخلين من طبقة المعتوقين أعلى نسبته . وأدت هذه الأمور الى ظهور الألقاب المختلفة امثال النبيل أو الأكثر وجاهة (كلوريسيموس) لطبقة الشيوخ والذي صار رسمياً في القرن الثاني . كما حصل الفرسان على ألقاب شرف مختلفة

بالنسبة الى مراكزهم كالرفيع (امينينتيوس) زمن هدريان واللقبين المثالي (ڤير پير فيكتسيموس) والمكرم (ڤير اغريغيوس) .

تميزت الفترة بنمو الحكم الفردي واضمحلال السنات فقد عين أباطرة القرن الثاني خلفاء لهم بصورة مستقلة عن مجلس الشيوخ . وفقد مجلس الشيوخ خلال هذا العصر غالبية وظائفه الادارية في روما وايطاليا حيث أخذ سلطاته الحكام والموظفون . فمن زمن كلوديوس حل موظفون من طبقة الفرسان في ادارة بتجهيز الحبوب وحفظ الأمن والأعمال العامة والطرق ، وفي نهاية القرن الثاني استعيض عن جميع الأمناء من أعضاء السنات وصار الامبراطور يدير شؤون ولايات مجلس الشيوخ أحياناً وحتى تعين حكام هذه الولايات قد صار منذ القرن الثاني بيد الأباطرة . ولنا من تعين تراجان لپلني الصغير على بثينيا وهي ولاية سناتورية لاصلاح ماليتها خير مثال . وقلت أهمية السنات في الوظائف الانتخابية والتشريعية ، واستحدث هدريان لجنة خاصة من رجال قانون معروفين لاستشارتهم في أمور الدولة ومشاكلها دون أخذ مجلس الشيوخ بنظر الاعتبار . ولم يعد مجلس الشيوخ على ماكان عليه من قبل حيث دخل فيه الكثيرين من طبقة الفرسان .

في حقل المالية كانت هناك المالية العامة (الفيسكي) ، وفي زمن أغوسطوس كانت خزانة الدولة المركزية (الايراريوم ساتورني) في روما التي ترسل اليها مدخولات الولايات ومنها يصرف على مرافق الدولة كافة . وفي كل ولاية سواء امبراطورية أو سناتورية هناك فرع محلي من الخزانة المركزية ترسل اليه الضرائب ويسحب منه الحكام المصروفات العامة . وكانت ولايتا مصر وآسيا الغنيتين تبعثان على الدوام فائضاً من مدخولاتها الى الخزانة المركزية . واستحدث اغوسطوس خزانة عسكرية خاصة لاعطاء رواتب الجنود المسرحين . رفتح فسپيشيان خزانة خاصة في روما يودع فيها فائض الأموال الواردة من الولايات الثرية . ثم خزانة الامبراطورية الخاصة (پاتريمونيوم) ، وكثيراً ماكان الأباطرة يتبرعون الى الخزانة من أموالهم الخاصة وعند وفاتهم تدار كل أراضيهم من الدولة . وقد الحق سبتميوس سيڤيروس بخزانته الخاصة الأموال والممتلكات كافة التي صادرها من اتباع منافسيه نايجر وألبينوس وجعلها تحت ادارة مصلحة عامة . وميز في عهد اليوليو كلوديون بين دخل الدولة ودخل الامبراطور الخاص وعين موظف خاص لادارة خزانة موارده . ونمت مقاطعات الامبراطور نتيجة المصادرات والعطايا الى حد كبير لاسيما زمن كاليغولا ونيرون بحيث نظم كقسم مستقل من المالية الامبراطورية .

وفي الجيش أراد اغوسطوس ان يكون للرومان والايطاليين اليد العليا فيه واجتهد ان يكون مجندوه من مواطني ايطاليا ولكنه واجه مشكلة تردد الايطاليين من الخدمة العسكرية وبالتدريج اتبع التجنيد على أساس المنطقة مجنداً الفرق التي ترابط في الغرب في ايطاليا والمقاطعات المرومنة اما الفرق الشرقية فمن اليونانيين بالشرق وغلاطية. وصار نصف المجندين في نهاية عهد اليوليو كلوديين من الولايات وازدادوا كثيراً في القرن الثاني بحيث صارت نسبتهم خمسة الى واحد بالنسبة الى الايطاليين. وجاء مع هذه تجنيد الفرق من المناطق التي ترابط فيها. وفتح سبتميوس سيفيروس مراتب الحرس البريتوري الى سكان المقاطعات كما صار بعض الجنود المرتزقة في القرن الأول من المواطنين وقد زادت نسبة الأخيرين زمن هدريان الى النصف. وان تعميم المواطنة الرومانية الى جميع الامبراطورية الرومانية سنة ٢١٢ زمن كراكلا ازال التميز القانوني بين الجنود الرومان والمرتزقة. وصار الأخيرون في القرن الثاني يحصلون على التدريب نفسه والأسلحة نفسها مثل الفرق الرومانية. وعندما صار عدد الجنود المرتزقة مقارباً للفرق الرومانية حل محلهم بالتدريج في المؤسسات العسكرية تنظيمات النوميري ابتداء من زمن فسبيشيان وهي فرق محلية من شعوب الحدود غير الرومانية يحتفظون بأسلحتهم وطرقهم القتالية ويقودهم ضباط رومان ويستخدمون اللغة اللاتينية في أوامرهم وتقابل وظائفهم ماكان عليه المرتزقة في السابق. وكان عدد الفرق زمن أغوسطوس ٢٥ زيدت الى ٢٨ زمن نيرون و٣٠ زمن هدريان و٣٣ زمن سبتميوس سيفيروس (١٨٠ ألف جندي). كما ازداد المرتزقة من ١٥٠ ألف زمن اغوسطوس الى ٢٢٠ ألف في القرن الثاني وبذلك كان عدد الجيش الروماني في بداية القرن الثالث حوالي ٤٠٠ ألف جندي. وكانت كل فرقة منقسمة الى عشر كتائب (٣٠٠ ـ ٣٦٠ في كل كتيبة) وكل كتيبة تتألف من ثلاثة شراذم (الشرذمة ١٠٠ ـ ١٢٠ جندي) وكل شرذمة تتألف من مجموعتين (بكل مجموعة ٥٠ ـ ٦٠ جندي). أما سلاح الفروسية فيتكون من سرايا (تورماي). وكان القائد العام (الامبراطور أو الدوكس) هو رأس القوات المسلحة الرومانية وتحت امرته قواد الفرق (اللغاتي أو بريفاكتوس زمن سبتيموس سيفيروس)، وبكل فرقة ضباط (تريبوني مليتوم) ثم مساعدوهم (كونتوبرياليس). أما حسابات الجيش فبيد الكويستر. وفي زمن سبتيموس سيفيروس صار قوام الفرقة ٦١٠٠ مشاة و٧٢٦ خيالة. وفي بداية الامبراطورية كانت قيادة الجيش والفرق بيد رجال من المرتبة السناتورية ويقود الفرسان سرايا من الخيالة. وكانت آلات الحرب الرومانية المهمة هي القذافة ذات العجلات التي تجرها الجنول ثم الأبراج المتحركة ذات المجانيق للدفاع عن أسوار المدن المحاصرة. والمقلاع الميكانيكي والمنجنيق والسلحفاة، وفي الأخيرة يسير خمسة صفوف من

الجنود خمسة بكل صف وعلى رؤوسهم ١٥ درعاً تغطيهم جيعهم وخمسة دروع على كل جانب (٢٥ درع بالمجموع) لحماية الجزء الأسفل من أجسامهم . ويكون الخمسة في الأمام واقفين بينما العشرون وراءهم منحنيين لاقتحام المدن ذات الأسوار الواطئة ويستخدم الجنود الباقون سلماً . وفي البحار كان هناك مايسمى ثلاثي المقاذيف في البحر حيث يلصقون مقدمة سفينتهم بسفينة العدو ويمدون جسراً يعبرون عليه الى سفينة العدو ليقاتلوه . كل هذه الى جانب الأسلحة الأخرى كالدرع والسيف والرمح والخناجر وغيرها . وكانت أحذية الجنود الرومان تسمى كاليغي الذي سمي عليه الامبراطور غايوس (كاليغولا) وكانت مزودة بمسامير خاصة برتبة مرتديها فسامير الجندي حديدية والضابط فضية والقائد ذهبية .

من التطورات المهمة في جيش الفترة ابتداء من اغوسطوس هو تحول الجيش من قوة ميدان الى جيوش حاميات ترابط في الأماكن الاستراتيجية ذات الحماية الطبيعية على طول الحدود عند معسكرات محصنة على طول الصحراء ، والمحيط ، والدانوب والراين تصل اليها الطرق المعبدة وترابط بها جيوش رومانية ومرتزقة ونوميري ، وسميت الطرق العسكرية ليمتيس التي كانت تحميها قلاع صغيرة يرابط بها جنود من المرتزقة . ففي القرن الثالث كانت الحدود الرومانية في المانيا يحميها نظام حصون وقلاع لمسافة حوالي ٣٤٥ ميلاً ابتداء من رابنبر وهل على الراين حتى هاينهايم على الدانوب . وبدأ دوميشيان بتأسيس خط حدودي مستمر على طول هذه الحدود يتألف من تعلية أرضية تتخللها أسوار خشبية وأبراج واقية من الخشب وقلاع مرتبطة بعضها مع بعض بطرق . وشيد تراجان طرقاً عسكرية على طول الحدود الشمالية من الراين حتى البحر الأسود وفي العربية وافريقية وبنى هدريان سوراً من جذوع أشجار البلوط الى ارتفاع ٩ أقدام لتسهيل العمل في أبراج المراقبة ، كما قصر وقوى خط الليمتيس بأن جعلها أكثر استقامة . وحول انطونينوس القلاع المتقدمة الى أبنية من الطابوق وجعل لها كراكلا فيما بعد سوراً من الحجر ارتفاعة تسعة أقدام وسمكه أربعة أقدام يمتد لمسافة ١٠٥ أميال . كان الرومان يهتمون بالطرق اهتماماً كبيراً فكانوا يحفرون مكان الطريق ثم ينثرون فيه طبقة من الحصى ويضعون فوقها طبقة من الحجارة المجروشة مع خليط سميك من الجير ويغطي كل ذلك بطبقة من الطين المسحوق والجير وأخيراً يبلط بكتل كبيرة من الحجارة المسطحة مرصوفة الواحدة الى جنب الأخرى ، ويكون سمك الطريق بين ٩٠ ـ ١٥٠ سم . وكان نتيجة تأسيس القلاع الدائمة على طول الحدود الاستنفار الدائم للجنود المرتزقة . فقد كانوا يسكنون بصورة دائمية منذ بداية القرن الثاني وتمنح اليهم الأراضي عند الحدود

للاستفادة منها وحمايتها وبذلك صاروا قوات حدودية . وأعطى سبتيموس سيفيروس الامتيازات نفسها الى السكان المدنيين في بعض المناطق الحدودية . وتوسعت المدن التي نمت حول المستوطنات العسكرية الدائمة حيث سكنها التجار المحليون والجنود المسرحون والذين منحهم الأباطرة في القرن الثاني حق الحكم الذاتي (البلديات) . ومن هذه المدن بون (بونا) ، مينز (موغونيتا كوم) ، فيسبادين (أكوا ماتياكا) وڤيناو بودابست (اكوينكوم) وبلغراد (سينغيدونوم) . وصارت المدن الواقعة على الأنهار والبحار أو الطرق التجارية أكثر سعة ورخاء وأهمية . كما كان الرومان اسطولان يرابطان عند مسينوم ورافينا لضمان الارتباط بحراً بين روما وولاياتها لنقل الجيوش والتجهيزات .

كان عدد الولايات الرومانية في بداية حكم الزعامة ١٣ صارت ٢٨ لدى وفاة هدريان وزادت كثيراً في القرن الثالث نتيجة تنظيم المناطق المغزوة وتقسيم الولايات الكبيرة لتسهيل ادارتها وزيادة الخدمات وتقليل احتمال الثورات . وقد ذكرنا ان حكام الولايات السناتورية كانوا من صنف الحكام المخولين من الرتبة البريتورية . أما آسيا وافريقيا محتكرة بيد ألقناصل السابقين . وكان يعاون كل قنصل مخول كويستراً وثلاثة ليغاتي بدرجة بريتور مخول . أما حكام الولايات الامبراطورية فأما أن يكونوا حكاماً بسلطة واسعة (ليغاتي اوغستي) او وكلاء مالية وكان هناك ١١ قنصلاً مخولاً و٢٤ حاكماً بسلطة واسعة زمن هدريان وتسعة وكلاء مال . وكانت كل ولاية تتألف من مدن منظمة وجماعات قبلية أو قروية . ومن بداية حكم الزعامة صار مبدأ السياسة الامبراطورية تحويل المجتمعات القروية الى بلديات تتحمل أعباء الحكم المحلي ، في وقت كانت به مجتمعات الولايات في عصر الجمهورية منقسمة الى ثلاثة أصناف حرة ومتحدة ، حرة ومعفوة ، ودافعة ضريبة وفي نهاية العصر وبداية فترة الزعامة صارت غالبية المجتمعات الحرة تدفع الضرائب وبعضها حولت صفتها من حلفاء متحدين الى مستوطنات رومانية . وزاد عدد المستوطنات من كلا النوعين نتيجة تأسيس مستوطنات جديدة أو اسكان مستوطنين في مدن الولايات . ففي بيثيكا (اسبانيا البعيدة) زمن فيسبيشيان كانت هناك تسع مستوطنات وثماني بلديات للمواطنين الرومان و٢٩ مدينة لاتينية وثلاثة مدن اتحادية و١٢١ جماعة تدفع الجزية . وكانت الدولة تشجع تحويل الجماعات القروية الى بلديات منظمة فمثلاً في تيراكونينسيس (اسبانيا القريبة) انخفض عدد المقاطعات القروية من ١١٤ زمن فسبيشيان الى ٢٧ زمن هدريان . وان الحصول على المنزلة الرومانية او اللاتينية يجر معه الاعفاء من ضريبة الراس وتفتح المنزلة الرومانية الطريق الى جميع الوظائف المدنية والعسكرية وكانت المستوطنات الرومانية معفوة من

ضريبة الأرض . وفي سنة ٢١٢ منح كراكلا المواطنة الرومانية الى جميع البلديات غير الرومانية .

كانت هناك ثلاث مدن يونانية في مصر هي الاسكندرية وبطلمية ونوكراتيس وأضاف هدريان لها انطينو پوليس . وكانت هذه المدن عدا الاسكندرية تتمتع بالمؤسسات البلدية في وقت كانت به الاسكندرية (نظراً للاضطرابات التي كثيراً ماتنشب فيها) يحكمها موظفون امبراطوريون . وعاش بقية الشعب المصري في قرى ضمن ٣٦ مقاطعة وكانت الدولة تمتلك غالبة أراضي البلاد . ولأجل تنظيم الايرادات وجمع الضرائب وحفظ الوثائق فقد كان بمصر نظام اداري متكامل بموظفين مختلفين مرتبطين بالعاصمة الاسكندرية . وكانت مصر تزود روما بالقمح (٥ ملايين بوشل سنوياً) من ضريبة الأرض العينية . وفي سنة ٢٠٠ استحدث سبتميوس سيڤيروس مجلس سنات في الاسكندرية ومجلس مدينة في كل عاصمة من عواصم المقاطعات .

كان التأثير الروماني على صقلية كبيراً ، وكان سكانها يتألفون من فينيقيين ويونان وتشكل مصدراً مهماً لقمح روما وأراضيها مقسمة بين المدن اليونانية الساحلية وأراضي الامبراطور . ثم الغرب الفينيقي القليل المدن والداخل ، وظلت سردينيا مهمة لروما نظراً لثرائها بالحبوب والمعادن وصلاحية موانئها غير أنها كانت تحت أنظمة قبلية ، اما كورسيكا فكانت معدومة المدن فغالبية أراضيها تغطيها الغابات والمراعي .

كانت ولاية افريقية تنافس مصر في خصوبة تربتها وغنى زراعتها وصارت في عهد الامبراطورية من أهم الولايات الرومانية . فقد اشتهرت بالحبوب حيث كانت تزود روما بثلث قمحها وكرومها وخمورها وزيتها . ومنذ زمن اغوسطوس زادت المراكز الحضرية بافريقية كثيراً ومما يدل على ازدهارها في فترة الاحتلال الروماني كثرة المخلفات والآثار الرومانية . فقرطاجة كانت توازي روما بالحجم وان الكثير من اطلال المدن هي الآن في وسط الصحارى وتدل بقايا خزانات المياه والقنوات الرومانية على مدى الاهتمام بالري . وان ازدهار افريقية يبدأ في الواقع منذ زمن هدريان . ومن المدن الافريقية المهمة سرت ، وهادرومانتوم ، وهپوريجيوس ، وقيصرية ، وتوبوروما وحوس ، ولبتيس ولاميپسپس ، وان خرائب تمجاد في الجزائر الحالية وثيسدروس ذات شوارع منظمة وتصريف مياه ومسارح ومكتبات عامة وأسواق وبنايات عامة .. الخ . كما تأثر السكان بالحضارة الرومانية وكانت مركزاً مهماً لانتشار المسيحية .

قل انتاج المعادن الثمينة في اسبانيا خلال القرن الثاني ، وكانت المناجم ملك الدولة

يعمل فيها العبيد والمساجين . وكان انتاج بايتيكا ينافس مصر في الحبوب وتصدرها مع الزيت والخمر الى روما وكانت أراضي الدولة واسعة وكثيرة زادت منذ زمن نيرون . وعسكرياً كانت ترابط بأسبانيا فرقة واحدة زمن فسپيشيان عكس الفترات السابقة . وفي القرن الثاني صارت تجهز فرقتها الخاصة فقط . وزادت المراكز الحضرية بأسبانيا نظراً لتشجيع الأباطرة في وقت ظل فيه عدد المدن الكبيرة محدوداً . وان الآثار وبقايا المدن الرومانية بكل اسبانيا كثيرة وان لم تصل الى مافي افريقية .

اصطبغت غالة الناربونية بالصبغة الرومانية وازدهرت خلال هذه الفترة وتشهد بذلك كثرة البقايا الرومانية فيها امثال المسارح كتلك التي عند أورنج والملعب في أرليس وجسر غارد قرب نيمس وبوابات مدينة اوتون وأقواس النصر في مدن ناربو وارليس الخ . وكانت مرسيليا ميناء يونانياً غنياً . وكانت رومنة غالة كوماتا أقل درجة في القرن الثاني ، وكان سكان مقاطعات غالة الثلاثة يختلفون رسياً فهناك الايبريون في اكويتانيا والكلتيون في لوغدينينسيس والالمان في بلجيكا . واحتفظت هذه الولايات بالتنظيم القبلي لمناطقها الـ ٦٤ وعاصمتها عند لوغدونوم وكانت مزدهرة الصناعة وغنية الزراعة وكثيرة المعادن .

لم تصطبغ بريطانيا بالصبغة الرومانية الا في السهول والمدن . ولما جاء هدريان كانت مدن لنكولن ويورك ولندن ولكستر الخ . وقد ترسخت وصارت لندن مركزاً تجارياً مهماً . وكانت بريطانيا تزود الجيش الروماني بفائض وارداتها . وكثرت في بريطانيا المقاطعات الزراعية الواسعة وبيوت الملاكين وتحت القشرة الرومانية بقيت بريطانيا كلتيه ولو ان اللغة اللاتينية عمت المدن .

صارت المانيا العليا والسفلى مقاطعات رومانية زمن الفلافين وشيد الأباطرة التحصينات والطرق من زمن دوميشيان حتى هدريان . وسكان المانيا خليط من السلت والجرمان وان بعض المدن المهمة الحالية في المانيا قد شيدها الرومان خلال هذا العصر امثال كولون التي شيدها كلوديوس ونيمڤيجن وخانتين انتن شيدهما تراجان وغيرها . وكانت تريڤس مركزاً حضارياً مهماً لألمانيا السفلى وكثرت في المنطقة القصور الريفية . وتقع المانيا السفلى على ضفة الراين اليسرى وكانت غنية بالزراعة وتعمها التنظيمات القبلية . وكانت ولايتا الألب اقتصادياً مماثلة لشمال ايطاليا ومدنها في الأصل مستوطنات عسكرية رومانية أمثال ڤنديلكوروم (اوغسبرغ) وكاسترايجينا (روغينسبرغ) . وكلا الولايتين كلتيه سكنها ايطاليون كثيرون في مدن نوريكوم . ونظم كلوديوس المجتمعات على نمط الايطالية وتطورت الى بلديات .

واستغلت مناجم الحديد فيها وكانت نوريكوم غنية بالرصاص ومليئة بالغابات . وكانت أراضي جنوب نوريكوم خصبة في الوديان وبيد الطبقة المتوسطة في المدن وكانت نوريكوم أكثر المقاطعات تقدماً ولها أثر كبير في رومنة جنوب پانونيا .

كانت دلماشيا خليط من ايليريين وتراقيين وكلتيين وظلت فترة طويلة بدائية وقبلية في الداخل وصارت الموانيء مستوطنات رومانية زمن اغوسطوس وخلفائه وكانت ايطالية صرفاً . وبدأ فسپشيان سياسة بناء مراكز حضارية وحصلت الكثير من المدن على الحقوق البلدية . وكانت أحسن الأراضي بيد المقيمين الايطاليين والدولة الرومانية وتنتج الحبوب والخمر والزيتون ويستخرج من مناجمها الحديد . وكان الكثير من الجنود المرتزقة يجندون من دلماشيا . اما بانونيا وموېسيا العليا فكانت المركز العسكري الروماني لحدود الدانوب في وقت كانت به داكيا شمال الدانوب ذات سكان تراقيين قضى تراجان على الطبقات العليا منها لدى غزوه لها . وقد اسكنت فيها جماعات من آسيا الصغرى وسورية وصارت داكيا بلداً لاتينياً نظراً لوجود الجيش الروماني ومستوطنات المسرحين . وكانت داكيا غنية بمناجم الذهب وأراضيها الخصبة ونمت بها مدن عدة تحكمت بها الطبقات الثرية . اما موېسيا السفلى فلم تنظم في ولاية الا زمن كلوديوس عندما الحق تراقيا ولو انها كانت تحت حكم روما منذ بداية القرن . وقد تقبلت المدن اليونانية على ساحل البحر الأسود الغربي السيادة الرومانية وأخضعت روما القبائل التراقية في الداخل وبنيت القلاع القوية على طول الدانوب الأسفل . وحرست روما البحر الأسود واحتفظت بعلاقات قوية مع الموانيء اليونانية وراء الحدود وفي القرم . وبعد احتلال الرومان لموېسيا قسمت الأراضي بين القلاع العسكرية والمدن اليونانية والسكان المحليين وحصل الاثرياء على الحقوق الرومانية فصاروا أعضاء في مجالس القرى وضمناً المستوطنون الرومان ملاكي أراضي أثرياء . وكان سكان ولاية تراقيا ذوي حضارة ودين مشابه الى المقدونيين الأوائل وكانوا من قبل منتشرين في أغلب منطقة وسط وجنوب الدانوب بما في ذلك داكيا وامتزجوا بالأليريين في الغرب وداهمهم السكيثيون والكلت والمقدونيون وخضعوا أخيراً الى الرومان بعد مقاومة مرة . وتشمل تراقيا التي كانت تطل على البحرين الأسود والايجي بصورة عامة بلغاريا الحالية وتراقيا التركية وصارت ولاية رومانية زمن كلوديوس . وعمل تراجان وهدريان على تنمية المراكز الحضرية فيها وأسس هدريان مدينة هدريانوپوليس (ادرنة الحالية) وقناة في بيزانطيوم اصلحها ڤالنس في القرن الرابع ومازال تزود استنبول بالماء . وقد ازدهرت تراقيا تحت الاحتلال الروماني .

اسس اغوسطوس في جنوب أبيروس مدينة نيكوبوليس لتخليد انتصاره في معركة اكتيوم وجعلها مركز الاحتفالات بالألعاب اليونانية . وشجعت روما تأسيس المراكز الحضرية في الداخل وأحيت موحى دودونا القديم . وجعل هدريان ابيروس ولاية امبراطورية والحق بها جزر بحر ايبجه وأكارنانيا (اليونان الغربية) . أما مقدونية فلم تكن المراكز الحضرية فيها كثيرة وقليلة السكان زمن الرومان غير أنها ذات موقع استراتيجي حيث تقع على الطريق الذي يربط ايطاليا بالشرق وتملكت الأراضي الواسعة فيها الرومان . وبالرغم من تأثرها بالصبغة الرومانية الا ان داخل مقدونيا ظل بلد فلاحين ورعاة .

أما اليونان فقد شملت كل اليونان القديمة عدا ابيروس وملحقاتها ومقدونيا ولم تجن من الاحتلال الروماني لها غير الفاقة وظلت ضعيفة اقتصادياً وسياسياً ولم يكن للزراعة والصناعة فيها شأن . ونظراً لاحترام أباطرة القرن الثاني للحضارة اليونانية فقد عاملوا بلاد اليونان برفق لاسيما اثينا وأسبارطة واعفوا كل المدن من الضرائب وزين هدريان اثينا بالبنايات الضخمة وصارت كعبة للسياح واستمر ابناء الرومان يقصدونها للدراسة .

وصلت آسيا الصغرى الى عنفوانها في الرخاء الاقتصادي خلال فترة الاحتلال الروماني، وكانت أراضيها مقسمة بين خاصة وأخرى ملك الدولة أو المعابد . وفي سنة ١٦٥ صارت بيثينيا وبونطس ولاية امبراطورية واحدة بما فيها بيزانطيوم ، وكانت غنية بالغابات والمراعي والزيتون وذات علاقات تجارية متينة مع المدن اليونانية على بحر مرمرة (پروپونتيس) والبوسفور والاسود . ومن كتاب الولاية كان دايوكريسوستوم من پروسا واريانوس وكاشيوس ديو وعند بدء المسيحية صارت مركزاً لها كما عاش فيها ماريكون الغنوصي وفيها موحى الاسكندر المعروف بالدجال الذين ذكره لوقيانوس . ثم ولاية آسيا ومن مدنها سمرنا (ازمير) ، افيسوس وبرغاموم وكانت كثيرة المدن بحيث سميت ولاية الخمسمائة مدينة وتكثر بها الآن الآثار الرومانية . كما كانت ثرية في أراضيها الخصبة والأخشاب والمرمر والمنسوجات الصوفية والكتانية . وفي آسيا ظهرت الحركة السفسطائية الحديثة وبها نمت المسيحية الأولى . وكان داخل اقليم آسيا خليط من اجناس كثيرة ولغات متباينة وعادات مختلفة ، فكانت ليشيا جامعة مدن تحكم نفسها بنفسها تحت الاشراف الامبراطوري . ثم بامفيليا وغلاطية وصارت پيسيديا وليكاونيا (جنوب غلاطية) ولايتين منفصلتين زمن فسپيشيان ومن مدنها ايكونيوم (قونية) ، ليسترا ودربي حيث أسس القديس پولس الكنائس . أما شمال غلاطية فكان كلتي الرس واللغة . وفي أنكيرا (انقرة) كان معبد روما وأغوسطوس الذي نقش اغوسطوس على

جدرانه منجزاته (ريس غيستاي) . ثم مدينة پيسينوس مركز عبادة الآلهة الأم الكبرى ثم تاڤيوم المركز التجاري المهم ، وصارت كليكيا ولاية مستقلة بعد فسپيشيان ذات مجلس ولاية في طرسوس وازدهرت زمن الرومان حيث شقت بها الطرق وشيدت المدن ونمت القرى. ثم كوماغين بين الفرات وطوروس حيث ظلت القبائل المتخلفة حضارياً تعيش في جبالها ، وضمها فسپيشيان سنة ٧٢ الى سورية وشق الفلافيون بها الطرق وربطوها بمنطقة بحري ايجه والاسود مما نمى التجارة . اما كبدوكية فقد ضمنها تيبريوس وكان سكانها خليطاً من فرس ويونانيين وحيثين ونمت فيها طقوس عاطفية قاسية . ثم ارمينيا الصغرى بين كبدوكية والفرات وكانت لغة سكانها الارامية .

كانت ولاية سورية مهمة لروما لأهميتها الاقتصادية والعسكرية وكان قطراً مستحضراً عاجاً بالمراكز الحضرية أمثال انطاكية ، وافامية وسلوقية وصارت مركزاً للمسيحية قبل تحول القديس بولس . ثم مدن القوافل وهي دمشق ، وحمص ، وتدمر ، ودورا يوروپاس وبعلبك (هليوبوليس) مركز عبادة الشمس . وهناك مدن فينيقيا الساحلية (صيدا ، وصور ، وجبيل وبيريتيس ، بيروت) ثم فلسطين بمدنها الساحلية يافا ، عسقلان وغزة ومستوطناتها الجديدة مثل قيصرية وطبرية وسبسطية . وكانت الولاية العربية (العربية الحجرية) قد قبلت في البداية منزلة حليفة روما وظلت مستقلة حتى حولها تراجان الى ولاية باسم ولاية العربية الحجرية سنة ١٠٦ كي تؤمن تجارة القوافل القادمة من العربية الجنوبية والبحر الأحمر وامتدت الولاية الجديدة من البحر الأحمر وحدود مصر شمالاً حتى حدود دمشق جنوباً وكان هناك طريق روماني محصن بالقلاع والحاميات حتى حدود الولاية الجنوبية ماراً ببطرا وبصرى الى الشمال . وبعد اجراء تاجان صارت بصرى المركز التجاري والسياسي ولكن ازدهرت بلاد الانباط ونمت زراعتها في عصر السلام الروماني وشقت القنوات وبنيت الخزانات في النقب وسيناء وقد عثر على بقايا مايزيد عن خمسمائة قلعة وقرية وخزان ومدينة في منطقة ايدوم وموآب . واثرت مدن بطرا وبصرى وجرش لوقوعها على طريق القوافل التجارية من بلاد العرب والبحر الأحمر ومصر الى دمشق والشرق . الأقصى ومن العراق الى البحر المتوسط وآسيا الصغرى . وكانت بطرا محصنة طبيعياً تلتقي بها كافة الطرق وحصلت على موارد من الضرائب التي فرضتها على البضائع المارة . وتقع بصرى على الطريق من البحر الأحمر والجليل ودمشق .

أخذ اغوسطوس كافة التنظيمات الادارية والمالية التي اتبعها البطالمة في مصر واستمرت خلال القرن الثاني . ولم تكن هناك رغبة في زيادة المراكز الحضرية بمصر أو

منح المواطنة الرومانية وأسس هدريان مدينة انطينوپوليس بسكان يونانيين . وأبقت مصر نظامها القديم في القرى بعاصمة ادارية لكل مقاطعة . وشجع الأباطرة الذين تلو أغوسطوس الزراعة والصناعة في مصر والحقت أراضي المعابد بالدولة واستوطن الآن المسرحيين في الصحراء ونمت المقاطعات الزراعية الخاصة بالعائلة المالكة والرأسماليين الرومان في القرن الأول . وكثيراً ماكان الثوار المصريون يلجأون الى الأهوار وظلت مكتبة الاسكندرية عامرة بالرغم من احتراقها زمن قيصر واضمحلت الأكاديمية العلمية واستمرت الاسكندرية مركزاً لكثير من العلماء ، وكان القرن الثاني عصر نمو كثير من المدن بمصر .

كانت كريت وقورينة ولاية سناتورية ، وازدهرت كريت زمن السلام الروماني لوقوعها على الطريق التجاري الى آسيا ومصر وشقت بها الطرق وحفرت القنوات وتقدمت الزراعة في مقاطعاتها الواسعة وقد عمر اغوسطوس عاصمتها غروتين وكثرت بناياتها في العصر الفلافي والقرن الثاني بعد الزلزال الذي دمرها سنة ٤٦ . وفي قورينة قام أغوسطوس بحملة ضد بدو الجنوب وهناك كتابة تخلد ذلك في سوق قورينة . ولم تؤسس أية مستوطنات رومانية فيها حتى زمن تراجان بحيث صار نصف سكانها يحملون الجنسية الرومانية في نهاية القرن الثاني في وقت كان أكثرية السكان من الفلاحين الليبين يتبعون النظام العشائري وفيها بعض اليهود الذين كثيراً ماكانوا يثيرومن المشاكل . وقد ظلت قورينة زراعية .

وصلت الامبراطورية الرومانية عنفوانها بالسعة والقوة في عصر الزعامة حيث كانت تحكم أراضٍ تبلغ مساحتها حوالي ٣ر٥ مليون ميلاً مربعاً وسكان يقاربون المائة مليون نسمة . وكانت تتألف من المناطق ذات الحكم المحلي (البلديات) الهلنستية وضمن هذه كثير من المدن في اليونان وأفريقية وآسيا . وحوت هذه مجالس بلدية محلية منها جمعية شعبية ومجلس كبار في السن ينتخبون كل سنة . وللجمعية الشعبية حق تشريع القوانين أما أعضاء مجلس الكبار في السن فعادة من الحكام السابقين . ثم المناطق الايطالية ذات الحكم المحلي (البلديات) وقد بدأ هذا النظام في ايطاليا وسار عليه يوليوس قيصر ثم طبق في افريقية ، اسبانيا ، غالة ، وبريطانيا ، والمانيا وولايات الدانوب التي سارت في حكمها المحلي على نمط روما . فكان لمدن هذه المناطق موظفوها ومجلسها (كوريا وعدد أعضائه مائة) وجمعيتها الشعبية ويدير شؤون المدن لجنة من اثنين (مديرين) يعاونهما محتسبان اثنان وكويسترين ينتخبون جميعاً . ويقوم المديران بالادارة المحلية والاشراف على القضاء واحصاء السكان كل خمس سنوات .

كانت زيادة مصروفات الدولة هي السبب في زيادة الضرائب المفروضة على ابناء الشعب ، فقد زادت مصروفات الجيش لكثرة عدده والحروب وبناء الحصون وشق الطرق ، وكان الجهاز الاداري باهظ التكاليف أيضاً الى جانب تطور نظام البريد الامبراطوري والقيام بأعمال المرافق العامة (الطرق والجسور والقنوات والمعابد والمسارح والحمامات العامة) الى جانب مصروفات الصحة والتربية . وكانت فداحة الضرائب السبب في الكثير من الثورات . ولما طلب الجنود من الامبراطور ماركوس اوريليوس زيادة رواتبهم أطلعهم على حالة الميزانية البائسة وقال لهم (اعلموا ان كل شيء تتسلمونه أكثر من أجوركم الاعتيادية فانه يستخلص من دماء أهلكم وأقاربكم) . واضطر الوضع المالي المضطرب الأباطرة الى تخفيض المعدن الثمين بالعملة او تقليل وزنها ، فنيرون قلل وزن الفضة في الدينار بنسبة ١٠ ٪ وقلل تراجان نسبة النحاس ١٥ ٪ وماركوس اوريليوس ٢٥ ٪ وسبتميوس سيفيروس ٤٠ ٪ وكانت عملة انطونينوس تحوي ٦٠ ٪ فضة فقط . كما طرأ الأمر نفسه على الذهب .

شهدت روما في عصر الزعامة تنامي البلاط الامبراطوري وتشعبه فكثر موظفوه وتعددت دوائره . فكان هناك الحاجب ورئيس التشريفات وكان نفوذهما على الامبراطور كبيراً وكان الأخير يختار من بين طبقتي الشيوخ والفرسان مرافقيه ومستشاريه الذين اطلق عليهم اسم الأصدقاء . وفي المناسبات كانوا يتقدمون حسب مراكزهم ورتبهم . وصار مع كل ثري حاشية يقدم لهم الرواتب والطعام واللباس وهم من المواطنين وغير المواطنين وعجت قصور الأثرياء في روما والمدن بالعبيد . واستخدم العبيد المدربون باعداد كبيرة في التجارة والصناعة ولكن بمرور الزمن قل عدد العبيد لتوقف الحروب الخارجية بعد اغوسطوس وزيادة العتق . فالكثير من العبيد كانوا يعتقون بوصية سيدهم عند موتهم او يقدم لهم رؤوس الأموال لاستغلالها في العمل ،
وتمكن بعض العبيد بوصية سيدهم او يقدم لهم رؤوس الأموال لاستغلالها في العمل ،
وتمكن بعض العبيد من تحرير أنفسهم من المال الذي جمعوه . ونتيجة لزيادة العتق كثر العبيد المعتوقين ، وقد لاحظ اغوسطوس تأثير ذلك على المجتمع فوضع حداً ونسباً للعتق ، ولم يكن للمعتوقين الذين يحصلون على المواطنة الرومانية حق بالتصويت أو الحصول على المناصب في روما أو البلديات الا اذا حصلوا من الامبراطور على حق لبس الخاتم الذهبي وأعطاهم امتيازات المواطنين الأحرار . وبالرغم من كل هذه القيود فقد زاد عدد المعتوقين واستخدم الكثير منهم في وظائف الجهاز الادارى والتجارة والصناعة .

كان تزويد الماء في مدينة روما مهماً وقد بدأ المراقب الضرير ابيوس كلوديوس بحفر

أول قناة تجلب الماء لروما سنة ١٠٠ ق . م . وتقع على بعد ١٦ كم منها . وقد زاد استعمال روما للماء عن مليون متر مكعب ، وفي المنازل الخاصة والشعبية كانت المياه ترفع الى خزانات توضع في الطبقات العليا بوساطة مضخة برونزية . وفي العصر الامبراطوري كان بروما عشرون قناة بعضها مايزال يستخدم حتى الآن . وكان بروما خزانات مزودة بثلاث قنوات رئيسة مخصصة لتزويد الينابيع والحمامات والمنشآت . واعتنوا بالمواسير وكانت قناة كلواكاماكيس الموجودة الآن تتلقى المياه الآسنة من وسط المدينة وتصبها في التيبر .

في التجارة كان السلام ، والقضاء على القرصنة والطرق الجيدة وقلة الرسوم المفروضة عند الحدود والعملة الواحدة اسباباً في ازدهار التجارة . فقدم التجار الى موانيء ايطاليا من جميع أنحاء الامبراطورية وكانت بويتولي على خليج نابولي ميناء رئيساً ثم اوستيا على مصب التيبر . واتبعت الدولة سياسة السوق الحر عدا انتاج وتوزيع بعض السلع الاستراتيجية . وكانت التجارة قائمة مع الصين عن طريق آسيا الوسطى فايران والعراق استحصل منها الحرير للموانيء السورية . وسارت السفن من موانيء مصر الى العربية الجنوبية فالهند وسيلان وعثر على الكثير من العملة الرومانية في الهند كما زار روما بعثات هندية من امرائها الحاكمين . وتاجر الرومان مع شبه جزيرة الملايو ومضيق ملقا وموانيء جنوب الصين وتذكر المصادر الصينية وصول وفد روماني الى الصين زمن ماركوس اوريليوس . كما تاجروا مع داخل روسيا عن طريق مدن ساحل البحر الأسود الشمالي ووصل التجار الرومان داخل الصحاري الافريقية والسودان جنوباً والبلطيق شمالاً . وكان السوريون نشطين جداً في التجارة سواء في الشرق أو بايطاليا ومع الولايات الغربية . وتدلل النقود المكتشفة من زمن تراجان وهدريان على تجارة نشطة مع ايرلندة وبريطانيا ووصل التجار الرومان الى الدنمارك متبعين الساحل من هولندة واتبع آخرون نهر الدانوب الى الفستولا ثم الى بحر البلطيق فالسويد . وتحرى المخاطرون اليونانيون ساحل افريقية الشرقي من رأس دلفادو ووصلوا الى البحيرات الكبرى عند منابع النيل كما قويت العلاقات بين مصر ومملكة اكسوم في الحبشة . وهناك الطريق بين العربية الجنوبية الى غزة أو الى بطرا فبصرى وتدمر ومن ثم الى العراق فايران أو الخليج العربي أو الى انطاكية فالشرق .

تقدمت الصناعة خلال العصر نظراً لتركز المال في يد الأباطرة والدولة وكثرة العبيد الذين يقدمون العمل الرخيص غير أن تفضيل استثمار الأموال في الزراعة والتجارة والاقتراض فضلاً عن منافسة صناعات الولايات أدى الى احجام أصحاب العمل عن تنمية

صناعاتهم . وبين الصناعات الايطالية المهمة كانت الأعمال البرونزية والفخار وعمل المصابيح والطابوق والمنسوجات الكتانية والصوفية وعمل الزجاج . فكانت كوموفي غالة القريبة مركزاً مهماً لصناعة الحديد وكانت كاپوا مركزاً لصناعة البرونز واريتوم في الفخار . وكان للدولة (الامبراطور) مصانعها التي يصعب على القطاع الخاص منافسته مثل صناعات الطابوق والسمنت والأنابيب الرصاصية . وسارت الصناعات ذات الانتاج الواسع والمحدود جنباً الى جنب . وكان العمال على أصناف فهناك العمال الأحرار ثم المعتوقون فالعبيد . وان تحسن الصناعات ذات الانتاج الغزير لبعض الصناعات الايطالية يعود الى فتح التصدير الى الولايات في القرن الأول فقد صدرت الأعمال البرونزية الى أقطار عبر الألب والفخار الاريتي والمصابيح الى الغرب والشمال خاصة والزجاج الى اسبانيا وغالة وأقطار الدانوب ، ومنذ زمن الفلافين صار فخار غالة ينافس الفخار الاريتي في الغرب وفي نهاية القرن الأول صارت صناعات غالة البرونزية والفضية تنافس الواردات الايطالية واحتكرت غالة والمانيا الصناعات الزجاجية بمركزها عند كولون التجارة في غرب الامبراطورية . وفاقت واردات روما صادراتها حيث استوردوا من مصر الزجاج والكتان والورق والحلي والدهون ومن سورية الزجاج والأصباغ والمنسوجات الحريرية ومن آسيا الصغرى المنسوجات الصوفية والحديد ومن اليونان زيت الزيتون والتين والمرمر . وصدرت اسبانيا الرصاص والقصدير والنحاس والذهب والصوف والأقمشة والكتان والخمر والزيت والسمك وغالة المنتوجات الزراعية واللحوم والمنسوجات الصوفية ومن بريطانيا الذهب والفضة والحديد والأسماك والماشية والعبيد والدجاج ومن مناطق الدانوب المصنوعات الحديدية والجلود والحيوانات الوحشية والعبيد . واستوردت روما من الهند القطن والحرير والعاج والأحجار الكريمة والبهارات وأصداف السلحفاة والحيوانات الوحشية النادرة .

ظلت الزراعة المهنة الأساسية لغالبية السكان وتقدمت التقنية واستغلت أراضي جديدة في غالة وبريطانيا والمانيا وأراضي الدانوب وافريقية والعربية . ووصلت الينا أدلة عن انهاك التربة نتيجة كثرة الزراعة والجرف . وظلت الزراعة في ايطاليا خلال القرنين الأول والثاني مزدهرة ومارسها الفلاحون بكل كفاءة كما يستنتج من كتاب كولوميلا من زمن نيرون الذي يخبرنا عن معرفتهم لمباديء التسميد ودورات المحصولات . واستمرت المقاطعات الواسعة الى جانب الحقول الصغيرة خاصة في شمال ووسط ايطاليا ووادي البو . وفضل اصحاب اللاتيفونديا استخدام الفلاحين المستأجرين الأحرار (الكولوني) على العبيد لقلة الأخيرين . ووصل ازدهار الزراعة في ايطاليا الى عنفوانه

حوالي سنة ١٠٠ ولكن في نهاية القرن الأول ظهرت دلائل الضعف فيها عندما اتجه دوميشيان الى حماية الزراعة في ايطاليا من منافسة المنتوجات الزراعية في الولايات. وفي افريقية كانت الأراضي في بداية حكم الزعامة على ثلاثة أصناف هي أراضي عامة، ومقاطعات خاصة للأثرياء والرومان ثم الأراضي الامبراطورية. وفي زمن الأباطرة الأوائل لاسيما نيرون انتقلت الكثير من الأراضي الخاصة نتيجة المصادرة الى الدولة. وعلى الكولوني دفع جزء من المحصول ايجاراً وسمح هدريان للكولوني ان يشغلوا أي أرض غير مزروعة واستملاكها. غير أن السخرة ماتزال مفروضة على الكولوني. اما في آسيا الصغرى فان غالبية الأراضي كانت ضمن المدن اليونانية هناك الى جانب الكثير من المقاطعات الكبيرة المملوكة. والدليل قليل على استخدام العبيد في الزراعة التي كان جل اعتمادها على الفلاحين الأحرار. وكانت الأراضي الامبراطورية في البداية قليلة ثم توسعت تدريجياً لاسيما زمن سبتميوس سيفيروس نتيجة المصادرات. وتحسنت الزراعة وكثفت في بريطانيا وغالة تحت الحكم الروماني. وكانت الوحدة الزراعية في غالة الحقل (فوندوس) حيث يقع بيت المالك أو المستأجر. وفي المقاطعات الواسعة يقع بيت المالك وأحياء العمال والاصطبلات والمرافق الأخرى. وهناك الحقول الصغيرة التي يزرعها مالكوها بأنفسهم أو بوساطة فلاحين. وفي القرن الأول والثاني هاجر الكثير من الملاكين الى المدن تاركين حقولهم بيد وكلائهم أو المؤجرين. وفي مصر سيطرت الدولة على الأراضي والمحصولات والعمل الزراعي فكانت غالبية الأراضي ملك الدولة وقللت الضرائب الفادحة من رخاء البلد فانحطت الزراعة وخضع الناس الى أعمال السخرة في القنوات وزراعة الأراضي الملكية وصار لزاماً على كل قرية زراعة أراضي قريتهم كملاكين أو مستأجرين.

أخذت الدولة تقدم المعونة الى المدارس والمعلمين واستحدث هذه السياسة فسبيشيان الذي خصص الرواتب لمدرسي الخطابة اليونانية واللغة اللاتينية. ووفر تراجان التعليم المجاني لخمسة آلاف طفل فقير وخصص هدريان رواتب تقاعدية للمعلمين المحتاجين وأسس مدارس ساعدها مالياً وخصص احياء ملائمة لمدارس الخطابة في روما. وزاد انطونيوس بيوس رواتب المعلمين وأعفى بعضهم من الضرائب وكان هناك في نهاية فترة الزعامة نظام لمدارس تزودها وتشرف عليها الدولة.

برز في حقل التاريخ تاسيتوس (٥٦ - ١٢٠) وربما عائلته بالأصل من غالة الناربونية نال حظوة من فسبيشيان وأولاده وكان صديق پلني الصغير وهناك احدى عشرة رسالة لپلني معنونة الى تاسيتوس ولتاسيتوس كتب عدة في التاريخ أمثال حياة

اغريكولا (والد زوجتـه) وكان قـائـداً ودون فيـه تاسيتوس فضـائل صهره . ثم تـاريخ تاسيتوس الذي كتبه بعد وفاة نرفا ويتضمن الأحـداث من قنصليـة غـالبـا الثـانيـة حتى وفاة دوميشيان وفصوله الأربعة الأولى هي التي وصلت الينا كاملة وتتضمن أحـداث سنـة واحـدة . والفصـل الخامس غير كامـل ويقف فيـه عنـد حصـار تيتـوس للقـدس وحرب سيفيليس في المانيا ولابد ان الكتاب كان ضخماً . ثم كتـاب الحوليـات الـذي يبـدأ بوفـاة اغوسطـوس حتى وفـاة نيرون والكثير من فصـولـه مفقـودة لاسيما المتعلقـة بحكم كاليغـولا والخمس سنوات الأولى من حكم كلوديوس وسنتي نيرون الأخيرتين . ثم المقـالـة جرمـانيـا التي تتضمن وصفاً للشعوب الجرمانية ، دياناتها وعاداتهـا وجغرافيـة اراضيهـا الخ . وتحوي حولياته أهم أحداث زمانه مرتبـة حسب السنين وكان محور الأحـداث فيهـا الامبراطور ، وحوت أحداثاً لم يعاصرها عكس تـاريخـه ونرى في كتبـه حبـه للحقيقـة وخلقـه العـالي وبصيرته في دوافع السلوك البشري وحولياته مليئـة بـالمعـاني السـاميـة وتعـد صفحـة من الدقة . ثم بلني الصغير (٦٢ ـ ١١٣) وقد وصل الينـا منـه رسـائلـه الكثيرة التي تعكس حياة الطبقة المثقفة وسياسة تراجان . وكان قنصلاً سنة ١٠٠ ثم حـاكماً لبيثينيا سنـة ١١٢ وله شعر وخطب منها واحدة في مدح تراجان القاها في السنات . وتقع رسائله المؤرخـة بين سنـة ٩٦ ـ ١١٤ في تسـع كتب ثم مراسـلاتـه مـع تراجـان التي يقلـد فيهـا شيشرون وتوضح شخصيته وثقافتـه . ثم المؤرخ جوفينـال (٥٠ ـ ١٣٠) وعـاد من النفي الى رومـا زمن دوميشيان وعاش فقيراً واشعـاره تفيض بـالعواطف الجيـاشـة . وان قطعـه السـاخرة التسع تقدم صورة من الوجه القبيح لحياة روما الاجتماعية زمـانـه . والمؤرخ سويتونيوس ترانكويلوس (٧٠ ـ ١٤٠) ربما بالأصل من هيپو بشمال افريقية وقد عـاصر بلني الصغير فترة من الزمن وله مراسلات معه وعينـه هـدريـان سكرتيراً خـاصـاً لـه ثم عزلـه لشكـه باتصاله مع زوجته سابينا . وأهم كتبه (حيـاة الأبـاطرة الاثنى عشر الأوائل لرومـا) من يوليوس قيصر الى دوميشيان الذي لم يتبع بـه الترتيب الكرونولوجي بل سطر الأحـداث حسب طبيعتها . وجاءت لغته مختصرة ودقيقة خالية من أية زخرفـة وتكلف غير أنـه في كتاباته التاريخية اشبه بـالصحـافي ولم يميز بين المصـادر التي استعملهـا وكتـابـه مهم لتوفر الارشيفات الرسمية لديه خلال خدمته الدولة زمن تراجان وهدريان .

من رحالات العصر ديوكريسوستوم (ذو الفم الـذهبي لفصـاحتـه) من بروسـا وقـدم الى روما زمن فسپيشيان وطرده دوميشيـان فـأقـام في اولبيـا على شـاطىء البحر الأسود الشمالي . وكان بليغاً متجولاً وصل الينا من احـاديثـه تسعـة وسبعون تشكل خير مصـدر عن الوضـع في الشرق زمـانـه . ومن كتبـه السكنـدريـانـة يهـاجم بهـا الترف في مـدينـة

الاسكندرية ثم اولمبيكا التي انتقد فيها على لسان فيدياس تمثال الاله زووس في اولمبيا . وله أربع مقالات عن الملكية أو الحاكم المثالي . وفي كتابه ايوبويكا يقارن حياة الريف والمدينة . ثم المؤرخ اريانوس من نيكوميديا بآسيا الصغرى حذا في أسلوبه حذو زينفون وأفلاطون وارسطو . وفي كتبه التاريخية حملة الاسكندر في سبعة فصول وكتاب الهند . ثم المؤرخ اپيان من الاسكندرية مؤلف كتاب تاريخ روما حوالي سنة ١٦٠ وقد اتى الى روما زمن هدريان ولم يتبع في كتبه الترتيب الكرونولوجي ومنها ايبريكا ، ايليريكا ، الحروب الأهلية ، سيرياكا ، عن متراديتيس وحول مقدونية . ثم المؤرخ پوسنياس اليوناني من آسيا الصغرى الذي كتب الرحلة اليونانية زمن ماركوس اوربلپوس وصف فيها ماشاهده في رحلته الى اليونان والجزر وهي خير مصدر للمؤرخ والاثاري . وفي العلوم الطبيعية هناك مجموعات جالينوس وهو طبيب من برغاموم مؤلف الموسوعة الطبية . ثم بطليوس من الاسكندرية مؤلف المجسطي وهو نظام الفلك الكبير الذي لخص به علم الفلك ثم كتابه الدليل الى الجغرافية . وهناك ايليوس اريستايديس من ميسيا وكتابه حول روما . وقد تجول كمحاضر سفسطائي في مدن آسيا الصغرى واليونان ومصر وروما . ومن كتبه ٥٥ خطبة ورسالة عن احداث اليونان وكتابه المقالات الخمس المقدسة عن المعالجات بوساطة المعجزات التي شفته من مرضه الطويل العضال والذي يوضح تنامي الخرافات زمانه .

في الأدب شهدت الفترة عودة الى أساليب الأسبقين أمثال كاتو ، اينيوس وبلوتوس مما يدل على العقم الفكري ، غير أن الرقابة التي كانت مفروضة على الكتابة والخطب قد انتهت منذ عهد نرفا وتراجان . وعاش خلال الفترة فرونتو (١٠٠ ـ ١٦٧) زمن ماركوس اوريليوس وذاعت شهرته كثيراً في البلاغة اللاتينية وأسلوبه في الكتابة عديم الحيوية . كما نلحظ العودة الى الماضي عند اولوس غيليوس (حوالي ١٢٣ ـ ١٦٥) مؤلف الليالي الأتيكية وهي مجموعة من الملاحظات القديمة عن ٢٧٥ كاتباً وتكمن أهميته في مقتطفاته من كتاب لانعرف عنهم الآن شيئاً . ولم تكن الحركة الأدبية في الولايات المتأثرة بالحضارة الرومانية بالقليلة ، فقد سكن روما أدباء من غالة الناربونية واسبانيا حتى صار لدى بعض الولايات ثقافة لاتينية متميزة مثل افريقية حيث ازدهر الأدب اللاتيني فيها زمن انطونيوس حيث ظهر لوكيوس ابوليوس (ح ١٢٥ ـ ١٨٠) الذي تميزت كتاباته في البلاغة بتقليد الماضي الا ان ابداعه الفني واضح . وأهم كتبه المعروفة الحمار الذهبي عن تحول مسافر الى حمار بالرغم من احتفاظه بتفكيره البشري . وفي افريقية ظهر أول أدب مسيحي لاتيني نعرفه في كتابات ترتوليان من قرطاجة زمن السيفيري وسپريان وارنوبيوس ومينوكيوس من القرن الثالث .

كان الرومان في حقل التشريع والقانون أصيلين ومستقلين ، فقد تنامى القانون في عصر الزعامة لأن تأسيس جهاز اداري منظم متكامل احتاج الى تشريع ، وعمل اغوسطوس ومن بعده الى اعطاء التشريع هيبته التي كان عليها في عصر الجمهورية الأولى حيث حصر حق اعطاء آراء شرعية بصورة علنية في حفنة من أعضاء مجلس الشيوخ متضلعين في القانون والى هؤلاء يعزى القانون الروماني الكلاسيكي . واستمر وجود مايعرف بالفقهاء الاستشاريين وهم عبارة عن رجال غير مخولين غالبيتهم ليسوا من الدوائر الرسمية لهم اهتمام بالقانون يستشيرهم الناس حتى الحاكم والحامين . ويعد هؤلاء خبراء الفقه في وقت كان به الحامون ماهرين في الخطابة . وارجعت عظمة القانون الروماني الى الحامين ومنهم شيشرون الذين يسيرون على هدى مستشاري الفقه.وان التراث الأساسي لمستشاري الفقه هو وضع نظام قانوني يوفق بين الأخلاق والفائدة العملية . فهم يأخذون حالة خاصة ويتحرون وضعها القانوني وعرضت كل هذه أخيراً في مجموعة القرارات المسماة ريسبونسا . وقسم القانون الى مبادىء شرعية مستقاة من العادات وقرارات المستشارين القانونيين ثم القانون المستند على التشريعات الرسمية وبذلك فالقانون الروماني نما كعادات وعرف وقرارات شرعية (جوس) وقانون (ليكس) . وتطور القانون من تشريعات أولية الى مبادىء مرنة سنها وتعامل بها مهتمون بالقانون . وهدف القانون هو مايعرف باسم جوس جنيتوم (قانون الشعوب) الذي يطبق القانون الروماني على جميع أجزاء الامبراطورية وبذلك عالج باستقامة كل حالات الافراد في أي جزء من الامبراطورية اذا ماتقدم الى الحاكم كمدعي أو مدعى عليه أو شاهد وحذت حذوه الأمم التالية . وان تشعب القوانين الرومانية وشموليتها وتعقد البنية الاقتصادية أدت الى ظهور طبقة محترفة مختصة به أو جوانب منه نتيجة الممارسة وهم القضاة والحامون . وأكد شيشرون بأن نظريات التشريع الروماني تقابل الفلسفة اليونانية وهي التراث الحقيقي للحضارة الرومانية ويجب أن يتمتع الناس جميعهم بحماية متساوية من قانون عادل وطيب حتى يعيشوا حياة طيبة وعادلة . ووصل التشريع الروماني عنفوانه بين صعود هدريان وموت اسكندر سيفيروس ومن مشرعي الفترة جوليانوس زمن هدريان وغايوس زمن انطونينوس ومعاصره سيكفولا ومن زمن السيفيري كان پاپنيان وبولس واولپيان ومودستين [١٤] . وكان للامبراطور في القرنين الأول والثاني نفوذ كبير على الجهاز القضائي فله الحق في اجراء التحقيق حتى حصر بعض الأباطرة بشخصهم حق اصدار الأحكام النهائية حتى الاعدام دون الرجوع الى الحاكم . ولكن ابتداء من القرن الثالث صار السنات يرفض مثل ذلك ويعدها اجراءات غير قانونية . وللامبراطور السلطة على كل قضايا الجيش وجهاز الامبراطورية الاداري وهو

مرجع حكام الولايات القضائي . وحول هدريان الوظائف القضائية الى محافظيه الأربعة في روما ثم عين معهم أربعة قضاة وأضاف لهم ماركوس اوريليوس عارفين بالقانون . وفي نهاية القرن الثاني صار لمحافظ روما سلطة على كل الجرائم التي ترتكب داخل روما وفي منطقة تبعد مئة ميل عن روما . كما أخذت البلديات في ايطاليا والولايات تفقد حكمها الذاتي نتيجة تدخل الامبراطور منذ القرن الثاني عن طريق الامناء في شؤونهم المالية وجمع الضرائب وقد زاد هذا التدخل ابتداء من زمن تراجان .

عم الاهتمام بالتعليم خلال هذه الفترة ، فاستحدث ماركوس اوريليوس في اثينا كرسياً لكل فلسفة معروفة وخصص الرواتب لهم . ومثل انطونينوس أعطى امتيازات خاصة للمعلمين فأعفاهم من الضرائب والخدمة العسكرية . وقدم پلني الصغير تبرعاً الى التعليم الثانوي والمكتبة العامة في بلدته كودون . وكانت مكتبة تمجاد في الجزائر تحتوي على ٢٣ ألف كتاب . وأكد كوينتنيان (٣٥ ـ ١٠٠) على التربية العامة . وظلت الدراسة ومناهجها كما هي وصار التأكيد على الكلام الصحيح واستحسان الشعر بدلاً من النحو العقيم ، وفي الدراسات العليا تركز الاهتمام على البلاغة . وانعكس الاتجاه الانساني خلال القرن على حسن معاملة الآباء لابناءهم . وتوضح المراسلات بين فرونتو وماركوس اوريليوس عاطفة الأخير نحو أولاده وتظهر مدى اهتمامه بهم وقضاءه وقتاً طويلاً معهم . والغيت بعض الممارسات القاسية القديمة وأسست معاهد عامة للاعتناء بأبناء الفقراء وصار هدف التعليم الاحاطة بمختلف أنواع الشعر اليوناني واللاتيني .

أدى السلام الروماني وتشجيع الأباطرة الى انتعاش الأدب اليوناني ، فقد اعترف اغوسطوس باللغة اليونانية لغة رسمية في نصف الامبراطورية الشرقي . وفي روما صار للكتاب اليونانيين حظوة كالكتاب اللاتين وظهر مؤلفون كثيرون دونوا بلغتهم اليونانية حتى ان ماركوس اوريليوس دون كتابه التأملات باليونانية وصارت اللغة اليونانية لغة الكتاب المسيحيين الأوائل ابتداء من الرسول پولس . ومن أهم الكتاب پلوتارخ (٤٦ ـ ١٢٦) وهو من خيرونيا درس في اثينا واستقر أخيراً في الأولى حيث نمت حوله حلقة فلسفية . ومن كتبه حياة الرجال العظام الذي تناول به حياة رجال يونانيين ومن في اعتقاده يوازي بعضهم من الرومان . ثم كتاب الأخلاق الذي تضمن مواضيع عديدة أمثال النقد الأدبي وهجوم على هيرودوتس وتفسيرات لافلاطون ومجادلات الرواقيين والابيقوريين وملحوظات آثارية ومناقشات حول نقاط في علم الطبيعة والروح . ومن كتبه الأولى (عظمة اثينا) و(الاسكندر أحظ او نبوغ) . ويظهر نبوغ بلوتارخ ومعرفته في الفصول التسع الخاصة بأحاديثه والتي عالج بها مختلف

الموضوعات . وهدف بلوتارخ ارشاد الناس على اتباع طريق الطيب والحق ومعرفتهم نقاط ضعفهم وعواطفهم . ومن كتبه الاخرى (حب الثراء) و(الخجل المزيف) و(حول الحب) . ويظهر ان بلوتارخ أراد في كتابه حياة العظماء تعليم اليونانيين بأن التاريخ الروماني يجب أن يحظى بعنايتهم وأن النظرة والغرض في كثير من الأحيان واحد عند الاثنين . والكاتب الآخر لوقيانوس السوري من سميساط الذي كتب باليونانية (ح . ١٢٥ ـ ١٩٠) وكان فيلسوفاً ساخراً هزىء بالأفكار الفلسفية كلها وبأديان الشعوب وكان معجباً بالثقافة الكلاسيكية ونعت نفسه هرسول الحرية في الكلام وكان معجباً بالماضي الذي لم يمنعه عن حب كل ماهو مستحدث حيث نراه يفتش دوماً عن أفكار جديدة ودعا في خطبه الناس الى استعمال التفكير السليم وتوضح تآليفه معرفته بأحوال ومعارف عصره.وبالرغم من كتابته باليونانية الا انه ذكر في احدى مقالاته بأن اليونانية ليست لغة عائلته . وقد مارس المحاماة والخطابة وجاب مناطق كثيرة وعاش مدة طويلة في اثينا . ومن كتبه بيع الفلاسفة بالمزاد الذي عرض فيه بصورة ساخرة مؤسسي مختلف المذاهب الفلسفية في المزاد العلني وكان المنادي الاله هرمس وكان الكتاب بحق تقييماً لمختلف المدارس الفلسفية . ثم كتاب المأدبة الذي وصف به حفلة عرس حضرها ممثلو مختلف المدارس الفكرية وهم في حالة سكر وعربدة وتظهر مدى سخافاتهم من الجدل الذي دخلوا فيه . وقد جاهد لوقيانوس ضد الخرافات زمانه والحياة بنظره هي الحياة الواقعية المرئية وشكك بكل المعتقدات الدينية والفلسفية . ومن كتبه الأخرى محاورات الموتى ومحاورات الأرباب التي أراد بها مداعبة الآلهة والدين وان يظهرهم كلهم كأمور خلقها الانسان [١٥] .

استمرت الفلسفة الرواقية تلقى الشعبية البالغة ، فالى جانب ماركوس اوريليوس ومعلميه ظهر في هذه الفترة ابكتيتوس الذي درس في ابيروس بين ٩٠ ـ ١٢٠ وكانت فلسفته عملية لاتستند على علم او ميتافيزيقا بل على الحياة الطيبة الشريفة . وفي التربية اكد على ضرورة معرفة الانسان لما يعود له ومالايرجع اليه . ولما كان البشر أولاد الالهة فبوسعهم أن يتعلموا ارادتهم وانهم مرتبطون بلحمة العلم وسداه وبعضهم مع البعض . وان الرجل الحكيم المثالي هو الذي يفرغ نفسه كلياً الى خدمة الاله وهو الخلود الحقيقي . وهناك ماكزيموس الصوري الذي يمثل روحاً دينية جديدة في خلاصتها حيث اراد ان يجبر البشر الى تعزيز ارتباطهم بالاله ويرعو خدمتهم له . وهو من الفلاسفة الكلبيين الذين يؤمنون بأن الفضيلة هي الخير الأوحد وتستند على ضبط النفس والروح في سجن الجسم ويمكن أن تعود الى غير المحدود خلال العيش الطيب والرمزية الروحية بعيداً عن

العالم المادي تشرير فالله في نظرد لاعلاقة له بالمادة والبشر وان المسافة بين الاثنين يسيطر عليها الآلهة الأقل درجة أو العفاريت الذين يعيشون في النجوم . وبذلك كانت ارائه مزيجاً من الفيثاغورية الحديثة والرمزية الروحية والافلاطونية الحديثة المتأثرة بالوثنية القديمة . وظهر في زمن دوميشيان في تيانا ابوللونيوس الذي أكد على السحر وقدم المعجزات . وكان الفلاسفة الكلبين يعضون بكل مكان بلحام الطويلة وكل منهم بعباءته الطويلة وعصاة منتقدين الأوضاع الاجتماعية ومستهزئين بالمارة ومنهم رجال حصلوا على احترام الناس امثال ديموناكس الاثيني .

وصل الفن الى اوج عظمته خلال القرنين الأول والثاني بكثرة البنايات العامة وماشيد على شرف الأباطرة والرجالات المعروفين من قصور وتماثيل . وصارت كل مدينة من مدن البلديات تقلد العاصمة بقدر ما تسمح لها به ميزانيتها العامة . فكل مدينة كان لها فورم محاطاً بالمعابد والباسيليكات والممرات ذات الأعمدة ومسرحها وحماماتها العامة . وزينت المعابد والساحات العامة بتماثيل الملوك والحكام . واتخذ الفنانون والمعماريون الفن اليوناني دليلاً لاسيما زمن هدريان . وظل الفن الروماني مرتبطاً بالحياة والواقع . ونلحظ روح الفن اليوناني واضحة في المنحوتات التاريخية التي تزين المذابح والأعمدة والأقواس والتوابيت . ومن هذه أقواس النصر التي شيدها الأباطرة لتخليد انتصاراتهم من اغوسطوس الى سبتيموس سيفيروس في ايطاليا والولايات منها أعمدة تراجان وماركوس اوريليوس . وعصر الزعامة هو عصر البناء بالطابوق والكونكريت ومايزال الكثير من الآثار في الولايات تعود للفترة الرومانية أمثال جسر غارد في نيمس بفرنسا والمسرح في اورنج ومسرح الجم في تونس . اما في الزينة الداخلية والصبة التي وجدت بقاياها في روما ، بومبي ، واوستيا وغيرها من مدن ايطاليا والولايات فتنم عن ذوق وتفنن.فصور بومبي توضح اجتهاد الفنان لاعطاء الصورة عمقاً . الى جانب التقدم في قطع الأحجار الكريمة وصياغة الذهب والفضة . وظهر خلال هذه الفترة الفن المسيحي الموضح في صور كنيسة دورا يوروبس المستقاة من احداث العهد الجديد التي توضح تبني الفنان المسيحي للاسلوب الشرقي وتأكيده روحية صور الأشخاص . ثم الصور التي تركها الفنانون المسيحيون في الغرب على المذابح والمدافن والقبور والتي حذت حذو النقوش الوثنية الجدارية .

شيد تراجان الفورم وهو أوسع جميع الساحات العامة في روما ٢٠٠ × ٣٥٠ ياردة . ففي وسطه كانت باسيليكا اولبيا وهي قاعة مركزية كبيرة محاطة بصفي أعمدة وحنية في كل نهاية وفي الخلف عموده المشهور والمكتبات وفي نهاية الساحة معبده الذي شيده

هدريـان ، وبنى فسپيشيـان ملعبـاً (كولوسيوم) اكملـه بعـده تيتوس ودوميشيـان ويسع ٥٠ ألف متفرج ومساحته ستـة ايكرات والمقاعـد في صفوف حول البنـايـة مكونـة أربع طوابق يوصل اليها بممرات . ومع الأسف لم يبق من معابد القرن الثاني وبناياته العامـة في روما آثار ولكن طراز عمارة عصر هدريان قد نراهـا موضحـة في مزار ڤينوس وروما وبانثيونه . والأخير مكرس الى آلهـة الكواكب السبعـة ولم يبق الا شرفـة البـانثيون المثمن الأصلي الذي يشكل مدخلاً الى بناية هدريان الجديدة المستـديرة الواسعـة (قطرهـا ١٤٠ قدم) ذات الفتحة التي عرضها ٣٠ قدم في الوسط والقبة واسعة بأعمدة سـاندة ، وان آخر قنوات روما شقها نرڤا واكملها تراجان لتزويد المدينة بالماء الذي ربما يصل مـائـة غـالون يـوميـاً لكل شخص . وفي اثينـا شيـد الثري هيرود أتيكـوس اوديـومـاً واسعـاً عنـد قـدم اكروپوليس اثينـا ، وقـدم تراجـان المـال لتمويـل الكثير من البنـايـات في بيثينيـا وعمر هدريان بنـايـات عـدة في اثينـا . كما شيـدت في بريطـانيـا الملاعب الصغيرة بين سنوات ٨٠ ـ ١٥٠ تسع حـوالي ٧٥٠٠ متفرج وعثر على بقـايـا مـلاعب في ميمس واورنـج وپيرغـا وغيرها . حتى المدن التجارية مثل بطرا وبصرى شيدت فيها المسارح الرومـانيـة وبنى في بسكرة على طرف الصحراء ملعبـاً . ونصبت أنـابيب نقـل الميــاه على طريقــة السيفـون وهنـاك قنوات سيفـوفيـا بـاسبـانيـا شقهـا تراجـان وجسردو غـارد قرب ميمس من زمن انطونينوس بطبقاتها الثلاثـة التي يصل ارتفـاعهـا الى ١٦٠ قـدم . ثم الجسور امثـال الجسر قرب الأبواب الحديدية للدانوب الذي شيده تراجان وآخر على نهر تـاغوس قرب القنطرة بأسبانيا بارتفاع ١٥٠ قدم . ومن معابد الولايـات معبـد جوبيتر في بعلبـك لبنـان الـذي شيد زمن انطونينوس ومعبد زووس الاولمي في اثينا الذي أكمله هدريان . وتعطي تمجاد في الجزائر خير مثل لعمارة المدن وهي مستوطنة استحـدثها تراجـان . وفي جرش وتـدمر هناك شوارع ذات أعمدة تتشعب من ساحة مركزية . أما البيوت الخاصـة في تمجـاد فهي بسيطـة مربعـة الشكل تشـابـه بيوت بومبي . وزينت المـدن والقصور بـالتماثيـل . فبيت هدريان في تيبور حوى الكثير من القطع الفنية بعضها الآن في متحف الفاتيكان .

انتشرت عبادة الآلهة الرومانية بتوسع روما ورومنـة بعض الولايـات . وقـد اضطهـد الـدرويـديين لمعـارضتهم الحكم الرومـاني وفي الشرق لم يكن التبــدل كبيراً حيث استمرت الـديـانـات والطقـوس المتـوارثـة في مصر وافريقيـة وآسيـا الصغرى . حتى ان بعض آلهـة الولايـات عبـدت في رومـا نظراً لتقـديس بعض الأبـاطرة وعوائلهم لهـا . فـالامبراطـور غـايـوس عبـد ايـزيس المصريــة ورفيقهـا سرابيس التي أعطيت مركـزاً خــاصــاً زمن فيسپيشيـان ودوميشيـان . وشيـد سبتميوس سيڤيروس معـابـد الى الالـه بـاخوس وهرقـل

وراد ايلا غابالوس جعل بعل حمص اله الدولة الرئيسي بدل جوبيتر الكابيتوليني مما أدى أخيراً الى تنحيته عن العرش .

كان اعلان طقس عبادة روما وأغوسطوس كطقس رسمي أهم ظاهرة دينية في القرنين الأول والثاني وهو رمز الطاعة الكلية للاثنين وأعطيت مسؤولية العناية بهذا الطقس الى مجالس الولايات والبلديات وصار وجهاء الولايات كهنة الطقس الجديد فارتبطوا بذلك بالامبراطور . وبعد وفاة اغوسطوس صار الطقس الامبراطوري يشمل أيضاً عبادة الامبراطور المتوفي وطبقت هذه في الشرق بعد زمن كلوديوس وفي الغرب منذ السلالة الفلافية . وعندما لم يحصل طقس الامبراطور الحاكم مركزاً رسمياً حول دوميشيان معبد الاله اغوسطوس الى معبد لجميع الأباطرة المتوفين بعده . وأدى هذا الطقس دوراً في تعزيز الحكم الفردي حيث صار الامبراطور معيناً بعناية الآلهة التي تسيره خلال حكمه فهو حاكم بحق الهي . وأكد أباطرة السيفيري بأنهم من نسل الأباطرة المؤلهين الاسبقين ، وجر هذا الطقس معه تألية زوجات الأباطرة ثم جميع أفراد العائلة المالكة . وكاعتراف بألوهية الامبراطور أدخل القسم باسمه او بحاميه وصار القسم يؤخذ في معسكرات الجيش بتمثاله الذي يتقدم كل الآلهة الرسمية الأخرى . وصورته النقود كاله على الارض مع الآلهة الآخرين . كما تغلغلت في هذه الفترة طقوس الاديان الشرقية التي بدأ دخولها منذ عبادة الربة العظمى في روما سنة ٢٠٥ ق . م . وقد جاء دخول الطقوس الشرقية نتيجة التجارة والحروب والعبيد ذوي الأصل الشرقي . وصار لهذه الديانات شعبية لتقديمها لعبادها القناعة والرضا بما حوته من مراسيم تثير العواطف والنشوة الروحية والتي عجز عن توفيرها الدين الرسمي . ومن هذه طقوس الربه العظمى (سيبيل) ورفيقها أتتيس . ثم الآلهة ايزيس المصرية ورفيقها سرابيس واقترن ثالوث ايزيس ، واوزيريس وحورس (او ايزيس ، وسرابيس وانوبيس) مع الآلهة ديميتر وديونيسيوس وابولو وفي بعض النقوش حل سرابيس محل جوبيترو الشمس التي لاتقهر . ثم بعل السوري ومثرا منذ نهاية القرن الأول كاله المعارك ونصير الجنود الذي زادت شعبيته في أواسط القرن الثاني . وعمت القدرية والايمان بالسحر والتنجيم وصار للمنجمين الكلدان والمصريين شعبية ويستشيرهم الناس في الأمور المهمة وقد أخرجهم بعض الأباطرة مخافة أن تشجع تنبؤاتهم اعداءهم علماً بأن هؤلاء الأباطرة أنفسهم قد احتفظوا بمنجمين منهم في بلاطهم وغالباً ماكان النفي لفترة قصيرة . وأدى الاعتقاد بالمعجزات والمواحي الى ظهور الكثير من المحتالين الذين استغلوا البسطاء من الناس ومن هؤلاء الاسكندر الذي أوجد موحى جديداً لاسكليبيوس في بافلاغونيا فذاع صيته بالآفاق . وصار الناس يكثرون من استشارة

المواحي كوحي دلفاي الذي استعاد ماضيه ، كما ظهر موحى جديد قرب افيسوس وآمن بالخرافات الكثيرون وعلى رأسهم الكتاب . وراجت كتب تفاسير الأحلام وكتاب ايليان من زمن ماركوس اوريليوس عن العناية الالهية وهي مجموعة مدهشة من المعجزات والايحاءات والنبوءات والخرافات . ثم كتاب الخطب المقدسة لايليوس الذي زار جميع مراكز الشفاء وهو مليء بالخرافات وبه يهاجم الفلاسفة المتحررين ويظهر كتابه ايماناً بالخرافات والرؤى . كما شاعت عبادة في أواسط القرن الثاني وكانت معابده تعج بالكهنة والمرضى الذي وفدوا من كل حدب وصوب وربما كان أكبر معابده عند ايبيدوروس في ارغوليس . والى هذه الفترة تعود مقالة ارتيميدوروس من افيسوس في تفسير الأحلام .

كان هناك قليل من اليهود في اثينا لم ينظر لهم الرومان باحترام . ثم جاءت المسيحية التي تظهر الرسائل المتبادلة بين پلني الصغير والامبراطور تراجان بأن المسيحية لم تكن محضورة ولكن رفضهم عبادة الآلهة الرسمية والامبراطور بحجة كونهم مسيحيين يشكل الأساس القانوني الكافي لمعاقبتهم . وهناك رسالة من هدريان الى مينوكيوس فوندانوس قنصل آسيا المخول (بالرغم من شك البعض بأصالتها) ، تحتم بضرورة محاكمة المسيحيين لا على أساس كونهم مسيحيين ولكن لجريمة معينة ارتكبوها وخير موضح لهذه اضطهاد الجالية المسيحية في ليون بفرنسا زمن ماركوس اوريليوس . وطبق السيفيري السياسة نفسها . وكان اضطهاد مماثل للمسيحيين في سورية سنة ٢٠٢ . غير أن [illegible] لم يمنع اليهود والنصارى من كسب المعتنقين الجدد والتبشير[١٦] .

الهوامش

1. Cyril Robinson, pp. 359-360; Cary, pp. 628-629; Boak and Sinnigen, pp. 322-323.
2. Cyril Robinson, pp. 360-369; Boak and Sinnigen, pp. 324-329.

   د . عبداللطيف أحمد علي ، الامبراطورية .. السالف الذكر ، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ .

3. Cary, pp. 630-665; Cyril Robinson, pp. 369-377; Boak and Sinnigen. pp. 329-332; Trever, pp. 502-524.

   د . عبداللطيف أحمد علي ، الامبراطورية .. ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦ .

4. Cyril Robinson, pp. 378-380; Boak and Sinnigen, pp. 332-333.

   د . عبداللطيف أحمد علي ، الامبراطورية .. ص ٣٠٧ ـ ٣١٣ .

5. George Long, The Meditations of Marcus Aurelius Antoninus, (New York, n.d.), pp. 1-2.
6. C.R. Haines, Marcus Aurelius Antoninus, (New York, 1930), p. 3.
7. A.S.L. Farquharson, Marcus Aurelius, His Life and His World, (New York, 1951), p. 17.
8. Henry, D. Sidegwick, The Life of Marcus Aurelius, (New Haven, 1921), p. 46.
9. F.H. Hayward, Marcus Aurelius, (London, 1935), p. 130.
10. Paul Watson, Marcus Aurelius Antoninus, (New York, 1884), p. 11.
11. Ibid, pp. 99, 115.
12. Trever, pp. 504-528; Cary, pp. 703-704; 630-658; Boak and Sinnigen, pp. 333-335; Cyril Robinson, pp. 381-389.

    د . عبداللطيف أحمد علي ، الامبراطورية .. ص ٣١٤ ـ ٣١٥ .

13. Boak and Sinnigen, pp. 335-336; Trever, pp. 625-626; Cyril Robinson, pp. 388-389.
14. William Sealge, The History of Law, (New York, 1946), pp. 137-138. John, M. Zane, The Story of Law, (Garden City, N.Y., 11927), p. 179; Huntington Cairns, Legal Philosophy from Plato to Hegel, (Baltimore 1949), pp. 160-162.

    د . عبداللطيف أحمد علي ، الامبراطورية .. ص ٣١٦ ـ ٣١٨ .

١٥ ـ د . سامي سعيد الأحمد ، لوقيانوس المفكر السوري الكبير ، المورد ، مجلد ٨ عدد ٢ (١٩١٩) . ص ٦٠ ـ ٦٥ .

16. Boak and Sinnigen, pp. 347-402; Trever, pp. 502-622. Cary, pp. 666-698.

الفصل الثاني عشر
عصر الضعف والانحلال

أ ـ الأحوال السياسية ١٩٣ ـ ٢٨٥ :

اعتلى العرش سبتميوس سيفيروس (١٩٣ ـ ٢١١) وهو من ليبتيس ماغنا (هادرومانتوم) بليبيا ومن عائلة فينيقية فيها تنتمي لطبقة الفرسان . وكان جندياً شجاعاً ومنظماً ماهراً بدأ حياته موظف مالية وأدخله ماركوس اوريليوس الى المراتب السناتورية وصار امبراطوراً وعمره ثمان وأربعون سنة . وأول اجراء له كان تجريد الحرس البريتوري واستبدالهم بأفراد من جيوشه الايليرية وصارت قوات هذا الحرس زمانه تجند من شعوب الامبراطورية كافة . وبعد أن دحر سبتميوس منافسه ألبينوس (الذي كان ليبياً مثله ومن مدينته نفسها والذي أيدته غالة) في معركة ليون التي استباحتها جيوشه ، سار لحرب الفرثيين الذين انتهز ملكهم ولغاش الرابع فرصة النزاع الداخلي والحرب الأهلية في الدولة الرومانية فغزا أرمينيه والعراق وحاصر نصيبين بعد أن أقنع حاكم اوسرهيني في غرب بلاد الرافدين على نزع السيادة الرومانية عنه . فأجبر سبتميوس الفرثين على رفع حصارهم عن نصيبين وطردهم من اوسرهيني وتغلغل في العراق مخرباً سلوقية وطيسفون وبابل سنة ٢٩٨ جاعلاً شمال العراق الغربي مقاطعة رومانية يحكمها حاكم من طبقة الفرسان . وفي طريق عودته من سلوقية مر سبتميوس بالحضر لتأديبها على تقديمها فرقة من رماة السهم لخصمه نايجر وحاصرها وبعد جهود مضنية تمكن جنوده من فتح ثغرة في جزء من السور الخارجي . غير أن الحضريين قاوموه بشدة وسدوا الثغرة ودحروا جيوشه فتراجع عنها خائباً . وقد اتخذ سيفيروس لقب قاهر الفرثين (پارثيكوس) . وكان قد عاقب المدن التي ساعدت خصومه بكل شدة في غالة والشرق وسوريا فخرب بيزانطيوم وعاقب انطاكية بكل شدة .

وكانت حركات البينوس قد اضعفت الحاميات البريطانية وأدت الى زيادة هجمات القبائل ومنهم المايتيين والكاليدونيين على شمال البلاد . وفي سنة ٢٠٥ صد سينيكيو حاكم بريطانيا الروماني هجوماً على سور نورثمبريان ولما اشتدت الحركات الثورية في بريطانيا سار الامبراطور بنفسه اليها مع ولديه كراكلا وغيتا سنة ٢٠٩ وقيل تحرك بجيوشه شمالاً الى كليدونيه لضرب الكليدونيين والمايتين وتوفي وهو يحاربهم سنة ٢١١ في ايبوراكوم (يورك) . وكان قد أصلح سور هدريان مابين تاين وسلواي واضطر ولداه من بعده الى الانسحاب ولو أن كل منهما قد اتخذ لقب قاهر بريطانيا (بريتانيكوس) . وعمل

سيفيروس على تقوية الحدود فازاد التعليات الترابية على طول حدود المانيا العليا لمسافة ٢٠٠ ميل وشيد سوراً دفاعياً عن المانيا العليا وريتيا يمتد مائة ميل . وفي سنة ٢٠٠ وضع تعلية ترابية امام نهر ألوتا من كارباتيان الى الدانوب . وشيد سيفيروس وكراكلا سلسلة من التحصينات في الواحات وراء بسكرة وحدود طرابلس وتعلية ترابية مسافة ٤٠ ميلاً جنوب وادي جدي فضلاً عن اصلاحه الطرق العسكرية الرئيسية .

كان سيفيروس في حكمه معتمداً على الجيش الذي أعلنه امبراطوراً وحاول خلال لحرب الأهلية الحصول على طاعة مجلس الشيوخ له بالرشاوى وقراره بعدم الحكم بالموت على أي عضو منه دون محاكمة سناتورية بالرغم من معرفته بتأييد بعض أعضاء من مجلس الشيوخ لخصومه ومعاداتهم له . وبعد عودته منتصراً شاع الرعب واعدم الكثير من أعضاء مجلس الشيوخ البارزين بتهمة تأييد ألبينوس . ولم يعد للسنات سلطة على أقاليمه وحرم أعضاءه من الوظائف الادارية . وقد طبقت سياسته القاسية هذه بالولايات لاسيما في غالة والشرق .

وجه سيفيروس همه الى الجيش الذي بدل من بنيته وطور كفايته . فقد أضاف ثلاث فرق جديدة جندها من ولايات الدانوب والشرق واضعاً واحدة منها عند بحيرة ألبان (على بعد ٣٠ كم عن روما) لمواجهة أي خطر قد يداهمه من الحرس الپريتوري وليستعمله وقت الضرورة . فلأول مرة ترابط في ايطاليا قوة عسكرية دائمة جنودها من الولايات وسمح لهم بأن يكونوا قادة لمائة جندي وبذلك صار بامكان كل جندي سواء من ايطاليا أو الولايات مهما كانت طبقته بالتدرج في مناصب الجيش وان ينخرط بطبقة الفرسان في وقت ظل به الايطاليون يحتكرون مراتب الجيش المهمة . ونظراً لتخفيض قيمة العملة فقد زاد سيفيروس رواتب الحرس البريتوري من ١٢٥٠ الى ١٧٠٠ دينار سنوياً (قيمة الدينار الواحد الآن مايعادل ٣٥ فلس عراقي) ومن ٣٥٠ الى ٥٠٠ للجنود . والغى قانون زواج الجنود السابق فسمح لهم الآن بالعيش مع زوجاتهم بدلاً من البقاء بالمعسكرات القريبة من مدنهم . وهذا مع توزيعه الأراضي التي يمكن توريثها الى الجنود المساعدين وتشجيعه الجنود المسرحيين على تكوين نوادي لهم في مدن عسكرية قلل من حركية الجيش وكفاءته . وملأ سيفيروس شواغر حكام الولايات الامبراطورية وقيادة الجيش بالفرسان . وكان يتم تجنيد الجنود من فلاحي الولايات الأقل تحضراً . ونظراً لتشعب واجبات المحافظ البريتوري فقد فصل سيفيروس واجباته العسكرية عن المدنية وعين سنة ٢٠٥ محافظين اثنين منهم پانبيان المشرع الروماني الكبير ، فصار المحافظ الآن ينظر بجميع قضايا الاجرام بروما وبمنطقة تبعد مائة ميل منها والدعاوى

الاستئنافية من الولايات الامبراطورية حتى انه ينوب عن الامبراطور في حالة غيابه في رئاسة المجلس القضائي الامبراطوري في وقت ينظر المحافظ الآخر بقضايا تجهيز الحنطة . وكان خلفاء پانبيان في منصبه مشرعين رومان معروفين . اعتبر سيفيروس نفسه الملك الشرعي للعائلة السابقة فأجبر السنات على الغاء قراره بلعن كومودوس واعتباره الهاً . وزيف سنة ١٩٧ وثيقة تبني ماركوس اوريليوس له فاتخذ اللقب انطونينيوس له ولأولاده وصارت عائلته مقدسة . وفي سنة ٢٠٢ زوج سيفيروس ولده كراكلا من پلوتيلا ابنة بلوتيانوس الذي وقع الامبراطور تحت نفوذه وأغرقه بالمناصب والثراء . ولما اكتشف بلوتيانوس عدم ميل الامبراطور وولده كراكلا له تآمر مع ابنته (زوجة الأخير) على قتل الاثنين ، غير أن المؤامرة كشفت سنة ٢٠٣ وقتل پلوتيانوس ونفيت ابنته زوجة كراكلا الى صقلية ثم الى ليپارا .

عمل سيفيروس على تميز العقوبات تبعاً لطبقة المجرم (عضو مجلس الشيوخ ، والفارس ، والارستقراطي ومن البلديات ، والجندي أو من عامة الشعب) . وكانت العقوبات على الأخيرين أكثر وأشد . وفي الادارة فصل سيفيروس موريتانيا عن افريقية وقسم ولايتي سورية وبريطانية مؤسسا الكثير من المراكز الحضرية في الولايات ومانحاً بعض المدن فيها حكم البلديات . فأعطى الاسكندر بمصر مجلس سنات بلدي والحكم البلدي لكل عاصمة من عواصم اقاليم مصر لغرض تسهيل جباية الضرائب وفرضها . ولما كان سيفيروس ليبياً متزوجاً بسورية وهي مارثا الحمصية التي بدل اسمها الى پوليادومنا فقد عمل على مساواة الولايات بايطاليا فأدخل الكثير من أبنائهم في وظائف جهازه الاداري لاسيما في سورية والشرق . وكان سيفيروس سخياً صرف الكثير وقدم المكافآت للشعب وصار يعطي الزيت للمحتاجين من الناس الى جانب الحنطة . وسلم بذكرى صعوده العاشرة لكل مواطن مايعادل ٢٦ دينار عراقي وربع وصرف الأموال الطائلة على اصلاح الطرق العامة بالولايات واصلح طرق مصلحة البريد من الخزانة الامبراطورية وشيد في روما قوساً في الفورم وواجهة جديدة لقصر دوميشيان أطلق عليها اسم (بيت الكواكب السبعة) وكثيراً من الحمامات العامة ومعبداً كبيراً لباخوس وهرقل وعمر العديد من البنايات العامة التي دون عليها اسمه كمشيد أصلي لها . وبالرغم من كل مصاريفه وحملاته فقد كانت الميزانية العامة مليئة بالمال نتيجة ماكان يصل اليه من جزية المقاطعات لاسيما من غالة والشرق والضرائب الامبراطورية الفادحة والممتلكات المصادرة . وخصص للأخيرة خزانة خاصة اعتبرها ملكاً له يورثها لأفراد عائلته . كما عهد الى تخفيض العملة فخفض الفضة من العملة بنسبة ٦٠ ٪ . وجعل نظام السخرة رسمياً تعني

به مؤسسة من مؤسسات الدولة . وسن قانوناً لحماية صداق النساء وحماية مصالح القاصرين والعبيد وأعفى بعض نقابات التجار وأصحاب السفن من رسوم بلدية معينة وأعفى المستأجرين في الأراضي الامبراطورية وبعض الشركات المدنية من السخرة المحلية والتي جعلت الثقل يتركز على الاثرياء في تلك البلديات . وزاد عدد الملاكين الأحرار في بعض أجزاء الامبراطورية زمانه وأصغى لطلبات الفلاحين ضد ظلم موظفي الامبراطورية لهم . والمعروف أن الولايات التي أيدت خصومه كفالة وسورية وآسيا الصغرى قد دفعت ثمن مساعدتهم وهذا مايفسر عدم رفاهية هذه الولايات . ولم تكن أحوال أفريقية ومقاطعات الدانوب الا أحسن قليلاً . واستمرت الاضطهادات السياسية في الولايات وكثر المخبرون والوشاة وزاد العنف بكل مكان وكثر السراق وتنامت البيروقراطية على حساب الطبقة الوسطى في المراكز الحضرية . واهتم سيفيروس بالتعليم والقانون وكتب عن حياته وعمل كل مافي وسعه لتثبيت سلالته الحاكمة . ودينياً أكد سيفيروس على طقس الامبراطور ووضع عقوبة شديدة على المتحولين الى اليهودية والمسيحية .

في سنة ٢١١ توفي سيفيروس في ايبوراكوم (يورك) ببريطانيا وأحرقت جثته فيها ونقل رماده الى روما حيث دفن بضريح هدريان مع الانطونيين . ولم يعترض أحد على اعتباره الهاً وخلفه ولده كراكلا وغيتا دون معارضة تذكر [١]

حكم كراكلا بين ٢١١ ـ ٢١٧ وقد سمي بهذا الاسم (والأصح كاراكاللوس) نسبة الى عباءة غالية ذات غطاء رأس أدخلها هو الى روما . واسمه الحقيقي ماركوس اوريليوس انطونينوس . وكان ضعيف الشخصية قاسي الطبع يؤمن بالخرافات . وحال صعوده على العرش عقد اتفاقاً مع الكليدونيين في بريطانيا وانسحب الى سور هدريان كي يعود الى روما. وبالرغم من أن أخاه غيتا كان شريكه في الملك بالبداية الا أنه كان العاهل الحقيقي مما أدى الى احتدام خصامه مع أخيه واتفقا أخيراً على تقسيم الامبراطور بينهما عندما اتهم كراكلا أخاه بالتآمر ضده وقتله.وقدم كراكلا المكافآت السخية للفرق العسكرية التي زاد رواتبها بنسبة الثلث حتى تؤيده . واتبع سياسة رعب وارهاب ضد الطبقات المثقفة بالامبراطورية وقتل الكثير من اتباع أخيه قدر عددهم بحوالي عشرين ألف شخص منهم المشرع پانپيان الذي رفض تبرير كراكلا لقتل أخيه . اكمل كراكلا بناء الحمامات التي بدأ بتشييدها والده وكانت مصاريفه على القوات المسلحة باهظة جداً مما أفلس الخزانة واضطر الى انهاك الملاكين في أنحاء الامبراطورية بالضرائب والرسوم الأمر الذي أدى الى اضعافهم . فالى جانب ضرائب التاج والعقار فقد ضاعف كراكلا ضريبة الأرث والعتق

حتى فرض على الملاكين تقديم الأطعمة والتجهيزات مجاناً وفرض ضرائب باهظة جداً على الاثرياء والمدن . وكان سبب مذابح الاسكندرية بمصر هو فرض كراكلا رسوماً جديدة لتغطية الحملة الفرثية ، ولما استهزأ بذلك سكان المدينة أمر شبابهم بالخروج الى استعراض ولما خرجوا قتلهم جميعاً . كما خفض المعدن الثمين بالعملة بأن سك عملة جديدة بفئة دينارين (حوالي ٧٠ فلساً عراقياً) يقل وزنها بنسبة الثلث عن العملة السابقة كما خفض الاوريوس الذهبي .

أصدر كراكلا سنة ٢١٢ قانون جنسية جديد للامبراطورية حصل بموجبه جميع الأحرار على المواطنة الرومانية ولم يستثن منه الا القلة القليلة . وربما كان ذلك لشمول أكبر نسبة من السكان بضرائب الأرث ونظام السخرة والقضاء على التمييز الطبقي بالامبراطورية .

صد كراكلا سنة ٢١٣ هجوماً قامت به قبيلة الألماني والقوطيون وعقد مع الألماني صلحاً مؤقتاً والقوط من الشعوب الجرمانية الشرقية التي تحركت من أماكنها الأصلية في الفستولا الأسفل الى مناطق البحر الأسود واصطدموا بالرومان عند مويسيا السفلى . وقد حاربهم كراكلا سنة ٢١٣ ـ ٢١٤ دون أن يستمر في حربهم مكتفياً باكمال سور والده على طول الراين والدانوب الأعلى . وفي بداية سنة ٢١٤ سار كراكلا الى الشرق فأزاح الملك الفرثي الذي نصبه الفرثيون على ارمينيا وأصبحت ارمينيا ولاية رومانية ثم غزا ميديا مخترقاً حدياب في شمال بلاد الرافدين . ولما كان كراكلا في الرها اغتاله القائد ماكرينوس من المغرب (موريتانيا القديمة) . وقد تدرج ماكرينوس في المناصب من جندي بسيط واعترف مجلس الشيوخ به امبراطوراً في الحال لأنه خلصهم من طاغية . وأعلن حال اعلانه امبراطوراً ولده ديادومينيانوس خليفة له ، وكان ماكرينوس أول قائد من طبقة الفرسان يصبح امبراطوراً دون أن يكون من ارستقراطية مجلس الشيوخ وعزي تقدمه الى خبرته الادارية ومعرفته بالقانون وقد بين في حكمه اعتدالاً وحسن تصرف في تدبير أمور الدولة .

خسر ماكرينوس في حربه لارطبان الملك الفرثي حيث دحره الأخير وطرده من شمال بلاد الرافدين وعقد معه الملك الفرثي اتفاقاً استرجع الأخير بموجبه اسراه وتسلم غرامة حربية فادحة وضمن عرش ارمينيا لتيريدات وهو أحد أقاربه الذي اعترف بالتبعية الأسمية الى روما .

ايلاغابالوس :

وبعد هذا العمل الشنيع أعلنت بعض القطعات في حمص سنة ٢١٨ باسيانوس حفيد يوليامسا (ابن ابنتها يوليا سويمياس من نبيل سوري) اخت يوليادومنا (التي لم ترزق بولد) امبراطوراً منافساً . وقد رشت يوليامسا الجنود فشهروا السلاح ضد ماكرينوس وأخبرتهم بأن الامبراطور الجديد هو ابن كراكلا . وكان لباسيانوس أربعة عشر سنة وعلى غاية من الجمال وكان جل همه نشر عبادة ايلا غابالوس اله الشمس في حمص الذي كان اهله من كهنته وادخاله الى روما وجعله رب الامبراطورية . وقد غير باسيانوس اسمه متخذاً اسم الاله ايلاغابالوس اسماً جديداً له . وصار الامبراطور الأوحد عندما اصطدمت الجيوش الموالية له مع قوات ماكرينوس فدحرتها وقتل ماكرينوس اثناء هربه .

كان ايلاغابالوس خلال فترة حكمه القصيرة خليعاً أحاط نفسه بحاشية من سيئي الأخلاق كان منهم المصارع والحلاق وسائق العربة عينهم في مناصب عالية في وقت طرد به اكفأ الموظفين الى جانب تبذيره وترفه غير المتناهيين . وادخل الى روما حجراً أسود كان يعتقد هو بها وارتبط بزواج مع عذراء ڤيستا . ونظراً لصغر سنه فقد سيطرت عليه جدته التي تنفذت بالدولة حتى انها حضرت مناقشات مجلس الشيوخ . وأجبرت حفيدها أخيراً على تبني ابن خالته ماميا واسمه اسكندر سيڤيروس خليفة له في الحكم وله من العمر ثلاث عشرة سنة . ولما حاول ايلاغابالوس التخلص من أخيه أجبره الحرس البريتوري على اشراك الاسكندر معه في الحكم . وأخيراً داهم رجال من الحرس البريتوري الامبراطور ايلاغابالوس ووالدته وسحبوا جثته في الطرقات ورموها أخيراً في نهر التيبر .

اسكندر سيڤيروس :

خلف ايلاغابالوس بالحكم ابن خالته اسكندر سيڤيروس (٢٢٢ ـ ٢٣٥) وكان عمره أربع عشرة سنة ولهذا وقع تحت تأثير جدته وأمه وبعد وفاة الأولى سنة ٢٢٦ ادارت الثانية معه الامبراطورية طوال مدة حكمه . وقد ربته أمه على المثابرة وطاعتها العمياء والفضيلة . وكان اسم اسكندر سيڤيروس الأصلي الكسيانوس باسيانوس . وقد عين وأمه موظفين مدنيين في مصالح الدولة بدلاً من العسكريين الذين ملأ سبتميوس ومن بعده بهم الوظائف . غير أن العسكريين ظلوا يملؤون الدوائر واتبع خلال فترة حكمه سياسة سلمية واقتصد بمصروفات الجيش . وقد اعتمد على السنات أكثر من اعتماده على الجيش واسترجع مجلس الشيوخ شيئاً من سلطاته التي فقدها ومنها الموافقة على تعيينات الموظفين الكبار في الدولة والحكم في القضايا الخاصة بأعضائه وأسند الى افراد منه المناصب المهمة . وصار مستشارو الامبراطور خلال فترة صغره من أعضاء السنات وعددهم ستة عشر يشكلون مجلساً استشارياً في التشريع وادارة الدولة يستنير بآراءه الامبراطور وأمه ووزرائه .

وصار قائد الحرس البريتوري ينوب عن الامبراطور امثال المشرع اولپيان من طبقة الفرسان . والشخص المهم الآخر خلال مدة حكمه كان المشرع پولوس . وفي سنة ٢٢٨ اغتال افراد متمردون من جنود الحرس البريتوري قائدهم اولپيان بحضور الاسكندر وكان حقدهم على المؤرخ ديو كاشيوس الذي كان آنذاك قنصلاً للمرة الثانية على أساس قسوته وطلبهم له من الامبراطور دون شك لقتله الدافع لارسال الاسكندر له الى مدينته بآسيا الصغرى والبقاء فيها حيث أكمل كتابة تاريخه . وصار أعضاء المجالس في كل بلدية مسؤولين عن تقديم الرسوم المالية المفروضة عليهم حتى ان كان من جيوبهم . وفي مرة اشارت الملكة الوالدة على الامبراطور بنفي زوجته فامتثل . وبالنسبة الى العامة فقد وسع اسكندر الحمامات العامة وسمح للصناع وتجار المفرد الذين يعملون في مصالح توفير الحاجات الضرورية لروما بالانتظام في نقابات تحت اشراف الدولة وأعفاهم من الضرائب ومنحهم امتيازات اخرى وكانت سياسة الاسكندر هذه بداية لسيطرة الدولة على التجارة والصناعة . فكثرة مصاريف الجيش والامتيازات الواسعة التي منحت لأفراد القوات المسلحة قد أتت على كل موارد الدولة وجردت سكان المراكز الحضرية وبضمنها روما من توفير ضرورياتها مما دفع الدولة الى التضييق على رجال العمل والنهب النظامي عن طريق الضرائب المباشرة وغير المباشرة وأعمال السخرة والمصادرات وصار أعضاء جمعيات الحرفيين يقدمون مجاناً منتجات مصانعهم وأجبر مؤجري مقاطعات الدولة على تقديم جزء من محصولاتهم مجاناً الى الدولة وأجبر عمال النقل على ايصال الأطعمة الى العاصمة مجاناً . غير أن الاسكندر استمر في اعفاء أصحاب الأراضي التي يحسنونها من الضرائب وتقديم الاعانات الى المعلمين والمدارس . وامتاز النصف الأول من القرن الثالث بانتشار المدارس الأولية في جميع أرجاء الامبراطورية ولأول مرة نقرأ عن وجود معلمين كطبقة متميزة في مدارس أولية بالقرى . واستمرت الدولة في تخفيض نسبة المعدن الثمين في العملة فقد خفض الاوروس الذهبي الى نصف وزنه الأصلي .

شهد حكم الاسكندر سقوط السلالة الفرثية وبدء حكم الساسانين بدينهم الزردشتي في بلاد فارس . وفي سنة ٢٣١ طرد اردشير مؤسس الدولة الساسانية الجديدة الجيوش الرومانية من المناطق التي يحتلونها في بلاد الرافدين وتغلغل بعيداً في كبدوكية وسورية . وفي العام التالي قاد الاسكندر وأمه الجيوش الرومانية ومعهما ملك ارمينيا الذي تحالف مع روما . وبالرغم من الخسائر الجسيمة التي منيت بها احدى الفرق الرومانية فقد استرجعت الفرق الأخرى بلاد الرافدين وعقد الاسكندر سلاماً مع الساسانين دام أربع سنوات وعاد الى روما في نهاية ٢٣٣ ليحتفل بانتصاره . وخلال فترة غياب الاسكندر بالشرق هددت قبائل الالماني وغيرهم من الجماعات الجرمانية مناطق ايليريا

وغالة عبر الألب . فسار الاسكندر بعد رجوعه مع أمه لحربهم ورابط عند ميلز . غير أن فشل الاسكندر في حفظ طاعة قواته له دفعه الى تفضيل السلام فقدم الرشاوى لزعماء القبائل المتمردة مما زاد حنق جنوده عليه والذين كانوا مستائين من ضعف الملك وسيطرة أمه عليه . وفي سنة ٢٣٥ نصبوا قائدهم التراقي (من أب قوطي وأم ألانية) غايوس ماكزيمينوس امبراطوراً . وكان ماكزيمينوس قد تدرج في المناصب العسكرية من راعٍ بسيط استرعى نظر الامبراطور سبتميوس سيفيروس بضخامة جسمه فأدخله الجيش وصار يقربه . وكان ماكزيمينوس معروفاً بقوته الجسمانية فقد روي ان طوله كان ثمانية أقدام ونصف ويشرب ثمانية غالونات من الخمر ويأكل ٣٠ كيلو لحم يومياً ويكسر الصخور بيديه . وبتحريض منه هجم الجنود المتمردون على الامبراطور الاسكندر وأمه وذبحاهما .

كانت الفترة بين سنتي ٢٣٥ و٢٨٥ عصيبة في تاريخ الامبراطورية الرومانية جاءت نتيجة مباشرة لعيوب السياسة التي انتهجها الأباطرة الأسبقون كاعتمادهم على الجيش وبذخهم في الصرف عليه . فقد حل الاضطراب خلالها لكثرة حركات العصيان بين أفراد القوات المسلحة والتنافس بين قواده على منصب الامبراطور ، فلم يزر ماكزيمينوس روما من قبل وقد تمكن عند صعوده العرش من ارجاع الأمن الى ربوع منطقتي حوض الراين والدانوب واتخذ لقب داحر سرماتيا وداكيا (سامار تيكوس وداكيكوس) غير أن معارضة مجلس الشيوخ له ميزت سنوات حكمه الثلاث بالرعب والارهاب ، وعزل جميع الضباط الارستقراطيين من الجيش واضطهد أصحاب الأراضي وصادر الكثير من الأملاك الخاصة سواء أكانت للأفراد أو المدن . واستبدل الضباط الارستقراطيين بجنود حصلوا على منزلة الفرسان قريباً ، كما شن حرباً ضد المثقفين والنبلاء وأفراد الطبقة الوسطى .

غورديان :

نصب الجيش في افريقية سنة ٢٣٨ القنصل الخول النبيل انطونيوس غورديان امبراطوراً وكان في الثمانين من عمره نتيجة عصيان في المقاطعة ضد سياسة ماكزيمينوس . وقد رحب به السنات ، ولم يكن ليرتضي غورديان المنصب ودعا الآلهة لاعفائه غير أن العصاة هددوه بالقتل في حالة رفضه . ودخل بعد ذلك قرطاجة حيث استقبل بترحاب كبير . وقد جعل غورديان السلطة في أيدي لجنة سناتورية قوامها عشرون عضواً ورشح ولده غورديان الابن كشريك معه في الحكم ، واعترف السنات بغورديان وولده كامبراطورين وعد ماكزيمينوس عدواً للشعب . وأيدت الامبراطور الجديد كل الأقاليم عدا داكيا ، پانونيا واسبانيا التي ظلت مخلصة لماكزيمينوس . وبعد فترة قصيرة تقدم كاپيليانوس حاكم موريتانيا الموالي لماكزيمينوس فسار غورديان الابن لصده لكنه اندحر

وقتل . ولما سمع والده الامبراطور غورديان بمقتل ولده شنق نفسه ودام حكم الوالد وابنه شهرين فقط .

دفعت الأحداث مجلس الشيوخ الى تنصيب اثنين من اعضائه وهما كلوديوس پوپينوس وكيليوس بالبينوس امبراطورين شريكين بيد الأول السلطة المدنية والثاني العسكرية . وزحف ماكزيمينوس من پانونيا على ايطاليا وتهيأ الحرس البريتوري والشعب لمواجهته غير أن جنوده انقضوا عليه وقتلوه .

ولم تدم فترة رفعة مجلس الشيوخ طويلاً حيث قتل رجال الحرس البريتوري الامبراطوريين وأجبرا مجلس الشيوخ على اعلان غورديان الثالث نجل غورديان الابن امبراطوراً وكان له من العمر ثلاث عشرة سنة ونصبوا القائد فوريوس تيميسيثيوس وصياً عليه وكان رجلاً ذا خبرة طويلة وحكم البلاد بكل كفاءة خلال الثلاث سنوات من حكمه وقاد مع الامبراطور جيشاً دحر به القوط في مويسيا وسار سنة ٢٤٢ لحرب الفرس ودحرهم مسترجعاً انطاكية ومدناً أخرى . وبعد وفاة تيميسيثيوس صار الامبراطور تحت رحمة ثوليوس فيليپوس العربي وهو ابن شيخ عربي من بصرى بسورية ترقى في المراتب العسكرية حتى صار قائد الحرس البريتوري . ولما تمرد الجيش على الامبراطور غورديان الثالث وقتلوه نصبوا (فيليب العربي) امبراطوراً .

فيليب العربي :

عقد الامبراطور فيليب العربي صلحاً مع الملك شاپور الأول تراجعت بموجبه روما الى حدودها السابقة واحتفل بانتصاره متخذاً اللقب قاهر فارس العظيم (پيرسيكوس ماكزيموس) وترك اخاه حاكماً على اقليم مابين النهرين وعاد هو الى روما ليحتفل بمرور الف سنة على تأسيس روما وأقيمت الألعاب . وكانت ادارة فيليب العربي على غاية من الكفاية والشرف ، واحترم خلالها الدستور وقد حما ايطاليا وحافظ على الأمن في الطرق ووضع الكثير من أحجار المسافات على الطرق العامة في جميع أجزاء الامبراطورية . وكات متسامحاً مع المسيحيين الى الحد الذي اعتبره المؤرخ الفلسطيني يوزيبيوس مسيحياً . وقد أسس مدينة فيليپوپوليس قرب بصرى بسورية وأعلن ولده شريكاً معه في الحكم.وفي سنة ٢٤٥ حارب قبائل الكارپي على الدانوب وفي سنة ٢٤٨ ثار ضده في الشرق ايوتاپينوس وفي مويسيا مارينوس وقد أخمد الحركتين بكل سرعة . ولما أرسل ضابطه ديكيوس لفض مشكلة لدى الجيوش المرابطة عند الدانوب أعلنته تلك القطعات امبراطوراً وأمرته بالزحف بها على ايطاليا . ويظهر أن ديكيوس كان مخلصاً لفيليب العربي حيث أنه ارسل له رسالة أخبره فيها بأنه سوف يترك المهمة حال وصوله روما .

غير أن فيليب لم يثق بأقواله حسب مايظهر واصطدم به قرب ڤيرونا فاندحر فيليب وقتل مع ولده سنة ٢٤٩ .

حكم ديكيوس سنتين كان خلالها ادارياً حازماً أحيا خلالها الدين الرسمي للدولة . وان تحركه مع جيوشه الى ايطاليا ترك جبهة الدانوب دونما حماية فهجم القوط الشرقيون عبر الدانوب الأسفل واجتاحوا تراقيا ومقدونية وقيل أنهم قتلوا في فيليبوبوليس مائة ألف . ولما سار ديكيوس شمالاً مع ولده سنة ٢٥١ لصدهم كسروا جيشهما وقتلوهما في اثناء المعركة قرب ادامكليس وعمل خليفته تريبونيانوس على اغرائهم بالمال . وقد وضع اللوم في الاندحار على خيانة غاللوس حاكم مويسيا العليا والسفلى والذي أعلنته قواته امبراطوراً .. تميزت الفترة من سنة ٢٥١ ـ ٢٦٨ بالفوضى العسكرية وتدمير تحصينات الحدود وتوالي هجمات القبائل البربرية على ايطاليا ، غالة ، واسبانيا ، وبريطانيا وافريقية وأراضي الدانوب واحتلال الفرس لمناطق مابين النهرين وسورية وزيادة القرصنة في البحار وتخريب الزلازل لمناطق من ايطاليا والشرق وكثرة الأباطرة واستقلال اجزاء من الامبراطورية .

عقد الامبراطور غاللوس (٢٥١ ـ ٢٥٣) معاهدة مخجلة مع القوطيين سمح لهم بها على حمل غنائمهم وأسراهم ووعدهم بجزية سنوية . واتخذ عند دخوله روما ولده ڤوليسيانوس وهو ستيليانوس ابن ديكيوس شريكين معه في الملك . وفي سنة ٢٥٣ أعلن القوطيون عصيانهم ثانية فردهم اميليانوس على أعقابهم غير أن جنوده أعلنوه امبراطوراً في مويسيا وتقدم الى ايطاليا حيث انتهز جند غاللوس الفرصة فانقضوا عليه وقتلوه مع ولده عند انترامنا قبل أن يصطدم بهم اميليانوس . وقد اقترن اسم غاللوس بالجبن وعدم الشرف وشهد عهده هجمات القبائل المتكررة وتفشي الطاعون سنة ٢٥٢ الذي استمر خمس عشرة سنة فتك خلالها بالكثير من السكان . غير أن الامبراطور اميليانوس وكان من المغرب (موريتانيا القديمة) لم يبق في منصبه غير بضعة أشهر لاشمئزاز الجند من تقربه لأعضاء مجلس الشيوخ واحترامه له حيث ذبح سنة ٢٥٣ وأعلن الجند بدله ڤاليريان (٢٥٣ ـ ٢٥٩) امبراطوراً . وعين ڤاليريان ولده غالينوس شريكاً معه في الحكم وعهد اليه بقيادة الجيوش المرابطة على حدود الراين . وقد واجهت الامبراطورية خلال فترة حكمه حركات عصيان عدة وهجمات أجنبية ، فقد دمرت قبائل الألماني اقاليم الدانوب العليا وسيطر القوطيون على حدود الدانوب السفلى . واخترق الفرنك حدود الراين السفلى مخربين جنوب المانيا وغالة سنة ٢٥٦ . وتمكن جالينوس من حماية ايطاليا ودحر الغزاة في ميلانو سنة ٢٥٦ وسار لحماية حدود الراين . وسار ڤاليريان بنفسه لحرب

الفرس الذين اجتاحوا شمال غرب الجزيرة الفراتية (اقليم مابين النهرين) وسورية وعينوا ملكاً موالياً لهم في ارمينيا . وفي سنة ٢٥٨ استرجع ڤاليريان انطاكية لكنه اندحر عند الرها والقى الملك الفارسي شاپور القبض عليه في مكيدة دبرها ضده وساقه الى الأسر والاهانة وظل حتى مات متأثراً من التعذيب الذي قاساه في الأسر . وقيل أن الملك الفارسي أمر بحشو جلده بالتبن وتعليقه في أحد المعابد الزردشتية لسنين عدة . وفي السنة التالية اجتاح الفرس سورية واحتلوا انطاكية وطرسوس وتغلغلوا داخل آسيا الصغرى . ولم يوقف شابور عند حده الا اذينة بن حيران ملك تدمر الذي تسميه المصادر الرومانية سبتميوس اذينة . فقد طرد اذينة الفرس من آسيا الصغرى والجزيرة الفراتية ووصل طيسفون وساعد جالينوس في القضاء على تمرد ضابطين رومانيين في الشرق أرادا خلعه واسترجع للرومان كل سورية ومصر . وكافأه جالينوس ابن ڤاليريان بان منحه لقب ملك الشرق وعينه قائداً للقوات الرومانية على حدود الفرات ومصر . وبعد وفاة اذينة خلفته زوجته الزباء كوصية على ولدها القاصر وهب اللات .

وتمكن جالينوس في الغرب خلال السنوات ٢٥٦ ـ ٢٥٧ من دحر الألماني والفرنك . وغزا الماركوماني والكوادي والايازيجيون في پانونيا غير أن جالينوس ضمن الامن في المنطقة بين الراين والدانوب . غير أن الحالة قد تعقدت بسيطرة الفرنك على أواسط غالة وشمال اسبانيا وعبور السكسون القنال الانكليزي الى بريطانيا وكثرت هجمات القوطيين على البلقان مما أدى الى اعلان الكثير من القادة أنفسهم أباطرة بحيث سميت الحقبة هذه بفترة الثلاثين طاغية . ولما تمكن پوستوموس من طرد الفرنك والالماني من غالة صار يحكم بصورة مستقلة كامبراطور على غالة فقط وأيده حكام بريطانيا وأسبانيا وأصدر عملة خاصة به وعين مجلس سنات خاص بغالة وظل يحكم غالة حتى اغتاله جنوده سنة ٢٦٨ . وخلال هذه الفترة كان الألماني يهاجمون وادي الرون وتدفقت جموع اخرى على ايطاليا مندفعة حتى راڤينا . وقد ساعد تفشي الطاعون والتفكك السياسي على هجوم قبائل القوطيين والهرني على البلقان وحاصروا سالونيك سنة ٢٦٧ وردهم القائد المؤرخ دكيسپوس عن اثينا خائبين . وهاجمت قبائل اخرى تراقيا واحتلت بيزانطيوم وعبرت مضيق البوسفور لتخرب مدن بيثينا . واشتركت سفنهم مع اسطول القراصنة يقوده الهيرولي والقوطيون واشاعوا النهب والقرصنة بمياه البحر الايجي ومخربين كل شيء أمامهم حتى اسبارطة . وتمكن جالينوس من صدهم ودحرهم في مويسيا ودحرهم أحد قواده في البحر . وكان جالينوس مثقفاً متسامحاً مع المسيحيين وكان صديقاً لافلوطين مؤسس الافلاطونية الحديثة . وقد عارضه مجلس الشيوخ بشدة لحكمه الفردي المطلق واعتماده على

الجند وتقريبه لهم وتفضيل الفرسان على الارستقراطيين في القيادات وتجريده السنات من أية صلاحيات عسكرية . وقد أرسل جالينوس أخيراً قائده اوريولوس لحرب پوستوموس في غالة غير أنه حول مسيرته وتقدم نحو روما . ولما عرف جالينوس بالأمر تقدم لادراك الموقف فحاصر اوريولوس في ميلانو غير أن حرس جالينوس اغتالوا الأخير .

جاء بعد جالينوس كلوديوس وكان قائداً عسكرياً ايليري الأصل ، وقد قضى على اوريولوس بميلانو وحصل على تأييد اسبانيا وقسم من غالة الناربونية . وفي سنة ٢٦٩ عبرت القبائل الجرمانية الدانوب ليستوطنوا البلقان ووصلت سفنهم قبرص فداهمهم كلوديوس ودحرهم واسكن قسماً منهم البلقان واتخذ اللقب قاهر القوطيين (غوتيكوس) . وعند وفاته سنة ٢٧٠ بالطاعون نصب جيشه في ايطاليا أخاه مكانه غير اورليان حال سماعه بأعلان اوريليان (٢٧٠ ـ ٢٧٥) امبراطوراً .

استرجع اوريليان حدود الدانوب وامر باخلاء داكيا وقد ايده السنات عند دخوله روما حيث اغلق دار سك النقود لايقاف السرقة والتزييف وهو اجراء جر معه نتائج غير محمودة . وفي سنة ٢٧١ هاجم الالماني المانيا ودحروا الجيوش الرومانية التي قادها اورليان غير أنه أبادهم بعد ذلك . وهو الذي بدأ ببناء سور دفاعي لروما قطره ١٢ ميلاً وعرضه ١٢ قدماً وارتفاعه ٢٠ قدماً اكمله خليفته . وزود السور بأبراج مستطيلة وحوى ثماني عشر بوابة . وسار اورليان بعد ذلك لحرب زنوبية ملكة تدمر التي أصدرت عملة خاصة حوت صورة ولدها بدلاً من الامبراطور الروماني واتبعت سياسة مستقلة عن روما واتخذ ولدها وهب اللات لقب اغوسطوس وسيطرت هي على قسم من آسيا الصغرى ومصر عدا الاسكندرية . واسترجع اورليان آسيا الصغرى ودحر قوات تدمر عند حمص ثم سار الى وسط الصحراء وحاصر تدمر واسر زنوبية لدى محاولتها الهرب واحتلت تدمر سنة ٢٧٢ . ولما عاد اورليان الى روما ثارت تدمر وذبح سكانها رجال الحامية التدمرية فيها ممأأغاظ اورليان فعاد وخرب تدمر تخريباً كلياً ، ثم سار اورليان الى غالة التي كانت تحت حكم ترتيكوس خليفة بوستوموس الذي نقل عاصمته من اوغستا تريفيروروم الى بورديغالة (بوردو الحالية) وقد اتفق ترتيكوس سراً مع اورليان وانتصرت جيوش الأخير على الغالين في معركة چالون وهكذا سلمت له غالة وبريطانيا واتخذ اللقب (مسترجع العالم) . وفي روما احتفل بنصره وسار في موكب النصر زنوبيا وترتيكوس وأمر بعد ذلك بتخصيص راتب للأولى وعين الثاني بوظيفة ادارية لائقة .

أدخل اورليان عملة جديدة لم تحض باهتمام شعوب الامبراطورية وأثرت عليها ندرة

الفضة وصعدت أسعار الذهب الأمر الذي أدى الى ارتفاع الأسعار الفاحش . وان استعمال الفئات النقدية الصغيرة في التعامل بدلاً من الدينار يعكس الفقر المتنامي وهبوط قيمة النقد وقد وازن اورليان المدفوعات بالأموال التي أتى بها من الشرق والغنائم الكثيرة ومانهبه من تدمر . فصار يوزع الخبز يومياً على المواطنين ومعه أحياناً لحم الخنزير والملح والزيت .

وصل الحكم الفردي عنفوانه زمن اورليان ، فقد وضع على نقوده العبارة (الاله المولود والرب) وأعاد ترسيخ طقس اله الشمس الذي لايقهر والذي أدخله ايلاغابالوس وشيد اورليان له الآن معبداً ليحل محل طقس عبادة الامبراطور الذي اضمحل خلال فترة الفوضى . وفي سنة ٢٧٥ اغتال اورليان بعض ضباطه الذين طلبوا من السنات ترشيح امبراطور بدله فرشح كلوديوس تاسيتوس وكان في الخامسة والأربعين من عمره .

سار تاسيتوس لحرب القوطيين والآلاني بآسيا الصغرى ودحرهم . غير أن جنوده قتلوه ونادوا بأخيه فلوريانوس امبراطوراً بدله غير أنهم قتلوا الأخير عند سماعهم بترشيح الفرق الأخرى الى اورليوس پروبوس امبراطوراً (٢٧٦ ـ ٢٨٢) وهو من ايليريا . وحدث ان هاجمت قبائل الألماني والفرنك غالة واحتلوا سبعين مدينة فدحرهم پروبوس ؛ كما أخمد ثورات في آسيا الصغرى ومصر وتمرد في غالة . وقد ادخل برنامجاً مكثفاً لبناء المشاريع العامة واستصلاح الأراضي الزراعية يستخدم فيها الجند مما أدى الى تذمر فوات بانونيا التي قتلته ووضعت على العرش بدله القائد الايليري اوريليوس كاروس . وعين الأخير ولده كارينوس شريكاً معه في الحكم وعهد اليه بادارة الغرب في وقت سار هو الى الشرق لحرب الفرس . وكان انتصاره على الفرس ساحقاً وتقدم حتى طيسفون سنة ٢٨٣ حيث مات بصاعقة وربما نتيجة تمرد عسكري ضده . وأعلن الجند ولده نومريانوس امبراطوراً الذي قتله قائد الحرس البريتوري خلال مرورهم بآسيا الصغرى في طريق العودة ووقع اختيار الجند على دقلديانوس (ديوكليشيان) فأعلنوه امبراطوراً . ولما وصلت الأخبار باندحار كار ينوس ابن الامبراطور كاروس وخليفته على ضفاف نهر مارغوس (موراڤا) في مويسيا وذبح ضباطه له صار دقلديانوس الامبراطور الأوحد .

في الفترة بين ٢٣٥ ـ ٢٨٥ انتهى حكم الزعامة الذي بدأ منذ حكم اغوسطوس ، فلم يعد السنات عاملاً فعالاً في الحكومة وخرجت قيادة الجيش وادارة الأقاليم من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ بالرغم من وجود فترات قصيرة استعاد مجلس الشيوخ بها شيئاً من قوته . ولم يعد لمجلس الشيوخ قيمة في تعين الأباطرة وصار التأكيد أكثر على ألوهية

الامبراطور . فأورليان عد نفسه الهاً وكتب ذلك على نقود أصدرها .

وأطلق على نفسه في كتاباته الاله اورليان . وأعتمد جالينوس على طبقة الفرسان في القيادة العسكرية والوظائف المدنية العليا والذين كانت غالبيتهم في الجيش من الجنود السابقين . حتى في عهد اغوسطوس كانت الجيوش المرابطة في مصر يقودها ضباط من الفرسان وكذلك قواد الثلاث فرق الجديدة التي شكلها سبتميوس سيفيروس . واستبدل جالينوس الحكام من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ الذين يديرون الأقاليم الامبراطورية بموظفين من الفرسان .

ان فشل نظام التحصينات الحدودية التي استحدثت في القرن الثاني لوقف هجمات القبائل أدى الى العودة الى نظام القوات المتحركة التي ترابط في المواقع الاستراتيجية وتكون مستعدة لصد الاعداء وملاحقتهم . كما تركت عادة بناء مستودعات محصنة على مسافة مسيرة يوم واحد بعضها من بعض . وفي الأسلحة استعيض عن درع الصدر بسترة جلدية مغطاة أحياناً باصداف معدنية وحل الدرع المدور الصغير محل الثقيل السابق واستبدل السيف القصير المستقيم بالطويل والرماح التي استعملتها الجيوش المساعدة . وباختفاء الضباط الروماني الأصل وطغيان أولئك من الاقاليم وهم أقل تحضراً وثقافة حل الضعف بالجيش وفترت الهمة والشعور الوطني . ومنذ زمن جالينوس صار الرومان ينظرون الى سلاح الفروسية كقوة مهمة أكثر أهمية من المشاة وأخذوا في تكوين سلاح فرسان روماني خاص . وكان الفرسان المغاربة في الجيش الروماني قوة ضاربة ودخلت بها الآن وحدات فرسان جديدة من دلماشيا كما استخدموا رماة السهم التدمريين والاسراهينين (من شمال العراق الغربي) المعروفين بشجاعتهم واتقانهم فنهم وكانوا يستعملون قوساً متميزة عرفت بالقوس الآسيوية . وكانت ميلانو مركز وحدات الفرسان التي عززها اورليان . كما دخل الجنود الجرمان في وحدات النوميري وكوحدات اعتيادية للقوات المسلحة ومن هؤلاء الوندال والألماني واليوثونغيين .

اثرت هجمات القبائل البربرية والجيوش الفارسية على الحياة الاقتصادية في مختلف المجالات فعرقلتها ، الى جانب الاضطراب في العملة وتقليل نسبة المعدن الثمين فيها . وفي حقل الأدب برز الآن المؤرخ هيروديان وديكيپوس من اثينا مؤلف التاريخ العام الذي لم يصل الينا وتاريخ السكيثين الذي ظلت منه شذرات . وفي الفلسفة هناك الفيلسوف المصري افلوطين مؤسس الافلاطونية الحديثة والذي حاضر في روما بين ١٥٣ ـ ٢٧٠ . وصارت الفلسفة اليونانية عنده ذات شخصية دينية تستند على الاعتقاد الاعمى والوحي وليس العقل . ثم السوري كاشيوس لونجينوس الذي درس الفلسفة

والبلاغة في اثينا ودعته زنوبيا وعمل مستشاراً عندها وقتل خلال تدمير الرومان لهذه الدويلة المسالمة . وكان كثير من رجال الكنيسة خطباء وعلماء لاهوت أمثال سيپريان من قرطاجة .

ونعرف أن ديكيوس خلال هذه الفترة قد اضطهد المسيحيين كما تشدد ڤاليريان وقسى في معاملتهم فمنع اجتماعاتهم الدينية وأغلق مقابرهم ومنع تقديمهم الأضاحي وأمر بمحاكمة رجال دينهم كافة .

سارت عمارة الفترة على النمط القديم وبرزت اسهامات قليلة في حل مشكلة العقادة في البنايات الدائرية الشكل . وظهرت تطورات جديدة في طرز النحت لاسيما في التماثيل النصفية ومنحوتات التوابيت . وفي أواسط القرن الثالث حدث رد فعل للطراز الباروكي المفرط الزخرفة نلاحظه في الفن الرسمي زمن اسرة السيڤيري . ولم يدم ذلك طويلاً حيث تمت العودة الى الأسلوب الهادىء البسيط والكلاسيكي والذي أشير اليه بالنهضة الغالينية . وكان الرجوع الى الكلاسيكية مؤقتاً حيث كانت هناك خلال القرن الثالث حركة قوية تأصلت في الشرق تؤكد التجريدية منها على التقليد اليوناني ـ الروماني . وشهدت الفترة توسعاً هائلاً في بناء مدافن السراديب السرية قرب روما وكانت معقدة التخطيط ذات ممرات ضيقة مليئة بالمحاريب الخاصة بدفن الموتى . وكانت الصور الجدارية والمنحوتات مستوحاة من أحداث الكتب المقدسة ومليئة بالرموز المسيحية . (٢)

دقلديانوس ، (ديوكليشيان) واصلاحاته :

حكم غايوس ڤاليريوس دقلديانوس ٢٨٥ ـ ٣٠٥ وكان ضابطاً ولد في ايليريا من أصل شرقي حيث ان والده كان من عبيد الشرق المعتوقين ، تدرج في مراتب الجيش من جندي بسيط وقد سمي نسبة الى البلدة التي ولد فيها (ديوكليا) في دلماشيا وقيل أنه ولد في سالونا ولذلك فضل أن يقضي أيامه الأخيرة فيها حيث شيد ضريحه الذي دفن فيه بها . وكان خلال عمله بالجيش مثال العسكري الملتزم النشط المنظم وقد تقلد المنصب وهو في الخمسين من عمره وينقصه بعد النظر . وبتقلده منصب الامبراطور بدأ حكم فردي مطلق من النوع الشرقي الذي لم تشهده روما من قبل .. وكان مقتنعاً بأن ليس من السهل على رجل واحد ادارة الامبراطورية الواسعة فعين ماكزيميانوس شريكاً له في الحكم سنة ٢٨٦ والأخير ضابط من پانونيا عرف بقدرته الفائقة . وفي السنة التالية نادت بالأخير جنوده امبراطوراً . وفي الوقت الذي أطلق فيه دقلديانوس على نفسه اسم الاله جوڤيوس اقرن شريكه مع هرقل . وقد أوضحت الثمانية سنوات الأولى من حكمها المشترك ان هذه

التجربة غير عملية حيث لم توقف الهجمات الخارجية أو تمنع الثورات المحلية فرأى الامبراطوران الحل في تقسيم آخر للامبراطورية ، فالحق دقلديانوس به غاليريوس وجعل قسطنطيوس (يعرف أيضاً باسم قسطنطيوس كلوروس) من ايليريا مرتبطاً بشريكه وان يخلفاهما عند وفاتها . ولأجل توثيق عرى الروابط فقد زوج غاليريوس من ابنته واقترن قسطنطيوس من ابنة ماكزيميانوس . وفي الوقت الذي عكست المصادر غاليريوس رجلاً فظاً قاسياً ربما لاضطهاده المسيحيين صور قسطنطيوس النبيل الأصل رجل دولة حازماً . وكان تقسيم الامبراطورية بين الشريكين ومساعديها على أساس اقليمي ، فاحتفظ دقلديانوس لنفسه بمصر ، تراقيا وآسيا الصغرى واتخذ من نيكوميديا عاصمة البونطس مقراً له وأعطى ماكزيميانوس ايطاليا حتى الألب ، افريقية واسبانيا على أن تكون ميلانو (ثم رافينا) عاصمته . وأدار غاليريوس منطقة الدانوب وشبه جزيرة البلقان ومقره عند سرميوم في وقت صار حصة قسطنطيوس المقاطعات الغربية ومركز حكمه عند تريفيس . وجعل دقلديانوس كافة العواصم الادارية التي اتخذها لتقسيماته على مقربة من المناطق الأكثر خطورة ولذلك لم تكن بينها روما التي لم يزرها دقلديانوس الا مرة واحدة خلال السنة الأخيرة من حكمه ، وظلت روما ومواطنوها يتمتعون بالامتيازات السابقة نفسها . وكان الشريكان الرئيسان متساويي الحقوق .

انشغل الامبراطوران ومساعدوهما في الدفاع عن مناطقهم واخماد الثورات وحفظ النظام فيها . فقد أخمد دقلديانوس ثورة قام بها اخيليوس الذي أعلن نفسه امبراطوراً سنة ٢٩٦ كما قضى ماكزيميانوس على تمرد فلاحي في غالة (عرفوا باسم الباغوادي) حيث ترك الفلاحون فيها اراضيهم سنة ٢٨٦ لفداحة الضرائب ولاقدرة لهم على الدفع نظراً لتخريب الغزوات البربرية لأراضيهم ونظموا عصابات مسلحة للنهب والقتل . ولما عجز عن اخماد حركة كاروسيوس قائد اسطول المضيق المسؤول عن حراسة الساحل الشمالي لغالة المطلة على المحيط الأطلسي وحمايته من القراصنة وتمكن من السيطرة على غيسورياكوم (بولون) ميناء غالة وتحالف مع القبائل البربرية عبر الراين وأخذ يهدد غالة . واضطر ماكزيميانوس بعد ان تحطم اسطوله في عاصفة سنة ٢٩٠ الى عقد سلام معه لكن قسطنطيوس تقدم لحرب كيروسيوس ثانية ودحره مع حلفاءه واسترجع منه غيسورياكوم وقد قتل كيروسيوس أخيراً أحد أعوانه سنة ٢٩٦ . وعبر قسطنطيوس الى بريطانيا وأعاد الأمن الى الجزيرة بعد أن اضطر اليكتوس خليفة كيروسيوس الى الاستسلام . وتمكن ماكزيميانوس ومساعده من صد هجمات قبائل الألماني والفرنك والبرغنديين في غالة وأخمد ماكزيميانوس ثورة للبربر في افريقية واحبط غاليريوس

هجمات الايزاجين والكاربين واصلح استحكامات الحدود واسكن الاسرى من هذه القبائل في مقاطعات الدانوب . وشبت سنة ٢٩٦ ثورة في مصر بزعامة دوميشيانوس نتيجة الضرائب الفادحة والتضخم وحاصر دقلديانوس الثائر في الاسكندرية وقضى على حركته . كما ارسل قوات لضرب البلميين في شمال السودان والذين كانوا يهاجمون مصر العليا . وفي الشرق استرجع دقلديانوس من الفرس ارمينيا وشمال الجزيرة الفراتية الغربي . ولما حاول الملك الفارسي نرسيس سنة ٢٩٦ استرجاع هذه المناطق دحرته جيوش رومانية قادها غاليريوس قرب الكرخه وأوصل دقلديانوس حدود روما الى اعالي دجلة . وزادت شقة الخلاف بين روما وارمينيا بتحول تيريدانيس الثالث الموالي لروما ملك ارمينيا الى المسيحية . أجرى دقلديانوس اصلاحات عسكرية عدة فقد زاد عدد الفرق من ٤٠ الى ٦٠ وصار العدد الاجمالي للجيش حوالي النصف مليون وجعل في كل اقليم فرقة أو أكثر . كما استحدث قوة عسكرية متحركة ضاربة أطلق عليها اسم ليميتاني للدفاع عن الحدود ، واهتم بسلاح الفرسان . وقد اعتمد في تجنيد قوات المقاطعات على المجندين ورجال الحدود الذين يتوارثون الخدمة العسكرية ويعيشون على الأراضي التي تقطعها لهم الدولة مقابل خدمتهم وأغلبهم من الجرمان والسرماتيين ثم المتطوعين أو الملزمين بالخدمة من تراقيا وسورية وبريطانيا وشمال افريقية والالمان . ولم يعد لأفراد القوات المسلحة القابلية والمعنويات العالية والتدريب الكافي غير أن الجيش زمن دقلديانوس كان أحسن تنظيماً وكفاءة .

فصل دقلديانوس السلطة المدنية عن العسكرية في الأقاليم وقسم الأقاليم الواسعة الى مقاطعات أصغر بحيث صار عددها ١٠١ . وبالرغم من وجود بعض الأقاليم السناتورية فان جميع حكام الأقاليم كان يعينهم الامبراطور والغى قسطنطيوس التمايز بين طبقتي الشيوخ والفرسان . ولأجل حفظ السيطرة المركزية على الأقاليم فقد جعل منها جميعاً بما فيها ايطاليا حتى الالب ثلاث عشرة دوقية على كل منها حاكم يسمى ڤيكار يرتبطون كلهم بالحكام البريتوريين الذين يديرون قوات الامبراطورية ويمثلون رؤساء الدول الأربعة .

بدأ بحكم دقلديانوس نظام حكم مطلق شرقي . فقد أكد دقلديانوس على الطبيعة المقدسة لسلطته ، فاتخذ اللقب جوفيوس وقلما كان يظهر في الأماكن العامة واذا ما حضر مناسبة رسمية فكان يرتدي الحلي الثمينة والنطاق والروب الحريري الارجواني اللون . وانشأ نظام بلاط معقد شبيه بما كان لدى الفرس وصار يستقبل زواره وهو جالس على العرش حتى حاول فرض طقس الامبراطور ثانية .

وصار لزاماً على كل فرد يقابل الامبراطور ان يركع ويقبل ذيل ثوبه الى جانب اتخاذه لعاصمة ملكه في الشرق . كما حاول احياء العبادات الوثنية ، فشيد الكثير من المعابد الى الآلهة اليونانية والشرقية وغيرها وظل جوبيتر كابيتولينوس اله الدولة الرسمي وما الآلهة كلها الا أوجه من اله الشمس الذي لايقهر . ونصب دقلديانوس العداء الى الأديان الجديدة فأصدر بياناً ضد المانوية وفي سنواته الأخيرة اتخذ اجراءات ضد المسيحية .

عمر دقلديانوس عاصمة نيكوميديا وجلها بالقصور الفخمة الخاصة بأفراد أسرته ابنته وزوجته) لأنه لم يرزق بولد وشيد الكثير من الباسيليكات وسركساً وحمامات الى جانب بنائه بنايات كثيرة في روما حيث أصلح ماخربته النار التي شبت فيها سنة ٢٨٤ وبنى كوريا جديدة في الفورم وحمامات . وبنى الكثير في ميلانو وقرطاجة وسالونيك وسبالاتو (سالونا) التي شيد فيها قصراً واسعاً له حوى ممرات وساحات وشرفات ومعبداً الى جوبيتر فضلاً عن ضريح له دفن فيه بعد موته .

لاصلاح نظام العملة المتدهور استحدث دقلديانوس نظاماً نقدياً جديداً ، فأدخل عملة فضية جديدة (ارغينتوس) تساوي الدينار القديم . واستمر باستعمال العملة البرونزية المطلية بالفضة كوحدات نقد صغيرة غير أن قيمتها بالنسبة للذهب والفضة كانت أعلى بكثير من قيمتها الحقيقية الأمر الذي يفسر عدم قبولها واستمرار الأسعار في الارتفاع . وفي سنة ٣٠١ أصدر دقلديانوس بيانه بأسعار الحد الأعلى لكل أنواع البضائع وأجور كافة أنواع العمل والعمال ووضع عقوبة الموت لمن يخالفها . وربما كان البيان خاص بالشرق أو في التعامل مع القوات المسلحة . ولم يأخذ بيانه بنظر الاعتبار العرض والطلب في مختلف الأصقاع . كما عمل على تخفيض الضرائب الامبراطورية . وان انخفاض قيمة العملة دعا دقلديانوس للعودة الى نظام الدفع عيناً وجعل هذه ضريبة ثابتة تقدر سنوياً دون ان تلغى أية ضريبة قديمة مهما كان نوعها ولم يحاول تقدير الضرائب على أساس قدرة دافع الضريبة . فقسمت الأراضي الزراعية الى وحدات تفرض عليها ضريبة متساوية بغض النظر عن موقعها ونوعها ومحصولاتها الخ . كما كان من قبل . فالغاية الآن هي الحصول على أكبر كمية من المال بأسهل الطرق وصارت الضرائب تشمل الأرض ومن عليها . ودفع سكان المدن من جميع الطبقات والمهن الضرائب الباهظة . وعلى أصحاب الأراضي الواسعة دفع ضريبة نقدية عن مقاطعاتهم ويدفع التجار وأرباب العمل كافة ضريبة التاج الذهبية كل خمس سنوات فضلاً عن رسوم تدفع عند صعود امبراطور جديد . وظلت السخرة وتقديم حيوانات النقل تقدم للدولة مجاناً كما من قبل . غير أن

اصلاحات دقلديانوس لم تجلب الرفاهية الى الامبراطورية فقد استمر العنف وحركات النهب وتحطمت الطبقة الوسطى بالمدن واختفت طبقة الفرسان سراعاً .

في سنة ٣٠٣ كان دقلديانوس وماكزيميانوس في ايطاليا للاحتفال بعيد صعودهما العشرين وكانا كبيري السن عليلي الصحة . وفي سنة ٣٠٥ اعتزل دقلديانوس الحكم وتبعه ماكزيميانوس وعين غاليريوس صديقيه فلافيوس سيفيروس وماكزيمنوس دايا كساعدين . وعاش دقلديانوس أيامه الأخيرة في قصره عند سپالاتو في دلماشيا حتى وفاته سنة ٣١٦ في وقت عاش ماكزيميانوس في مقاطعة له بلوكانيا . وبذلك صار قسطنطيوس يحكم اسبانيا وغالة وبريطانيا ويساعده سيفيروس في افريقية وايطاليا وپانونيا . أما غاليريوس فيحكم مقاطعات البلقان وآسيا الصغرى وأدار مساعده ماكزيمنوس مقاطعات آسيا الأخرى ومصر .

بعد وفاة قسطنطيوس نادى الجيش بابنه قسطنطين امبراطوراً من بعده واضطر غاليريوس للاعتراف به . وفي السنة نفسها انتهز ماكزنتيوس ابن الامبراطور السابق ماكزيميانوس الفرصة فأعلن نفسه امبراطوراً فتألم من ذلك والده الذي كان آنذاك في روما فطرده ماكزنتيوس فلجأ الى غالة عند قسطنطين الذي كان متزوجاً من ابنته فوستا . وحاصر سيفيروس في راڤينا وأسره واضطره على الانتحار . كما أطلق لقب امبراطور على ماكزنتيوس وقسطنطين . وعين غاليريوس مكان سيفيروس مساعداً له ليكينوس . ففي سنة ٣١٠ كان هناك خمسة أباطرة في الدولة وهم غاليريوس ، وماكزنتيوس ، وليكينوس ، وماكزيمنوس دايا وقسطنطين ، وفي سنة ٣١١ توفي غاليريوس واخذ دايا آسيا الصغرى والبونطس من ليكينوس وبذلك صار بيد قسطنطين بريطانيا وغالة وريتيا ولدى ماكزنتيوس اسبانيا وايطاليا وافريقية وبيد ليكينوس مقاطعات الدانوب وعند ماكزيمنوس دايا مصر والشرق . ولما أراد ماكزنتيوس ضم ريتيا اصطدم بقسطنطين الذي اتفق مع ليكينوس ضد الامبراطورين الآخرين . وكان جيش قسطنطين مدرباً ومنظماً عبر به الألب الى ايطاليا واحتل ميلانو ومدن في غالة القريبة وحاصر جيش ماكزنتيوس عند ڤيرونا ثم زحف الى روما بجيش قوامه ٢٥ ألف . وفي سنة ٣١٢ وقرب جسر ملڤيان عبر التيبر في روما دحر قسطنطين جيوش خصمه ماكزنتيوس وعزا نصره الى اله المسيحيين نتيجة رؤيا وأمر جنوده برسم الحرفين اللذين يعينان المسيح باليونانية على دروعهم واعتنق بذلك الدين المسيحي الذي صار دين الدولة الرسمي . وفي سنة ٣١٣ تقابل ليكينوس وقسطنطين في ميلانو وأصدرا بياناً في عدم التعصب الديني بالامبراطورية وصارت المسيحية ديناً مساوياً للطقوس الوثنية .

وفي نفس السنة عبر ماكزيمينوس البوسفور وغزا منطقة ليكينوس محتلاً بيزانطيوم ولكن ليكينوس دحر خصمه وأخذ كل آسيا الصغرى . وان وفاة ماكزيميانوس تركت ليكينوس الوريث الوحيد لكل المنطقة . ثم تقدم قسطنطين لحرب ليكينوس الذي اغتاظ للامتيازات التي منحها قسطنطين للكنيسة المسيحية واتبع هو سياسة ظلم واضطهاد ضد المسيحيين وطردهم من كافة وظائف القصر والدولة . وقد حصل قسطنطين من ليكينوس في البداية على مويسيا وپانونيا وفي اصطدامه الثاني به تم دحر ليكينوس اندحاراً شاملاً وتحولت كل ممتلكاته الى قسطنطين . (٣)

جـ - مظاهر حضارة العصر العامة :

ساد الأمن كل أجزاء الامبراطورية وتوسعت المناطق المحتلة في شمال الجزيرة الفراتية الغربي وقويت التحصينات وشيدت أخرى على طول الراين والدانوب وضمنت سواحل الجزر البريطانية ضد هجمات القراصنة من السكسون والسكوتين من ارلندة وأحيطت القصبات الحدودية بالأسوار كما أصلحت ووسعت الطرق . فوراء خط سيڤيروس وكراكلا الدفاعي في جنوب المانيا استحدثت عدة استحكامات وقلاع أيام دقلديانوس وقسطنطين على طول الراين والدانوب . وكان الساحل البريطاني حوالي سنة ٣٣٠ ابتداء من جزيرة رايت الى واش محمية بخط من القلاع لصد القراصنة . ثم استكمل هذا الخط حتى ساحل يوركشاير ومنطقة كليڤلاند . وفي بداية القرن الرابع شيدت التحصينات على طول سواحل ويلز وكمبرلاند ضد هجمات الكاليدونيين والپكتين والسكوتين من ارلندة . وحصنت لندن ويورك بالقلاع لمواجهة هجمات السكسون .

ان زيادة عدد القوات المسلحة وتنظيمها واستحداث قوة متحركة ضاربة مدعمة بوحدات فروسية وتنظيم وتوسيع حاميات الحدود وفصل السلطة العسكرية عن المدنية في حكومات الأقاليم مكنت الامبراطورية من الصمود أمام الغزوات غير أن طرق التجنيد جعل المجندين أقل كفاية حيث توقف سوق الايطاليين ورجال الاقاليم المتقدمة حضارياً الى الخدمة العسكرية منذ مدة طويلة بل صار يضم قوات حدود يرثون وظائفهم وأسرى من السرماتين والجرمان الذين اسكنوا أراضي الامبراطورية أو متطوعين من المناطق المتخلفة . وكل هؤلاء كانت تنقصهم القدرة على تحمل التدريب العنيف وحمل الدروع الثقيلة . وظل الجيش الروماني زمن دقلديانوس وقسطنطين متفوقاً على جيوش البرابرة والفرس .

انتهى حكم الزعامة وبدأ بصعود دقلديانوس حكم فردي مطلق على الطراز الشرقي وجرد مجلس الشيوخ من صلاحياته الدستورية السابقة على الرغم من احتفاظه بالهيبة والمركز الاجتماعي . واستمر اعضاؤه يرشحون من كبار ملاكي الأراضي وكبار موظفي الدولة بترشيح الامبراطور . وصار مجلس الشيوخ في روما أشبه بمجلس محلي يساعد الحافظ على ادارة المدينة ويعيش أكثر أعضائه في قصورهم بمقاطعاتهم الزراعية وقلما يحضرون جلسات المجلس . وقد استثنى ارستقراطيو مجلس الشيوخ خلال القرن الثالث من الوظائف الادارية التي تركها دقلديانوس فاستخدم بعض ارستقراطيي السنات في وظائف معينة واعتمد كلياً على الفرسان في الوقت الذي اعتمد قسطنطين به على ارستقراطيي السنات وأدرج الكثير من الفرسان بمرتبة مجلس الشيوخ . وان تجريد مجلس الشيوخ من ادارة الأقاليم السناتورية أدى الى خسارته لمصدر دخل كبير . وفي زمن اورليان فقد مجلس الشيوخ حقه في اصدار عملة نحاسية وبرونزية . وفي سنة ٣٠٠ فقد مجلس الشيوخ صلاحياته القضائية الا في أحوال نادرة جداً .

أما الموظفون الكبار فانهم اما اختفوا أو أصبحت وظائفهم فخرية ، فلم يتم اختيار أي نقيب عامة أو محتسب بعد حكم اسكندر سيفيروس واستمر منصب القنصل الذي كان يتقلده الامبراطور أحياناً ، ومنذ زمن دقلديانوس كان يتم تعيين رئيس محكمة جزاء (كويستور) واحد وبريتور واحد كل سنة عادة من الاثرياء لرعاية وتمويل الألعاب والأعياد . واحتكر دقلديانوس التعيينات في جميع الأقاليم ووصل الحكم الفردي المطلق الى ذروته زمانه الذي ضاعف عدد الأقاليم وزاد عدد الحاكم أربعة أضعاف واستحدث الدوقيات التي استلزمت توسعاً كبيراً في جهاز الموظفين . وصار البلاط الامبراطوري على غاية من التنظيم منذ زمن دقلديانوس وصعبت ادارة الدولة خاصة وان الأباطرة كانوا في الغالب قادة عسكريين لاخبرة لهم بالادارة المدنية وعمت الرشوة بين المفتشين وامتنع الملاكون الكبار عن دفع الضرائب وصارت اللاتيفونديا اشبه بدول صغيرة مستقلة داخل الامبراطورية . وان زيادة المصاريف العامة اضطرت دقلديانوس على اعادة تنظيم الميزانية لانقاذ الدولة من الانهيار . فافتقار المدن السريع خلال القرن الثالث وانخفاض الانتاج والفوضى المالية الناتجة عن انخفاض العملة انقصت واردات الدولة مما أجبر الأباطرة على التشدد في تنفيذ الصادرات وأعمال السخرة واستحداث أسس جديدة في فرض الضرائب . وافسدت اجراءات دقلديانوس الروح العامة وقللت الانتاج وأفقرت المواطنين ولم تجد كل العقوبات المفروضة نفعاً .

كان على رأس كل محافظة محافظ بريتوري وهو أعلى موظف مدني في الدولة وهو

مسؤول عن جمع وتوزيع الضرائب التي تدفع عيناً وادارة القضاء . وتحت سلطته الدوقيات التي على رأس كل منها فيكار كان ارتباطه مباشرة بالامبراطور . وكان الحكام المخولون في افريقية وآسيا وأخيا تحت سلطة الامبراطور المباشرة . أما ايطاليا فقد قسمت الى بضعة أقاليم . فالمناطق شمال الابنين قد ادمجت مع ريتيا ضمن دوقية ايطاليا . وشملت شبه الجزيرة أيضاً صقلية وسردينيا وكورسيكا والاطراف وكانت مسؤولة عن تزويد روما . وان فروع الادارة التي ليست تحت سلطة المحافظين ادارها عدد من الوزراء القاطنين في العواصم الشرقية والغربية أكثرهم مرتبطون بالدوقيات والأقاليم . وكان رأس هؤلاء الاداريين رئيس الدولة ثم الكويستر كونت العطايا الدينية وكونت الخزانة الخاصة . ويشرف رئيس الاداريين على كل موظفي القصر وهو رئيس لجنة الانضباط لهم والبريد ومستودعات ومصانع الأسلحة الامبراطورية وادارة استخبارات القصر . وكان كونت العطايا الدينية بالأصل رئيس المالية الامبراطورية في عهد الزعامة بيده جمع الرسوم ودفع الرواتب ومصاريف الاحتفالات التي عدت منحاً امبراطورية فضلاً عن اشرافه على مصانع انتاج الحرير والمنسوجات والارجوان الامبراطورية . وهو المشرف أيضاً على أملاك الامبراطور الخاصة . ويشكل هؤلاء الوزراء الأربعة والحاجب الكبير مجلس الدولة . وخلال القرن الثالث أيضاً ضعفت حكومات البلديات بسبب الحرب الأهلية والهجمات المتلاحقة والأوبئة وقوانين الضرائب . وانحطت التجارة الداخلية بين المدن والمقاطعات بسبب الفوضى المالية وعدم الأمان في البر والبحر . فانحطت تجارة وصناعة الزجاج والفخار والصناعات الأخرى في غالة ومناطق الراين مما أجبر الدولة على تأسيس مصانع خاصة للدولة تزود الجيش . ولجأت الدولة الى السخرة لضمان تدفق انتاج البضائع وصار كل اقليم ينتج حاجاته واقتصرت التجارة على الكماليات . وصارت المنتجات الصناعية أردأ نوعية وأقل كمية وظل الاقتصاد بصورة عامة زراعياً وكثر الاعتماد فيه على الزراعة خاصة بالغرب عندما اضمحلت الطبقة الوسطى بالمراكز الحضرية وساءت أحوال المدن الاقتصادية . كما صغر حجم المدن حيث آلت في غالة الى ربع حجمها السابق ولم تعد كما كانت سابقاً مليئة بالحركة التجارية والصناعية واقتصرت على الادارة الرسمية . وان الطلب على حنطة وزيت شمال افريقية في روما انعشها اقتصادياً وقاست بريطانيا من سوء الوضع الاقتصادي وأهملت بساتين الكروم في غالة عدا تلك القريبة من الحاميات الرومانية . وقلت مساحات الأراضي المزروعة فلم تعد اسبانيا تصدر المنتجات الزراعية ولم تجد الأراضي في ايطاليا ومصر من يزرعها .

أدار المقاطعات الزراعية الامبراطورية المراقبون الذين قسموا الكبيرة منها الى قطع

صغيرة أجروها الى الفلاحين الآحرار (الكولوني) الذين كانوا يدفعون عنها عيناً ونقداً الى جانب خضوعهم للسخرة . وفي القرنين الثالث والرابع ازداد تركز الأراضي بيد قلة من الملاكين وشجع على ذلك الوضع المالي المضطرب . واضطر عدم الأمان وكثرة الغزوات الفلاح الى بيع أرضه الى الملاك الكبير للحصول على حمايته التي ضمنها على حساب حريته وارتباطه بالأرض بموجب عقود اعترفت بها الدولة خاصة وإن الكثير من الملاكين كانوا من الموظفين الكبار وحاجة الدولة الى الضرائب . وأصدر قسطنطين سنة ٣٣٢ قانوناً خاصاً بالأقنان على المزارع الخاصة والامبراطورية فصار الفلاحون الأحرار الآن طبقة خاصة مرتبطة بالأرض ينظم أمورها وعلاقاتها قانون . فتحرر من الواجبات العامة وصار من الصعوبة أخذ الأرض منه أو نقله الى أخرى أو يهدده موظفو الضريبة وحدد واجباته ومسؤولياته تجاه الملاكين ومايدفعه لهم القانون . أما في ايطاليا حيث كانت المقاطعات الكبيرة أكثر بكثير من قطع الفلاحين الزراعية فانها استغلت بالعبيد . ولكن منذ أيام ڤارو صار الفلاحون العاملين الأحرار يحلون محل العبيد وغدوا كثيرين في فترة الزعامة ولكن جاءت ظروف القرن الثالث نتيجة قلة تدفق العبيد وكثرة العتق . وتحول الفلاحون الأحرار في ايطاليا بالتدريج الى اقنان مرتبطين بالأرض . ومنذ زمن ماركوس اوريليوس حصل الآلاف من الجرمان على أراضٍ مقابل الخدمة العسكرية ودفع ايجار عيناً . وعامل دقلديانوس في قانون الضريبة هؤلاء على قدم المساواة مع الفلاحين الأحرار والملاكين الصغار . ونظراً لحاجة الدولة الى المال فقد قاوم دقلديانوس أية محاولة للترفيه عن الفلاحين . ظهرت الآن طبقة جديدة من أصحاب الأراضي غالبيتهم من الجنود المسرحين والموظفين المتقاعدين وزادهم الحطاط الصناعة والتجارة قوة وثراء ولم تؤثر بهم الفوضى المالية نظراً للحاجة الماسة الى منتجاتهم الزراعية وبيعهم الفوري لها . وكان غالبية هؤلاء من الطبقة الارستقراطية الجديدة (كلاريسيمي) يعيشون على مقاطعاتهم الزراعية معفوين من جملة خدمات ورسوم . ولما كانت أراضيهم خارج حدود المدن فقد صارت ملاذاً للفارين من العبيد والاقنان والمتهربين من الضرائب . وتجنب هؤلاء الملاكون دفع الضرائب بطرق شتى كالرشوة والاحتيال وحول الكثير من أفراد الطبقة الوسطى ماعندهم اليهم لضمان الحماية .

كانت خدمة الدولة من قبل نقابات رجال الأعمال (الكوليجيا) طوعية في البداية كانت تقدم الدولة عنها لهم امتيازات خاصة . غير أن هذه الخدمات لاسيما تلك التي لنقابات الأغذية (الحنطة ، ولحم الخنزير ، والخمر والزيت) وأصحاب السفن وصناعات الطابوق والأقمشة صارت عند اضمحلال الوضع الاقتصادي للدولة اجبارية . وصارت

النقابات هذه زمن سبتميوس سيفيروس تشمل كافة الأعمال جندت كلها لخدمة الدولة وعين ممثلون قضائيون عن الدولة في كل نقابة وصار تجار الأغذية في روما يزودون الجيش بحاجاته مجاناً وصارت كلها في نهاية القرن الثالث الزامية . وابتداء من القرن الرابع صار لزاماً على أصحاب المطاحن وبناء السفن البقاء في مهنهم وتدريب أبنائهم عليها ولانعرف كم صناعة شملها هذا القانون وكم منها طبقت خارج روما وفي الغالب طبقت في قرطاجة والاسكندرية . وان كثرة مصادرات ماكزيميانوس وفرضه الرسوم والسخرة وهجمات القبائل البربرية والتدهور الاقتصادي وزيادة السخرة قد ألحق الضرر بسكان المراكز الحضرية في البلديات . كما تدهورت مجالس البلديات (الكورياليس) التي يختار منها موظفو البلديات والدولة في هذه المراكز واختفت العوائل النبيلة السابقة أو حل بها الفقر . وعين الأباطرة أميناً على مالية كل دولة والذي صار عاماً زمن دقلديانوس . والقى دقلديانوس وبعده قسطنطين مسؤولية فرض وجمع الضرائب على مجالس السنات المحلية المفروضة على الأفراد والأراضي والممتلكات بموجب قانون . وصار المجتمع الروماني جامداً ، فلم يعد بامكان الفرد التقدم الى طبقة أكثر رفعة من طبقته وقل الاهتمام بالثقافة التي صارت نمطية واختفت الطبقة الوسطى وقل عدد سكان المدن وعم الفقر فيها .

شهدت العمارة تدهوراً منذ زمن هدريان واستمر تشييد الأبنية خلال القرن الرابع فشيد سبتميوس سيفيروس الحمامات الضخمة والسبتيزونيوم (الشرفة ذات السبعة طوابق) على البالاتاين . ثم قصر دقلديانوس في سبالاتو وباسيليكات ماكزنتيوس وقسطنطين الضخمة وبوابة وباسيليكا قسطنطين في تريفيس وأقواس سبتميوس سيفيروس وقسطنطين في روما والمدرجات في فيرونا وثيسدروس بشمال افريقية وسركس ماكزنتيوس في روما الى جانب كثرة الطرق والفنارات والموانيء والجسور . وفي النهاية تشييد قسطنطين لمدينة القسطنطينية . وحتى التقنية لم تعد كما كانت عليه قبل عصر هدريان فعقادات باسيليكا قسطنطين تنافس قمة البانثيون في الارتفاع والسعة . غير أن الفن كان ينقصه الذوق بالرغم من كثرة الزينة فيه ويمتاز بالضخامة وقد شهدت بسرعة واستخدمت بها مواد رخيصة أحياناً وضعت محل الحجر المقطوع الجيد . وقلت العمائر في البلديات لعدم توفر المال الكافي وصار التأكيد على الضخامة والمنعة لكي تصد الهجمات . وصارت القصور اشبه بالقلاع كما في قصر دقلديانوس في سبالاتو . حتى بيوت المقاطعات الزراعية ركزت على القوة منها الى الجمال والأناقة . وقد شيدت الكنائس المسيحية الأولى على شكل باسيليكا بصورة بسيطة . ومنذ القرن الرابع صارت العمارة تأخذ صفة العصور الوسطى .

انحط النحت المجسم وظلت تماثيل الأباطرة على كثرتها عديمة الفردية وبعيدة عن الواقعية . فتمثال غالينوس حقيقي غير أنه تقليدي . وليس هناك تمثال واحد يمكن الاعتماد عليه لقسطنطين . وان التمثال الضخم المنسوب لقسطنطين تقليدي . واستمر الانحطاط في المنحوتات النافرة فمنحوتات سبتميوس سيڤيروس لاتعدو كونها رسوماً على صخر . والمنحوتات على قوس قسطنطين ضعيفة وعديمة الحياة وقد أطلق على قوسه (حجر قبر الفنون اليونانية) . ولزينة عاصمته الجديدة اضطر الى سرقة كنور دلفاي ومدن اليونان الأخرى الفنية . واستمرت المنحوتات على التوابيت المسيحية تقليدية . كما انحط فن الموزائيك ورسومه وصارت لماعة وكثر الطلب على الأنواع الرخيصة من الفخار . وعد الآباء المسيحيين صور الآلهة والأبطال رجوعاً الى الوثنية وهاجموا الصور الميثولوجية لخلاعتها .

كان قسطنطين مولعاً بالأدب وكانت جوليا دومنا زوجة سيڤيروس شخصية شجعت الأدب في روما . وبالرغم من كون أباطرة القرن الثالث ضباطاً في الغالب الا انهم شجعوا الدراسات العليا وزودوا مدارس البلديات بالمال ووضع قسطنطين التربية تحت اشراف الدولة واستمرت الطبقات العليا في اهتمامها بالأدب . وفي الشرق تمسك الآباء المسيحيون الأوائل بالتراث الهلنستي مثل اوريجون وكليمنت بالاسكندرية عكس الآباء في الغرب . فقد ذم تورتليان من شمال افريقية الرسائل الوثنية حيث قال (ليس هناك مايجمع بين اثينا والقدس) . وانتقد كاتب البلاغة اللاتيني لكتانتيوس الكتاب الكلاسيكيين واهتم جيروم بالأدب القديم . وفي القرن الثالث قل الاهتمام باللغتين اليونانية واللاتينية لاسيما في الغرب . وبالرغم من أن الكنيسة استخدمت اليونانية في طقوسها الا أن القبطية قد استخدمت في مصر والسريانية والارمنية في مناطق الشرق الأخرى . وبقت اللاتينية في الغرب سواء بالأدب أو الكنيسة . وانحط الأدب بعد هدريان حيث قل الشعر الجيد . فشعر نميسيانوس يحمل مشاعر حقيقية ولكنه تقليد لڤرجيل . وفي التاريخ برز ماريوس ماكزيموس الذي أكمل تاريخ سويتونيوس . وظهرت مدرسة جديدة في الخطابة بغالة وان تركز الآباء المسيحين اللاتين في شمال افريقية يؤكد انتقال الحركة الأدبية من روما . وانتعش الأدب في القرن الرابع وشهد حركة احياء بالرغم من افتقاره الى الابداع والنوعية . ومن الشعراء كلوديوس كلوديانوس من الاسكندرية الذي أتى الى روما في نهاية القرن الرابع . ثم اوسونيوس استاذ البلاغة من بورديغالا (بوردو) الذي وصف في قطعته موسيلا رحلة له في نهر موسيل بشعر رقيق أصيل . ومن شعراء المسيحية في القرن الرابع برودنيشيوس من اسبانيا . وفي الشعر اليوناني من القرن الرابع كان كونتيوس من سميرنا الذي عمل على اكمال الالياذة وربطها بالاوذيسة وشعره خال من الابداع وبعد النظر .

بعد تطهير القنوات في مصر أنتعشت الزراعة كما ازدهرت تجارة وصناعة المدن السورية وشهدت انطاكية وضواحيها رخاءً . وان اتخاذ تريفيس مركزاً للأباطرة ونجاح الدفاع ضد القبائل الجرمانية قد انعش الزراعة خلال نهاية القرن الثالث والربع الأول من القرن الرابع سواء في غالة أو مناطق الراين وميلانو وراقينا . وازدهرت صناعة الزجاج تحت الحماية الامبراطورية . وشهدت بريطانيا رخاءً لبعدها عن هجمات القبائل البربرية بالرغم من تدهور المدن وصيرورة القصور الريفية مراكز الحياة الاقتصادية . أما مقاطعات الدانوب فشهدت قلة في السكان وتدهوراً اقتصادياً .

الهوامــــش

1. Trever, pp. 629–635, Carry, pp. 704–712; Cyril Robinson, pp. 390–393, 339–343.
2. Cary, pp. 712–730; Cyril Robinson, pp. 393–401; Boak and Sinnigen, pp. 343–347; 403–421; Trever, pp. 635–655.
3. Cyril Robinson, pp. 401–408; Boak and Sinnigen, pp. 426–433; Cary, pp. 730–734; Trever, pp. 656–669.
4. Trever, pp. 677–695; Boak and Sinnigen, pp. 448–469; Cary, pp. 734–761.

الفصل الثالث عشر
أهمية الحضارة الرومانية

كانت الحضارة الرومانية بمثابة الجسر الذي عبرت منه الحضارات القديمة الى العالم الحديث . فحضارات الوطن العربي القديمة ولاسيما العراقية القديمة والمصرية والكنعانية تشكل خلفية الحضارة اليونانية ذات التأثير الكبير على الحضارة الرومانية والتي كونت معها وحدة حضارية متكاملة (الكلاسيكية) التي شكلت أساس حضارة أوربا بالعصور الوسطى والحديثة . ويمكن تلمس التأثير الروماني في جوانب عدة .

١ - باللغة والأدب :

فاللغة اللاتينية كانت لغة الأدب والتاريخ والفلسفة واللاهوت والتربية والقانون خلال العصور الوسطى ولغة العلم حتى القرن السابع عشر واستمرت أهميتها البالغة حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وكانت اللاتينية الى عهد قريب جداً لغة الأدعية والتراتيل والكتابات في الكنيسة المسيحية وظلت فترات طويلة هي لغة التفاهم الدولية في العالم المسيحي .

ان تأثير اللغة اللاتينية على بنية ومفردات اللغات الفرنسية والأسبانية والايطالية والبرتغالية والرومانية كبير وان ثلثي الكلمات الانكليزية مشتقة من اللغتين اليونانية واللاتينية .

كان الاهتمام بالشعراء والكتاب اللاتين خلال العصور الوسيطة كبيراً واستمر حتى نهاية القرن التاسع عشر . فتأثير فرجيل وثيوكريتوس وشيشرون وكوينتليان وهوراس وكاتولوس الخ . في البلاغة والأدب كان عميقاً . فثقافة العديد من الكتاب الانكليز خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت لاتينية مما يفسر تأثرهم بالأدب اللاتيني أمثال توماس مور ، وفرنسيس بيكون ، وجون ملتون ، بن جونسون ، كاولي واديسون الخ ، وكان تأثير الكتاب الفرنسيين أكثر ، واعتمدت الملهاة الأوربية والانكليزية على بلوتوس وتيرينس وكان تأثير الاول على موليير وشكسبير ودريدن كبيراً . وكان كتاب المأساة الانكليز (مارلو ، وشكسبير ، وجونسون) والفرنسيين (يلهاد ، كورنيل وراسين) خلال الفترة من عصر النهضة حتى القرن التاسع عشر متأثرين جداً بكتابات سينيكا . واتخذ العديد من الشعراء الاوربيين خاصة في انكلترة وفرنسا واسبانيا وايطاليا فرجيل خاصة في كتابه الانيانة والايكلوغيس نموذجاً وكان تأثيره على دانتي كبيراً . كما

كان تأثير لو كان وستاتيوس على كتاب العصور الوسطى كبيراً وأعجب الكثيرون منذ القرن الخامس عشر بقصيدة لوكريشيوس التي نلاحظ تأثيرها واضحاً في كتابات مونتين، وسبنسر، ودريدن وفرنسيس باكون واتخذها هوبز أساساً في نظريته عن أصل الأديان وامتدحه بايل وفولتير بفرنسا وتأثر به توماس غراي وجيمس تومسون وبوب الخ في انكلترة. وكان أثر قصائد كاتولوس وهوراس على الشعر الأوربي والانكليزي ليس بالقليل فتأثر به بترارك في كتابه لورا وكذلك تاسو واريوستو بايطاليا ورونزارد وجواكيم دو بيلاى في فرنسا وييات وسدلي وجون سكيلتون وبين جونسون وبوب وبيرون وماكولي ولاندور وغيرهم في انكلترة. وتأثر شعراء العصر الوسيط بهوراس واتخذه بعض الشعراء الانكليز مثالاً. ثم تأثير أوفيد خاصة في قصائده الغزلية وكتابه ميتامورفوسيس الى جانب تأثير برسيوس وجوڤينال على الأدب الساخر وهيام الكثيرين بما جاء في كتاب الحمار الذهبي (الميتامورفوسيس) لأبوليوس. كما اهتم الغربيون بكتابات المؤرخين الرومان منذ عصر النهضة، فقد أعجب غيبون وماكولي وكارليل بليفي وتاسيتوس وقيصر وكانت كتابات شيشرون ورسائل بلني الصغير موضع اهتمام بالغ في النثر والخطابة والبلاغة وصار شيشرون قدوة الخطباء سواء في الوعظ أو القانون.

وفي حقل التربية فلم تنقل روما الى الغرب تراثها فقط بل الثقافة اليونانية أيضاً. وقد انتشرت وسائل وأفكار التربية الرومانية الى كافة المناطق التي سيطرت عليها روما وصارت النظام التربوي المعتمد في العصور الوسيطة، بالرغم من معارضة الكنيسة التي لم تقو على الوقوف بوجه تيار طغيانه على المدارس والجامعات الكاثوليكية بالرغم من قوتها وهيمنتها.

٢ ـ السياسي :

ان التقسيمات الادارية في الدول الاوربية الآن وحدودها يمكن تتبعها الى العصر الروماني. وان كل التعابير والمصطلحات الخاصة بالادارة والحكم والمالية في اللغات الاوربية تعود الى التراث الروماني. ولاتزال الممارسات الرومانية في منح الجنسية والحكم الذاتي المحلي أو القبلي أو البلدي معتمدة. وعدت الدولة البيزنطية نفسها وريثة الامبراطورية الرومانية وحذا حذوها أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة والكنيسة الكاثوليكية. وعد شارلمان نفسه خليفة أغوسطوس وقسطنطين وكان يوليوس قيصر مثال كلوفيس ملك الفرنجة (٤٦٦ ـ ٥١١). ومن أفكار شيشرون في كتابيه الجمهورية والقانون ثم سينيكا استقى المفكرون المحدثون الأفكار السياسية الأساسية أمثال تكافؤ

الفرص لدى الكل (البشر متساوون بالطبع) ونظرية قوة الدولة المستندة على قوة الشعب ثم الاتفاق الاجتماعي أو الحكومة التي تمثل الشعب والمشكلة باتفاقه ثم حق المواطن في التعبير . الى جانب كون الحق الالهي للملوك الذي حدده البابا غريغوري الكبير (٥٩٠ ـ ٦٠٤) جزء من التراث الروماني الى جانب مبدأ طاعة الكل للدولة .

٣ ـ مجال القانون :

لقد قيل حقاً ان القانون الروماني لم يترك استعماله مطلقاً على مر العصور ، فالكثير من عناصره مجسمة في القانون الذي تطبقه الكنيسة الكاثوليكية ضمن مناطق سلطتها . وصار القانون الروماني بعد سنة ١١٠٠ مادة تدرس في الجامعات الأوربية وصارت مواد القانون الروماني منذ القرن السادس عشر معتمدة في المحاكم الأوربية . وشكل القانون الروماني الأساس في تشريعات غالبية الأقطار الأوربية عدا انكلترة . ويمكن حصر تأثير القانون الروماني ومؤسساته على النظم التشريعية الحديثة في ثلاث :

أ ـ ان البنية العامة ومبادىء التشريع مستندة على قانون الشعوب الرومانية المستمد من الأحكام الشرعية والعرفية وتغييرات المكان والزمان وانه واسع متحرر يشمل حاجات الشعب وسلطته . ثم مبدأ تمتع كل انسان بنفس الحقوق والحماية أمام القانون وهو مبدأ روماني لايزال جوهرياً في مجتمعنا ، وان الرومان هم أول شعب جعل الحاكم لحماية حقوق المواطنين وليس لمعاقبتهم فقط . ووضع القانون الروماني الحق في متناول الجميع . وان تركيب نظام المحاكم الرومانية والمبادىء العامة التي تعمل بها هي نفسها الآن في العالم الغربي .

ب ـ ان العنصر الانساني في التشريع والفلسفة التي وراء القانون كلها رومانية . ولأول مرة يظهر المحامون في العصر الروماني بوصفهم مدافعين عن الحق .

ج ـ فلسفة العدل والتي عبر عنها شيشرون بالقول (العدالة مؤسسة تخدم الناس بوصفها مرشداً للحياة الطيبة وهي خدمة انسانية حقة) . وهذا ماجعل دراسة القانون مهنة شريفة وذات قوة فعالة في المجتمع .

نلاحظ التأثير الروماني الكبير على شريعة ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ ـ ٤٥٠) التي أمر ملوك المانيا وايطاليا سنة ٥٠٠ باختصارها واتباعها في سن قوانينهم . وكذلك تأثيرها على قوانين الملك الاريك الثاني التي تضمنها مختصره الذي جمع سنة ٥٠٦ والذي ظل مصدراً مهماً للتشريع في أوربا حتى القرن الحادي عشر ، بالرغم من كونه يوضح تردي الشرائع الرومانية وقت صدوره . ودونت قبائل الفرنك والسالي والريواري في غالة قوانينها باللغة اللاتينية وتأثرت كثيراً بالقانون الروماني . وان قانون جوستنيان الذي

ظل نافذ المفعول حتى سيطرة الأتراك على القسطنطينية وتأثر الأخيرين به قد إستند على القوانين الرومانية . وطبقت قوانين جوستنيان في جنوب ايطاليا حتى مجيء العرب لها في حين استمرت القوانين الرومانية القديمة نافذة المفعول في بقية أرجاء ايطاليا .

وكان احياء القانون الروماني أحد المظاهر المهمة في عصر النهضة . واستند غراتيان في جمعه لقوانينه (الديكرتيوم) من القرن الثاني عشر على القوانين الرومانية والذي صار مع قانون جوستنيان المصدر الأساسي لدراسة القانون المدني في العصور الوسطى الأوربية . ويظهر تأثير القانون الروماني في التشريعات الغربية ، والحكومة الملكية ، والكنيسة والقانون الدولي ، والقانون البلدي والخاص بالتجار . وان تشريعات ايطاليا وفرنسا واسبانيا وهولنده وبلجيكا مستندة في الأساس على القانون الروماني والتي وصلت تأثيراتها على المناطق التي سكنتها هذه الشعوب في العالم الجديد . وان القانون الفرنسي الذي سنه نابليون قد استند على قانون جوستنيان الذي كيف ليلائم أوضاع فرنسا . أما تأثير القانون الروماني في انكلترة فيمكن تلمسه في التشريعات الكنسية وقانون التجار وقانون وصايا الموتى . كما ان قانون الامبراطورية الرومانية المقدسة الذي سن ١٤٠٥ متأثر جداً بالقانون الروماني . وظلت التشريعات الرومانية مسيطرة على القوانين في المانيا حتى القرن التاسع عشر . كما اهتم ملوك اوربا بالقانون الروماني وتبنوه ضد الاقطاع وان مبدأ الحكم المطلق في القانون الروماني قد انتهجه ملوك أوربا امثال هنري الثاني في انكلترة وفيليب اغوسطوس وخلفاؤه بفرنسا وفردريك بربروسا وفردريك الثاني بالمانيا وغيرهم واحتفظوا في بلاطهم بمختصين في القانون الروماني للاستشارة ، ولهذا كان القانون الروماني العامل الرئيس في تطور الملكية المطلقة . كما اتبعت الكنيسة القانون الروماني ويمكن القول بأن الكنيسة هي الوريث المباشرة للقانون الروماني والعامل المحرك لسلطتها المطلقة . ومن يدرس كتاب قوانين الحرب والسلم لغروتيوس في القرن السابع عشر يطلع على مدى تأثير القانون الروماني على القانون الدولي الحديث .

٤ - التأثير في الاقتصاد والمؤسسات الاجتماعية :

استمر النظام الاقتصادي الروماني ومؤسساته في أسبانيا وجنوب غالة وايطاليا خلال العصور الوسطى ، فنظام الأراضي الواسعة قد استمر حيث يعمل الأقنان مع استئجار الأراضي والعلاقة بين كبار الملاكين وأصحاب الأراضي الصغار والفلاحين الذين لا أراضي لهم . وان بساطة الحياة بصورة عامة صفة للحياة الرومانية الى جانب تماسك العائلة وغيرة الفرد الوطنية والتأكيد على أن مصلحة الدولة فوق تلك التي للفرد ، الى جانب تأكيد الرومان على الحياة العملية المنتجة منها الى الحياة التأملية .

٥ ـ في الفلسفة والدين :

اسهمت روما في نقل الفلسفة اليونانية بحلة رومانية وأعطى الفلاسفة الرومان أمثال لوكريشيوس وشيشرون وسينيكا الصغير للفلسفة اليونانية اتجاهاً علمياً وحيوية . فتأثيرات شيشرون وفلسفته على آباء الكنيسة الأوائل امثال جيروم وأمبروس وأوغسطين كبير وله الفضل في صب النظرة الاخلاقية للمسيحية في العصور الوسطى . وكانت كتاباته موضع اهتمام بالغ خلال العصور الوسيطة وتأثر بها الشكوكيون والعقلانيون وان انكار الوحي الالهي والايمان بالدين الطبيعي كان بتأثير شيشرون . ويذكر هيوم ان كتاب شيشرون (دي اوفيسيس) ماثل أمامه خلال جميع تصوراته . كما تأثرت الكنيسة بأفكار سينيكا الرواقية لأن أفكاره بالتوحيد والخلود كانت أقرب الى المسيحية . كما تأثر بكتاباته دانتي وشوسر وبترارك كما أعجب بروحه العالمية وتسامحه كتاب وشعراء القرنين السادس والسابع عشر أمثال مونتين وملتون وفرنسيس بيكون وبرتون وغيرهم . كما كان موضع اعجاب كتاب القرن التاسع عشر الكبار مثل غويته ، وكوينسي ، وكوليريدج ووردسورث وماثيوارنولد . ويعود الى سينيكا الفضل في بلورة نظرية الخلق العام بأوربا وانكلترة .

ان السلام الروماني وشبكة الطرق الرومانية والتسامح الديني كانت من العوامل المهمة في انتشار المسيحية التي توجت أخيراً بتبني قسطنطين لها كدين رسمي للدولة . وان تأثير التنظيمات الرومانية في الكنيسة كبير حيث تعد كنيسة العصور الوسطى من مخلفات روما القديمة الى جانب كونها معقل الحضارة الرومانية في العصور الوسطى . (١) وان التأثيرات الهلنستية والرومانية في المسيحية عميقة بعيدة الغور . فاحتفالات عيد الميلاد (الكرسمس) مماثلة الى الساتورناليا الروماني ، (عيد للاحتفال بنهاية جمع العنب كان يحل في الثلث الأخير من شهر كانون الأول على شرف الاله ساترن يتوقف الجميع خلاله عن العمل والاقتتال ويتبادلوا الهدايا وتحتفل به الجموع في الشوارع) . ثم استعمال الايقونات والتماثيل وماطقس القديسين الا تحوير لعبادة الرومان لأرواح موتاهم ثم عادات الزواج وطرق الدفن وأفكار البعث والخلاص . ويشابه يوم القديسين عيد البارانتاليا الروماني (عيد كان يقام لاحياء العائلة لذكرى الأقارب الموتى لمدة ثمانية أيام حوالي أواسط شهر شباط) . الى جانب كون كثير من الاصطلاحات الدينية الكنسية رومانية الأصل .

٦ ـ بالفن والعمارة والهندسة :

كان لروما في عصر الامبراطورية فن خاص مستند على التقاليد الهلنستية صار قدوة للأجيال اللاحقة . فتأثير المنحوتات الرومانية التي نلحظها على أقواس النصر والأعمدة كان كبيراً خلال العصر الوسيط . فقد اتخذ فنانو عصر النهضة التماثيل والمنحوتات الرومانية ونقوش الافاريز والأبواب نماذج لهم . ثم تأثير التوابيت المنحوته ذات الصور الجنائية التي أوصلها الفنانون الرومان الى حد غير متناه من الدقة والجمال . وجاءت المنحوتات الجدارية لرفائيل في الفاتيكان نسخة مماثلة الى تلك التي من قصر نيرون . ونلحظ تأثر الفن الأوربي والاميركي بالنحت الروماني كبيراً بحيث يمكن اعتباره استمراراً له .

برز الرومان في حقل العمارة ، وفي الوقت الذي كانت فيه عمارة المعابد اليونانية بسيطة بفراغات غير ضرورية عدة مما يجعلها غير ملائمة كبنايات عامة فقد حل الرومان هذه المشكلة باستعمالهم القوس والعقادة حيث امتازت العمائر الرومانية بالضخامة والتعقيد والمتانة والسعة مما يجسم عظمة الامبراطورية .

فقد عرف المهندسون الرومان جميع مبادىء بناء الأقواس والعقادة القبوية والنفقية حتى لمسافات كبيرة وجعلوها عنصراً أساسياً في البنايات . فيعد الرومان هم الرواد في بناء تلاقي العقادات في الحنايا والقباب ذات القطر الكبير التي بنيت على نهجها قبتا القديس بطرس في روما والقديس بولس في لندن.وتعد باسيليكا قسطنطين المعقودة بممراتها الوسطية والجانبية سلف الكاتدرائيات الرومانتيكية . وتحولت البناية المدورة في نهاية الباسيليكا الرومانية الى الحنية التي تحوي المذبح في الكنيسة . وان جميع صفات العمارة الرومانتيكية مثل الأساكيب المعقودة ، والممرات والعقادات النفقية او تلاقي العقادات في الحنايا والمنور والجدران الضخمة والطلمات والأعمدة الثقيلة كلها صفات الباسيليكا الرومانية . وان الرواق المسقوف ذا الأعمدة في أديرة العصور الوسطى والذي أثر على عمارات الجامعات الانكليزية والاميركية ذو علاقة بالبهو ذو الأعمدة الروماني . وان قلاع العصور الوسطى متأثرة ببيوت الحقول الرومانية المحصنة ولم يكن قصر دقلديانوس في سپالاتوالا أقدم قلعة رومانية معروفة . وكانت عمارة عصر النهضة محاولة للعودة الى الطراز الروماني فقد اتخذ فنانو هذا العصر الصور الجدرانية والأشكال المنحوتة على الأقواس والأعمدة . وتماثيل الأشخاص مثالاً يحتذى . وكان تأثير كتاب فتروفيوس

في العمارة على العمارة خلال عصر النهضة والأزمنة اللاحقة كبيراً وصار المصدر الرئيس للمهندسين وعدت مبادئه الهندسية حاسمة سار عليها برامانت وميخائيل انجيلو . وان الكثير من البنايات المهمة في اوربا والولايات المتحدة تماثل حمامات كراكلا وباسليكا قسطنطين في الخطة والمنور والعقادة ثم اعمدة النصر . وان استعمال الأعمدة الناقصة (المغروزة) على جوانب ثلاثة والواجهات المزينة بالطرز الرومانية وغط الأعمدة المسطرة والملصقات مازالت متبعة في الأبنية العامة بأوربا وأميركا . وان بيت كارة في ميمس بفرنسا كان النموذج لمعبد النصر الذي شيده نابليون والمدلين في باريس .

لايزال الكثير من الجسور والقنوات والقناطر والطرق التي شيدها الرومان باقية في أوربا والشرق وتدل على عبقريتهم في الهندسة والعمارة . فطول قنطرة غارد قرب ميمس حوالي ٩٠٠ قدم وارتفاعها ١٦٠ قدم وبثلاث طوابق من الأقواس . وبلغ الرومان حداً غير متناه في دقة هندسة المجاري ومازالت مجاري بعض الدول الاوربية باقية من العصر الروماني . كما اتقنوا هندسة التحصينات الضخمة والعمارة العسكرية . ويدل كتاب فرونتينوس عن قنوات روما على مبلغ المرحلة التي وصلتها الهندسة الرومانية في هذا المجال .

٧ ـ بالعلوم :

لم يكن تأثير الرومان في العلوم كبيراً ، وقد برزت شخصيات علمية رومانية كان لها تأثير في حقل المعرفة والعلم ومن هؤلاء لوكريشيوس الذي حسن اراء استاذه اليوناني ابيقور . وكان لنظريته في الذرة اثر في بلورة النظرية الحديثة في تكوين المادة الذري . ثم تأثير كتابات فارو وماجمعه بلني الكبير في التاريخ الطبيعي وأفكار سينيكا التي أوردها في كتابه الاسئلة الطبيعية ، وقد كان للأخيرين تأثير كبير ، بالرغم من عيوبها ، على علوم العصر الوسيط حتى القرن التاسع عشر .

وان ماقدمه جالينوس من برغاموم من القرن الثاني كان تلخيصاً لآراء مدرستي ابقراط والاسكندرية في الطب . ويعد كتاب كيلسوس في الطب باللاتينية ترجمة عن اليونانية . غير أن اسهام الرومان تركز في الطب البيطري والصحة العامة وتوفير الماء النقي الصالح للشرب والحمامات . وكان للرومان اهتمام بالخرائط والجغرافية الوصفية كما تميز الرومان سابقيهم من اليونانيين في حقل الموسيقى وضبط المساحات . (٢)

الهوامـــش

1. Cary, pp. 780–781.
2. Trever, pp. 735–767.

الفهرســـت

الموضـــوع	رقم الصفحـة

مهدها بأن حرض الملاكين القدماء في اتروريا على الملاكين الجدد الذين وطنهم سوللا . وبذلك عادت الاضطرابات في تلك المنطقة من جديد . وعندما يعهد اليه مجلس الشيوخ مع زميله كاتولوس قيادة جيش لاخماد الفتنة ينتهز لبيدوس الفرصة لتحقيق مطامعه التي فشل في الوصول اليها عن طريق العمل السياسي . إذ يمتنع لبيدوس عن العودة عندما يرجع زميله كاتولوس إلى روما بعد انهاء المهمة ، ويحتفظ بالجيش الذي يقوده . ويثور على روما لكي يؤمن انتخابه من جديد لقنصلية عام ٧٧ ق . م. سار لبيدوس باتجاه العاصمة وقد ضم اليه كافة المستائين من أبناء اتروريا ومن بقايا حزب ماريوس وكان يلبس أعماله رداء الشرعية بتبني مطالب العوام ورفع شعاراتها : مثل حق الموطنة ، وإعادة سلطات المحامين ، وإعادة المنفيين ... إلا أن كاتولوس وبومبي ينجحان بتكليف من مجلس الشيوخ في هزيمة لبيدوس قرب روما ، فيهرب القائد الثائر إلى ساردينيا التي يقف حاكمها في وجهه ويصده عنها بقوة . وعندما يموت لبيدوس في ساردينيا ينسحب أعوانه بقيادة مساعده بربونا إلى اسبانيا . وينضموا جميعاً إلى القائد الشعبي سرتوريوس Sertorins زعيم الثورة الناشبة في اسبانيا ضد مجلس الشيوخ . وكما نرى استطاع المجلس القضاء على ثورة لبيدوس على يدي كاتولوس وبومبي ولكنه دفع ثمن الانتصار غالياً إذ اضطر إلى اعادة السلطة العسكرية للقناصل ضمن ايتاليا ومنح سلطة الامبريوم الاستثنائية إلى القائد الشاب بومبي .

ثورة سرتوريوس :

تميز سرتوريوس من بين زعماء الشعبيين بكونه سياسياً ناجحاً وقائداً عسكرياً قديراً اشترك في الحروب الاجتماعية . فانتخب عام ٨٨ إلى منصب المحاماة واصطدم

مطبعة التعليم العالي
جامعة بغـداد

صلاته القوية بابناء المنطقة وعلى ثقتهم الكبيرة به . كما عمل على نشر الرومنة بين أبناء الزعماء الاسبان . وتتوطد سمعة سرتوريوس لدرجة تدفع الملك ميترادات إلى الاتصال به للحصول على اعترافه بممتلكاته في اسيا الصغرى ومن بينها مقاطعة اسيا الرومانية . إلا أن سرتوريوس رغم ثورته على مجلس الشيوخ يرفض التفريط بمقاطعة آسيا . ويعترف للملك الثائر بالمناطق الاخرى ، وبالمقابل يعده ملك البونت بدفع ثلاثة الاف تالان وبتزويده باسطول من أربعين سفينة .

اعتباراً من عام ٧٥ ترجح كفة الحرب الى جانب بومبي ومتللوس بعد الامدادات التي وصلتها ويتمكن بومبي بمزيج من الحرب والسياسة من اقناع بربرنا بالتخلص من سرتوريوس ، فيعمد هذا إلى اغتياله عام ٧٢ . وما يلبث حلفاء سرتوريوس الاسبان ان ينفضوا عن نصرة بربرنا . فاستطاع بومبي أن يأسره . وعلى الرغم من أن بربرنا يسلم للنتصر الرسائل التي تلقاها سرتوريوس من زعماء الرومان للعودة إلى ايتاليا مقابل العفو عنه ، يصر بومبي على اعدام بربرنا ، ويحرق الرسائل لكي يبدأ صفحه جديدة في روما . غير أن ثورة الاسبان لم تنقطع بعد مقتل بربرنا ، بل اضطر بومبي لمتابعة الحرب ضدهم وغزوهم في معاقلهم الجبلية . ولكنه لم يقس في معاملتهم ، وعمل على اتباع سياسة التقرب ومنح حقوق الحلفاء لاكتسابهم إلى جانب روما . ومن ثم عاد بومبي عام ٧١ إلى روما ليحتفل بظفره ويطالب بمكافأة جنوده ، فصدق المجلس على اعطاء حق المدينة إلى جنود بومبي .

ثورة سبارتاكوس أو ثورة المصارعين (٧٣ — ٧١):

اجتاحت ايتاليا اثناء انشغالها بثورة سرتوريوس في اسبانيا وثورة الملك ميترادات في اسيا الصغرى ، ثورة جديدة بدأت عام ٧٣ بتمرد

عصبة من المصارعين Gladiators في مدينة كابوا . قرروا الفرار من مدرسة التدريب برئاسة مصارع تراكي من بينهم اسمه **سبارتاكوس** وزميلين له . والمعروف ان المصارعين كانوا من الرقيق الذين اكتظت بهم مدن ايتاليا عقب الحروب البونية والاجتماعيــة . وكان الرقيق يستخدمون للعمل بشروط بائسة في مزارع اثرياء روما ، أو يدربون على المصارعة لتقديم المشاهد الدموية في الحفلات والالعاب التي كثيراً ما تنتهي بقتل المصارع لخصمه . إذ أن مشاهد المصارعة اصبحت تشكل عنصراً أساسياً من عناصر التسلية في المجتمع الروماني، وخاصة في عهود القادة العسكريين الذين عملوا على التقرب من الجماهير وتملقها .

عمد الثائرون للتحصن في منحدرات جبل فيزوف ، وانضم اليهم خلال مدة قصيرة المزيد من الارقاء الهاربين حتى أن عددهم ارتفع الى ٧٠ الف ثائر عام ٧٣ . فاستطاعوا التصدي لجيشين رومانيين وهزيمة قوادهما . وما لبثت ثورتهم أن انتشرت. فعاثوا في مناطق كامبانيا ولوكانيا وايتاليا الجنوبية. ولم تتمكن روما من القضاء على الثورة قبل استفحالها بالنظر إلى عدم وجود قوات عسكرية رومانية ترابط في ايتاليا وفقاً لما نص عليه أحد قوانين سوللا . ادركت روما الخطر الكامن وراء ثورة المصارعين . إذ ان هذا العصيان غدا ثورة لكل الارقاء الذين استعبدتهم روما وانتزعتهم من أوطانهم ليقدموا للسادة الرومان اليد العاملة بابخس ثمن . والآن تجد ثورة سبارتاكوس تأيداً من كل هؤلاء المضطهدين،وتهدد بنسف الأنظمة المجحفة التي فرضها الرومان عليهم .

قسم الثوار قواهم فانضوى الغاليون والجرمان تحت زعامة كريكسوس

---

(١) راجع اعلاه عن أوضاع الرقيق في المجتمع الروماني ص٢٠٢-٢٠٣

وتبـع التراكيون سبارتاكوس . وقد سار هذا الثائر نحو الشمال . ولعله كان يقصد العودة مع جماعته إلى بلاد تراكيا . فاستطاع أن يهزم قنصلي العام ٧٢ اللذين خصصتهما روما للقضاء على الثورة ، كما هزم حاكم مقاطعة ايتاليا الشمالية . أما كريكسوس فقدلقي الهزيمة مع جماعته قرب ابوليا. في حين يضطر سبارتاكوس للعودة الى جنوب ايتاليا بعد أن يرفض انصاره مغادرة ايتاليا .

تجاه هذه الهزائم والخراب الذي ألحقه الثوار بايتاليا ، لجـأ مجلس الشيوخ إلى القنصل كراسوس ، أحد اثرياء الطبقة النبيله، ومنحه سلطة مطلقة لمتابعة القتال ضدهم . يعتبر كراسوس من انصار سوللا المفضلين . وقد استطاع تنمية ثروته بان اشترى ممتلكات اعداء سوللا المصادرة . وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بقوات كراسوس في باديء الامر ، فانـه يتابـع خطته في دفع الثوار عن المقاطعات الجنوبية ، حتى استطاع أن يهزم أحد جيوش سبارتاكوس . واضطر الاخير للانسحاب إلى شبه جزيرة بروتيوم ليمكنه منها الانتقال الى جزيرة صقلية بمساعدة سفن القراصنـة الكيليكيين . غير أن هؤلاء خدعوه واقلعو بدونه بعد أن قبضوا الأجر. فحاصره كراسوس وضيق الخناق على قواته حتى قاربت مؤونها على النفاذ . ومع ذلك استبسل سبارتاكوس في المقاومـة حتى يأس كراسوس من الانتصار عليه بمفرده،واضطر لطاب العون من جيش ماكدونيا ومن بومبي الذي كان يشارف بجيشه الظافر جبال الالب عائداً من مهمته في اسبانيا. لكن كراسوس يتمكن اخيراً من اختراق صفوف الثوار بمساعدة جيش ماكدونيا ويسقط سبارتاكوس في المعركة بعد قتال مرير . أما فلول الثائرين فقد تفرقت وانسحبت جماعة منهم إلى اتروريا . وعلى الرغم من ان كراسوس يدعي لنفسه الانتصار على ثورة الرقيق وتنكيله بافرادها، فان مهمة القضاء على فلولها كانت من نصيب بومبي .

٢ـ انتخاب بومي وكراسوس قنصلين لعام ٧٠ ق . م :

كان من نتائج ثورة الرقيق اعتماد مجلس الشيوخ المتزايد على القادة العسكريين واضطراره للاذعان لرغباتهم . فقد وحد الانتصار بين كراسوس وبومي مستقبلهما السياسي سوية . فعادا الى روما ليطالبا بقبولهما لمناصب القنصلية عام ٧٠ . والجدير بالذكر أن كلا القائدين شعرا بقيود قوانين سوللا التي ما زال الشيوخ يتمسكون بها حرصاً على المكاسب التي تؤمنها لهم . فيتفق القائدان على توحيد خطواتهما في تأيـــد الفرسان والشعبيين ضد مجلس الشيوخ ، لإسقاط قوانين سوللا وابطال مفعولها . وبالفعل نجح الرجلان في انتخابات القنصلية رغم عدم توفر شروط الترشيح لدى بومي الشاب ومقاومة الشيوخ للقائد كراسوس .

ابتدأ كل من كراسوس وبومبي عملهما في القنصليه باصدار قانون مشترك يحمل اسميهما (قانون بومبيا ليسينيا) Lex Pompeia Licinia اعادا فيه إلى محامي الشعب حقوقهم القديمة التي نالت منها قوانين سوللا . وارجعا للفرسان مركزهم المتفوق في محاكم المحلفين التي كان من مهامها النظر في المخالفات الادارية المرتكبه في المقاطعات الرومانية . وأعيـد العمل بنظام المراقبين [1] Censur الذين اوقف سوللا اعمالهم خدمه للشيوخ . وكان من نتيجة الدعم الذي كسبه القنصلان لمشاريعهما من جهة ، وللتعاون الكامل الذي تحقق بينهما أن ضمنا اعادة انتخابهما لقنصلية العام التالي . وبذلك قضي على مفعولية قوانين سوللا . أما الضربة القوية التي تلقاها الشيوخ فقد تمثلت في محاكمة فيريس Verres حاكم جزيرة صقلية بناء على طلب من الخطيب والسياسي سيسرو الذي كان يشغل وظيفة خازن في صقلية. كان سيسرو مستاء من المحاكم التي يسيطر عليها الشيوخ . وينقم على القضاة

(١) قام المراقبون باقصاء خصوم الشعبيين من اعضاء مجلس الشيوخ .

الأوليغارشيين انفسهم الذين كانوا يتواطأون مع ابناء طبقتهم على تبرئته حكام المقاطعات المتهمين بالاختلاس والانحراف واستغلال المنصب . وكان فيريس نموذجاً لهؤلاء جميعاً . لذلك اعتبر الشعبيون قضيته محاكمة وادانة للطبقة التي ينتسب اليها . فقام سيسرو بتسديد اتهاماته للحاكم فيريس في خمس خطب [1] لخص فيهـــا مظاهر استغـلال الحكام لمنـاصبهم في المقاطعات في عهد سوللا . وتقدر المبالغ التي اختلسها حاكم صقلية خلال ثلاثـة أعوام بين ٧٣ – ٧١ ق . م بحوالي أربعين الف درهم [2] . اعترف فيريس بانه وزع قسماً منها على اصدقائه وازلامه ، وعلى القضاة والمحلفين الذين كلفوا بمحاكمته . ورغم استبسال الشيوخ من أصدقاء فيريس في محاولة انقاذه ، فقد استطاع سيسرو بخطب الاتهامات التي القاهـا خلال المحاكمة أن يفسد خطط هورتنسيوس محامي المتهم الذي انتخب انذاك لمنصب القنصلية – وأن يقنع المحلفين بواسطة الشهود من ابنـاء صقلية بادانة فيريس . فحكموا عليه باعادة الاموال التي نهبها من أهل صقلية. ولم ينتظر فيريس صدور الحكم عليه بل اسرع من تلقاء ذاته بالاتجاه إلى المنفى ، كي يتمتع ببقية الأموال التي ابتزها . وفي الحقيقية كانت اعمال فيريس الشائنة في بيـع وظائف الدولة والعدل لمن يدفع اكبر ثمن فيها ، وإتهام الناس بالباطل ، ومصادرة أموالهم وممتلـكاتهم ، وسرقة كنوز المقاطعة وتحفها حتى تلك التي تزين المعابد ، نموذجاً لما يقوم بـه بقية الحكام الرومان في المقاطعات الاخرى مثل مقاطعة غاليـــا مثلا . اذ لا توجد قوة اخرى إلى جانبهم تستطيـع محاسبتهم او ردعهم ، بل كان اعضاء مجلس الشيوخ في كثير من الاحيـان شركاء لهم . ومما لاريب

---

(١) عرفت باسم « خطابات ضد جايوس فيريس».

(٢) أي ما يقارب ثمانية ملايين ليرة سورية .

فيه أن قضية فيريس جاءت نصراً للشعبيين وللقواد العسكريين كبومبي وكراسوس ، اذ كشفت للشعب في روما فضائح الطبقة الارستقراطية وتلاعبها بمصالح الدولة . ودعمت بالمقابل موقف طبقة الفرسان التي كان سيسرو ينتسب اليها .

٣- مهمات بومبي العسكرية (قانونا جابينيا ومانيليا ٦٧ - ٦٢)

لم ينته دور بومبي وكراسوس في الحكم عقب انتهاء مدة قنصليتهما ، بل بقيا في مدينة روما ينتظران سنوح الفرصة المناسبة لاستلام السلطة من جديد . ولم تفلح جهود الشيوخ للتخلص منهما باعطائهما مناصب حكام في المقاطعات ، اذ رفضا استلام مثل هذه المهمة . وبالطبع كان هدف القادة العسكريين الحصول على مزيد من المهمات الاستثنائية التي تعود عليهم بالشهرة والقوة والثراء المادي . جاءت الفرصة التي انتظرها بومبي مع مشكلة القراصنة الذين سيطروا بغاراتهم على كافة منطقة البحر المتوسط الشرقية اعتباراً من هزيمة قرطاجة ، وخاصة خلال الحروب الاهلية في في ايتاليا . فقاموا من مراكزهم في جزيرة كريت وكيليكيا بخطف الرجال وبيعهم في أسواق العبيد بالنظر للطلبات المتزايدة في المجتمع الجديد على هذا النوع من السلع ، التي أصبحت جزيرة رودوس سوقاً هاماً لها . وبالنظر إلى أن قراصنة البحر لم يقتصروا في نشاطهم على تجارة العبيد بل أخذوا يتعرضون لمؤن القمح المرسلة إلى ايتاليا ويعرقلون تموين مدينة روما ، فان الرومان يشعرون بضرورة الحد من خطر القرصنة التي لم تسلم منها شواطىء ايتاليا وحتى مرفأ اوستي نفسه . وعلى الرغم من أن روما تعهد إلى القائد متللوس عام ٦٩ بالقضاء على القراصنة ؛ فيفلح خلال سنتين في غزو جزيرة كريت واحتلالها وتحويلها إلى مقاطعة رومانية — ثم تلحق

بعد ذلك بسيرينه - فان الخطر ما زال يتهدد المواصلات البحرية ويتطلب اتخاذ اجراءات حاسمة .

ومع أن خطر القراصنة يتطلب اختيار قائد كفيء لهذه المهمة [1] فان مجلس الشيوخ كان يتوجس خيفة من اسناد مهمة عسكرية ذات صلاحيات واسعة إلى قائد مثل بومبي يتصف بميوله المؤيدة للشعبين . لذلك لم يكن مستغرباً أن يحصل بومبي على التأييد من الشعبين ، الذين اقترحوه على لسان المحامي الشعبي اولوس غابينوس Gabinus قائداً للحملة ضد القراصنة . وكما هو متوقع قاوم الشيوخ بضراوة مشروع **القانون الغابيني** Lex Gabinia الذي يمنح قائد الحملة سلطة قنصل ويوكل اليه القيادة على البحر المتوسط وشواطئه بما فيها شواطىء ايتاليا لمسافة خمسة وستين كيلو متراً ضمن البر تقريباً . وذلك لمدة ثلاث سنوات . ورغم ذلك تم اصدار القانون عام ٦٧ وانتخب بومبي قائداً للحملة يساعده عدد من المفوضين . وخول صلاحيات جمع الجنود والبحارة والأموال ومصادرتها : أي تعبئة كافة القوى اللازمية بما فيها اسطول يتألف من خمسمئة مركب ، وقوة من مئة وسبعين الف محارب .

استطاع بومبي خلال أربعين يومـــاً أن يطهر منطقة البحر المتوسط الغربية من القراصنة ، واحتاج إلى خمسين يوماً أخرى لحصار القراصنة في معاقلهم في كيليكيا واجبارهم على الاستسلام . ولم يقس في معاملتهم مثل متللوس بل ساعدهم على الاستيطان والانصراف لاعمال الزراعة . وبذلك

---

(١) كانت روما قد أولت القائد انطونيوس حاكم سيرينه (ليبيا) مهمة اخضاع القراصنة في كيليكيا وكريت عام ٧٤ بالنظر للتعاون القائم بينهم وبين الملك ميترادانس . لكن انطونيوس مني بهزيمة فادحة على شواطىء جزيرة كريت عام ٧١ وتفشل الحملة .

انهى بومبي بثلاثة أشهر المهمة التي خصص مجلس الشيوخ لها ثلاث سنوات؛ بالاضافة إلى أن اسطولاً ضخماً وقوات وفيرة تقف الآن رهن اشارة القائد الطموح .

خاب ظن مجلس الشيوخ حينما أمل بانتهاء مهمة بومبي الخلاص من السلطة الواسعة التي يتمتع بها هذا القائد . فقد كان الوضع في آسيا الصغرى يتطلب المزيد من الاعمال العسكرية للقضاء على ملك البونت ميثراداتس الذي اقضت أعماله مضاجع روما . إذ أن هذا الملك اغتنم فرصة انشغال روما بحروبها الاهلية لكي يقوم بالحاق سوريه و كبادوكية بمملكته،معتمداً في ذلك على تأيد صهره تيغران ملك ارمينيا . وفي عام ٧٥ ق.م يضطر الملك نيكوميدس الثالث ملك بتينيا إلى وهب مملكته إلى روما كي لاتقع في أيدي ميثراداتس . إلا أن الاخير يهب لتأيد مطالب ابن الملك نيكوميدس في أحقيته بمملكة بيتينا التي قرر مجلس الشيوخ تحويلها إلى مقاطعة رومانية . واستفاد ميثراداتس من تحالفه مع سرتوريوس [١] ومع القراصنة لكي يوسع أعماله الحربية ضد روما . فكلف مجلس الشيوخ القنصل لوسيوس لوكولوس بادارة مقاطعات كيليكيا وآسيا واستلام قيادة القوات الرومانية ضد ميثراداتس ، يساعده القنصل اوريليوس كوتا في الدفاع عن بتينيا وقيادة الاسطول الروماني العامل في مضائق الدردنيل . وقد لقي الاخير الهزيمة في أوائل ٧٤ في البر والبحر على يد ميثراداتس،عندما ظن أن باستطاعته القضاء بمفرده على ملك البونت الثائر . واستطاع ميثراداتس التوغل في الاناضول والوصول من جديد إلى مقاطعة آسيا.لكنه اضطر للانسحاب في الشتاء ورفع الحصار عن مدينة سيزيكوس والعودة الى بتينيا بسبب تدخل لوكولوس . وفي عام ٧٢ استلم لوكولوس

(١) راجع اتفاقه مع سرتوريوس ص ٢٥٨ .

المبادهة بعد أن حرر بتينيا من قبضة الملك ميثراداتس.فغزا بلاد البونت نفسها وهدم مدنها الحصينة . فهرب ميثراداتس ملتجئاً إلى صهره ملك ارمينيا . ثم حاول القائد لوكولوس خلال شتاء العام ٧١ – ٧٠ أن يسوي الأوضاع السيئة في مقاطعة آسيا التي اثقلت أهلها الغرامات الكبيرة التي فرضها عليهم سوللا، فاضطروا لاستدانتها بفوائد فاحشة من المرابين الرومان . وجاء لوكولوس الآن يحاول تقسيط الديون وتخفيض الفوائد ، مما جر عليه نقمة المرابين والفرسان في روما .

يعاود لوكولوس غزو بلاد البونت.ويرى هذه المرة أن يهاجم مملكة ارمينيا نفسها ، بالنظر إلى أن ملكها تيغران يمتنع عن تسليم ميثراداتس الذي التجأ اليه . وبالفعل زحف على هضاب ارمينيا فوصل إلى عاصمتها تيغرانوسرتا عام ٦٩ واحتلها ونهبها . ثم تابع مسيره نحو الشرق قاصداً اللحاق بالملك تيغران الذي نقل حاشيته وثروته إلى مدينة ارتاكزاتا . غير أن الشتاء داهمه في المنطقة الجبلية واضطر للعدول عن الوصول إلى هدفه بسبب تمرد جنوده ورغبتهم في العودة . وما أن انسحب من المنطقة حتى عاد الملك تيغران إلى احتلالها من جديد ووصل إلى كبادوكيا.كما أن الملك ميثراداتس ينتهز الفرصة ليفتك بالحامية الرومانية التي بقيت في بلاد البونت . ولم يتمكن لوكولوس ازاء عصيان جنوده أن يتخذ أي عمل عسكري ضد الثائرين . وبذلك فقد لوكولوس معظم المناطق التي فتحها خلال ستة أعوام ، الأمر الذي دفع مجلس الشيوخ إلى حرمانه من سلطاته عام ٦٦ واستبداله بقائد آخر.

الحروب الميثراداتية الثالثة (قانون مانيليا) :

رغبة في انقاذ الموقف المتدهور في بلاد الآناضول لجأ الشعبيون والفرسان في روما إلى نقل قيادة القوات الرومانية إلى بومبي، وذلك بموجب اقتراح قانون تقدم به المحامي مانيليوس . وقد تضمن القانون تكليف بومبي الاشراف على مقاطعات بتينيا وكيليكيا ومتابعة الحرب ضد الملكين ميثراداتس

وتيغران ، وتمديد سلطة الامبريوم الممنوحة له الى أمـد غير محدود مع صلاحية عقد الصلح واعلان الحرب مع من يرغب . شعر الشيوخ ان القـانون الجديد ما هو إلا صلة لقانون غابينوس السابق تمدد بموجبه ديكتاتورية بومبي إلى أجل مجهول . وبالطبع هب الاوليغارشيون لمقاومته ، وتعرض القـانون إلى هجوم عنيف شنه كاتولوس عليه دفاعاً عن الجمهورية ومؤسساتها . في حين أيد القانون وقام بالدفاع عنه كل من سيسرو ، الذي كان يطمح لدعم مركزه السياسي بالتقرب من بومبي ، والخازن يوليوس قيصر . واستطاع سيسرو بخطابه المقنع أن يضحض حجج الشيوخ ومخاوفهم ، وأن يبين أن تجربة القانون الغابيني اسفرت عن نجاح كبير ، ولم يحدث خلالها أن اساء بومبي استعمال السلطات الموكلة اليه . وكما انتصر بومبي على القراصنة فانه يستطيع أيضاً تخليص روما من الملكين الثائرين في الاناضول . لذلك لم يجد مجلس الشيوخ مناصاً من المصادقة على قانون **مانيليوس** Lex Manilia . عام ٦٦ وتم لومبي وضع جيوش لوكولوس تحت أمرته .

استلم بومبي السلطات المخولة اليه أثناء وجوده في آسيا الصغرى . فبادر للالتقاء بلوكولوس في مقاطعة جالاتيا . وكان الاخير يستعجل العودة إلى روما للاحتفال بظفره . إلا أن بومبي منعه من ذلك لحاجته إلى كافة القوات الرومانية في معاركه المقبلة مع ميثراداتس وتيغران . واضطر لوكولوس للعودة إلى روما بجيش يتألف من الف جندي فقط ، أما بومبي فبادر بعقد تحالف مع الملك البارثي الذي يشاركه المطامع في أرمينيا ، اتفقا بموجبه على جعل نهر الفرات حداً بين المملكتين . ثم تقدم إلى بلاد البونت ليحارب ميثراداتس . فانسحب هذا أمام الخطر المقبل إلى بلاد ارمينيا الداخلية . ولا يلبث بومبي أن يلحق به ويتمكن من تشتيت جيشه في سلسلة من المعارك الضارية عبر المناطق الجبلية الوعرة . يضطر ميثراداتس بنتيجتها أن ينسحب من بلاد أرمينيا كلية عندما

يرفض صهره ايوائه لديه ويعتقل مبعوثيه ؛ إذ كان الملك تيغران نفسه مشغولاً بثورة ابنه عليـــه وبغزوة البارثيين لمملكته . فيتابـع الملك ميثراداتس انسحابه نحو منطقة القرم في البحر الاسود آمـلًا النجاة من خطر بومبي . وبانسحاب ميثراداتس عن كافة اسيا الصغرى يخـلو الجو الآن لبومبي ليصفي حساب روما مع الملك تيغران . فيضطر الأخير بعد أن انهكت قواه ثورة ابنـه أن يستـلم لبومبي ، الذي تقدم إلى عاصمته ارتاكزاتا . ويركع تيغران أمامه بعد أن رفع التاج عن راسه . إلا أن بومبي كان يدرك أهمية بقاء مملكة أرمينيا حاجزاً بين روما وفارس . فيعيد لتيغران تاجه ، ويثبته على عرشه بصفته حليف لروما[1] . ويعتقل ابنه الثائر الذي يمت إلى ملك البارثيين بصلة المصاهرة . لايغفـل بومبي أن خطر الملك ميثراداتس مايزال قائماً ، فيعمل في العام ٦٥ على اخضاع سكان المنطقة الجبلية الواقعة بين البحر الاسود وبحر قزوين ويحولهم إلى حلفاء لرومـا . ثم يقسم مملكة البونت إلى أقسام عـديدة الحق القسم الغربي منها بمقاطعة بتينيا التي أصبح يطلق عليها اسم مقاطعة بتينيا – بونت . وضمت الأقسام الباقية إلى حلفاء روما . أما بقية أقسـام آسيا الصغرى فقد أعاد بومبي تشكيل مقاطعة آسيا فيها ، ومقاطعة كيليكيا. ويترك ممالك صغيرة في شرقي البونت وفي كبادوكيا وجالاتيا ، وليسيا .

بومبي في الشرق :

بعد أن أمن بومبي اخضاع آسيا الصغرى ونظم مقاطعاتها امضى شتاء عام ٦٥ – ٦٤ في مدينة اميزوس ، حيث عقد فيها مؤتمراً حضره ملوك البلاد الآسيوية ، باستثناء الملك البارثي الذي ساءت علاقاته معه في الفترة الاخيرة بسبب نزاعه مع الملك تيغران على مناطق أعالي الدجلة . وقد

---

(١) اضطر تيغران إلى دفع غرامة حربية بلغت ستة الاف تالان .

أدرك بومبي خطر الفرس على المنطقة المجاورة وهي مملكة سورية السلوقية، فأخذ يعد العدة لاحتلالها وضمها إلى الامبراطورية الرومانية . وكانت سورية آنذاك في حالة من الفوضى مقسمة بين عدد من الأمراء يتنازعون فيما بينهم منذ أن انتزع القائد لوكولوس المنطقة الشمالية من الملك تيغران .

سار بومبي ٦٤ ق.م بحملة نحو سورية فاتجه إلى انطاكية وارسل بقية قواته بقيادة المحامي جابينوس لاحتلال دمشق . وبالنظر إلى أن آخر الملوك السلوقيين في سورية لم يدافع عن مملكته عندما غزاها الملك تيغران عام ٨٥ ق.م . فقد اعتبر بومبي ذلك نهاية لحكم السلوقيين فيها. ويبادر الآن لاعلانها مقاطعة رومانية محتلة ، بعد أن انتصر على تيغران آخر ملك عليها . ثم يتابع بومبي توغله في سورية فيطهر الساحل ووادي العاصي من الأمراء المحليين . ويستولي على مدينة افاميا فيهدمها ويهدم حصون العرب والايتوريين . ويصل إلى مدينة دمشق في ربيع عام ٦٣ ق . م . هنا رأى بومبي نفسه مضطراً للتدخل في الصراع الناشب بين ارسطوبول وأخيه الكبير هيركان الثاني حول وراثة عرش مملكة يهودا . إذ أن ملك الانباط الحارث الثالث كان قد تدخل بقواته لتأيد هيرا كان ضد أخيه ارسطوبول مقابل تنازل الأول عن عدد من المدن المؤابيه للحارث . وحينما وصلت طلائع جيش بومبي إلى دمشق كان الملك الحارث يهاجم مدينة القدس ويلقي الحصار على معبدها بعد أن فراليه ارسطوبول ، اثر الهزيمة التي الحقها الحارث به. غير أن الحارث يضطر لرفع الحصار عن ارسطوبول اثر تدخل سكوروس خازن بومبي ودعمه للاخير الذي استماله اليه بواسطة المال . وبذلك استطاع ارسطوبول استعادة قواته وهزيمة أخيه هيركان وحليفه الملك الحارث .

لم يوافق بومبي على تأيد سكورس لارسطوبول ، خاصة عندما علم

بان ارسطوبول يمارس القرصنة على المدن المجـــاورة . ولم تغره الرشوة الكبيرة التي وعـده بها ، بل استطـاع التوغل في فلسطين حتى وصلت جيوشه إلى مدينة القدس. وهناك أجبر ارسطوبول على تسليم نفسه والبقاء رهينة لديه حتى يسلم اليهود القلاع التي يعتصمون بها. وعندما تقدم جابينوس لدخول مدينة القدس أوصـــد اليهود أبواب المدينة في وجهه ، ورفضوا الاذعان لنداء ارسطوبول . ولم يطل امتناع أهل المدينة إذ مـا لبث الخلاف أن دب بين انصار هيركان وانصار ارسطو بول ، فبادر الأولون لفتح أبواب المدينة واحتل الرومان مقرهـا الملكي ، بينما اعتصم أنصار ارسطوبول في المعبد ، الذي أمكن للرومان دك أحد أسواره بواسطة الابراج الهجومية المتحركة . وتم لهم احتلال معبد القدس عنوة بمساعدة هيركان وقتلوا من المدافعين عنه اثنى عشر الف رجل . بذلك تم لبومبي انهاء الخلاف الناشب - لمصلحة روما - عندما نصب مرشحه هيركان كاهنـاً أعلى للدولة ولكن دون أن يمنحه لقب ملك. واقتطع جزءاً كبيراً من الدولة اليهودية الحقه بمقاطعة سورية . وأصبح القسم الآخر مقاطعـة رومانيه مستقلة يحكمها الكاهن الاكبر هيركان ، وتخضـــع لاشراف حاكم مقاطعة سورية .

بينما كان بومبي مشغولاً بمشكلة اليهود يستعيد الملك ميثراداتس قواه من جديد بمساعدة القبائل الكلتية المتوضعة في حوض نهر الدانوب ، وينوي غزو ايتاليا معهم . إلا أن مشروعه الذي يذكر بحملة هانيبـــال ، لايكتب له النجاح بسبب ثورة جنوده الذين تزعمهم ابنه فارناس ، مما اضطره للعدول عن ذلك . فقد أحاط الثوار عام ٦٣ بالقلعة التي يعتصم بها . ولما ضاقت السبل به بسبب خيانة ابنه عمد إلى الانتحار . وجاء نبأ موت الملك ميثراداتس إلى بومبي يعلن زوال آخر منافس لروما في آسيا الصغرى وانتهاء الحروب الميثراداتية الطويلة .

بنتيجة الاعمال العسكرية التي خاضها بومبي بموجب مهمته في الشرق (قانون مانيليوس)، تم تغير الاوضاع السياسية في آسيا الصغرى وسورية وفلسطين ، وأعيد ترتيبها من جديد وفق المخطط الذي وضعه بومبي . ولم يبق في المنطقة الأخيرة الادولتان مستقلتان هما مملكة الانباط ، التي اشترى ملكها الحارث حملة الرومان على بلاده بدفع غرامة قدرها ثلاثمائة تالان، ودولة الايتوريين التي تشمل لبنان والبقاع وقسما من سورية الجنوبية . **أما سورية فقد غدت مقاطعة رومانية** ضم اليها المدن العشر الهلنستية Decapolis [١] في الجنوب . واضاعت دولة اليهود استقلالها وفقدت قسماً كبيراً من أراضيها . ولم يبق على روما الا الاستيلاء على مملكة البطالسة في مصر حتى تقضي على آخر معالم الممالك الهلنستية في الشرق . وبذلك وقفت روما في وجه توسع المملكة البارثية نحو الغرب . وأصبح نهر الفرات يشكل الحاجز الطبيعي بين الامبراطوريتين الكبيريتين فارس وروما . وقد قارن الرومان النجاح الذي حققه بومبي بانتصارات الاسكندر الكبير . وهذا ماجر عليه حسد ونقمة زميله كراسوس . ولكي يرضي بومبي طبقة الفرسان في روما ، فانه يعمد إلى نشر نظام جمع الضرائب السيء الذي يشرف الفرسان ومندوبوا المتمولين الرومان Publicani بموجبه [٢] على جمع الضرائب والتزام التعهدات في المقاطعات ، على كافة المناطق الجديدة التي فتحها بومبي في الشرق .

---

(١) تقع هذه المدن الهلنستية إلى الشرق من نهر الاردن ما عدا مدينة سكيثوبوليس. وهي بالاستناد إلى المؤرخ بليني مدن: ديون ، بيللا ، غادارا، هيبوس ، جيرازا، فيلادلفيا، دمشق ، رافانا ، كاناثا. وقد شكلت الحلف بينها بعد حملة بومبي لتحمي نفسها من خطر اليهود ، مكونة وحدة جمركية تخضع لاشراف الحاكم الروماني .

(٢) ازدهرت فئة الا Publicani عقب التوسع الروماني؛ راجع دورهم في مقاطعة اسيا في عهد جايوس جراكوس ص ٢٢٠ .

٤ - الوضع في روما أثناء حملة بومبي في الشرق :

امضى بومبي في الشرق مدة طويلة التفت خلالها إلى اعادة تنظيم مقاطعات روما هناك . ولا شك أن الانتصارات المرموقة التي أحرزها لم تثر مخاوف الشيوخ والارستقراطيين فحسب ، بل دفعت كراسوس لان ينتهز فرصة غياب بومبي ، لجمع اتباع له يزيد بهم قوة مركزه في ايتاليا . كان كراكوس يطمح في قراره نفسه الحصول على مهمات عسكرية تحقق له شيئاً من شهرة بومبي . ولكنه يفشل في اقناع مجلس الشيوخ بتحويل مصر إلى مقاطعة رومانية ، بعد أن أوصى ملكها السابق بمملكته لروما. كما ان سيسرو يقف له بالمرصاد ويقاوم مساعي كراسوس للوصول إلى مملكة مصر الغنية . ولكي يوطد كراسوس مركزه السياسي نراه يعتمد على طبقة الفرسان آملاً الوصول الى المركز الأول في الدولة ، يساعده في ذلك ثروته الكبيرة . فاستطاع اجتذاب زعيم من زعماء الشعبيين آنذاك اليه وهو الضابط الشاب يوليوس قيصر ، الذي كان غارقاً في الديون الى حد جاءت مساعدة كراسوس المالية انقاذاً له من الأزمة .

ولد قيصر حوالي عام ١٠١ من اسرة جوليا النبيلة ، وعلى الرغم من نبالة محتدة نراه ينحاز الى صفوف الشعبيين ، فقد كانت عمته زوجة للزعيم الشعبي ماريوس ، وزوجته ابنة القنصل السابق سينا . واصطدم في مطلع حياته العامة بسوللا الذي أمره بان يطلق زوجته ولكنه رفض ذلك وينسحب الى جزيرة رودوس ، ولا يعود الى روما الا بعد موت سوللا. والآن بعد أن عمل في اسبانيا خازناً ، يعود الى روما ليجد في شخصية كراسوس عوناً له يساعده في توطيد شعبية لدى عوام المدينة بتمويل الحفلات والألعاب العامة التي كان قيصر يقيمها عندما عين حاكماً اداريا. ويؤدي تعاون كراسوس مع قيصر الى ايجاد قوة سياسية في روما تقابل نفوذ بومبي .

أما الشيوخ والخواص فانهم عملوا في نفس الفترة على تحطيم مركز بومبي وتقليص نفوذه بضرب مناصريه في المدينة. فيقدموا المحامي كورنيليوس الى المحاكمة بتهمة غامضة هي الخيانة . ومن البديهي أن السبب الحقيقي لنقمة الخواص على هذا المحامي يكمن في القوانين التي أصدرها كورنيليوس خلال محاماته عام ٦٧ ضد كبار الموظفين والقضاة ، وقانون كالبوريا الذي يعاقب الأشخاص الذين تثبت عليهم تهمة الرشوى أثناء الانتخابات. ولاسباب مماثلة يشمل سخط الشيوخ أيضاً المحامي جابينوس صديق بومبي فيفر من روما ليلحق بحملة بومبي في الشرق .

المؤامرة الكاتيلينية :

بالاضافة الى الشيوخ والشعبيين الذين كانوا يتابعون انتصارات بومبي في الشرق بشيء من الريبة والخوف ، وجد في مدينة روما فئة من المواطنين تألفت من الدائنين ، والجنود السابقين ، والنبلاء الذين أضاعوا ثرواتهم ، الى جانب الاثرياء الذين صودرت أموالهم وممتلكاتهم بموجب قوائم الديكتاتور سوللا ، والمطرودين من مجلس الشيوخ عام ٧٠ ق.م . هؤلاء المتذمرين وجدوا في شخص سرجيوس كاتيلينا Catilina – أحد المغامرين الوصوليين الذين ساهموا في أعمال سوللا التعسفية ضد الشعبيين ، والذي حاول بأي ثمن الوصول الى السلطة – زعيماً . وقد حاول كاتيلينا ترشيح نفسه للقنصلية عام ٦٥ متخذاً لنفسه برنامجاً يتقرب به من الشعبيين بشكل ثوري . ولكنه يفشل في ايصال اسمه الى الجمعية المئوية بسبب اتهامه باستغلال السلطة في مقاطعة افريقيا التي كان يشرف عليها . يوحد الحظ العاثر بين كاتيلينا وبين مرشحين آخرين فشلا في الوصول الى مجلس الشيوخ لتدبير مؤامرة ينتقم فيها المتآمرون من المسؤولين ، وخاصة من القناصل . ويحاولوا بالعنف ان يصلوا الى السلطة التي فشلوا بالوسائل

الدستورية احرازها . الا أن محاولتهم قتل قنصلي عام ٦٥ واغتصاب السلطة تبوء بالفشل . ويقال ان كراسوس عرض بسط على حمايته بعض أعضاء المؤامرة الكاتيلنية مقابل تأيدهم له في المستقبل .

لم ييأس كاتيلنا من فشله السابق ، وشجعه نجاته من العقوبة لأن يرشح نفسه لقنصلية العام ٦٤ . التي تقدم لها كل من جايوس انطونيوس وسيسرو . وكان انطونيوس يشابه كاتالينا في وصوليته . وقد حظي الاخير بتأيد كل من بومبي وقيصر لترشيحه . أما سيسرو فان فرصته للنجاح لاتعتمد على عراقة عائلته ، بل على صداقته وتبعيته لبومبي . فلقد ضحى بشعبيته التي كان اكتسبها خلال محاكمة فيريس الشهيرة أملاً في اكتساب ثقة الارستقراطيين رغم كرههم له .

على الرغم من كراهية الارستقراطيين لسيسرو فإنهم يقررون انجاحه في انتخابات القنصلية رغبة منهم في دحر كاتيلينا الذي بادرهم العداء السافر ببرنامجه الانتخابي الثوري منذ العام السابق . وبالفعل نجح سيسرو مع انطونيوس (الذي ينحدر من عائلة نبيلة) قنصلين لعام ٦٥ . ويتم التفاهم بين سيسرو وزميله انطونيوس على حكم المقاطعات المخصصة لهما للعام المقبل ، مقابل أن يؤيد الأخير اعمال سيسرو خلال فترة القنصلية .

كانت خيبة كاتيلينا ومؤيديه شديدة ، اذ على الرغم من أن كاتيلينا كان من اعداء الشعبيين في عهد ماريوس ، فإنه استطاع كسب تأيدهم عندما انحاز اليهم الآن ، فدافعوا عنه وبرأوه من جرائمه السابقة . الا ان فشله في القنصلية ونجاح سيسرو أدى إلى اخفاق مساعيهم في اكتساب مزيد من التأييد الشعبي من جهة ، والى انحياز سيسرو نهائياً إلى طبقة الارستقراطيين بعد ان كان يتأرجح بعواطفه بين الفريقين . وبالفعل تبنى سيسرو منذ مطلع قنصليته وجهة نظر الارستقراطيين ونصب نفسه مدافعاً

عنها . ووقع الصدام المنتظر بينه وبين الشعبيين عندما تقدم المحامي روللوس بمشروع قانوع لتوزيع الأراضي ، وانشاء لجنة من عشرة اعضاء يعطون صلاحيات استثنائية لمدة خمس سنوات تشرف على تنفيذ المشروع في ايتاليا وفي المقاطعات الرومانية،بما في ذلك مصادرة الاراضي العامة وبيعها وانشاء المستعمرات ... الخ . ويستثنى من التقسيم الجديد الاراضي التي كانت قد ملـّكت للجنود السابقين والاراضي المستصلحة . أما الاراضي المتجمعة فانها توزع على الفقراء من الشعب . ويتبين من مشروع المحامي روللوس انه وضع بالاتفاق مع كراسوس وقيصر وخدمة لمصالحهما على حساب كل من: بومبي الغائب ، والفرسان ، والشيوخ الذين سيفقدون الكثير من اراضيهم وملكيتهم الزراعية بموجب هذا القانون ؛ علاوة على الخسارة السياسية عندما تتكتل مقاومة الشعبين المؤيدين للمشروع ضدهم . فقام القنصل سيسرو يستخدم مهارته الخطابية لمهاجمة المشروع في مجموعة من الخطب عرفت باسم Contra Rullum . واستطاع بالتعاون مع الشيوخ والفرسان المعارضين دحر المشروع وسحبه قبل التصويت عليه ، ولكن بعد أن دفع سيسرو رصيد شعبيته ثمناً لذلك . واظهر نفسه بمظهر الدياغوجي الذي لا يتورع عن تأيد الاتجاهات الرجعية . وعلى الرغم من خسارة قيصر وكراسوس فان هذه الفرصة كانت بالنسبة لهما مناسبة لكشف حقيقة سيسرو وحلفائه الأوليغارشيين اعداء مصالح الشعب .

في عام ٦٣ يكرر كاتالينا من جديد ترشيح نفسه للقنصلية. ويقترح لدعم موقفه السياسي تأجيل عاماً للديون ، آملاً من ذلك ان يكسب تأييد المعوزين والذين فقدوا ثرواتهم . فتصدى له سيسرو الذي تمتع بتأييد رجال الاعمال والعسكريين باعتبار كاتالينا خطراً يهدد الجميع . وكانت النتيجة ان فشل مرة اخري في الوصول إلى القنصلية ، خاصة وانه لم

يحظ هذه المرة بدعم كراسوس له . وحينما تناهى إلى مسامع سيسرو نبأ المؤامرة التي يدبرها كاتالينا مع الارستقراطيين المفلسين لقتل القناصل والاستيلاء على السلطة في روما ، يهب بخطبه البليغة in Catilinam لتأليب القوى ضدهم. ويكشف خطتهم في الاستيلاء على المدينة وفتح أبوابها للقوات المتآمرة التي ستجتمع في ضواحي روما قادمة من اتروريا. فيصدر مجلس الشيوخ « مرسوماً اخيراً » يخول سيسرو بموجبه اتخاذ كافة الاجراءات اللازمة لانقاذ الدولة Senatus Consultum ultimum فيعتقل المتآمرين . أما كاتالينا فينسحب إلى اتروريا بالنظر لان الادلة الكاملة لم تتوفر على اشتراكه في المؤامرة . وحينما يعترف المتآمرون الذين بقوا في المدينة بأن بداية أعياد ساتورناليا كانت الموعد المقرر لتنفيذ المؤامرة ولبدء عهد الارهاب، يعلن مجلس الشيوخ كاتالينا وانصاره اعداء للشعب. ويكلف سيسرو وزميله انطونيوس مقاومة الثورة فتتجه جيوشهما نحو اتروريا ليفر كاتالينا من وجههم باتجاه بلاد الغال . لكنهم يجبرونه على خوض المعركة معهم قرب فيزولا Faesulae . فيسقط خلالها صريعاً مع اتباعه بعد قتال يائس إستبسل الثوار فيه .

ارتكب سيسرو العديد من الاخطاء خلال المؤامرة الكاتالينيه وبعدها ، ادت إلى استفحال الثورة واراقة الدماء . اذ انه بصفته خطيباً لا قائداً عسكرياً لم يتخذ الاجراءات الحازمة السريعة عقب تسرب نبأ المؤامرة اليه ، بل وحتى لم يعتقل الاشخاص الذي أرسلهم كاتالينا لاغتياله في منزله ، واكتفى باتباع الوسائل الدستورية البطيئة . وانتظر قيام الثوار بثورتهم حتى يبدأ بمقاومتهم . أما بعد القضاء على قوى التآمر فيلجأ سيسرو الى تصرف خاطىء مرة أخرى حينما يصر على تنفيذ حكم الاعدام بالمتآمرين المسجونين في روما . في حين كان الواجب والقانون يحتم احالتهم إلى

محكمة خاصة تلفظ الحكم المناسب بحقهم . وقد تم العمل بالرأي الاول الذي ايده الخطيب كاتو ومجاس الشيوخ رغم اعتراض قيصر عليه . ونفذ الاعدام بالمتآمرين رغماً عن قانون تيبريوس جراكوس، وذلك تجنباً لنشوب حرب اهلية. وعلى الرغم من أن سيسرو قد وصل عقب القضاء على المؤامرة الكاتيلينية الى ذروة مجده السياسي، فاطلق عليه احد الشيوخ لقب « ابي الوطن »، إلا أن تصرفه الخاطىء خلالها، وانحيازه للارستقراطيين يؤذنان بأفول نجمه وزوال شعبيته . فقد وجهت اليه الانتقادات الشديدة بانه ازهق ارواح مواطنين رومان باسلوب لا ينسجم مع الاعراف والقواعد الدستورية . وفي الحقيقة تدل مؤامرة كاتلينا على الضعف الذي وصل اليه النظام الجمهوري والفوضى التي رافقت عهد الصراع بين مجلس الشيوخ والقواد العسكريين في مده وجزره .

٥- عودة بومبي الى ايتاليا والحكم الثلاثي الاول :

عاد بومبي من مهمته في الشرق ظافراً. فقضى بعض الوقت في عواصم بلاد اليونان حضر خلالها الاحتفالات التي اقيمت على شرفه . ولما وصل إلى مرفأ برنديزي في جنوب ايتاليا كان يعتقد بان الشعب سيقابله بما يستحق من تقدير . لكنه لم يطّلع على المخاوف التي تساور الشيوخ من جراء عودته على رأس قوة كبيرة ، ولا يقدر المنافسة القوية التي تنتظره بين انصاره من الشعبين انفسهم وعلى رأسهم كراسوس وقيصر ، اللذان يكنان له الحسد ويتمنيان تحقيق ظفر وشهرة مماثلين . ثقة من بومبي بنفسه واعتزازاً بالامجاد العسكرية التي نالها في الشرق يبادر إلى حل جيشه وتسريحه بعد أن وزع منحاً ضخمة من الاموال على ضباطه وجنوده . ويتجه نحو روما لكي يحتفل بظفره ، وليحصل على موافقة مجلس الشيوخ على الاعمال والترتيبات التي اتخذها خلال حملته على الشرق . كذلك كان

يريد موافقة مجلس الشيوخ على منح اربعين الفاً من جنوده قطعاً من الاراضي الزراعية يستوطنون بها اسوة بما فعله سوللا . الا أن آمال بومبي العريضة سرعان ما تصطدم بصخرة الواقع السياسي في مدينة روما ، التي نجت منذ أمد قريب من مؤامرة كاتالينا ، والتي عصفت بمجلس الشيوخ وزادت في تكتيل القوى السياسية . فمجلس الشيوخ الذي كان يخشى في عودة بومبي ظهور سوللا جديد إلى مسرح الحكم ، لم يعد يخشى خطر بومبي حينما تسرع بتسريح جيوشه . فأتى الى روما وكأنه مواطن عادي . ولم يتورع الشيوخ عن اظهار اشمئزازهم من التصديق على أعمال بومبي وعلى مشروعه لتوطين جنوده . وشعر بومبي بامتهان الشيوخ لرغباته حينما اخذوا برئاسة غريمه السابق القائد لوكولوس يناقشون اعماله في الشرق فقرة تلو الاخرى بدل التصويت عليها جملة . علماً بأن بومبي عاد إلى خزينة الدولة في روما بغنائم واسلاب معارك تتألف من خمسين مليون دينار ؛ عدا عن المبالغ التي منحها لجنوده، والايرادات الجديدة من البلاد المفتوحة التي تغني خزينة الدولة بما يقارب خمسةوثلاثين مليون دينار سنوياً [١]. وتشتد المعارضة بالمثل ضد مشروع اسكان الجنود المسرحين مما أدى الى خزلانه. والآن يجد القائد المظفر الذي فتح عالماً بكامله نفسه وحيداً دون جيش أو انصار . مع كل ذلك لم يشعر بومبي بدافع يلجؤه إلى الانقلاب على الحكومة وفرض مطالبه عليها بالقوة . هنا انقسم رأي المؤرخين فيه بين مؤيد وشاجب . فالمؤرخ مومسن يعتبر تسريح بومبي لجيشه قبل ان يقطف ثمار النصر في روما جبناً وتخاذلا . وفي الحقيقة قد يكون تصرف بومبي هذا ـ وهو القائد العسكري الممتاز ـ نتيجة ضعف في الخبرة السياسية ،

---

(١) حوالي ٢٨ مليون ليرة سورية .

وعزوف عن ممارسة اعباء الحكم الفردي ، وخوف من اشعال الحرب الاهلية . وبكلمات اخرى يفتقد بومبي الى طموح قيصر .

عاد قيصر مع جيوشه الى روما عام ٦٠ بعد أن قضى مدة خدمته حاكماً Proprator على مقاطعة اسبانيا الداخلية . فابلى في توسيع حدودها احسن البلاء . وكانت جعبته مترعة بالمال الذي جمعه خلال الفترة القصيرة من اقامته هناك . الا أن مجلس الشيوخ لا يقابله باحسن مما قابل به زميله بومبي ، بل يرفض طلبه الاحتفال بموكب ظفره في العاصمة الرومانية . فتجمع الظروف كلا القائدين . ويعرض قيصر على بومبي التحالف . ويسفر اتفاقهما عن نجاح قيصر في انتخابات القنصلية بمساعدة كراسوس أيضاً . ويكون شريكه فيها لذلك العام مرشح الشيوخ كالبورنيوس بيبولوس أحد أعضاء الحزب الارستقراطي . وبكل سهولة ينجح قيصر في انجاز عمل كان يعتبر في حكم المستحيل ، وهو التقريب بين بومبي وكراسوس بازالة مخاوفهما . وشكل معهما تحالفاً سرياً يؤمن مصالحهم وأهدافهم السياسية [١] ، سيعرف فيما بعد باسم الحكم الثلاثي الأول Trimuvirate . وكان القاسم المشترك بينهم هو عدائهم لمجلس الشيوخ . ويتوثق التحالف بينهم عندما يتزوج بومبي جوليا ابنة قيصر [٢] .

---

(١) يذكر بان أعضاء التحالف الثلاثي دعو سيسرو للانضمام اليهم ولكنه رفض العرض.

(٢) اضطر بومبي لطلاق زوجته موسيا قبيل عودته إلى ايتاليا وذلك لسلوكها الشائن خلال غيابه في الشرق .

الفصل السابع

وصول قيصر الى الديكتاتورية ونهاية الجمهورية الرومانية

١ – بداية الحكم الثلاثي :

بوصول قيصر إلى القنصلية عام ٥٩ أصبح باستطاعته تحقيق مطالب شركائه في التحالف الثلاثي ، وخاصة مطالب بومبي الخاصة بإسكان جنوده المسرحين . وبالفعل كانت فترة قنصلية قيصر عاماً خصباً بالمنجزات بالنسبة للشعبيين . تحققت فيه الكثير من أمانيهم - بفضل عزيمة قيصر وجرأته في تنفيذ مخططاته من ناحية ، وبفضل الدعم الخفي والنصيحة التي زوده بها شريكاه كراسوس وبومبي من ناحية أخرى . فكان للأول رصيد مالي ضخم وصلات بالشعبيين ، وللثاني ولاء جنوده السابقين وتعلق الشعب به كقائد مظفر .

بدأ قيصر أعماله في القنصلية بعرض قانون أمام مجلس الشيوخ يتضمن منح أراضي الدولة الزراعية الواقعة خارج مقاطعة كامبانيا إلى جنود بومبي المسرحين وإلى فقراء مدينة روما . كما نص القانون على ضرورة شراء مساحات أخرى من الاراضي، اضافة لاراضي الدولة ، لتحقيق هذا الغرض إلا أن مشروع قيصر يقابل من مجلس الشيوخ عامة ومن الخطيب كاتو خاصة بالمقاومة العنيفة والرفض المطبق . وعندما يحاول قيصر عرض مشروع الاراضي الزراعية مباشرة أمام مجلس القبائل ، يستخدم المحامون

التابعون للشيوخ حق النقض ضده ، ويؤازرهم في الاعتراض عليه زميل قيصر القنصل بيبولوس مستخدماً حق النبوءة Auspicium . لذلك يضطر قيصر إلى تحدي الشيوخ بالقوة ، والاستعانة بجنود بومبي لطرد معارضيه واعتقال كاتو . فأقر الشعب المشروع ، وتعرض بيبولوس لغضب الجماهير . فاعتكف في بيته وأخذ يصدر كل يوم مرسوماً يعلن أن السماء تحرم عقد الاعمال العامة ذلك اليوم . وعلى ذلك أصبح قانون الاراضي Lex Iulia Agrauia نافذ المفعول . وتلاه فيما بعد قانون آخر متمم له شملت المصادرة فيه الاراضي التي يملكها الشيوخ في كامبانيا ، بعد أن تلاشت قوة مقاومتهم لقيصر .

لم يكتف قيصر بتحقيق قانون الاراضي الزراعية الذي كسب المتحالفون من ورائه شعبية كبيرة ، بل يسعى لتأمين مصالحه الشخصية ، ومستقبله السياسي مستعيناً بصديقه المحامي فاتينوس . ذلك أن مجلس الشيوخ كان قد حدد لقناصل العام ٥٩ حكم مقاطعتين صغيرتين في جنوب ايتاليا بعد انتهاء قنصليتهم . هذه المقاطعة الايتالية الصغيرة التي لاجيوش فيها ولا مهمات عسكرية ، ولا موارد مالية لم تكن لتف بشيء مما يعتزم في نفس قيصر من طموح وآمال واسعة . فيقترح المحامي فاتينوس بموجب قانون يتقدم به إلى مجلس الشيوخ Lex Vatinia منح قيصر حكم مقاطعة ايتاليا العليا مع ايلليريا وثلاث فرق عسكرية لمدة قدرها خمس سنوات تنتهي عام ٥٤ ق . م [١] . وبذلك يضمن قيصر لنفسه قوة عسكرية وبلاداً بكراً ذات موارد غنية وشعوب ثائرة ؛ ويستطيع النجاة من ملاحقة خصومه في مجلس الشيوخ ، الذين سيطاردونه قضائياً فور انتهاء قنصليته بسبب الاجراءات اللادستورية التي أقدم عليها أثناء اقرار مشروع

(١) سيضاف اليها أيضاً مقاطعة غاليا الناربونية وفرقة عسكرية أخرى .

توزيـع الاراضي . ولم يغفل قانون فاتينيا عن ارضاء بومبي بطلب اقرار الاعمال والتسويات التي اتخذها خـــلال حملته في الشرق . كذلك نظم قيصر علاقة الرعايا بحكامهم في المقاطعات ورفع عنهم تعسفهم، وضمن تأيد طبقـــة الفرسان . ولم يسع الشيوخ أزاء تصويت الشعب على قانون فاتينيا إلا أن يعطوا موافقتهم عليه رغم المعارضة المريرة التي أبداها كاتو. وهكذا أصبح بمقدور قيصر وهو ما يزال قنصلاً أن يجمع القوات اللازمة له في ايتاليا نفسها ، وأن يمارس بواسطتها الضغط على خصومه ، ويضمن حصانته من هجمات اعدائه . ومنذ نهاية قنصلية قيصر بدأت نزعاته نحو السلطة الفردية ، وحرية التصرف تظهر سافرة .

على كل لم يطمئن قيصر إلى استتباب الأمر اليه كما ينبغي ، إلا بعد أن انتزع من معارضيه كل فرصة للحركة ضده في غيابه . وذلك بالتخلص من الد اعدائه وهما كاتو وسيسرو ، اللذين توقع منهما مهاجمة خططه فور توجهه نحو بلاد الغال . فتلقى كاتو مهمـــة خاصـة جليلة الطابـع وهي ضم جزيرة قبرص إلى الامبراطورية الرومانية ، فسافر مرغماً . في حين استطاع المحامي كلوديوس [1] ، الذي ساعده قيصر في الوصول إلى المحاماة، أن ينتقم شر انتقام من عدوه اللدود سيسرو . فقدم في أوائل عام ٥٨ اقتراح قانون يقضي باعتبار كل شخص ازهق أرواح مواطنين رومان بطرق غير دستورية رجلاً خارجـاً على القانون ؛ وفي ذلك اشـارة إلى تصرفات سيسرو خلال المؤامرة الكاتيلينية . فيبادر سيسرو إلى اختيـار المنفى ويتوجه إلى تسالونيكي دون أن ينتظر نتائج محاكمته . وبالطبـع تصادر أمواله وممتلكاته ، ولا يستطيـع العودة من منفاه الا عندما يوافق

(١) اتهم كلوديوس بتدنيس احتفال ديني اقامته السيدات في منزل بومبيا زوجة قيصر ـ شهد سيسرو ضده خلال المحكمة ، مما اضطر قيصر إلى طلاق زوجته رغم معرفته ببراءتها .

بومبي ، ثم قيصر فيا بعد على ذلك في عام ٥٧ . كل هذا يدل على أن شركاء الحكم الثلاثي الأول غدوا سادة روما الحقيقين ، فشكلوا فيها دولة ضمن دولة العهد الجمهوري المهلهلة .

٢ - فتح قيصر لبلاد الغال

ما أن تم نفي سيسرو عن ايتاليا حتى بادر قيصر للتوجه مطمئناً إلى مهمته الكبيرة في بلاد غاليا ، التي ستستغرق من جهوده حوالي تسعة أعوام حافلة بالأحداث . بدأ قيصر أعماله في الشمال بمضاعفة عدد فرقه العسكرية ، وذلك بتطويع أبناء المنطقة للخدمة في الجيوش الرومانية ، وبذلك أصبح يتمتع بجيش قوي قادر على تنفيذ مشروعه في فتح بلاد الغال ، وجنود مخلصين متعلقين بشخصه .

تألفت بلاد الغال من مقاطعة **الغال الناربونية** [١] (أو ماوراء الالب) في الجنوب في المنطقة المعروفة باسم « البروفانس » أو « الريفيرا» ، وتمتد عبر ساحل البحر المتوسط بين جبال الالب وحدود اسبانيا غرباً . ونهر الرون وبحيرة جنيف شمالاً . وقد تعرضت للتأثيرات الاغريقية عن طريق مستعمرة ماسيليا ، وكان يخترقها الطريق البري الروماني المؤدي إلى اسبانيا . أما المنطقة الواقعة إلى الشمال من جبال البيرنه حتى المحيط الاطلسي، ويحدها نهر الرين والرون ، فكانت تشكل المناطق البربرية من بلاد الغال وتتألف من ثلاث مناطق تتميز بالأقوام المختلفة التي كانت تسكنها ، والتي يطلق عليها بصفة عامة اسم بلاد **غاليا كوماتا** . فسكن الايبريون المنطقة الجنوبية المعروفة باسم اكيتانيا [١] . **والكلتيون**

---

(١) تم تحويلها إلى مقاطعة رومانية حوالي عام ١٢٠ ق . م . واستقرت جالية رومانية في ناربو بعد ذلك بعامين .

(١) راجع خارطة الامبراطورية الرومانية ، في الجزء الثاني من تاريخ الرومان

المنطقة الممتدة بين نهر اللوار الى نهري المارن والسين . أما أقصى الشمال فكان يقطنه اعتباراً من النهرين الاخيرين **الغاليون البلجيكيون** ، ممزوجاً بهم بعض العناصر الجرمانية الأصل . وقد عاش الغاليون على شكل جماعات وقبائل محاربة متنافسة متناحرة تدين بالطاعة الى امرائها والى طبقة النبلاء فيها . ويجمعها عرق واحد ولغة مشتركة وعادات متقاربة . واعتباراً من ضم مقاطعة غاليا الناربونية الى الممتلكات الرومانية سعى الرومان لعقد صلات ودية مع الأقوام الغالية المجاورة وهم شعب **الآدوي** Aedui الذين ارتبطوا بروما بمعاهدات صداقة . وقد تعكر الموقف العام بالنسبة للآدويين عندما حاولت قبائل **السويفي** Suevi الجرمانية القوية القادمة عبر نهر الرين اخضاعهم عام ٧٠ ق.م ، وذلك تأيداً منهم لاصدقائهم قبائل **السكاني** Sequani في صراعهم مع الادويين. وبالنظر الى ان روما كانت منهمكة باخضاع ثورة سكان مقاطعة غاليا الناربونية ، لم تستطع أن تهب لمساعدة حلفائها آنذاك والدفاع عنهم . فجاءت المناسبة الآن بالنسبة لقيصر لينفذ مخططه عندما ازداد خطر الغزاة الجرمان القادمين عبر نهر الرين[١] ، وبدأت هجرة الكلتيين الهلفتيين الذين تحركوا عام ٥٨ من جنوب غربي سويسرا باتجاه غاليا بحثاً عن مواطن جديده . اذ ترتب على روما الآن أن تدافع عن مقاطعاتها وراء جبال الالب وأن تحمي حلفاءها القدماء . لذلك يرى قيصر من أولى واجباته أن لايمنع اجتياز الغزاة الهلفيتيين لمقاطعة غاليا الناربونية فحسب ، بل ان يوقفهم عند أعالي نهر الرون . عندما ينتصر عليهم في معركتين متتاليين ويضطرهم للعودة الى مواطنهم القديمة . ثم يلتفت قيصر للقضاء على خطر الملك اريوفيستوس

---

(١) تمثل هذا الخطر في غزوة قبائل السويفي بقيادة ملكهم أريوفيستوس الذين توطنوا في منطقة« الالزاس » وحاولوا عن طريق عقد اواصر الصداقة مع روما انتزاع اعتراف منها بالامر الواقع .

الذي انتصر على قبائل السكاني وأخذ يهدد الآدويين معتمداً على الامدادات السويفية القادمة عبر الرين لنجدته . وينجح قيصر في هزيمة الملك السويفي قرب ستراسبورغ ويجبره على التراجع الى ماوراء نهر الرين . وبالطبع اثبت انتصار قيصر للقبائل الغالية أن روما قوة يجدر التحالف معها لتحميهم من خطر الغزوات الجرمانية . وبذلك خضعت بلاد غاليا الوسطى للفاتح الشاب . ولم يبق عليه إلا اخضاع المنطقة الشمالية حيث اعتقدت القبائل البلجيكية والفنيتية والاكويتانية أنها أبعد أن تصل اليها جيوش روما . ففي العام ٥٧ توجب على قيصر أن يقابل هجمات **البلجيكيين** Belgii **والنرفيين** Nervii الذين اتحدوا لمحاربته . ويتمكن من الانتصار عليهم . ثم يتوجه لاخضاع البريتانيين الذين نكثوا تحالفهم السابق مع قيصر وثاروا عليه بقيادة الفنيتيين Veneti في منطقة « بريتاني » . ولا يستطيع هزيمتهم إلا بعد أن يبني اسطولاً من المراكب يهاجم به في العام ٥٦ اساطيلهم ويحتل حصونهم . فيحقق لروما السيادة لا في البر فحسب ، بل على شواطىء غاليا أيضاً . ثقة من قيصر باستتباب الأمر له في غاليا يبني عام ٥٥ جسراً من الخشب ينصبه على نهر الرين ، بعد ان أفنى القبائل الجرمانية التي تجرأت على عبور النهر في العام السابق . ويقوم بمظاهرة عسكرية على الضفة اليمنى للنهر لكي يرهب كل من تسول له نفسه من الجرمان غزو مناطق السيادة الرومانية ؛ ويحطم الجسر بعد انسحابه . كذلك كان للحملة التي أرسلها إلى شاطىء « دوفر » نفس الطابع التظاهري الاستكشافي ، كما أراد منها معاقبة البريتانيين . وفي العام ٥٤ يقرر قيصر غزو الجزيرة البريطانية بحملة كبيرة ، فينزل بقواته رغم ارتفاع المد على الساحل ويتجه نحو الداخل ، حيث يلتقي بالملك كاسيفللانوس إلى الشمال من نهر التيمس ويهزمه . ومع ذلك ينسحب قيصر مرة أخرى الى غاليا مستصحباً

معه بعض الرهـائن والاسرى بعد أن يفرض الجزية على البريتانيـين . وفي الحقيقة لايمكن اعتبار هاتين الحملتين فتحاً لبريطانيا بل مقدمة له . وفي العام ٥٣ يقوم قيصر مرة أخرى باستعراض لقواتـه العسكرية عبر نهر الرين ولكنه لايحطم الجسر الذي بناه على النهر عند عودته .

٣ ـ ثورات بلاد الغال ٥٤ ـ ٥٢

شعرت القبائل الكلتية بوطأة الخضوع لروما ، واثـّر عليها فقدان الحرية التي ألفتها . وبما أن روما كانت تمر في الفترة نفسها بظروف حرجة ، من هزيمة جيوش كراسوس في الشرق على يد البارثيين ، والاضطرابات التي سادت مدينة روما بسبب النزاع الناشب بين الزعيمين ميلووكلوديوس، فان الجو يصبح ملائماً لثورة بلاد الغال الشمالية والوسطى . وتعبر القبائل عن سخطها بادىء الامر بعدد من الثورات الصغيرةالمتفرقةبين عام٥٤ ـ ٥٣. ثم ما تلبث الثورة العارمة ان تجتاح المنطقة بكاملها عام ٥٢ عندما تلتف شعوب الغال الأوسط حول **فيرسينجتوريكس** الزعـــيم الشاب الذي استطاع توحيد كلمة القبائل . حتى أن قبائل الادوي حليفـة روما التقليدية ، تطرح صداقة روما جانباً وتنضم إلى الثوار . وقـد جاءت الثورة مفاجأة لقيصر الذي كان يمضي الشتاء في مقاطعة ايتاليا العليا. فاضطر للاسراع بجمع قواته المبعثرة والبدء في عمليـــة اخضاع جديدة للمناطق الثائرة . ورغم المواقف الحرجة التي تعرض لها قيصر مراراً خلال الحرب مع الثوار ،وضغط الموقفالسياسي في روما، يتمكنبدعممنالخيالة الجرمان من محاصرة الزعيم فيرسينجتوريكس وقواتهفي اليزيا Alesia قرب «ديجون». فتلقي عليه القوات الغاليه التي قدمت لنجدة قائدها الحصار من الخارج . وبذلك يقع قيصر بين نارين . لكنهذا لم يمنعه من صد هجمات الغاليين، وان يجبر قائد الثورة على الاستسلام بعد ان اشرفت مؤن الاخير على

النفاذ . ثم يمضي قيصر العام التالي في اخضاع بقية الجيوب الثائرة حتى قضى على كل مقاومة . ويعود الفضل إلى المعاملة اللينة التي اتبعها قيصر مع الثوار الغاليين ، في كسب القبائل الغالية الى صف روما ، وفي تأيدها واخلاصها لقيصر . وما أن يحل عام ٥٠ ق . م حتى يكون قيصر قد انجز اعظم انتصار في التاريخ الروماني ستبقى آثاره خالدة في تاريخ اوربا الغربية[١]. إلا ان بلاد الغال دفعت في الحروب التي خاضتها ضد قيصر ثمناً باهظاً يمكننا أن نستخلص جانباً من حقيقته من بين سطور المعلومات التي يقدمها المؤرخ بلوتارك.فهو يذكر أن الغاليين فقدوا مليون رجل خلال الحروب واسترق قيصر مليوناً آخر منهم ، وبقي مليون نسمة هم بقية سكان غاليا ... أما الظفر الذي حققه قيصر على الشعوب الغالية فقد ترك لدى الرومان صدى عميق الاثر. وكان مدعاة لاقامة الاحتفالات والصلوات الرسمية في روما . اذ ان قيصر انقذهم من خطر القبائل الغالية البربرية التي لم تبرح ذكرى غزواتها المدمرة ماثلة في مخيلة الرومان . وكان آخرها غزوات التوتون والسمبرين في عهد ماريوس .

بالمقابل ولـّد انتصار قيصر لدى خصومه السياسيين نقمة ومخاوف ، حتى ان خصمه اللدود كاتو يتمنى لو أن الغاليين تمكنوا من قيصر وتولوا معاقبته . ومما لاريب فيه أن حملة قيصر على بلاد الغال كانت فرصة نادرة للقائد الشاب صقل فيها مواهبه العسكرية ، وحصل على القوة العسكرية والمادية بنتيجة انتصاراته . فقد عاد بغنائم كبيرة لم يتورع عن استخدامها لرشوة من يشاء . واصبح لديه جيش ضخم يتألف من ثلاثة عشر فرقة عسكريه ، تعلق افرادها به ومنحوه ثقتهم وولائهم . فهو لم يضرب لهم اروع الامثلة في الجرأة والبطولة

---

(١) راجع مقدمة الكتاب ، ص ٨ ، ٣٠ .

خلال معارك غاليا فحسب، بل تعرفوا فيه على الخطيب المؤثر الذي لا تقل مهارته الخطابية عن بلاغة خطيب الجمهورية الرومانية المفوه سيسرو [١].

والآن بعد أن اتم قيصر مهمته في بلاد الغال يلتفت للعودة الى روما باسرع ما يمكن حيث يستدعي الموقف السياسي وجوده هناك. فقد حدثت تغيرات هامة خلال الفترة الطويلة التي قضاها في غاليا اثرت على علاقاته مع شركائه في الحكم الثلاثي بصورة جذرية.

مؤتمر لوكا والموقف في روما خلال غياب قيصر :

فسح غياب قيصر المجال أمام بومبي لكي يصبح نجم المجتمع الروماني الرئيسي. وبالتالي أدى اتصاله مع الارستقراطيين الى تحسن علاقاته معهم خاصة بعد أن وافق على اقتراح المحامي انيوس ميلو باعادة الخطيب سيسرو من منفاه. وبالفعل يعود الخطيب الى عام ٥٧ ليقابل بحفاوة كبيرة ويرد اليه اعتباره المادي والمعنوي. ويتوصل بومبي اثناء ذلك الى منصب مرموق في المدينة اذ ينجح في تعين نفسه مشرفاً على مؤن القمح وكل ما يتعلق بها في مدينة روما، كما يزاول مهام عمله الجديد متمتعاً بسلطة الامبريوم ضمن ايتاليا وخارجها. فاستفاد من السلطة الممنوحة اليه لكي يدعم مركزه، بعد أن اثارت مخاوفه انتصارات قيصر والغنائم الكبيرة التي ظفر بها. وينتهز كل من بومبي وكراسوس فرصة استراحة قيصر في شتاء عام ٥٦ في ايتاليا العليا ليجتمعا به في لوكا ويجددا اقتسام المنافع معه. وكان من نتيجة اجتماعهم تسوية خلافاتهم والاتفاق على ترشيح بومبي وكراسوس لقنصلية العام ٥٥ ق. م. وان يخصص لكراسوس حكم مقاطعة سورية لمدة خمس سنوات،، ولبومبي الحكم على مقاطعتي

---

(١) قضى قيصر خلال شبابه مدة عام في جزيرة رودوس اتقن فيها الخطابة تحت اشراف ابوللينوس الذي كان استاذ سيسرو ايضاً.

اسبانيا وليبيا لمدة مماثلة . اما قيصر فيطلب تجديد مهمته العسكرية في غاليا خمس سنوات اخرى . واحتاط قيصر للمستقبل بان لا يطرح موضوع تعين خليفة له على بلاد الغال قبل شهر آذار من عام ٥٠ ق . م .

أمن بومبي و كراسوس وصولهما الى قنصلية العام ٥٥ بان اجبرا بقية المرشحين على سحب ترشيحهم . ثم تمت الموافقة على تخصيص المقاطعات المحددة انفاً بموجب قانون تقدم به المحامي تريبونيوس Lex Trebonia . ويشترك القنصلان باصدار قانون Lex Pompeia Licinia ليمددا حكم قيصر على غاليا خمس سنوات اخرى . وما ان يحل عام ٥٤ حتى يسرع كراسوس لاستلام مقاطعة سورية ، معللاً نفسه با كاليل الغار التي سيجمعها من حملة كان يحلم بشنها على المملكة البارثية ، لكي يعادل مركزه مركز كل من شركائه قيصر وبومبي . أما بومبي فيفضل البقاء في روما ويشرف على ادارة المقاطعات المخصصة له بواسطة مفوضيه هناك .

حملة كراسوس في سورية ومصرعه عام ٥٣ ق . م :

رغم فقدان المبررات اللازمة بدر كراسوس لتنفيذ خطته في سورية بشن الحرب على المملكة البارثية . فيعبر الفرات عام ٥٣ قاصداً فتح اراضي عدو يتميز بقوات فرسانه وبخبرته في حرب الصحراء. وسرعان ما استطاع نبالة الفرسان البارثيين ورمّاحتهم بقيادة قائدهم سوريناس تطويق جيش كراسوس ـ رغم قلة عددهم ـ قرب كارّاها (**حران**). وحينما خرج ابن كراسوس للحاق بهم أوقعوا به واضطر للانتحار كي لا يسقط في ايديهم . أما كراسوس فقد فشل في الانسحاب بجنوده من هذا الوضع السيء ، وسقط صريعاً عندما اضطره جنوده للتفاوض مع البارتيين والذهاب لملاقاتهم .

عاد البارثيون الى ملكهم بعد المعركة ليقدموا له رأس كراسوس

واعلام الجيش الروماني هدية الظفر الرائع الذي حققوه . وبما ان البارثيين يتلكأوون بمطاردة بقايا القوات الرومانية المنهزمة التي افني معظمها ، فان الخازن كاسيوس لونجينوس مساعد كراسوس يتمكن من الانسحاب بهم ويجمع قواهم مرة اخرى للدفاع عن حدود روما في سورية [١] . بهذه الحملة الفاشلة - التي لم يغامر فيها كراسوس الهرم الجشع بحياته وحياة ابنه وبالآلاف من جنوده فحسب ، بل وجه إلى كبرياء روما في الشرق ضربة لن تستطيع محو عارها بسهولة - زال من مسرح السياسة الرومانية احد شركاء الحكم الثلاثي ، واصبح على مطامع بومبي وقيصر أن تقف وجهاً لوجه استعداداً للصراع المحتوم على السلطة .

٤- انهيار الحكم الثلاثي :

بدأت العلاقات تسوء بين بومبي وقيصر منذ وفاة جوليا عام ٥٤ التي كانت تؤثر على زوجها بومبي وفقاً لرغبات والدها قيصر. فيبادر بومبي الكهل الى الزواج من جديد ليرتبط باحدى أسر روما النبيلة برباط المصاهرة . وبالتالي يؤدي ذلك الى توثق صلاته مع اعدائه السابقين من حزب الشيوخ . وقد رأينا ان بومبي يفضل البقاء في روما بعد انتهاء قنصليته - بحجة تموين المدينة بالقمح - على استلام المقاطعات المخصصة له في اسبانيا وليبيا . كانت روما انذاك نهباً للفوضى التي خلقها النزاع العنيف بين انصار الزعيمين المتنافسين كلوديوس وميلو . وعاد كاتو من مهمته في قبرص يتابع حملاته على اعضاء الحكم الثلاثي . أما سيسرو الذي ساعده بومبي على العودة من المنفى فانه يتبع سياسة التقرب من بومبي وقيصر ، حتى أنه ينظم قصيدة في مدح الاخير ، ولا أدل على الفوضى والاضطراب الذين سادا روما أن تعطلت انتخابات

---

(١) استغل اليهود هزيمة الرومان في موقعة حران ليقوموا بثورة على الحاكم الروماني لونجينوس ، الا أن لونجينوس يهزمهم قرب طبريا ويأخذ الآلاف الاسرى من اليهود .

القنصلية لعام ٥٤ مدة سبعة اشهر وقام انصار ميلو باغتيال خصمه كلوديوس عام ٥٢ . واعقب ذلك نشوب اعمال العنف والغوغاء في شوارع المدينة دون أن يتمكن مجلس الشيوخ ايقاف الأمور عند حد ، بينما كان بومبي يراقب الموقف بعين المتفرج منتظراً من مجلس الشيوخ ان يهرع اليه لينقذ الجمهورية من الضياع . وبالحقيقة ادت الفوضى الناشبة إلى خلق جو حتى لدى كاتو ، يميل إلى تفضيل حكم فردي قوي يستطيع اعادة الدولة إلى الوضع الطبيعي . وبالفعل يحقق مجلس الشيوخ هذا الاتجاه بأن يعلن « الاحكام العرفية » . ويعين بومبي بقانون استثنائي قنصلاً فرداً (أي ديكتاتوراً) ، ويزوده بالسلطة العسكرية ضمن روما نفسها خارقاً بذلك قانون سوللا [١] ومبدأ ثنائية القناصل في النظام الجمهوري ، والقواعد الدستورية الاخرى . بذلك وجد بومبي نفسه في اعلا مركز في الدولة الرومانية ، واطلق عليه لقب « الامير » او المواطن الاول [٢] . ومنذ تلك اللحظة ينفصم الرباط الذي يوحد بين مصالح الزعيمين بومبي وقيصر . اذ يندفع الأول نحو تثبيت مركزه وابقاء حكمه الفردي ، معتمداً على مجلس الشيوخ والانظمة الجمهورية بدلاً من اتخاذ اجراءات اكثر تطرفاً . ومن البديهي ان يلقى بومبي في تعاطفه مع النبلاء استجابة ومساعدة ، كان الدافع اليها خوفهم المشترك من قوة قيصر المتزايدة .

وضع قيصر في مخططه أن لا يتخلى عن سلطة الامبريوم خلال خطواته للوصول إلى القنصلية . اذا كان يثق أن اعداءه سوف يلاحقونه قضائياً ويدمرون مستقبله السياسي متى سنحت لهم هذه الفرصة . لذلك عمل قيصر

---

(١) يقضي بعدم اعادة انتخاب القنصل الا بعد مرور عشر سنوات على قنصليته الاولى . راجع ص٢٤٩ .

(٢) راجع دور الامير في عهد اوغست في الجزء الثاني من تاريخ الرومان.

على تدبير أمر الفترة الفاصلة التي تقع بين اول اذار عام ٥٠ وهو موعد انتهاء مدة حكمه الثانية في غاليا و ٢٩ كانون الاول من عام ٤٩ موعد استلامه قنصلية العام ٤٨ التي قبل ترشيحه لها . وبموجب القواعد المتبعة كان باستطاعة قيصر ان يحتفظ **بسلطة الامبريوم وحصانتها** حتى يدخل مدينه روما ، أي حق يحتفل بموكب ظفره . إلا ان بومبي يصدر قانوناً عام ٥٢ تحتم احدى فقراته على المرشحين للقنصلية الحضور شخصياً الى روما اثناء الانتخابات . وبذلك أضاع على قيصر الاستفادة من القانون الذي تقدم به صديقه محامي ذلك العام ، والذي يسمح بموجبه لقيصر ترشيح نفسه وهو غائب عن روما .

ويرد بومبي على احتجاج اصدقاء قيصر على هذه الاجراءات بانها جاءت سهواً بالنسبة لشريكه . وجاءت العقبة الثانية في وجه قيصر عندما اصدر بومبي قانوناً آخر ، زعم ان الدافع اليه رغبته في تحسين الادارة في الامبراطورية الرومانية ، والقضاء على عادة استقراض الموظفين الكبار للأموال الضخمة املا منهم بتسديدها من مكاسبهم خلال حكم المقاطعات . وينص القانون على منع القناصل الذين انتهت مدة قنصليتهم من حكم المقاطعات ، بل يشترط في الحاكم أن يكون حاكماً سابقاً مضى على فترة حكمه الأولى خمس سنوات على الأقل . ومهما كانت نوايا بومبي الحقيقية ، فان القانون يحتم على قيصر الحضور الى روما كأي شخص عادي لترشيح نفسه للقنصلية . وازداد وضع قيصر حراجة ، وهو بعيد عن العاصمة ، عندما مدد حكم بومبي على مقاطعاته الاسبانية خمس سنوات اخرى في اوائل اذار عام ٥٠ . بينما قاربت فترة حكم قيصر على الانتهاء دون ان يستطيع تمديدها . فالصراع الخفي بين القطبين الرئيسيين لم يكن يدور حول النواحي الشرعية بقدر ما كان يدور على السلطة نفسها .

الى هذا المدى كان بومبي يتجنب خلق صدع فاصل في علاقاته مع قيصر . الا ان اعداء قيصر يركزون خطتهم على تجريده من سلطاته ، بان يحرضوا القنصل مارسللوس سيبيو ، عدو قيصر ، على استدعاء الاخير إلى روما اعتباراً من عام ٥١ طالما أن مهمته في بلاد الغال قد انتهت . لكن مارسللوس يفشل في مسعاه لدى مجلس الشيوخ ، مثلما تفشل المفاوضات التي دارت بين بومبي وقيصر للوصول الى تسوية [1] . اخيراً يتقدم المحامي كوريو الذي اشتراه قيصر الى صفه ، باقتراح من وحي قيصر يطلب فيه من الغريمين ان يتنازلا عن مقاطعاتهما وجيوشهما . وبذلك يمكن لقيصر العودة الى روما دون خوف . الا أن بومبي يرفض هذا العرض الذي يجرده من قوته . وفي اول عام ٤٩ يصوت مجلس الشيوخ بضغط من النبلاء الذين انحاز اليهم بومبي الآن علانية ، على ضرورة تنازل قيصر عن مهمته والا اعتبر عدواً للشعب . فينبري المحاميان انطونيوس وكاسيوس لمجابهة المشروع بحق النقض ، مما اثار حنق النبلاء عليهما ودفعهم لطردهما من المجلس . واعلنوا قيصر عدواً للشعب .

لم يبق تطور الاحداث من حل للازمة الناشبة الا استخدام القوة ؛ أي قيام الحرب الاهلية بين الفريقين المتنازعين . وكان المحاميان اصدقاء قيصر قد التجأ اليه في مقره في مقاطعة ايتاليا العليا ، وطلبا منه الحماية بصفتهم ممثلي الشعب المضطهدين .

٤ ـ الحروب الاهلية وبدء الديكتاتورية

تجاه تحدي مجلس الشيوخ لقيصر باعلانه عدواً للشعب ما لم يسرح جيشه ، لم يكن أمام القائد المظفر الا طريق واحد وهو مقابلة التحدي

---

(١) زاد النزاع حدة اضطهاد مارسللوس لاحد موظفي ايتاليا العليا الذين أعطاهم قيصر حقوق المواطنين اللاتين . إذ أمر بجلده تحدياً لقيصر ولم يعترف على حقه بالمواطنة.

باجراء مماثل ينتهي به الصراع السياسي المقنع . فيقوم في ٧ كانون الثاني بعبور نهر **الروبيكون** ، الذي يصب في البحر الادرياتيكي الى الجنوب من مدينة رافينا ويشكل الحد الجنوبي لمقاطعة ايتاليا العليا ، وبذلك يعلن الثورة على روما . ويخترق بعمله قانون سوللا المتعلق بالخيانة ، والعادات التي تحرم على اي قائد روماني الدخول مع قواته الى اراضي ايتاليا الا للاحتفال بظفره . وقد برر قيصر مسير قواته نحو روما بأنه اراد حماية الحصانة التي يتمتع بها محاموا الشعب . وما تلبث بقية قواته ان تنضم اليه بسرعة سائرة ضمن المدن والبلديات الايتالية ، التي تسرع لفتح ابوابها لاستقبال قاهر غاليا . لم يتخل قيصر اثناء زحفه نحو الجنوب ان يكرر على مجلس الشيوخ استعداده للامتثال الى طلبه شريطة أن يقوم بومبي بتنفيذ نفس الشيء ، أي حل قواته ايضاً . وهذا بالطبع لم يكن في مصلحته . أما بومبي فقد رأى ان يغادر ايتاليا بالنظر لقلة قواته ، لإلقاء الحصار البحري على شبه الجزيرة الايتالية بعد ان يجمع المزيد من الفرق العسكرية والموارد من الشرق . فانتقل مع قواته عدد كبير من الشيوخ عبر البحر الادرياتيكي مبحراً من برنديزي . ونزل على الطرف المقابل في اليونان . وبذلك اصبحت مدينة روما مفتوحة أمام جيوش قيصر الذي دخلها ، ووضع يده بالقوة على اموال الخزينة العامة ، رغم اعتراض احد المحامين واستخدامه حق النقض .

لم يحاول قيصر اللحاق بعصبة بومبي الهاربة ، إذ كان يفتقد إلى الاسطول والموارد اللازمة لمثل هذه الحملة . بل انه يرى الاستيلاء على صقيلية وسردينيا وأفريقيا بواسطة أعوانه ليضمن تموين ايتاليا . ويقوم بنفسه باتمام السيطرة على القسم الغربي من البحر المتوسط بمهاجمة اسبانيا الغنية ، وانتزاعها من القوات المؤيدة لبومبي . وبعد أن يلقي الحصار على مدينة ماسيليا ، يتابع الطريق إلى اسبانيا ، فتستلم جيوش بومبي بعد

معركة **ايلودا** وينضم بعض الاسرى إلى قوات قيصر . ثم يتوجه مسرعاً إلى روما بعد أن تستسلم له ماسيليا . وبموجب قانون خاص يتم تعين قيصر ديكتاتوراً ، ثم ينتخب مع زميل له قنصلين لعام ٤٨ ق.م يتنازل بعدها عن سلطته كديكتاتور . ويبادر بالانطلاق إلى برنديزي حيث كانت قواته تستعد للحاق ببومبي المرابط على الطرف الآخر من الادرياتيكي . رغم القوات الكبيرة البرية والبحرية التي جمعها بومبي ، لايستطيع منع قوات قيصر من النزول على البر اليوناني في شتاء عام ٤٩ ، والتي تقضي الشتاء هناك انتظاراً لنشوب المعركة واستعداداً لها. وعندما يرى بومبي أن الوقت أصبح مناسباً ، يغامر بضغط من الشيوخ الذين كانوا يتدخلون في أعماله في خوض المعركة التي دارت رحاها قرب مدينة **فارساللوس** . ويضطر للهرب إلى مصر بعد أن تمزقت أوصال جيوشه . وعندما يحاول بومبي النزول على شاطىء الاسكندرية لاجئاً إلى ملك مصر الشاب بطليموس الثاني عشر « ديونيزوس » ، يرى المتنفذون في البلاط أن يتخلصوا من بومبي كي لايجر عليهم لجوءه نقمة قيصر ؛ اضافة إلى أنهم كانوا ينقمون على بومبي لمساعدته للملك السابق أوليت والد ديونيزوس وكليوباترة . فيكلفوا القائد اخيلاس باغتيال بومبي . وعندما ذهب الوفد لمقابلته في البحر ، طلب الضابط الروماني سبتيميوس من بومبي الانتقال إلى مركبهم . وما أن اقتربوا من الشاطىء حتى طعنه سبتيميوس ، وفصل أعوانه راسه والقوا جثته عارية في الماء . وبهذه النهاية التعيسة تطوى من التاريخ الروماني صفحة قائد عسكري لامع لم يسمح له تردده وضعفه قلب الدستور لتحقيق طموحه ، بل تقلب في عواطفه بين الحزبين المتصارعين . وأخيراً تخلى عن قضية أصدقائه الشعبيين أملاً في تزعم الارستقراطيين ضد قيصر. ومن البديهي أن هؤلاء ماانحازوا اليه إلا لأنهم رأوه أقل خطراً

من قيصر . ويقال عنه « إن الهارب من معركة فارساللوس كان هارباً من جميع الأحزاب الرومانية » .

٤ – أعمال قيصر في الشرق وفي افريقيا واسبانيا ٤٨ – ٤٥

وصل قيصر إلى مصر مقتفياً أثر بومبي ، ولكنه لم يظفر إلا برأس عدوه . وبالنظر لحاجته الماسة إلى الأموال فقد حاول أن يتدخل في الخلاف السلالي الناشب بين كليوباتره الشابه واخيها الحدث بتولمي ديونيزوس الذي تزوجته بموجب وصية والدهما . ولاسباب عديدة انحاز قيصر إلى جانب كليوباتره ، مما اغضب اهل الاسكندرية الذين قاموا في وجه قيصر ، واشعلوا ثورة دامت حوالي ستة أشهر فاستطاعوا محاصرة قيصر وقطع الامدادات عنه إلا عن طريق البحر ، حتى وصلته امدادات من ميثردات ملك برغامون عن طريق سورية ، وكان من نتيجة المعركة التي خاضها الحليفان ، هزيمة المصريين وموت الملك بتولمي أثناء محاولته الهرب . وبذلك خلى الجو لكيلوباتره وأصبحت بمساعدة الرومان ملكة على مصر بعد أن تزوجت من أخيها الاصغر بتولمي الثالث عشر . ثم مالبثت أن تخلصت منه .

قضى قيصر الشتاء مع كليوباترة التي فتنه سحرها ، ويعتقد أن صلته بها خلال الاشهر الثلاثة كانت سبباً في ولادة غلام لكليوباترة أطلقت عليه اسم كايزريون . ويعكر صفو قيصر أنباء ثورة فارناكس ابن ميثرادات اويباتور ، الذي ثار في شبه جزيرة القرم ، وتوغل إلى بلاد البونت وارمينيا حتى وصل إلى كبادوكيا . مما اضطر قيصر إلى التوجه عبر سورية نحو آسيا الصغرى لمحاربته . واستطاع في معركة حاسمة سريعة دارت رحاها عند **زيللا** Zela أن يقطف ثمار النصر . ويذكر عن قيصر وصفه للمعركة بقوله المأثور : « أتيت ، ورأيت ، وانتصرت . Veni Vidi Vici » .

هرب اتباع بومبي وفلول قواتـه بعد معركة فارسالوس الى شمـال افريقيا، وحشدوا قواهم هناك يساعدهم في ذلك الملك جوبا ملك نوميديا . وكان هدفهم الانطلاق منها الى ايتاليا ، بينما كان قيصر يقضي الشتاء في مصر . وفي العام ٤٧ تم تعيين قيصر في روما ديكتاتوراً. يساعده قائد الفرسان انطونيوس الذي عجز خلال غياب قيصر عن السيطرة على الموقف المضطرب هناك ، وعن مواجهة الحالة المالية المرهقة التي كانت خزينة الدولة تعانيها . فعاد قيصر في خريف عام ٤٧ إلى روما لتدبير الأمور . إذ واجهته المتاعب من قبل جنود الفرقة العاشرة الذين ملوا الحرب وأرادوا الحصول على مكافآتهم، وتوطينهم بعد تسريحهم من الخدمـــة . ولكنه تغلب على الأزمة ببديهة حاضرة وشخصية قوية ، واستعاد محبـة وولاء جنوده له ، فانضموا اليـــه لخوض الحرب ضد كاتو وميتللوس وضابطـــه السابق لابينوس ، وبقية الشيوخ المعتصمين الآن في افريقيا [١] . ونزلت قواته في افريقيا في أواخر عام ٤٧ . ولم يستطع قيصر أن يتخلص من تفوق أعدائه عليه الا عندما هب ملك موريتانيا لمساعدته ، ثم وصلته امدادات من ايتاليا مكنته من محاصرة مرفأ **تابسوس** Thapsus عام ٤٦ . فيلاقي الحلفاء عندئذ الهزيمة اثناء محاولتهم فك الحصار . عندها تخضع المقاطعة الافريقية لسلطان قيصر ، ويضطر كاتو الذي كان يقود المقاومة في مدينة اوتيكا إلى الانتحار . ويحـــذو كل من الملك جوبا [٢] والكثير من اعضـاء مجلس الشيوخ حـذوه ، أما الباقون فيفر منهم لابينوس وأولاد بومبي سكستوس وغناوس عبر البحر إلى اسبانيا ، ويأسر قيصر بقية الشيوخ؛ لكنه يسامح من أعلن منهم الخضوع فقط . ويسمـح لهؤلاء بالعودة إلى

(١) على نقيض هؤلاء حصل سيسرو على العفو من قيصر بعد أن رجاه الصفح عنه.

(٢) أضاف قيصر قسما من مملكة نوميديا إلى مقاطعة افريقيـــا بعد انتصاره على الملك جوبا .

روما . وباحتلال افريقيا تدين لقيصر معظم أجزاء الامبراطورية الرومانية . فيعود إلى روما ليحتفل بانتصاراته الكبرى على غاليا ومصر وآسيا الصغرى ونوميديا . ويعرض في موكب ظفره أعلام وشعارات حزب الشيوخ التي ظفر بها في معارك فارساللوس وتابسوس .

أراد قيصر القضاء على آخر جيوب مقاومة للجمهوريين في اسبانيا ، حيث أعلن أولاد بومبي ومن كان معهم العصيان والثورة ، وانضم اليهم الجنود الرومان هناك من جنود بومبي السابقين الذين كانوا قد دخلوا في خدمة قيصر . وقد تزعم المقاومة في اسبانيا كوينتوس كاسيوس أحد مفوضي بومبي السابقين . فغادر قيصر ايتاليا عام ٤٦ . وقضى الشتاء يحاول الالتحام مع العدو في معركة فاصلة ، حتى سنحت له الفرصة في أوائل عام ٤٥ قرب موقع **موندا** . وتم لقيصر بشجاعته الخارقة واستبساله في في خوض المعركة في مقدمة جنوده الانتصار على قوات الجمهوريين البالغة ثلاثة عشر فرقة . فسال الدم غزيراً وسقط كل من لابينوس وفاروس ، ونفذ الاعدام بجناوس بومبي بعد أن سقط أسيراً . أما شقيقه سكستوس فقد نجح في الهرب ، واستمر يقود الثورة بلا كلل ولا ملل مدة طويلة حتى لقي حتفه في عهد اوغست [١] .

٥ ـ ديكتاتورية قيصر واصلاحاته :

باستثناء عصيان البقية الباقية من جماعة بومبي في اسبانيا ، غدا قيصر خلال الفترة الواقعة من تموز عام ٤٦ إلى منتصف آذار عام ٤٥ ديكتاتوراً لاينازعه منازع في حكم العالم الروماني . والآن بعد أن انتهى عهد مجلس الشيوخ المهلهل الحافل بالفوضى والحروب الاهلية ، ترتب على

(١) راجع تاريخ الرومان ، الجزء الثاني ، ص ١٥ - ١٧ .

قيصر أن يعيد تنظيم الدولة ومؤسساتها على الشكل الذي يلائم أمة غدت سيدة عالم البحر المتوسط واوربا الغربية . ونرى قيصر يستفيد من تجربة سلفه الديكتاتور سوالا ، فيعيد النظر في موضوع مجلس الشيوخ . ويحاول وضع برنامج جديد لاجهزة الحكم التي سيتربع الحاكم الفرد على ذروتها .

استند قيصر على القوة العسكرية في الوصول إلى السلطة وفي القضاء على معارضيه . ثم حاول أن يجمع في شخصه السلطات الدستورية الأخرى التي كانت تمارس في العهد الجمهوري ، ففضل منها الديكتاتورية في فترات متعددة ، منحت له آخر مرة لمدة عشر سنوات . ثم يصبح ديكتاتوراً مدى الحياة . إلى جانب ذلك حصل قيصر على منصب القنصل منفرداً أو بمساعدة زميل له . كذلك حصل قيصر على حصانة المحامين ، ولربما شيئاً من سلطتهم العظمى . وكان من السابق يتمتع بمنصب الكاهن الاعظم . ومنذ العام ٤٦ يخول سلطة الاشراف على الاخلاق العامة ، وحق تعيين الحكام في روما وفي المقاطعات ، وحق اعلان الحرب وعقد السلم ، وقيادة القطعات . ويدين الموظفون والحكام له بالطاعة وينفذون رغباته وتعاليمه . بعبارة أخرى غدا مركز قيصر في الدولة الرومانية يشبه مركز ملك شرقي ذي سلطة مطلقة . إلى جانب ذلك هيء الجو الذي ساد روما بعد فارسالوس لقيصر كل مايتمناه ، فقد تبارت البقية الباقية من الشيوخ مع الشعب في خلع القاب الشرف والتمجيد على قيصر . ولقبوه « بابي الوطن » ، ووضعوا تمثاله بين تماثيل ملوك روما ... وتكريماً له سموا أحد أشهر السنة باسمه ، فأصبح يعرف باسم شهر يوليوس (أي تموز) . وشيد معبد أطلق على جماعة الكهان المشرفين على شعائر رحمة قيصر اسمه أيضاً . أخيراً وليس آخراً أطلق على قيصر منذ عام ٤٩ ، وخاصة بعد معركة موندا لقب امبراطور Imperator . والآن يحق لنا أن نتساءل فيما إذا كان قيصر يريد قلب نظام الحكم الجمهوري في روما إلى نظام ملكي وراثي !

فهو يقبل من الشعب أن ينظر اليه وأن يكرمه على مستوى الآلهة ، وهذه هي الخطوة المؤدية إلى حق الحكم الإلهي الذي يتمتع به ملوك الشرق ، وملوك العالم الهلنستي المعاصرين في مصر وسورية . ولا تتضح أفكار قيصر في تفضيله للنظام الملكي مما تقدم فحسب ، بل ومن خلال المناسبات العديدة التي ناداه الشعب فيها بلقب **ملك** Rex . وذلك سواء أثناء « عيد اللاتين » الذي احتفل الشعب به في أوائل عام ٤٤ ، أو في عيد آخر يقام بعد شهر من ذلك التاريخ ، تقدم مارك انطونيوس خلاله من قيصر ليعرض عليه تاج الملك . ولولا عبارات الاستنكار التي صدرت من بعض المتفرجين لما تردد قيصر في قبول التاج والملك .

إذا أردنا التعرض للاصلاحات والاعمال التي قام بها قيصر خلال المدة القصيرة نسبياً التي انقضت بين عودته من معركة تابسوس ، حتى سقوطه صريعاً على أقدام تمثال بومبي في مجلس الشيوخ ، لوجدناها رغم المشاغل الخارجية التي لم تنقطع حتى ظفره في معركة موندا – حافلة بالاعمال الضخمة الوفيرة التي تنم جميعها عن كفاءة رجل دولة والمعية سياسي محنك . فقد انهى قيصر الحروب الأهلية الطويلة التي قاسى الشعب الروماني من ويلاتها . ولولا اغتياله المفاجيء لنعمت شبه الجزيرة الايتالية بالسلام لفترة من الزمن. إلا أن طبيعة الاحداث وتطورها فرضا قيام الحروب من جديد ، فكانت صلة للصراع العنيف الناشب بين نظام جمهوري محتضر ، وحكم ديكتاتوري مستبد . على كل انصرف قيصر منذ عودته إلى اسكان جنوده المسرحين وحل مشكلاتهم – ثم التفت إلى مشاكل الشعب الروماني ، فعالج معضلة مزمنة هي منح الدولة القمح للفقراء من المواطنين . فانزل عدد من يشملهم التوزيع إلى نصف العدد السابق [1] ، فاراح كاهل

(١) بلغ عدد المستفيدين آنذاك ثلاثمائة وعشرين الف مواطن .

خزانة الدولة المثقل بالاعباء ، بأن أمّن اسكان الفقراء في المستعمرات الرومانية . ونذكر أن موضوع منح القمح تحول في السنوات الأخيرة إلى وسيلة لتملق غوغاء مدينة روما واكتساب تأيدهم . فاستفاد منه كثيرون ممن لايستحقونه . وفي هذا الصدد لجأ قيصر إلى حل نقابات العوام وعصاباتهم ماعدا رابطة الحرفيين والصناع التقليدية . وضاعف العقوبة على الجرائم العادية . كما حاول وضع شريعة تضم كافة القوانين ، لم يكتب لها التنفيذ . ولم ينس حل مشكلة المدينين وتخفيف اعبائهم ، ووضع شروط تحمي حقوق الدائنين من الخسائر المالية .

بالنظر لحاجة قيصر الى مساعدين يملأ بهم المراكز الشاغرة في مجلس الشيوخ ، فقد ارتأى زيادة عدد اعضائه من ستمئة إلى تسعمائه عضو ، اختار الكثيرين منهم من ضباطه السابقين ومن انصاره. وبالمثل حاول املاء الفراغ الذي طرأ في صفوف الأسر النبيلة ، برفع بعض الأسر الشعبية إلى مصاف الخواص . أما وظائف الدولة الرئيسية فقد احاطها باهتمامه لكي يوفر الجهاز الاداري اللازم للامبراطورية . فضاعف عدد الحكام القضائيين الى ستة عشر منصباً . وزاد عدد خزان الدولة من عشرين الى اربعين خازناً وذلك مكافأة لانصاره . ثم اسقط قوانين بومبي السابقة المتعلقة بشروط تعيين حكام المقاطعات[1]. وجرى تحديد مدة حكم القناصل السابقين بسنتين ، وبسنة للحكام القضائيين .

شملت اصلاحات قيصر ومشاريعه المرافق العامة في الدولة ، ومنها تجفيف المستنقعات في منطقة اللاتيوم ، واستصلاح الاراضي الزراعية . وبناء سلسلة من الطرق عبر جبال الابنين تصل بين سواحل البحرين التيراني والادرياتيكي ، وتحسين مرفأ أوستيا . الا ان المشاريع الاخيرة تعطلت بموت قيصر .

(١) راجع أعلاه ص٢٩٢ .

ويمكن القول أن برنامج **اصلاحاته الزراعية**، وخطة انشاء المستعمرات، ومشاريع الاسكان، تماثل تلك المشاريع التي بدأت منذ عهد الاخوين جراكوس ، والتي حاول المصلحون المتالون تطبيقها . وقد استحوذت سياسة الاستعمار والاسكان جانباً هاماً من جهود قيصر ، وذلك بدافع من حاجة المجتمع الروماني الاقتصادية والبشرية . بدأت هـذه الخطوات بعمليات اسكان جنوده السابقين في الاراضي المصادرة من اعدائه الذين قتلوا خلال الحروب ، او الذين اصروا على موقفهم العدائي منه . أما الفائض من جنوده فقد أحلّهم في المستعمرات وخاصة في افريقيا . فساهم المواطنون الرومان في زيادة عدد سكان تلك المناطق . وتخلص قيصر بالوقت ذاته من الغوغاء والعوام العاطلين عن العمل الذين كانت مدينة روما تكتظ بهم . وبلغ عدد المستوطنين الجدد حوالي ثمانين الف مواطن استقروا في مستعمراتهم الجديدة في مرافيء البحر الاسود ، وكورينث وقرطاجة . وتميزت حركة الاسكان بسخاء قيصر في منح حقوق المواطنة في المقاطعات ، وحقوق اللاتين لبلاد الغال ، مما ساهم في تحويل هؤلاء إلى مواطنين رومان اغنوا الامبراطورية بالروافد البشرية . ولا ننسى ان نذكر عناية قيصر بالمقاطعات. الرومانية اذ انه قيد فيها جباة الاموال Publicani . وهذا دليل حرصه على مصالح اهلها اكثر من حرصه على مصلحة الفرسان . واعتمد قيصر كثيراً على توسيع **حق المواطنة** اعتباراً من عام ٤٩ ، بأن اقر لسكان مقاطعة ايتاليا العليا حقوقهم المتنازع عليها (١). وقسمت ايتاليا الى مقاطعات بلدية تتألف كل منها من مدينة صغيرة ومنطقة ريفية تابعة لها . وجاء قانونه البلدي Lex Iulia municipalis ليعطي لمدن الغرب شيئاً من الاستقلال الداخلي الذي كانت تتمتع به

(١) راجع اعلاه الصفحات ٢٣٨ - ٢٣٩ ، ملاحظة ١ .

مدن الشرق . ولكي يخفف الاخطار الناتجة عن تزايد عدد الرقيق العاملين في الريف ، فانه يشترط على اصحاب المزارع استخدام ثلث عمالهم ورعاتهم على الأقل من المواطنين الاحرار .

اخيراً وليس آخراً نذكر من اصلاحات قيصر المرموقة التي يسجلها التاريخ عملية إصلاح التقويم . فقد نتج عام ٤٦ عن اهمال تعديل السنه الرومانية القمرية التي تتألف من ٣٥٥ يوماً ، تقدم السنة الرومانية على السنة الشمسية بمدة شهرين . فاضاف الفلكي الاسكندري **سوسيجنس** الى السنة الرومانية ، الايام الناقصة حتى عام ٤٦ . وحقق بذلك الانسجام مع التوقيت الشمسي . وقد طبق التقويم الجديد اعتباراً من أول كانون الثاني عام ٤٥ ق . م [١] . واستمر استعماله حتى عام ١٥٨٢ حينما أمر البابا غريغور الثالث عشر باصلاحه ، لان السنة اليوليانية كانت أطول من السنة الشمسية الحقيقية بأربعة عشر دقيقة .

اغتيال قيصر ١٥ آذار عام ٤٤ ق . م

اتضح لرجال مدينة روما أن قيصر لن يتخلى عن شي من السلطات والصلاحيات التي كتلها في يديه . فقلص حرية مجالس الشيوخ والشعب وقاوم كل محاولة للانتقاص من سلطته أو الطعن بها . لذلك ساد لدى كل الفرقاء الذين تضررت مصالحهم ، والذين اغاظتهم قيود قيصر الشديدة خاصة على مجلس الشيوخ – فاقصتهم عن ممارسة اعمال السياسة والحكم في الدولة وحولتهم إلى موظفين فيها – ساد لدى هؤلاء فكرة التخلص من قيصر . وبالفعل توفرت الارض الخصبة لنمو بذرة التمرد على السلطة الفردية .

---

(١) استند اصلاح التقويم « اليولياني » على معرفة المصريين بان السنة الشمسية تتألف تقريباً من ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً وربع اليوم ، ونظم في دورات تتألف من اربعة سنوات يضاف اليها يوم في السنة الرابعة ويوم في اخر شهر شباط .

لم تختمر فكرة المؤامرة لاغتيال قيصر لدى اعدائه الذين صفح عنهم فحسب، بل انها شملت بعض اصدقائه مثل ماركوس بروتوس[1]. أما الرأس المفكر فكان جايوس كاسيوس احد أنصار بومبي السابقين ، يؤازره ديسيموس بروتوس ، وجايوس تريبونيوس ، ولوسيوس لونجينوس وحوالي ستين عضواً من أعضاء مجلس الشيوخ .

وضع قيصر في مشاريعه القريبة قيادة حملة على اقوام الداسيين في حوض الدانوب ، واخرى ضد المملكة البارثيه لتثبيت حدود الامبراطورية الشرقية ، والانتقام لشرف روما الذي ثلمته هزيمة كراسوس المشينة . وقد تجمعت جيوش الحملة الأولى في بلاد اليونان ، وكان قيصر على وشك مغادرة روما لتسلم قيادة الحملة . إلا أن المتآمرين الذين وضعوا يوم ١٥ آذار موعداً لتنفيذ المؤامرة ، لم يمهلوه ليتابع مشاريعه . وعلى الرغم من التحذير الذي يتلقاه قيصر بوجود مؤامرة تستهدف حياته ، يذهب في اليوم المذكور إلى مجلس الشيوخ ليسوي بعض المواضيع ومن بينها منحه لقب ملك على المقاطعات . فيحيط المتآمرون به بحجة طلب العفو عن شقيق أحدهم ، ويلحون عليه . وعندما يستنكر عملهم يجذب احدهم رداءه ، وكان ذلك علامة الشروع في القتل ، فينهالوا عليه طعناً باسلحتهم . وما يلبث قيصر أن يقاومهم بكل ضراوة ، ولكنه يلقي الرداء على وجهه عندما يرى صديقه بروتوس يشهر سلاحه بين القتلة لطعنه . ويناديه قائلاً : « وانت ايضاً يابروتوس Et tu Bruts »، ثم يستسلم لمصيره، ويسقط قيصر صريعاً على اقدام التمثال الذي نصبه لبومبي في قاعة المجلس ، وقد اخترقت جسمه ثلاثة وعشرون طعنة .

بهذا العمل الدموي الذي جرؤ المتآمرون على تنفيذه في بناء مجلس الشيوخ نفسه ، أزيل الطاغية ؛ وفتحت صفحة جديدة في تاريخ الدولة الرومانية ، لن يكتب للجمهورية فيها أن ترى الحياة من جديد .

---

(١) يقال بانه كان إبنا طبيعياً لقيصر .

مراجع للفصلين السادس والسابع

Momsen, History of Rome, Bk. V, Chs. VII-XI. (Trans. Dickson , 1905) .

F. R. Cowell, Cicero and the Roman Republic, Penguin, 1956 .

L. R. Taylor, Party Politics in the Age of Caesar, Barkeley 1967.

F. Adock, Caesar as a Mann of Letters, Camdridge 1956.

H. J. Haskell, This Was Cicero, New York 1942.

M. Radin, Marcus Brutus, New York 1939.

T. Rice Holmes, Caesar's Conquest of Gaul, Oxford 1911.

W. W. Fowler, Social Life at Rome in The Age of Cicero, New York 1909.

E. G. Hardy, The Catalınarian Conspiracy, 1924.

ثبت المواد

الفصل الثالث

الدولة الرومانية في العهد الجمهوري

الفصل الرابع

توسع روما في البحر الأبيض المتوسط

الفصل الخامس

تدعيم الحكم الروماني وتداعي النظام الجمهوري

كلمة شكر

في ختام هذا الكتاب يتوجه الناشر دار الفكر الحديث ـ لبنـان ، والمؤلف الدكتور هشام الصفدي باعمق الشكر الى عمال الطباعة : الجنود المجهولون في مضمار الحركة الفكرية . فبفضل جهودهم الصامتة وصلت مادة الكتاب بأجمل صورة إلى القارىء .

الطبعة الاولى

عام ١٩٦٧